التفاؤل
والتشاؤم



بقلم

يوسف ميخائيل أسعد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة – القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

إن ما حفزنى على تأليف هذا الكتاب هو افتقار مكتبتنا العربية إلى هذا الموضوع ، وليس من أحد ينكر أهميته . ودليل هذا أن لفظى تفاؤل وتشاؤم يسريان على الألسنة والأقلام بغير توقف وفى مناسبات متعددة .

ولقد كانت مهمتى الأولى فى هذا الكتاب أن أقلب هذين اللفظين على أوجهها الكثيرة . وقد حصرت تلك الأوجه الممكنة فى خمسة أوجه ، فتناولت المعنى النفسى والمعنى الأخلاقى والمعنى الميتافيزيقى والمعنى الوجودى وأخيرا المعنى الفلسفى . وقد جعلنا لكل وجه من هذه الوجوه الخمسة خمسة وجوه فرعية . وبذا فإننا نكون قد تناولنا معنى اللفظين بالنظر إلى خمسة وعشرين وجها .

وبعد أن أحسسنا بالطمأنينة نحو إيضاح معنى التفاؤل والتشاؤم ، فإننا عرضنا لملامح الشخصية المتفائلة ثم لملامح الشخصية المتشائمة . وبعد ذلك عرضنا لموضوعى الوارثة والبيئة وأثر كل منهما فى تشكيل الشخصية على نحو متفائل أو على نحو متشائم . وقمنا بعد هذا بتقديم ثلاثة أنواع من التفسير هى : التفسير بالمقومات البيولوجية ، ثم التفسير بالخبرات السابقة ، وأخيرا التفسير بالعادات والتقاليد الاجتماعية . وعرضنا بعد هذا لملامح كل من الفلسفتين التفاؤلية والتشاؤمية . وانهينا الكتاب بعرض لأخلاقيات التفاؤل والتشاؤم .

أما المنهج الذى استعنا به فى تأليف هذا الكتاب ، فنستطيع تسميته بالمنهج التأملى ، وهو المنهج الذى يقابل المنهج الموضوعى أو الاستنادى – إذا صح التعبير . ونعنى بالمنهج التأملى أن يفكر الكاتب ويكتب بغير أن يعتمد فى تفكيره على مرجع أو مراجع . أما المنهج الآخر المقابل لهذا المنهج ، وهو الذى أسميناه بالمنهج الموضوعى أو الاستنادى ، فإن الكاتب الذى يأخذ نفسه به ويعتمد عليه ، يكون ملزما بادىء ذى بدء بأن يجمع ما يستطيع جمعه من معلومات من المصادر المتباينة ، سواء كانت

مصادر ورقية أو مصادر واقعية اجتماعية أو معملية . وبتعبير آخر فإن الكاتب الذى ينهج وفق المنهج الأول يقدم الى القراء جِماع خبراته وأحاسيسه وعصارة تأملاته الشخصية . ولكأنه يخرج واقعه العقلى الداخلى إلى السطح ويسطره على الورق . والواقع أن موقف الكاتب هنا يكون شبيها جدا بموقف الأديب أو الفنان . ولكن الفرق بينه من جهة وبين الأديب والفنان من جهة أخرى هو أن المفكر هنا يقدم عصارة خبراته العقلية ، بينما يقدم الأديب والفنان عصارة خبراتهما الوجدانية . أما الكاتب الموضوعى الاستنادى فإنه يجعل الواقع الخارجى – المتمثل فى الأشياء الخارجية ذاتها أو فيما ارتآه الآخرون وكتبوه عنها – نبراسا له مع عدم الاحجام عن إصدار أحكامه الشخصية فيما قام بجمعه من معلومات أو فيما وقف عليه من وقائع .

وفى رأينا أن كلا المنهجين يكمل الواحد منهما الآخر . وبالنظر إلى الكتب التى يقفو فيها أصحابها المنهج الموضوعى ، فإننا نجد أنها الغالبة من حيث الكم إذا ما قيس عددها فى ضوء ما يتحرى فيه المؤلفون المنهج التأملى فيما يضعونه من كتب . ولعلك تسمع من وقت لآخر همسات القراء وهم يطالبون المؤلفين بالتحرر ولو فى بعض ما يقومون بتأليفه من فكر غيرهم ، بل ومن الواقع الخارجى وأن يكتبوا بغير استناد إلا إلى ما ترسب فى عقولهم من خبرات وما أنسوا إليه من أفكار وما اقتنعوا به من آراء .

ونحن نؤمن بثلاثة خطوط أو مسالك ينبغى على الكاتب أن يتدرع بها جميعا فى إنتاجه الفكرى : الخط أو المسلك الأول هو الترجمة ، والثانى هو البحث الموضوعى أو الاستنادى ، والثالث هو الكتابة التأملية . والحقيق به أن يمر بدءا بالخط الأول ومرورا بالخط الثانى وانتهاء إلى الخط الثالث . بيد أن هذا لا يحول دون الاستمرار فى التذرع بالخطوط الثلاثة جميعا طوال حياته الانتاجية ، وهذا ما نأخذ به وندأب عليه .

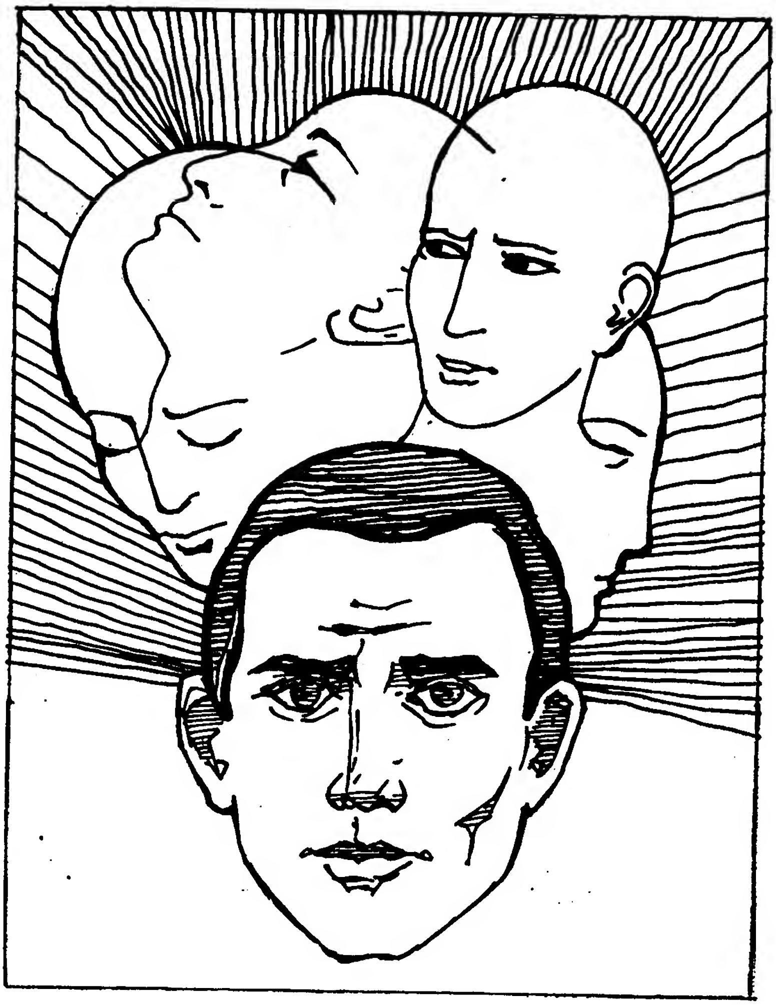
وخليق بنا أن ننوه إلى الصياغة أو الشكل الذى التزمنا به أو بالأحرى الذى ألزمنا به قلمنا فيما نقوم بكتابته . فلقد آمنا منذ البداية – أى منذ أن بدأنا عملنا فى مضمار الكتابة – أن ثمة تفاعلا مستمرا بين الفكر والكلام . فالفكر الجيد يرتفع بمستوى الكلام الذى يصاغ به ذلك الفكر ، والعكس أيضا صحيح . فالكلام الجيد يعمل

على تخصيب الفكر . ولسنا نعترف بكتابة يزعم صاحبها أنها تعبر عن فكر عميق بينما هى فى نفس الوقت كتابة ركيكة من الناحية اللغوية والبنية اللفظية . وفى نفس الوقت فإننا لا نكن احتراما لمن يطنطن بألفاظ جوفاء لا تحمل مضمونا عقليا مكينا وعميقا .

على أننا لا نزعم لأنفسنا امتلاك ناصية الفكر أو امتلاك زمام اللغة ، ولكن الذى نزعمه لأنفسنا هو الدأب على احترام القارىء وذلك بأن نقدم إليه ما نؤمن بقيمته بغير تكرار وبغير غثاثة ، وأيضا الدأب على تحرى الدقة فى التعبير ، وذلك بمراجعة أنفسنا ، بل قل بمراقبة قلمنا فيما يدونه ، والتثبت من صحة ما كتبه بالفعل قبل نشره وقد استعنا للتمكن من ذلك بتراثنا العربى الرائع نستوعبه ونعكف على النهل منه ، وأيضا بالرجوع إلى المعاجم اللغوية العربية تحريا للصحيح من الكلام وتجنبا لما يشوبه الخطأ .

وحبذا لو لقى هذا الكتاب اهتماما من الكتاب السيكلوجيين والأدباء ومن جانب القراء والمهتمين بالاطلاع على الجديد بالمكتبة العربية . وما أرجوه هو أن ينضاف هذا العمل إلى كتبنا السابقة التى ربت على الخمسين كتاباً وأن يصدر من يرغب فى اصدار الحكم على فكرنا على الكل وليس الجزء ، وذلك لأن الكاتب لا يستطيع أن يقدم جماع فكره ، أو أن يعبر عن الخطوط العقلية الرئيسية فى فلسفته فى كتاب واحد فقط . واذا تسنى لنا تقديم كتب أخرى فى المستقبل ، فنطلب أن يصدر الحكم على فكرنا فى ضوئها جميعا وليس فى ضوء جانب منها دون باقى الجوانب . فالحكم الصحيح والعادل هو الحكم الذى يأخذ فى اعتباره الجماع الفكرى للمؤلف بغير أن يَجْتَزِئ ببعض ما قام بتأليفه .

يوسف ميخائيل أسعد



الفصل الاول

المعنى النفسى للتفاؤل والتشاؤم

الفصل الاول

المعنى النفسى للتفاؤل والتشاؤم

التفاؤل والتشاؤم فى ضوء أنماط الشخصية :

اعتمد علم نفس الأنماط على افتراض مؤداه أن جميع الناس ينقسمون إلى فئات لا يخرجون عنها وأن هناك فى نفس الوقت تداخلا بين الأنماط بحيث يمكن أن يجمع الشخص الواحد بين طياته خصائص فئتين متباينتين أو أكثر من فئتين متباينتين . ولقد ينظر إلى تلك الفئات أو الأنماط باعتبار أنها موروثة تماما بحيث لا يكون على البيئة سوى تغذية أو دعم النمط الذى ينخرط المرء تحت لوائه . كما قد ينظر إليها البعض باعتبار أنها مجرد استعدادات يمكن أن تخرج إلى حيز الواقع كما قد يمكن أن تظل خبيئة بالشخصية وهى فى حالة من الكمون والضمور .

ونحن نأخذ فى الواقع بهذا الرأى الأخير . فنعتقد أن كونك تندرج فى إطار نمط ما من أنماط الشخصية ، فإن هذا لا يعنى أنك بالضرورة ملتزم بمماشاة الخصائص التى يتصف بها ذلك النمط الذى تنتمى إليه . بل أنك قد تظهر من السلوك الخارجى البادى للعيان ما يتباين إلى حد بعيد أو الى حد قريب عن خصائص سلوك النمط الذى تقع فى إطاره . لقد يكون النمط الذى تقع فى إطاره متسما بالتفاؤل ، بينما تكون الخبرات التى مرت بك وأثرت فيك مما يجعلك شخصية متشائمة والعكس أيضا صحيح . فلقد يكون النمط الذى تنتمى إليه مما يتصف بالتشاؤم . بينما تحملك الخبرات التى تؤثر فيك على أن تكون شخصية متفائلة .

ولقد يعترض علينا معترض بأن هذا معناه أن المؤثرات البيئية يمكن اذن أن تخلق شيئا من عدم بغير أن يكون له رصيد موروث بمقومات الشخصية . ومعلوم أن المؤثرات البيئية لا تفعل أكثر من إخراج ما هو كامن بطيات الشخصية إلى الواقع الخارجى المتبدى فى السلوك الظاهرى أو المعتمل بالسلوك الداخلى كالتفكير

والعاطفة . ونحن لا نخرج عن هذا الاطار ولا نقول بسواه . فنزعم أن البيئة تخلق شيئا من عدم ، وإنما نقتصر على القول بأن المؤثرات البيئية يمكن أن تعمل عملية قلب للواقع الموجود . فالتفاؤل هو عملية قلب للتشاؤم ، كما أن التشاؤم هو عملية قلب للتفاؤل . فليس التفاؤل والتشاؤم سوى موقفين نفسيين من الواقع الخارجي . إنهما ليسا شيئين بل هما نشاطان أو هما عمليتان نفسيتان . فثمة فرق جوهرى بين العقل مثلا كوجود كيانى وبين التفاؤل أو التشاؤم كنشاطين أو كعمليتين للجهاز النفسى للمرء . فالتشاؤم والتفاؤل كالقيام والقعود بالنسبة لما يمكن أن يتخذه المرء من وضع بازاء المقعد . فإذا أنت لم تجلس على المقعد بل ظللت منتصبا على ساقيك فأنت اذن واقف ، ولكن اذا جلست على قاعدة المقعد فأنت اذن قاعد . فكما أن الكيان البيولوجي الخاص بك وهو حسمك يكون فى حالة اختيار بين الوقوف والجلوس . كذا كيانك النفسى يكون فى حالة اختيار بين لتفاؤل والتشاؤم وثمة من جهة أخرى الواقع الخارجي ، وهو الكرسى فى حالة الاختيار بين الوقوف والجلوس ، والواقع الخارجي الذى تتخذ منه موقفا من موقفين نفسيين هما التفاؤل والتشاؤم .

والواقع أن علماء نفس الأنماط قد ذهبوا فى تقسيماتهم إلى الأخذ بزوايا متباينة . فمنهم من أخذوا بالزاوية الجسمية سواء من حيث الشكل الخارجي للجسم أم من حيث بنيته . ومنهم من اعتمد على ما يتوافر من مواد معينة بالجسم . ونذكر بهذه المناسبة ما قال به أبقراط وجالينوس عن الأنماط الأربعة وهى الدموى والبلغمى والصفرواى والسوداوى ، وهى أنماط تعتمد على مدى توافر الدم والبلغم والصفراء ذات اللونين الأصفر والأسود بالدم . والواقع أن القول بالأمزجة قديما يجد له صدى فى لغة الطب الحديثة ولكن فى ضوء الهورمونات التى تفرزها الغدد الصم . ومن علماء النفس من أخذوا ينظرون إلى الأنماط من زاوية أخرى هى زاوية السلوك الاجتماعى . فيقسمون الناس إلى فئات متباينة . لا فى ضوء ما يحملونه بين أضلعهم من عناصر ومواد ، بل فى ضوء ما ينتحون إليه من سلوك وما يظهرونه من ميول وما يقبلون عليه من موضوعات وما يتحاشونه منها .

ومهما تباين علماء النفس فى تقسيماتهم ، فإنهم يتفقون جميعاً حول شيء واحد ، هو أن كل فرد يمكن أن ينتمى إلى فئة معينة من الفئات التى يقترحونها . فكل منهم يزعم أن الفئات التى يقترحها تجمع جميع الناس بغير استثناء . ونستطيع أن نزعم أيضا أن جميع التقسيمات لم تغمض أعينها عن التفاؤل والتشاؤم ولم تسقطها من اعتبارها . فبالنسبة لمن يلقون مسئولية التقسيم إلى أنماط على كاهل المواد الكيميائية بالجسم كالعناصر الأربعة عند أبقراط وجالينوس ، أو الهورمونات عند العلماء المعاصرين ، فإنهم يذهبون إلى أن زيادة مقوِّم ما من تلك المقومات الكيميائية يكون مسئولا إلى حد بعيد عن موقف المرء من الناس والأحداث والأشياء . فالصفراوى مثلا متشائم ، والدموى متفائل ، ومن تنشط لديه الغدة الدرقية فيزيد إفرازها من هورمون الثيروكسين أكثر من اللازم ، فإنه يكون متشائماً ، بينما نجد أن من يخفت نشاط غدته الدرقية ، يكون متفائلا .

وهناك فى الواقع أكثر من زاوية واحدة يجب أن نأخذها فى الاعتبار لدى تقسيم الناس إلى متفائلين ومتشائمين : ثمة أولا – الزواية البيولوجية ، وهى تتضمن المقومات الموروثة ، ثم ما تتعرض له تلك المقومات الوراثية من مؤثرات . وتبدأ المؤثرات البيئية فى التأثير فى المقومات الموروثة منذ اللحظة الأولى التى يتكون فيها الجنين فيما يسمى بالبيئة الحشوية . وبعد ميلاد الطفل وحتى مماته بعد عمر يقصر أو يطول تظل المؤثرات البيئية فى التأثير فى القوام الذى بلغه المرء . ثانيا – الزاوية الاجتماعية التربوية . فالبيئة الاجتماعية تغلف الفرد بالواقع البيئى الاجتماعى من جهة ، وبالقيم والتقاليد والمواقف والاتجاهات من جهة أخرى . فإذا كان المجتمع شديد التفاؤل ، فإن أفراده يتأثرون به فى تفاؤله ، وإذا كان شديد التشاؤم فإن أفراده ينشأون فى الغالب على التشاؤم . ثالثا – ما يلم بالفرد من أحداث مفاجئة . فمن يربح شهادة يانصيب تقوَّم بمبلغ كبير ربما يستحيل متفائلا بعد ذلك . وعلى نقيض ذلك فإن من يصادف فى حياته سلسلة من المصائب المتتالية ، فإنه فى الغالب يستحيل إلى شخصية متشائمة . رابعا – الثقافة التى يتلقاها الفرد والمفاهيم التى يقتنع بها أو ما يوحى به إليه من أفكار يتشبع بها ويتشربها وتأخذ بناصيته . فإذا كانت أفكاراً وثقافة ومفاهيم متفائلة فإنه يصير متفائلا . وعلى نقيض ذلك فإذا كانت ثقافته

وأفكاره ومفاهيمه متشائمة ، فإنه يضحى متشائما . خامسا – الحالة الاقتصادية التى تصادف المرء فى حياته وبخاصة ما كان متعلقا بالمفاجآت الاقتصادية . فالغنى الذى يضحى فقيرا بين ليلة وضحاها لسبب أو آخر يأخذ به التشاؤم كل مأخذ . وعلى عكس هذا فمن تستقر حاله اقتصاديا أو يزدهر ويزداد ثراء ولا يحس بحاجة إلى أحد ، فإنه يكون شخصية متفائلة . ولعلنانصنف - إذا أردنا تقسيم الناس إلى أنماط نفسية إلا نغفل تلك الاعتبارات والزوايا المتباينة . ويجب ألا ننظر إلى الناحية النفسية وهى بعيدة عن العوامل والمؤثرات التى استحدثتها . فالناحية الاقتصادية مثلا ليس لها علاقة مباشرة بالناحية النفسية أو بالتفاؤل والتشاؤم ، ولكن مما لاشك فيه أن لها صلة غير مباشرة – وهى صلة وثيقة – بتلك الناحية النفسية . ومن ثم فإن التقسيم إلى فئات لا يجب أن يعزف عن تلك الزوايا التى تستحدث الحالات والمواقف النفسية .

على أننا فى جميع الحالات يجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن تلك الظروف الخارجية لا تخلق شيئا من عدم ، وإنما هى عوامل مساعدة لاستحداث حالات نفسية معينة . بيد أننا نستطيع أن نجد بعض العوامل أكثر تأثيرا من غيرها ، وذلك كما هو الحال بالنسبة للمقومات البيولوجية فى تأثيرها فى الحالة المزاجية واستحداث التفاؤل أو التشاؤم فى الشخصية .

مسئولية العقل :

سبق أن ألمعنا إلى ما للمفاهيم والأفكار التى يتلقاها المرء منذ طفولته من تأثير ذى بال فيما يمكن أن يتلبس به من تفاؤل ومن تشاؤم . ذلك أن تلك الأفكار والمفاهيم تعتبر فى الواقع بمثابة المفاتيح أو المثيرات التى تدفع بالمرء إلى اتخاذ موقف أو آخر قبالة الوجود ، بل وقبالة الوجود الداخلى والأحداث والتوقعات التى ينتظرها فى حياته الراهنة والمقبلة .

ولسنا نخطىء اذا قلنا إن الحياة العقلية لدى أى إنسان تسير على مستويين : مستوى يمارس كعادات ذهنية ، ومستوى آخر يمارس كشق لمناح جديدة لم يسبق أن تمرس بها المرء أو اعتادها . ولسنا نشك أن التفكير كعادة ذهنية يحتل مكانة كبيرة

جدا فى حياة الإنسان ، بل وأكثر من هذا فإننا نعتقد أن التفكير المستحدث أو الجديد فى حياة أى أنسان ، إنما هو فى الواقع تكملة لبناء قد تم إنشاؤه وليس بناء جديدا كل الجدة ، أو بناء مستحدثا تمام الاستحداث . فأنت عندما تفكر فى أية مسألة أو فى أى موقف جديد ، فإنك تبدأ بالاستعانة أولا وقبل كل شىء بما سبق لك أن تلبست به من عادات ، وبما سبق لك أن تدربت عليه من طرائق ذهنية تفكر بواسطتها فى المواقف الجديدة . ولكأن التفكير الجديد لديك هو استمرار للتفكير السابق القديم . فأنت لا تفكر اذن بُدَاءة ومن غير رصيد سابق من الحصيلة الذهنية ، حتى ولو زعمت أنك تفكر بنهج جديد كل الجدة . ومعنى هذا أن القديم من العادات الذهنية هام أهمية الجديد الذى تبذله وتقدمه وتسهم به فى المجال الذهنى .

وهناك فى الواقع موقفان ذهنيان أساسيان يتذرع بهما المرء فى حياته الذهنية : الموقف الأول – هو الموقف الذى يبدأ فيه المرء بالجيد ثم ينتهى بالردىء ، أو بالصحيح وينتهى إلى الخاطىء ، أو بالمناسب ثم بغير المناسب . وهناك من جهة أخرى موقف ثان يتلبس به بعض الناس هو البدء بالردىء والانتهاء إلى الجيد ، وبالخطأ والانتهاء إلى الصواب ، وبغير المناسب ثم بالمناسب . فالشخص من الفئة الأولى من الناس الذين يأخذون بالموقف الأول ويتذرعون به هم أولئك الذين اذا عرضت عليهم شيئا أو فكرة أو مشروعا ، فإنهم يبدأون باستبانة الجوانب الايجابية الجيدة فيما تعرضه عليهم ، ثم يعمدون فى نهاية المطاف إلى إبراز جوانب القصور أو الخطأ . أما أصحاب الموقف الثانى ، فإنهم عندما يصدرون أحكامهم على الأشياء والمواقف والأفكار والمشروعات ، فإنهم يستبينون أولا الجوانب غير المواتية أو الرديئة ، ثم ينتهون فى آخر المطاف إلى استبانة الجوانب الجيدة .

وأكثر من هذا فإنك قد تجد أصحاب الموقف الأول لا يكادون يميلون إلى استبانة الجوانب الرديئة أو غير المواتية فيما يصدرون عليه أحكامهم من أمور ، كما أنك قد تجد أفراد الفريق الثانى لا يكادون يرغبون فى التعرض للجوانب الجيدة من الأشياء التى يصدرون أحكامهم بازائها . وحتى إذا عمد أفراد كل فريق إلى التعرض

للجوانب التى لا يرغبون فى التعرض لها . فإنهم يمرون بها مرور الكرام وهم لا يكادون يرغبون مسها أو الاستفاضة فيها أو ذكر تفاصيلها .

ولسنا فى حاجة فى الواقع إلى أن نقرر أن أفراد الفريق الأول يشكلون فئة المتفائلين ، بينما يشكل أفراد الفريق الثانى فئة المتشائمين . والمتفائلون قد ركب ذهنهم وتمرسوا بعادات عقلية من شأنها أن تجعلهم لا يؤكدون إلا على الجوانب الإيجابية فيما يعن لهم من أمور ، وفيما يصدرون عليه من أحكام . إنهم يميلون إلى الاسهاب فى ذكر الجوانب الجيدة فيما يحكمون به من أحكام ، بينما هم يوجزون فى ذكر الجوانب الرديئة أو غير المواتية . أما أفراد فئة المتشائمين ، فإنهم على العكس من ذلك يميلون إلى الاستفاضة فى ذكر الجوانب الرديئة بينما هم يوجزون فى ذكر الجوانب الرديئة فيما يعرضون له بالحكم وتقديم الرأى .

ولا ينطبق هذا بإزاء ما يصدره المتفائلون والمتشائمون من أحكام على الناس والأشياء والمواقف فحسب ، بل إنه ينسحب كذلك – وبالدرجة الأولى – على ما يتوقعه أفراد كل فريق من نتائج يمكن أن تترتب على أحداث أو مواقف أو ظروف معينة . فالمتفائل عندما تلم به أو بأحد من ذويه أزمة مالية ، فإنه يتوقع الفرجة والرخاء وتحسن الحالة المالية أكثر من توقعه ازدياد الأزمة سوءا . وإذا ما مرض المتفائل أو أحد ذويه ، فإنه يترقب الشفاء أكثر من ترقبه للتدهور الصحى أو الوفاة . وعلى نقيض هذا فإن المتشائم يترقب الشر أكثر من ترقبه للخير ، ويتوقع التدهور والانتكاس وازدياد المشكلات سوءا بإزاء ما يحدث له أو لغيره من الناس .

ولقد يرغب البعض فى أن يؤولوا المواقف التى يتخذها كل واحد من المتفائلين والمتشائمين فى ضوء ما يعتمل لديه نحو الآخرين أو نحو نفسه من مشاعر وأمنيات . بيد أن هذا لا يصح بازاء جميع الحالات . فثمة حالات يجب تفسيرها فى ضوء ما يعتمل لدى المرء من مشاعر وما يساور نفسه من آمال أو ما يداعب خياله من حالات تعبز عن النجاح أو الفشل بالنسبة للآخرين أو بالنسبة لنفسه . ولكن ثمة حالات أخرى يجب استبعاد الجانب العاطفى لدى تفسيرها ، والاعتماد أولا وقبل كل شىء على عادات التفكير ، وما يسيطر على الفكر من أنماط ذهنية معينة . وبتعبير

آخر فإننا نستطيع أن نقسم المتفائلين والمتشائمين جميعا إلى فئتين أساسيتين : فئة تذهب فى تفاؤلها وتشاؤمها مذهبا عقلانيا ، وفئة أخرى تذهب فى تفاؤلها أو تشاؤمها مذهبا وجدانيا . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما قد ينجو إليه فيلسوف ما من الفلاسفة من أمثال شوبنهور من مذهب عقلانى فى تشاؤمه بغير أن نزعم أن الركيزة الأساسية لديه فى فلسفته التشاؤمية هى ركيزة وجدانية كما هو الحال بالنسبة لواحد مثل أبى العلاء المعرى .

ولعلنا لا نخطىء اذا قررنا أن التربية الأولى التى يتلقاها الطفل منذ بواكير حياته تؤثر تأثيرا بالغا فى موقفه العقلى . واذا جاز لنا أن نقسم الجوانب التربوية إلى جوانب متباينة والقول بأن الناحية العقلية والاهتمام بها لدى الطفل تشكل جانبا مستقلا أو — قل جانبا هاما — فى تكوين شخصية المرء ، فإننا نستطيع القول فى نفس الوقت إنه كلما تقدم المرء فى معارج العمر ، فإن شخصيته العقلية تكون قد ازدادت تبلوراً ، ومن ثم يكون من الصعوبة أكثر فأكثر العمل على تغيير ملامح الاتجاهات لديه . فالتأثير فى طفل الثالثة أيسر من التأثير فى طفل العاشرة . كذلك فإن عملية تشريب الاتجاهات العقلية تتباين من طفل لآخر . ويخطىء من يعتقد أن الأطفال جميعا متساوون من حيث القابلية للتأثر بالمؤثرات التربوية التى يحاطون بها . وهذا يؤكد أهمية الاستعدادات الوراثية التى يفطر عليها المرء . بيد أننا نذكّر بأن ما يجبل عليه المرء لا يعدو أن يكون استعدادات ولا يكون أشياء متبلورة كاملة الملامح والتقاطيع . فثمة شخص يكون لديه استعداد لأن يكون متفائلا ، كما أن شخصا آخر يكون لديه استعداد لأن يكون متشائما . ولكن التأثير التربوى يمكن أن يحدث عملية القلب التى ذكرناها آنفا . فيحيل من لديه استعداد لأن يكون متفائلا شخصا متشائما ، كما يحيل الشخص المتشائم متفائلا .

ولقد يكون الظاهر من السلوك العقلى والكلام الذى ينطق به المرء عكس ما يعتمل بداخله بالفعل . فلقد يغالى أحد الناس بالتصريح للآخرين بأنه متشائم بتجاه كيت وكيت من الأمور ، بينما يكون فى حقيقته متفائلا ، وعلى العكس لقد يكون الشخص متشائما بينما يعلن لمن حوله بأنه متفائل أشد التفاؤل . ولذا فإن النقاد

والمحللين يستطيعون بالدراسة والتحليل الوقوف على حقيقة المرء العقلية وعلى مجرى تفكيره وما يتصف به ذلك التفكير من اتجاهات لا تتكشف بسهولة إلا بالنقد الدقيق والتحليل المستأنى .

ويجب أن نميز فى تقديرنا للتفاؤل والتشاؤم لدى الأشخاص المتباينين بين النظرة الواقعية وبين النظرة المتفائلة أو المتشائمة . فالمهندس المعمارى الذى يقرر أن أحد المنازل قابل للسقوط ويكون فى حكمه معتمدا على قواعد واعتبارات علمية واقعية لا يمكن اعتباره متشائما . وكذا لا يمكن اعتبار رجل الاقتصاد الذى يقول لك إن أحد المشروعات الاقتصادية التى تعرضها عليه مشروع ناجح ويكون حكمه مبنياً على اعتبارات معينة يقررها علم الاقتصاد ، شخصية متفائلة . فثمة شرط أساسى للحكم على المرء بالتفاؤل أو التشاؤم من الناحية العقلية هو الاعتماد على التفكير الشخصى والتقدير الذاتى دون الاعتماد على الواقع الموضوعى .

مسئولية الوجدان :

بعد أن عرضنا لمسئولية العقل عما قد يعتمل فى قلوب الناس من تفاؤل أو تشاؤم ، يجدر بنا أن نعرض بعد هذا لمسئولية العاطفة عن ذلك . فنلاحظ أولا أن الفصل بين العقل والعاطفة إنما هو فصل مفتعل ليس له أساس من الواقع الموضوعى ، وان كنا نجد مع هذا أن التفسير للحالات المتباينة ينبنى على أساس الصبغة العامة السائدة بالشخصية . فعندما نقرر أن فيلسوفا تشاؤميا مثل شوبنهور يعتمد فى تشاؤميته على العقل ، وأن شاعرا مثل أبى العلاء يعتمد فى تشاؤميته على العاطفة ، فلا يكون معنى هذا أن شوبنهور قد تجرد عن العواطف ، أو أن أبى العلاء قد تجرد من العناصر العقلية فى مذهبه التشاؤمى ، بل معنى هذا أن كفة العقل عند شوبنهور هى الغالبة ، وأن كفة العاطفة هى الراجحة عند أبى العلاء .

ولقد سبق لنا أن دأبنا فى كتابات أخرى على اعتبار العاطفة – أيا كانت – بمثابة تبلور للوجدان حول موضوع ما من الموضوعات ، إما بطريقة إيجابية فينشأ الحب ، وإما بطريقة سلبية فينشأ الكره . وعلى هذا المنوال نستطيع أن نقرر أن الشخصية المتفائلة تكون قد نجحت فى بلورة وجداناتها ايجابيا حول الموضوعات المتباينة ، سواء

كانت موضوعات داخلية خاصة بها ، أم كانت موضوعات خارجية خاصة بالعالم الخارجي المحيط بها . أما الشخصية المتشائمة فإنها على العكس من ذلك تكون قد بلورت وجداناتها سلبيا حول الموضوعات الداخلية والخارجية على السواء . ولعلنا نستطيع أن نقرر بغير مبالغة أن ثمة عادات وجدانية كما أن ثمة عادات عقلية وعادات حركية وعادات لغوية وعادات اجتماعية . ومن شأن العادات الوجدانية أن تحمل المرء على اتباع طريقة رتيبة فى بلورة وجدانه . فإذا كنت ممن اعتادوا بلورة وجداناتهم بطريقة إيجابية ، فإنك تكون اذن من المتفائلين ، وعلى العكس من ذلك فإذا كنت ممن اعتادوا بلورة وجداناتهم بطريقة سلبية ، فإنك تكون إذن من المتشائمين .

ولعلنا نتساءل عما اذا كان التفاؤل والتشاؤم مطلقين أم نسبيين ، بمعنى أو بتعبير آخر : هل المتفائل يتفاءل بازاء كل شيء ؟ وهل المتشائم يتشاءم بإزاء كل شيء ؟ للإجابة عن هذين التساؤلين يجب أن نجيب أولا عن سؤال آخر تعتمد عليه الاجابة عن هذين التساؤلين . والسؤال هو : هل يكتسب الإنسان عاداته على أساس محور نفسى داخلى معين ، أم على أساس الموضوعات الخارجية المتباينة ؟ إننا إذا زعمنا أن الانسان يكتسب عاداته على أساس من محور داخلى نفسى ، فيكون معنى هذا أن ذلك المحور يتحكم فى جميع الموضوعات الخارجية بغير استثناء . أما إذا كانت الإجابة بأن العادة تتكون بإزاء الموضوعات الخارجية على تباينها وكثرتها ، فإن هذا يعنى إذن أن العادات تكون نسبية وتتباين من حيث تكونها أو عدم تكونها . بل ومن حيث شدتها أو ضعفها من موضوع لآخر .

ونحن نميل فى الواقع الى الأخذ بالاجابة الثانية القائلة إن العادات لا تتكون فى ضوء وجود محور داخلى نفسى ثابت يفرض نفسه على جميع الموضوعات الخارجية ، بل على أساس الموضوعات الخارجية المتباينة والمتكثرة ذاتها . ومعنى هذا فى الواقع أن الشخص الواحد يمكن أن يكتسب عادة بلورة وجداناته إيجابيا حول بعض الموضوعات الخارجية فيكون متفائلا بإزائها . بينما هو فى نفس الوقت يعمد إلى اكتساب عادة بلورة وجداناته سلبيا بإزاء بعض الموضوعات الأخرى فيكون متشائما

بإزائها . ومعنى هذا بتعبير آخر أن التفاؤل والتشاؤم متداخلان أشد التداخل ، وليس من سبيل إلى الفصل بينهما فى حياة المرء .

ولكن مع هذا فإن من الممكن الحكم على شخص ما بأنه متفائل وعلى شخص آخر بأنه متشائم وذلك فى ضوء الصبغة العامة لحياته من جهة . وفى ضوء البادى من سلوكه الاجتماعى من جهة أخرى . وعلى الرغم من أن مثل هذه الأحكام التى تصدر على ظاهرية السلوك هى أحكام تقريبية ، فإنها تعتبر مؤشرات موضوعية على جانب من الأهمية فى الحكم على الواحد من الناس .

بيد أن الحكم المكين يجب مع هذا أن ينصب على ما يعتمل من وجدانات وعواطف بدخيلة المرء . فإذا كان الناس يلجأون إلى الخارج للحكم على غيرهم فى ضوئه . فإن هذا يحدث لسبب بسيط هو سهولة الوقوف على الخارج وصعوبة الوقوف على الداخل . ولكن الناس جميعا يؤكدون أن الحكم القاطع والحاسم إنما يتم فى ضوء الدخائل وما يعتمل بالقلوب من عواطف تتصل بالمرء نفسه أو بالموضوعات الخارجية التى يتصل بها ويقيم علاقات من نوع أو آخر بإزائها .

ولعل هذا هو ما حدا بعلماء النفس إلى البحث فى أغوار الشخصية علهم يصيبون حكما سديدا وقد أخذوا يقيمون وزنا لمكتشفاتهم الباطنية أرجح مما يقيمونه من وزن للبادى من السلوك فى واقع الحياة الخارجية . ويعرف هذا الفريق من علماء النفس بعلماء نفس الأعماق . وعلى رأس هؤلاء جميعا سجموند فرويد الذى قال بالتحليل النفسى وسيلة للوقوف على حقيقة الحالة النفسية التى يحياها المرء ، سواء كانت صحة نفسية أم مرضا نفسيا . ولقد أخذ علماء النفس هؤلاء فى التأكيد على ما يسمى بالتناقض الوجدانى . وهو ذلك التفاوت الشديد بين ما قد يحس به المرء وهو فى حالة الشعور ، وبين ما يعتمل فى قلبه من عواطف وهو فى حالة اللاشعور . فأنت فى حالة الشعور والوعى الكامل بمسئولية ما تقوله وتقرره قد تعلن حبك الشديد لزوجتك وثقتك فيها وتفاؤلك بإزاء حياتك معها فى المستقبل ، ولكن فرويد أو أحد أتباعه يؤكدون لك وقد استطاعوا أن يسبروا غور لاشعورك أنك متشائم بإزاء مستقبلك مع زوجتك . ذلك أن ما تعلنه على الملأ وأنت كامل الشعور مناقض

تماما لما تفصح عنه بغير وعى وأنت فى حالة اللاشعور . وعلماء نفس الأعماق يرجحون صدق ما تقوله وأنت فى حجرة التحليل النفسى عما تعلنه على الملأ وأنت فى حالة من الوعى التام ومدركا لمسئولية ما تعلنه .

وبتعبير آخر فإن علماء نفس الأعماق يؤكدون أن ما يقوله الناس أو ما يتصرفون به فى علاقاتهم الاجتماعية غير موثوق به ، بل إنه محفوف بكثير من الريب . وذلك لأنه قد يعبر عن عكس ما يعتمل بالقلب من مشاعر وأحاسيس . وعلى هذا فإن الحكم بالتفاؤل أو بالتشاؤم فى ضوء السلوك الظاهرى وفى ضوء العلاقات الاجتماعية اليومية ، إنما هو حكم سطحى مشوب بكثير من الخطأ والخطل . والحكم الصادق لا يمكن أن يتم إلا فى ضوء معرفة الواقع الداخلى المخبوء فى طيات اللاشعور .

ويقرر فرويد وأتباعه أن التفاؤل هو القاعدة العامة للحياة وأن التشاؤم لا يقع فى حياة المرء إلا إذا تكوَّن لديه ما يعرف بالعقدة النفسية . والعقدة النفسية هى ارتباط وجدانى سلبى شديد التعقد والتماسك بإزاء موضوع ما من الموضوعات الخارجية أو الداخلية . فيمكن أن تحدث لديك عقدة نفسية بإزاء العمليات الحسابية مثلاً . فتجد نفسك غير قادر على حل أية عملية حسابية مهما كانت سهلة . ولا يكون عجزك نابعا عن ضعف فى الذكاء أو عن عجز عن القيام بإقامة علاقات منطقية بين المقومات الحسابية الموجودة فى العملية الحسابية التى تجابهك . وإنما يكون سبب عجزك الحقيقى مردودا إلى العقدة النفسية التى تجعلك كارها لبذل أى جهد لحل المسألة الحسابية أيا كانت يطلب منك القيام بحلها . ونستطيع أن نحكم اذن عليك بأنك صرت متشائما بإزاء العمليات الحسابية جميعا . وطبيعى أن يكون الأصل لديك هو عدم كراهية الحساب لولا إصابتك بتلك العقدة النفسية .

وينسحب هذا بإزاء جميع الموضوعات الداخلية المتعلقة بقدراتك الشخصية ومهاراتك الذاتية وما يتصل بشكلك أو إمكانياتك . وايضا بإزاء الموضوعات الخارجية المتباينة والعلاقات الاجتماعية الكثيرة . فأنت متفائل دائما إذا لم يقع فى حياتك حادث يجعل نشوء العقد النفسية لديك أمرا ممكنا فتصير شخصية متشائمة . ومعنى هذا أنك قد تكون متفائلا جدا بإزاء أحد الموضوعات أو المواقف فتقع حادثة

غير مواتية لك تجعلك متشائما جدا من نفس ذلك الموضوع أو الموقف . وهذا يحدث لبعض هواة قيادة السيارات . فبعد أن يصابوا فى إحدى الحوادث يستحيل حبهم للقيادة إلى كراهية لها . ويستحيل تفاؤلهم بإزائها إلى تشاؤم شديد لا يسهل التخفيف من حدته . وكما سبق أن قلنا فإننا نجد ما يسمى بالقلب يعمل عمله فى حياة الناس . وكما أن التفاؤل يمكن أن ينقلب إلى تشاؤم . كذا يمكن أن ينقلب التشاؤم إلى تفاؤل إذا ما تسنى التخلص من العقدة النفسية التى أحدثته .

مسئولية الإرادة :

بعد أن عرضنا لمسئولية كل من العقل والعاطفة فيما يتعلق بالتفاؤل والتشاؤم . فإن علينا بعد هذا أن نلقى ببعض الضوء على مسئولية الإرادة فى هذا الصدد . ذلك أن السلوك فى جميع أنحائه وألوانه المتباينة يشتمل على أضلع ثلاثة رئيسية هى العقل من جهة . والعاطفة من جهة ثانية . والإرادة من جهة ثالثة . وإذا صح لنا أن نتناول كل ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة بالدراسة على حدة . فإن ذلك يكون للدراسة والتأمل فحسب . ولا يكون بمثابة اعتراف من جانبنا بإمكان فصل أحد هذه الأضلاع الثلاثة عن الضلعين الباقيين . فموقفنا هنا كموقف من يتأمل أحد أسطح الهرم . إن تأمله ذاك لا يعنى من جانبه إمكان فصل واحد من أوجهه عن باقى الأوجه الأخرى . بل معناه زيادة النظر أو تركيز الذهن بصفة مؤقتة على جانب ما من جوانب الهرم . فالنظرة التكاملية إلى السلوك ينبغى أن تكون هى الهدف المنشود . وألا تحول التجزئة المنهجية دون التوصل إلى النظرة التكاملية الشاملة إلى السلوك ككل متماسك غير قابل للتجزئة العملية والانقسام الفعلى .

ونحن نستطيع القول بأنه من زاوية الإرادة فإننا نستطيع أن نفسر التفاؤل والتشاؤم فى ضوء مبدأى الإقبال والإدبار . فمن المعلوم أن جميع التصرفات التى يمكن تخيلهاتنقسم إلى قسمين أساسيين : أحدهما الاقبال نحو الموضوعات المتباينة . والقسم الثانى تحاشى الموضوعات والهروب منها والبعد عنها . ولعلنا لا نخطىء إذا زعمنا أن كل إقبال هو فى نفس الوقت تفاؤل . وكل إدبار هو فى نفس الوقت

تشاؤم . والتفاؤل والتشاؤم هنا لا يقتصران على قطاعى الإدراك والعاطفة وحدهما بل يترجمان إلى أداء سلوكى معين .

ولعل هناك من يتساءل : هل فى إقبالى على تناول الطعام تفاؤل ؟ وهل فى نفورى من أخذ الحقنة المؤلمة تشاؤم ؟ الواقع أن هذا صحيح بشرط أن نتناول التفاؤل والتشاؤم بالمعنى العام وهو أوسع من المعنى الذى دأب الناس على استخدام اللفظين بإزائه . فثمة فى موقفى تجاه كل من الطعام والحقنة ثلاثة أضلاع هى : أولا – الإدراك المتعلق بالموضوع المرغوب أو المستكره ثم احساسى وجدانيا بالحب أو الكراهية ، ثم اتخاذى موقفا معينا إما أن يتصف بالإقبال وإما أن يتصف بالإدبار . وثمة اعتبار رابع يجب أن نضعه فى حسابنا هو التنبؤ . فلدى مشاهدتى للطعام فإنى أتنبأ باللذة التى سأحصل عليها وبحالة الشبع التى سوف تذهب بحالة الجوع التى أستشعرها . وبالنسبة للحقنة فإنى بمجرد مشاهدتى لها فإنى أتنبأ بالألم أحس به فى المكان الذى ستصيبنى الشكة به من جسمى .

وليس ثمة فارق جوهرى بين تنبؤى باللذة أجتنيها من تناول الطعام . وبين ما أتنبأ به لنفسى من خير يصيبنى عندما أتفاءل بمشاهدتى ليمامة تبنى عشها على سطح بيتى . وكذا لا يوجد فارق جوهرى بين تنبؤى بالألم يصيبنى نتيجة شكة الحقنة . وبين تنبؤى بالشر يقع على نتيجة مشاهدتى لبومة فوق دارى تنعق . فكل من التفاؤل بالخير أو التشاؤم بالطِيَرَة (بكسر الطاء وفتح الياء والراء) إنما هو تنبؤ . ولا نكاد نجد فرقاً فى حالتى التنبؤ إلا من حيث الركائز التى يعتمد عليها التنبؤ فى الحالتين : حالة الطعام والحقنة من جهة ، وحالة التفاؤل باليمامة والطيرة بالبومة من جهة أخرى . فنقول إن الركائز فى الحالة الأولى هى ركائز علمية . بينما هى فى الحالة الثانية ركائز غيبية اعتقادية . وحتى بالنسبة للفرق بين هاتين النوعيتين من الركائز . فإن ثمة تداخلا فيما بينهما ، بل إن الركائز العلمية جميعا قد نشأت فى أحضان الركائز الغيبية المتعلقة بالسحر والدين على السواء . أضف إلى هذا أن كل ما هو ذاتى كاللذة والألم لا يمكن إخضاعه إخضاعا تاما للتفكير العلمى ، بل يظل ملتبسا بالوهم والخيال ويظل بعيدا عن مجال التوقعات العلمية الموضوعية التى يشترط فيها أن تكون خلوا من الجوانب

الذاتية . ومعنى هذا أن توقعى للذة نتيجة مشاهدتى للطعام وأنا جائع . واقبالى عليه هو تفاؤل . بينما يعتبر توقعى للألم من شكة الحقنة تشاؤما .

ولقد يعتقد البعض أن التفاؤل والطيرة يقعان أولا ثم يأتى بعد ذلك السلوك بالاقبال فى حالة التفاؤل ، وبالإدبار فى حالة التشاؤم . وبتعبيرآخر إنهم يفصلون بين الإدراك والإحساس الوجدانى من جهة . وبين التصرف من جهة أخرى . ونحن نرفض الفصل فى السلوك بين الأضلاع الثلاثة التى يتشكل منها السلوك والتى لا يجوز أن نفصل ضلعا منها عن باقى الأضلاع . فمن يعمد إلى مثل هذا الفصل . إنما يكون قد جانب الاتجاه التكاملى فى تفسير السلوك وتناوله . ونحن نتشبث بالتكامل كل التشبث ولا نرضى عنه بديلا ، ولا نؤمن بالتجزئة والتقطيع وبتر أحد الأضلاع عن الضلعين الآخرين ، لأن السلوك كالمثلث . فالمثلث لا يظل قائماً بذاته إذا هو فقد أحد أضلاعه الثلاثة أو إذا تفسخت أضلاعة بعضها عن بعض . أو إذا ما استغنى عن ضلع من الأضلاع الثلاثة واكتفى بضلعين فحسب .

وأكثر من هذا فإننا نستطيع القول بأن التصرف الذى يأتيه المرء فى موقف ما من المواقف لا يعدو أن يكون تحصيل حاصل لما يرتسم فى الذهن وينطبع فى الوجدان من شكل للسلوك . فأنت تلتهم الطعام قبل أن يصل إلى فمك . وأنت تتألم من الحقنة قبل أن تولج من جلدك . فالسلوك الذهنى الوجدانى يسبق السلوك التصرفى . ولعلنا نصوغ هذا الكلام بلغة أرسطو فنقول إن الأكل فى الحالة الأولى وأن شك الجلد بالحقنة فى الحالة الثانية قائم فى الحالتين أو فى المرحلتين : مرحلة العقل والوجدان من جهة ومرحلة الاداء أو التصرف من جهة أخرى . ففى الحالة أو المرحلة الأولى نقول إن الأكل والألم موجودان بالقوة . كما أنهما موجودان فى الحالة أو فى المرحلة الثانية بالفعل . فالإقبال والإدبار إقبالان وإدباران فى الواقع . فثمة أولا – الإقبال والإدبار الذهنيان الوجدانيان ، وثمة من جهة أخرى الإقبال والإدبار بالتصرف الفعلى فى الواقع الحى . ومعنى هذا بتعبير آخر أن التفاؤل والتشاؤم يسيران على مستويين أو فى مرحلتين : مرحلة عقلية وجدانية . ومرحلة أخرى أدائية تصرفية . وأكثر من هذا فإننا نستطيع القول بأن السلوك فى مرحلته الداخلية والسلوك فى مرحلته الخارجية الواقعية

يتسم بالتطابق ، بل إنه يتسم بالإنِّية . إنه كالواحد من الناس فى مرحلتيه الأساسيتين : المرحلة الجنينية التى يظل خلالها المرء فى بطن الأم ، ثم المرحلة الاجتماعية التى يخرج فيها من بطن الأم إلى الواقع الاجتماعى . ومن المعلوم أن الانسان هوهو يحمل جميع المقومات التى لا يدخل عليها سوى التفتيق والنمو . فهو فى بطن الأم كالبذرة التى تحمل جميع مقومات الشجرة بالقوة . ثم تستحيل إلى شجرة اذا ما توافرت لها الظروف والامكانيات والرعاية والعناية . فكما أن الجنين والبذرة يحملان مقومات وجودهما التالى كإنسان وكشجرة . كذا فإن الإقبال والإدبار النفسيين بالعقل والوجدان هما وجود بالقوة يتبعها وجود بالفعل بالسلوك المتسم بالاقبال الفعلى أو بالإدبار الفعلى .

والواقع أنك وأنت بإزاء أى تصرف أو بإزاء أى موقف أدائى . إنما تجهز طاقة حيوية بقدر معين وبشدة معينة سواء كنت واقفا على ذلك ومدركا له . أم كنت عامدا إلى ذلك بغير وعى من جانبك وبغير ادراك لمقومات الموقف . فأبسط العمليات وأعقدها لا يمكن أن تتم إلا بعد أن تكون قد جهزت لها تلك الطاقة الحيوية . ولقد توجه طاقتك الحيوية التى تجهزها للإقبال . كما أنك قد تنفقها فى الإدبار . وبتعبير آخر فإن الطاقة الحيوية المجهزة قد تستخدم للنشاط الإيجابى . كما قد تنفق في وجهة سلبية أو فى نشاط سلبى . وهذه الطاقة الحيوية يتم تجهيزها بمجرد إدراك الموضوع المرغوب أو الموضوع المستكره . فلدى مشاهدتك لليمامة واستبشارك بها وتفاؤلك بمرآها ، فإنك تجهز طاقة إيجابية قد توجهها لعمل ما أو لمنشط ما من مناشط حياتك اليومية . وعلى العكس من ذلك فلدى مشاهدتك للبومة . فإنك تسارع إلى اعداد طاقة سلبية تستخدمها فى تحاشى القيام بما كنت مقبلا عليه من أعمال ومناشط .

ولكأن موضوع التفاؤل باليمامة وموضوع الطيرة بالبومة بمثابة رمز لانتهاج سلوك معين ، أو لاعداد طاقة عصبية من نوع معين ، قد تكون طاقة إيجابية للاقبال ، أو قد تكون طاقة سلبية للإدبار . بيد أن التفاؤل والتطير لا يكمنان فى الرمز – اليمامة أو البومة – بل يكمنان فى الخلفية الاعتقادية التى سبق لك أن أحرزتها وحصلت عليها

بالتربية من المجتمع الذى نشأت فيه . فوجود الرمز من جهة وتوافر البطانة الاعتقادية من جهة أخرى يشكلان الشرط الأساسى لحدوث التفاؤل أوالطيرة . ومن ثم لتجهيز الطاقة العصبية المناسبة .

الجانب الروحانى من الشخصية :

يؤرخ لعلم النفس الحديث بالسنة التى أنشأ فيها فندت (عام ١٨٧٩) أول معمل لعلم النفس . وواضح من لفظ معمل اخضاع الانسان للتجريب شأنه فى ذلك شأن أية مادة من المواد الفزيائية . أو أى كائن حى آخر . ولقد أخذ علماء النفس يتأثرون بمادية القرن التاسع عشر من جهة . وبنظرية التطور التى تبلورت إلى أقصى حد ممكن على يد شارلس دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) من جهة أخرى . والمادية تعنى أن لا لوجود إلا للمحسوسات وأنه لا وجود لما يسمى بالروحانيات . فما لا يخضع للحواس بطريق أو بآخر فإنه يعتبر خرافة من الخرافة ووهما من الأوهام . أما التأثر فى علم النفس بنظرية التطور فمعناه أن ما يصح بإزاء الحيوانات يصح فى نفس الوقت على الانسان وقد سقط الجدار الذى كان يفصل بين المملكة الحيوانية بأسرها وبين الانسان .

بيد أن الأسس التى يقوم عليها علم النفس الحديث - وهى التى تعتمد أكثر ما تعتمد على المادية والتطور - قد أخذت تتزلزل وتتداعى أمام المباحث الجديدة التى تتعلق بالروحانيات . وإنك لتجد بعض كتب علم النفس الحديثة جدا تفرد فصولا لما يسمى بالباراسيكلوجى . أعنى علم نفس الخوارق . أو علم الظواهر الروحانية . وحتى أولئك الذين يتشبثون بالتجريب فى علم النفس قد استطاعوا أن يبرهنوا على وجود بعض الظواهر الروحانية كالتخاطر والرؤية الروحية وقراءة الأفكار والتلبس بالجن وغير ذلك من حالات روحانية . وبينما كنت تجد أن جميع ما يشاهده بعض الناس من أشباح يفسر بأنه هلوسة لا تحمل رصيدا من الواقع الخارجى الموضوعى . فإنك تجد اليوم أن بعض علماء النفس قد أخذوا يفصلون فيما بين الهلوسات وبين الظواهر الروحانية وظهور بعض الأرواح لبعض الناس .

ومن أهم الملامح التى يتسم بها الأخذ بالروحانيات التنبؤ بالمستقبل . فلقد ظل الاعتقاد السائد يقول إن بمقدور الانسان أن يقف على بعدين زمانيين فقط . هما الماضى والحاضر . أما البعد الثالث المتعلق بالمستقبل فلا سبيل إلى سبر أغواره والوقوف على ما يحمله فى طياته . ولكن لوحظ بما لا يدع مجالا للشك أن بعض الناس يتمتعون بالقدرة على الوقوف على هذا البعد الأخير . أعنى المستقبل . فيتنبأون بما سوف يقع لهم ولغيرهم من أفراد .

وتلعب الرمزية دورا كبيرا فى التنبؤ بالمستقبل . وقد يشاهد المرء تلك الرموز خلال نومه فى أحلامه . أو قد يشاهدها فى وقائع معينة ترمز لوقائع أخرى . أو قد يراها فى أشياء كالطيور والحيوانات . وما يشاهده المرء — سواء فى منامه أو فى يقظته — يشكل له سببا لحدوث حالة من حالتين نفسيتين : إما الاستبشار بما شاهده . وإما التوجس خيفة منه . وفى الحالة الأولى يتجه الشخص إلى التفاؤل . بينما ينتحى فى الحالة الثانية إلى التشاؤم . فالذى يشاهد فى حلمه طفلة تقدم اليه بيضة طائر . فإنه لدى استيقاظه يستبشر بذلك الحلم ويتوقع حصوله على رزق وفير . أما من يحلم أنه يسقط من علٍ إلى الأرض . فإنه سوف يرسب فى الامتحان إذا كان طالبا . أو فى الانتخابات إذا كان مرشحا . أو تصيبه كارثة فى أعماله التجارية اذا كان تاجرا . ومن تلدغه حية فى الحلم سوف يكتشف خيانه محبوبته وذلك بتفضيلها لرجل آخر عليه . وهكذا دواليك بالنسبة للأحلام .

وبالنسبة للأحداث التى تقع للمرء فإنها تشير أيضا بطريقة رمزية إلى ما سوف يصيبه المرء فى حياته العملية فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد . لقد يرمز كسر أحد المرايا إلى وقوع كارثة وشيكة . ولقد يشير انسكاب القهوة على الملابس إلى أن دما كان ليهرق فى حادثة بيد أن القهوة قد حلت محله وخاصة اذا استبشر بسكبها من تسكب عليه . وبعض الناس يستبشرون بلقاء بعض الأشخاص فى الطريق . بينما يتشاءم آخرون لدى لقائهم لأشخاص معينين .

ولسنا نزعم أن جميع حالات التفاؤل والتشاؤم تحمل رصيدا من الرؤية المستقبلية . وإنما نزعم فقط أن لدى بعض الناس — وليس لدى جميع الناس —

قدرة معينة على الوقوف على ما يحمله المستقبل لهم ولغيرهم من أحداث . وكأنهم يقرأون تلك الأحداث فى لوح مكتوب ، وقد سجلت به جميع تلك الأحداث بتفصيلاتها . وهكذا نجد أن لبعض حالات التفاؤل والتشاؤم خلفية غيبية روحانية .

والواقع أن ظاهرة التنبؤ التى يتمتع بها بعض الناس فى حياتهم اليومية ومشاهدتهم لما سوف يقع بعينه أو بما يرمز إليه ، قد جعل الدارسين للطبيعة البشرية يراجعون حساباتهم ويأخذون فى مدارسة التراث الثقافى القديم للإنسانية وما يشتمل عليه من معتقدات وتفسيرات خاصة بطبيعة الإنسان . فثمة من قال إن الكائنات المحسوسة لا تعدو أن تكون ظلا لعالم آخر روحانى هو عالم المثل . ولقد تزعم أفلاطون هذا الرأى . والقائلون بهذا يجعلون أرواحا لكل الأشياء : الإنسان والحيوان بل والجماد . أما التراث الدينى فإنه ينكر على الحيوانات تمتعها بوجود أرواح بأجسادها . أو اذا كان لها أرواح فإنها أرواح زائلة سرعان ما تتلاشى بموت الحيوان أو أنها تركيبات ميكانيكية فحسب كما اعتقد فى ذلك ديكارت . وثمة من يعتقدون أن الانسان يعيش عدة مرات فى أجساد متباينة . وهذا ما يعرف بالتناسخ . وثمة من يعتقدون أن الإنسان – أى إنسان – يشاهد وقائع الزمان فى أبعاده الثلاثة : أعنى الماضى والحاضر والمستقبل . وأن لكل بعد زمانى ذاكرة يتمتع بها المرء . فثمة من الناس من لديهم ذاكرة قوية تتعلق بالماضى وربما ذاكرة ضعيفة تتعلق بالأحداث الراهنة أو القريبة . وثمة بعض الناس – وهم قلة نادرة – لديهم ذاكرة قوية تتعلق بما يقفون عليه فى المستقبل ، أعنى بإزاء البعد الزمانى المستقبلى . فجميعنا يشاهد أحداث المستقبل ، ولكن قلة قليلة منا تظل متذكرة لما وقفت عليه ولما قيض لها مشاهدته بالعيان أو بالرمز .

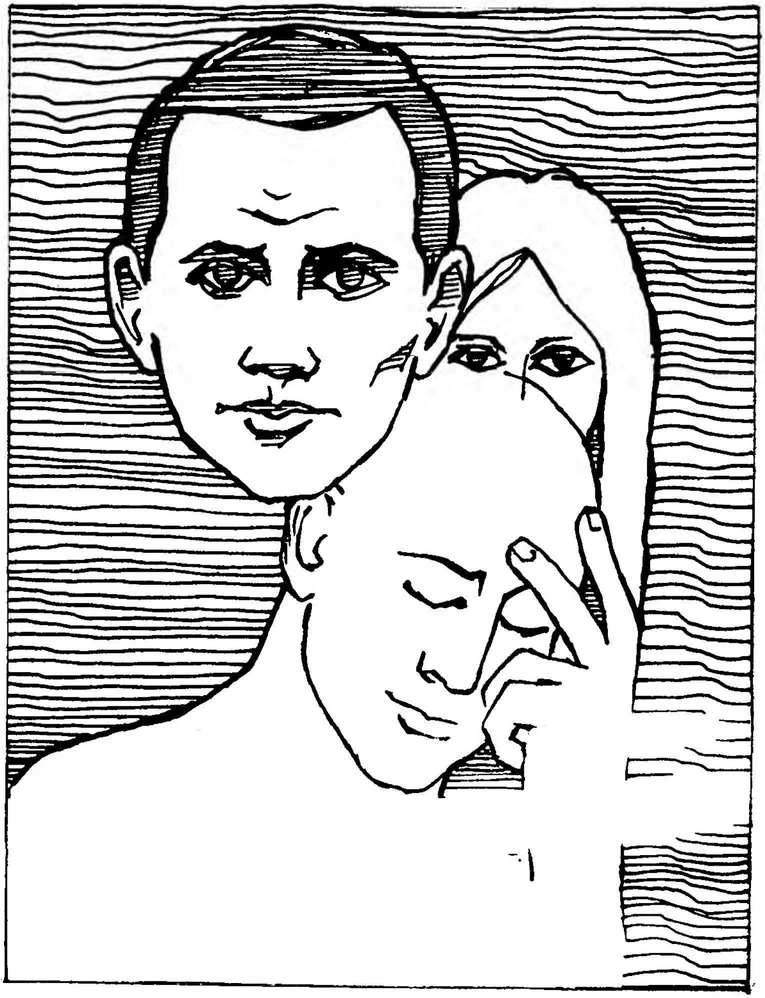
وشاهد ذلك أن بعض الناس يعتقدون أنه قد سبق لهم أن شاهدوا الوقائع التى تمر بهم فى حاضرهم . فما يقوله لهم أحد الناس ، والوقفة التى يقفها والأحداث التى تقع ، إنما يتذكرونها آنيا وهى تقع ، وكأن كل موقف يذكرهم بأنهم يعرفونه مسبقا . وهذا ما يعرف بظاهرة الرؤية السابقة deja vue . ولقد عمد أصحاب علم النفس العلمى الواقعى ، أو قل علم النفس المادى التطورى (المتأثر بنظرية التطور) إلى

تفسير ظاهرة الرؤية السابقة بأنها اضطراب عقلى بسبب خلل معين وقع بالمخ . وهذا التفسير غير مقنع فى الواقع لأن ظاهرة الرؤية السابقة لا تقع لضعاف العقل أو المشكوك فى قواهم العقلية ، بل تقع للأصحاء نفسياً .

ومن الممكن تفسير ظاهرة الرؤية السابقة بأنها القدرة على مشاهدة الضلع الثالث من الزمان وهو المستقبل . ولكن المرء يكون قد نسى ما سبق له أن شاهده بسبب ذاكرته المستقبلية الضعيفة ، أعنى الذاكرة المسئولة عن الاحتفاظ بما يشاهده المرء خاصا بالمستقبل وبالأحداث المقبلة . وحالما يشاهد الشخص سياق الأحداث ، فإنه يسترجع ما سبق أن شاهده ثم نسيه ويعمد إلى الربط بين الأحداث ، لدرجة أن بعض أصحاب هذه الرؤى يؤكدون أنهم صاروا لدى مشاهدتهم لأول حلقة فى سلسلة الأحداث التى سبق لهم رؤيتها يكملون باقى السلسلة ويقولون لأنفسهم ، سوف يحدث كيت وكيت بعد هذا مما تقع عليه أبصارهم ، ولا تخالف تنبؤاتهم عما يقع بالفعل أمامهم . فكأن هؤلاء الناس بإزاء أحد الأفلام السينمائية التى سبق لهم مشاهدتها منذ مدة طويلة وقد نسوا تسلسل الأحداث أو كادوا . ولكن ما أن يشاهدوا أحد المشاهد حتى يتذكروا المشهد التالى بل ويتذكرونه جيدا .

ومن الطبيعى أن يرتبط هذا بالتفاؤل والتشاؤم . فالشخص الرائى للأحداث الراهنة التى سبق له أن شاهدها مستقبليا ، يكون على وعى لاشعورى أو تحت الشعورى بما سوف يقع ، فيتفاءل اذا كانت الأحداث سعيدة ، ويتشاءم اذا كانت الأحداث وخيمة . ولعلنا نزعم بحق أن البعض منا يحس بالضيق والتشاؤم لأمور لا يستبينها سوف تقع . وما أن تمر ساعة أو يوم أو أسبوع حتى يتحقق إحساسه وتقع كارثة . والعكس كذلك صحيح بالنسبة للمشاعر المستبشرة التى قد يحسها المرء فى غموض . وما أن تمر ساعة أو يوم أو أسبوع أو شهر حتى يتحقق إحساسه بالتفاؤل . ولعلنا نفسر ذلك بالرؤية السابقة وبالوقوف على المستقبل بالمشاهدة الروحانية . ولكن الذاكرة لا تحتفظ بكل ما شاهده المرء ، بل تنساه ، ولا يبقى سوى البطانة الوجدانية التى غلفت تلك الرؤية الروحانية المستقبلية . وهكذا نجد أن المرء وقد أخذ

يدرك المستقبل بما يتضمنه من خير وشر بطريقة قبلية . فإنه يتجاوب وجدانيا بالاستبشار فى حالة الأحداث الجميلة الخيرة ، وبالتوجس خيفة فى حالة الأحداث القبيحة التى تحمل الشر . ومعنى هذا أن للتفاؤل والتشاؤم أسساً روحانية لا يصح الإغضاء عنها أوالتقليل من أهمية الدور الذى تلعبه .



الفصل الثانى

المعنى الأخلاقى للتفاؤل والتشاؤم

الفصل الثانى

المعنى الأخلاقى للتفاؤل والتشاؤم

الإحساس بالطمأنينة والسعادة :

بعد أن تناولنا المعنى النفسى للتفاؤل والتشاؤم ، فإننا سوف نعمد فى هذا الفصل الى تناول زاوية ثانية ننظر منها إلى ما يحمله كل من التفاؤل والتشاؤم من مضمون ومعنى . هذه الزاوية الثانية هى زاوية الأخلاق . والواقع أن الجدير بالمرء الذى يعرض للأخلاق أن يحدد المفهوم الذى يقصده من استخدامه لهذا اللفظ . ولعلك لا تجد مثل هذه الصعوبة إزاء تعرضك للعلوم غير الإنسانية . فمن يعرض لعلم الكيمياء مثلا ، لا يكون عليه أن يقدم تعريفا لهذا العلم . ولكن العلوم الإنسانية تختلف من حيث طريقة استخدامها على الألسنة والأقلام . فتجد بالنسبة لعلم الأخلاق ثمة من يستخدمونه باعتبار أنه القواعد التى تحدد الخير والشر . فهو فى نظرهم شبيه بالقانون الجنائى الذى تحدد مواده أنواع المخالفات الجنائية والعقوبات التى تستوجبها كل جناية . بيد أن القانون الأخلاقى فى نظر هذا الفريق من الناس لا يتضمن عقوبات وضعية بقدر تعرضه لعقوبات اجتماعية عامة وعقوبات سماوية بعد الموت أو للإنتقام الآلهى يقع على الإنسان وهو بعد على هذه البسيطة .

وثمة فريق آخر من الناس يستخدمون الأخلاق بمعنى أكثر عمومية . فهم لا يقصرونه على نطاق الضوابط السلوكية التى تتحدد فى ضوئها القواعد السلوكية فى الحياة العملية ، بل يعتبرون الأخلاق كعلم ، أو كمبحث معرفى يتناول الأنماط السلوكية المتباينة بالمجتمعات المختلفة بقصد التوصل إلى قوانين علمية تحدد ما يقع بالفعل لا ما يجب أن يقع . وبهذا فان علم الأخلاق قد خرج من نطاق ما يجب أن يكون إلى ما هو كائن بالفعل وفق قوانين علمية سببية . خذ مثالا لذلك البحث فى

العلاقات الجنسية بعد الحروب ، أو أثر الحضارة والمدنية فى التكافل الاجتماعى بين أبناء المدينة الواحدة . أو القرية الواحدة .

وبهذا المعنى الأخير نتناول التفاؤل والتشاؤم فى علاقتها بالأخلاق التى تسود أحد المجتمعات . فنجد أن المجتمع الذى يوفر لأبنائه الطمأنينة والسعادة يكفل لهم أيضا فى الغالب قدرا كبيرا من التفاؤل ، كما تقل نسبة التشاؤم بينهم . بيد أنه يجب علينا أن نحدد الظروف والأوضاع التى توفر الطمأنينة والسعادة بالمجتمع . فلنتناول أولا الجانب الاقتصادى . فنجد أن هناك ما يمكن أن نسميه بالتزلزل الاقتصادى . ونعنى به التطورات المفاجئة التى تهدد الكيان الاقتصادى للمرء ، أو لمجموعة من الأفراد . خذ مثالا لذلك تقلبات السوق بالنسبة للتجار ، أو حركات التأميم بالنسبة لمن تقوم نظم حكم جديدة مناهضة لهم أو للملكيات الكبيرة فتستوى عليها ، أو بالنسبة للعمال اذا كان صاحب العمل فى قدرته أن يفصلهم من العمل . ومعنى هذا أن الطمأنينة والسعادة قد لا تتوافران حتى للأغنياء ، بل هما تتوافران إذا كان النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى مستقراً بالمجتمع .

ومن جهة أخرى فثمة مدى التزام الشعب بالقوانين والتزام كل فرد بالحدود المكفولة له وعدم تعريض حياة أو ممتلكات الآخرين للخطر .ولقد لوحظ أن المدنية لا تتواكب مع السلام الاجتماعى كما قد يظن البعض . ولعلك تجد حالة وسطا هى الحالة المثلى بين البداوة من جهة وبين المدنية من جهة أخرى . ذلك أن المجتمع فى حالة البداوة يكون مهددا بطغيان بعض الأفراد ومحاولتهم إخضاع الجميع لإمرتهم . كما تظهر به العصبيات التى تتعارك بعضها مع بعض وتعتدى بعضها على بعضها الآخر ، ولا يكون للقانون الذى يتحكم فى سلوك الناس ملامح محددة واضحة . بل يكون القانون هو ما يرتئيه المسكون بمقاليد السلطة وأصحاب السطوة فى القبيلة . وفى الطرف المقابل تجد أن الحياة فى ظل المدنية تتسم بالأنانية والفردية . فتجد أن اللامبالاة بين الأفراد من جهة ، والمتربصين بالآمنين من الناس من جهة ثانية ، والمجموعات الخارجة على القانون الذين تجمعهم مصلحة مشتركة مؤقتة من جهة ثالثة تعمل جميعا على زلزلة الطمأنينة وملاشاة السعادة من قلوب الناس.

وثمة أيضا عامل ثالث مؤثر فى مدى إحساس الناس بالطمأنينة والسعادة هو ذلك المعيار أو المحك الذى يقاس الفرد من الناس فى ضوئه . فى المجتمع الذى يقاس فيه الناس بما فى جيوبهم من نقود أو بما لهم فى البنوك من أرصدة ، إنما يتهدد أفراده بعدم الطمأنينة وبنقص فى السعادة . ذلك أن القيمة الاقتصادية إنما هى مضافة إلى الناس إضافة ولا تتصل بكيانهم الذاتى . ولعلك تلاحظ الفرق بين قياس الناس بالمال وبين قياسهم بما يحصلون عليه من علم فى مجتمع يجعل محكه العلم أو الحكمة ، أو بين ذلك المجتمع الذى يجعل محكه ووسيلة تقديره للناس ما يحوزونه من أموال وبين مجتمع آخر يجعل ذلك المحك هو القداسة أو الأخلاق الكريمة وسمو الروح والمشاعر . وحتى المجتمعات التى يقاس قدر الناس فيها بالأصالة أو بالعراقة أو بصلة النسب أو بغير ذلك من اعتبارات ، إنما تجعل القيمة مركزة فى الإنسان نفسه وليس فى قيمة مضافة إليه إضافة ولا ترتبط بشخصيته بشكل مباشر .

فى جميع المجتمعات التى تجعل قيمة المرء فى ذاته وليس فيما ما لديه من عقارات أو أرصدة نجد أن الطمأنينة والسعادة تكون أكثر رسوخا وثباتا واستمراراً من المجتمعات التى تقاس فيها قيمة الإنسان بالمال . فالشخص فى تلك المجتمعات التى تجعل القيمة للإنسان نفسه يحس أن من حوله لا يقيمون وزنا لأى شىء مباين لشخصه أو لجوهر كيانه ، بل هم يحصرون كل القيمة فيه شخصيا . إنهم يحافظون عليه شخصيا ولا يرضون عنه بديلا . ولكن إذا كانت القيمة للمال ، فلا يكون اذن هناك ما يدعو للحفاظ على المرء صاحب المال . بل يجب أن يناط الحفاظ كل الحفاظ بالمال نفسه وتوفير جميع الظروف المناسبة لزيادته وعدم تبديده أو ضياعه .

وكيف يستطيع الواحد من الناس أن يطمئن أو أن يكون سعيدا . وهو متأكد من أن من يتقربون منه إنما يتقربون لأجل الحصول على بعض ماله ، وأنه إذا ما حدث وخسر ذلك المال فإن الجميع ينصرفون إذن عنه . أضف إلى هذا أن الملاصقين للغنى من أقرب أقربائه ، ربما يتمنون موته حتى يرثوا الشىء الوحيد الذى له قيمة فى أعينهم وهو المال . فطالما أن المال وحده هو المحك الأول والأخير للقيمة التى تعطى للمرء الحائز عليه ، فلماذا لا يموت الغنى لكى يوزع ماله على مستحقيه ؟ وإذا كان الشخص فقيرا فلماذا لا يموت حتى يوفر النقود التى تنفق عليه

ليأكل ويلبس ؟ فطالما أنه خلو من المال فهو خلو أيضا من أية قيمة وأجدر به أن يموت . ومن هنا فإن الأفراد بمثل ذلك المجتمع المادى الذى لا يقيم أى وزن إلا للنقود ، لا يحسون بالطمأنينة بل يحسون بالشقاء يخيم على حياتهم ، وبالتشاؤم يضرب بأطنابه فى حياتهم .

ومن جهة رابعة فثمة الظروف والأحداث المفاجئة سواء كانت أحداثاً طبيعية كالزلازل والبراكين ، أم كانت أحداثا عالمية كالحروب أو المجاعات أم البطالة أم غير ذلك من أحداث وظروف غير مواتية . لا شك أن مثل هذه الظروف تؤدى إلى انتشار التشاؤم فى القلوب ، وتجعل الناس ينظرون إلى الحياة من حولهم بمنظار أسود حالك السواد . فالمجتمع الذى يتعرض لمثل تلك الظروف والأحوال ، لا يستطيع أن يوفر الطمأنينة والسعادة لأبنائه ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يوفر لهم التفاؤل فى حياتهم الفردية أو فى حياتهم الاجتماعية .

وأخيرا ومن جهة خامسة ، فإننا نجد التربية التى يتبعها المجتمع – أى مجتمع – تحدد مدى تمتع الناشئة ، والكبار فيما بعد – بالطمأنينة والسعادة . فالتربية التى تأخذ باستذلال الناشئة من الأبناء والتلاميذ وضربهم ضربا مبرحا ، أو التربية التى تقمع جميع رغباتهم وبعض حاجاتهم ، إنما تؤدى بهم فى الواقع إلى هروب الطمأنينة من قلوبهم وتلاشى السعادة من أفقهم النفسى . وعلى العكس من ذلك فإن التربية التى تكفل السعادة للناشئة الذين تقوم بتربيتهم ، فإنها تكفل لهم الطمأنينة والسعادة فى حاضرهم ومستقبلهم جميعا . وحتى بالنسبة لأولئك الذين لم تتوافر لهم الطمأنينة بسبب التربية التى تعمد إلى القمع والضرب والتأنيب وتثبيط الهمم وعدم التشجيع وإبراز العيوب والأخطاء التى يتعرض لها الصغير ، فإنهم بعد أن يكبروا لا يستطيعون استرداد ما سبق لهم أن فقدوه من طمأنينة وما خسروه من سعادة . ذلك أن الطمأنينة والسعادة كالنبتة التى لا يمكن أن تستحيل إلى شجرة يانعة إلا اذا تم تعهدها بالرى والعناية منذ غرسها فى الطفولة وخلال نموها وترعرعها فى مراحل العمر التالية . فإذا ما عمد المربون إلى اقتلاع نبتة الطمأنينة والسعادة فى الطفولة ، فإنها تهلك إذن إلى الأبد .

القيم الأخلاقية :

ثمة مجموعة من القواعد السلوكية ومن المعايير التى يقيس بها المرء التصرفات التى يضطلع بها شخصيا أو التى يضطلع بها غيره فى مجريات الحياة المتباينة . وعلى الرغم من وجود معايير مشتركة بين الناس جميعا من جهة ، وبين أبناء المجتمع الواحد من جهة ثانية ، فإن لكل فرد من أفراد المجتمع الواحد معايير أخلاقية يستهدى بها شخصيا بغض النظر عن مدى تشابهها أو تباينها عن المعايير التى يستعين بها الأفراد الآخرون فى تصرفاتهم وفى علاقاتهم الاجتماعية . ومعنى هذا فى الواقع أن الفرد من الناس يتفاعل مع المجتمع الذى يعيش به ، بل ويتفاعل مع ثقافة عصره ومع المجتمع العالمى بأسره ، ثم إنه يصبغ تلك المقومات التى يحرزها من خارجه بصبغته الشخصية الخاصة به . فثمة جانب مستفاد من المجتمع الخارجى من جهة ، وثمة جانب شخصى أصيل تحتفظ به الشخصية ولا يذوب فى المجتمع الذى يعيش المرء فى إطاره من جهة أخرى .

ولا شك أن نمط الشخصية يحدد ذلك المقوم أو ذلك الجانب الشخصى الذى لا يذوب والذى يظل محتفظا بكيانه وملامحه وتقاطيعه . وشاهد ذلك أن أفراد المجتمع الواحد يتباينون فيما يتذرعون به من قيم أخلاقية ومعايير سلوكية فى علاقاتهم وتصرفاتهم . فأنت تختلف عن أخيك الذى نشأ معك بنفس البيت واختلف على نفس المدرسة ، وتلقى مقومات خبرية مشابهة للمقومات التى اكتسبتها . ولكن حيث أن ما جبلت عليه من مقومات موروثة يتباين إلى حد بعيد أو قريب عن المقومات الموروثة التى حصل عليها أخوك بالوراثة ، لذا فإن حصيلة التفاعل فى الحالتين تصير متباينة الواحدة منهما عن الأخرى .

ولا شك أيضا أن المعايير والقيم الأخلاقية التى يتذرع بها الفرد تتأثر تأثيراً بعيد المدى بالمواقف والخبرات المؤثرة بشدة فى النفس . خذ مثالا لذلك أحد الأشخاص كان ينفق يمينا ويسارا على أصدقائه وفى أحد الأيام وقع فى أزمة مالية ، فلم يجد أحدا ممن دأب على بعثرة نقوده عليهم يمد يد العون إليه ، بل وجد الجميع وقد أشاحوا عنه . فهذا الشخص بعد أن كان يأخذ بمعيار أخلاقى فى حياته يتسم

بالإيجابية والتفاؤل ، استحال بعد هذا الموقف إلى شخصية متشائمة تأخذ بمعيار أخلاقى تشاؤمى فيما يتعلق بنيات الناس ومواقفهم منه . إنه استبدل بمبدئه القديم المتفائل مبدأ جديدا تشاؤميا ، فأخذ بدوره يشيح عن أصدقائه حتى بالنسبة لأولئك الذين يحتاجون إلى مساعدته ومد يد العون اليهم .

ولعلنا نقوم بتحديد المعالم الرئيسية للقيم الأخلاقية التى يتذرع بها المرء فى حياته اليومية وفى علاقاته الاجتماعية حتى نستبين ما تخبئه تحتها من تفاؤل أو تشاؤم بحسب الأشخاص فى تباينهم بازاء هذين الاتجاهين . وتتخذ تلك المعالم الأخلاقية محاور معينة يجب ألا تعزب عن البال وهى على النحو التالى :

أولا – فيما يتعلق بالطبيعة البشرية ذاتها . إننا نجد أن الناس يتخذون موقفا من موقفين بازاء الطبيعة البشرية . ثمة الموقف الإيجابى التفاؤلى من جهة ، وثمة الموقف السلبى التشاؤمى من جهة أخرى . فبالنسبة للموقف الأول ، فإنك تجد أصحابه يفسرون الطبيعة البشرية بأنها طبيعة خيِّرة ، وأن الإنسان يميل إلى الخير بطبعه ، وأن الأصل فى جبلة الإنسان هى الخير وليس الشر ، وأن الشر الذى يتردى فيه بعض الناس إن هو إلا خروج عن الطبيعة الإنسانية الأصلية . وعلى هذا فإن أصحاب هذا الإتجاه التفاؤلى يعتبرون الطفولة نقية نقاء تاما ، وأن تلك الطبيعة النقية لا تتلوث ولا تنحرف الا بعد أن يختلط الطفل بالمؤسسات الحضارية المنحرفة والزائغة عن طريق الحكمة والصواب . فالفطرة نقية والحضارة شريرة . ولو تسنى للإنسان – على رأى جان جاك روسو – أن يظل على حال الطبيعة ، إذن لظل طيبا نقيا وخالصا مما يشوب الناس الكبار المتحضرين من شر .

واذا كان هذا هو موقف المتفائلين بازاء الطبيعة البشرية ، فثمة من جهة أخرى موقف المتشائمين الذين يعتقدون فى شرِّية تلك الطبيعة . إنهم يعتقدون أن الشر وليس الخير هو السمة الرئيسية التى يتسم بها الإنسان . وعلى نقيض ما يزعم المتفائلون ، فإن الحضارة تحاول أن تعدل الالتواء الذى تتسم به طبيعة الإنسان الفطرية ، وذلك بأن تقلم أظفاره وتحد من حدة أنيابه وتقف ضد نوازعه الشريرة وميوله الطبيعية الخسيسة . وهكذا نجد أن المتشائمين يقولون إن الطبيعة البشرية أو الفطرة شريرة ،

وأن الحضارة خيِّرة ، على عكس ما ينادى به المتفائلون من القول بأن الطبيعة البشرية أو الفطرة خيِّرة ، بينما تتسم الحضارة والتربية بالشر.

ثانيا – فيما يتعلق بالألوهية . لقد انقسم الناس – حتى فى نطاق الدين الواحد – إلى فريقين : فريق المتفائلين . وفريق المتشائمين . أما المتفائلون فإنهم يقولون إن الله لا يقدم للإنسان سوى الخير ، وأن الشر الذى يلحق بالإنسان أو بالإنسانية إنما مصدره الشيطان أو الالتواء الروحانى الذى انحدر إليه الإنسان بدءا بخطيئة آدم وحواء ومعصيتهما للأوامر الآلهية . وحتى بالنسبة للأشياء التى تبدو شرا من الشر ، فإنها وإن بدت فى الظاهر على هذا النحو ، فإنها تخبئ فى الحقيقة الخير للإنسان ، سواء بالنسبة لذويه أم بالنسبة للإنسانية ككل . فموت الابن الوحيد لأحد الأسر وإن بدا شرا بائنا ، فربما يكون ذلك لخير الابن الوحيد المتوفى نفسه ، اذ ربما كان ليجد فى حياته الكثير من الأهوال والمخاطر أو الشرور التى ربما كان سوف يتردى فيها . وما يقال عن حالات الموت ينسحب بازاء جميع المصائب والمشكلات التى تصيب الناس على نحو أو آخر.

أما المتشائمون فإنهم ينتحون منحى مغايرا ، بل ومناقضا للمنحى الذى ينتحى إليه المتفائلون . إنهم يزعمون أن الله يهب الخير ويوقع الشر أيضا . والشر الذى يوقعه على الإنسان ربما يكون انتقاما من شر فعله الشخص نفسه ، أو ذووه أو حتى أجداده القريبون أو البعيدون . وربما تكون هناك جماعية فى الانتقام ، إذ أن المدينة أو الشعب الذى تسوده الشرور بصفة عامة – بإستثناء الأقلين – فإن غضب الله ينزل على المدينة أو الشعب كله . ولسوف يعاد توازن كفة العدالة عندما يعوض الأبرار الذين تناهم العقوبات الجسدية مؤقتا على الأرض بما سوف يحصلون عليه من خير فى الجنة بعد الموت . وبذا لا تكون العدالة الآلهية غير مكتملة بازائهم . فالأشرار ينالون شرا فى الدنيا والآخرة جميعاً ، أما الأخيار فإنهم وإن لقوا بعض الشر فى الدنيا بسبب وجودهم فى نطاق شعب شرير ، فإن ثمة تعويضا يحظون به فيما بعد فى الآخرة ، فينعمون نعيما لا حد له لا يقاس إلى جانبه ما لاقوه من عقوبات لا ذنب لهم فيها بالدنيا بسبب مجاورتهم للأشرار.

ثالثا – طبيعة المرأة . وهنا أيضا نجد فريقين من الناس : الفريق الأول – هم المتفائلون ، وهم أولئك الذين يزعمون أن المرأة ذات طبيعة مساوية لطبيعة الرجل فى الذكاء والميل إلى الخير والحق والجمال . وأن المرأة هى سبب سعادة الرجل فى الحياة ، بل إنها البهجة التى تجعل حياته سعيدة رائعة . أما المتشائمون فإنهم يذهبون مذهبا عكسيا فيعتقدون أن المرأة هى الشر ذاته ، وأنها الجسد الذى يرتديه الشيطان لإغواء الإنسان وإغرائه لانتهاج طريق الضلال والبعد عن النجاح فى الدنيا والنزول إلى الجحيم فى الآخرة . ولعلك تجد هذين الفريقين من المتفائلين والمتشائمين متمثلين فى الفلاسفة لدى تعرضوا لطبيعة المرأة .

رابعا – مستقبل الفرد والشيخوخة . وهنا أيضا نجد فريقين : فريق المتفائلين ، وفريق المتشائمين . فالمتفائلون يقولون إن لكل سن جماله وروعته وأنواعاً من المناشط المتباينة التى تليق به . وحتى الشيخوخة ذاتها يمكن أن تكون جميلة رائعة ، ويمكن أن يباشر الشيخ أنواعا من المناشط المفيدة بحيث لا تستحيل الشيخوخة الى فترة يأس أو فترة انتظار للموت . وحتى الموت نفسه فى نظر أفراد فئة المتفائلين ليس مخيفا ، بل هو كالميلاد غير مزعج وغير كئيب . إنه مرحلة من مراحل استمرار الوجود . لأنه القنطرة التى تصل بالمرء إلى الآخرة . أما المتشائمون فإنهم يعتبرون أن المستقبل قاتم ، وأن الفرد كلما تقدمت به السن ، فإنه يذوى ويضعف ويرتمى فى أحضان اليأس والقنوط . ومن هنا فإن فترة الشيخوخة لا تعدو أن تكون فترة توقع الأمراض والآلام والانتهاء إلى الموت والتعفن وبئس المصير .

وهكذا نجد أن الإنسان فى اتخاذه موقفا محددا من هذه المحاور وغيرها يكون قد اختار لنفسه فلسفة أخلاقية يتذرع بها فى علاقاته الاجتماعية وفى تصرفاته المتباينة . وحتى أولئك الذين ينكرون تلبسهم بفلسفة أخلاقية محددة فى حياتهم . وأنهم يستلهمون كل موقف على حدة ، فإنهم فى الواقع يتذرعون بفلسفة أخلاقية وبقيم سلوكية تعمل عملها فى حياتهم ، سواء بطريقة شعورية أم بطريقة لا شعورية .

أحداث وظروف الحياة :

سبق أن ألمعنا إلى أن الأحداث ذات الفاعلية التى تقع للمرء يمكن أن تحوله من التفاؤل إلى التشاؤم . وبالعكس يمكن أن تحوله من التشاؤم إلى التفاؤل . ولعلنا فى هذا المقام نتساءل عن الشروط التى يجب أن تتوافر فى مثل تلك الأحداث حتى تكون ذات فاعلية فى التأثير فى الاتجاهات الأساسية فى حياة الفرد وموقفه من نفسه ومن العالم من حوله ، بل وموقفه من الحاضر والمستقبل وتوقعاته الخاصة به وبغيره من أشخاص يهمونه أو يرتبط مستقبلهم وسعادتهم بمستقبله وسعادته .

الشرط الأول – إدراك الفرد أو تخيله بأن الأحداث التى تقع أو وقعت له ذات امتداد بعيد المدى أو مستمر فى حياته . فصاحب مخزن الورق الذى لم يؤمن عليه وهو كل ما يملكه وقد وضع به كل رأس ماله . ثم شب به حريق أتى عليه تماما ، إنما يعرف يقينا أو يتخيل أن الفقر قد خيم بجناحيه عليه وعلى أبنائه ، ومن ثم فانه قد يرتمى فى أحضان التشاؤم مرتدياً منظارا حالك السواد ينظر إلى الوجود من حوله من خلاله . فمثل هذا الرجل يرى عنصر الاستمرارية فيما ألم به من مصيبة . فالحريق الذى نشب فى مخزنه لا تنتهى آثاره بمجرد إخماد النار . بل إن تلك الآثار سوف تلاحقه باستمرار طوال حياته ، بل إنها سوف تلاحقه وتلاحق أبناءه من بعده . وحتى إذا لم يكن ذلك كذلك فى واقع الأمر ، فإن ما يتخيله مثل ذلك الرجل ينتهى به إلى ذلك ويؤكده له . وحتى فى الأحوال التى لا يؤثر الحدث مثل هذا التأثير المتسم بالاستمرارية كرسوب تلميذ فى امتحان مثلا ، فإن الخيال قد يجسم الواقع ويصبغه بصبغة الاستمرارية بحيث يظن المرء أن ما ألم به ينتهى بالضرورة إلى الفشل المؤبد له ولمن سوف يعيشون من بعده من أبناء ، أو من يظلونه بظلهم من كبار مسئولين عن مستقبله كما هو الحال بازاء الطالب الذى ضربنا مثالا به .

الشرط الثانى – تزلزل الوجدان . وهذا التزلزل يحدث فى حالات الصدمات الوجدانية التى تتسم بالفُجَاءة ، كأن يفقد الوالدان ابنهما الوحيد ، أو كأن يكتشف الزوج خيانة زوجته وقد كان يعتقد فيها الاخلاص والتفانى فى الحب . أو انقلاب أحد الأحباء فجأة إلى عدو لدود مستغلا ما لديه من أسرار وأخبار كخنجر يغرسه فى

قلب من كان حبيبا له فى السابق . فالتيار الوجدانى للمرء فى مثل تلك الحالات يصطدم فجأة بحاجز كثيف مفاجئ ، مما يجعله فى حيرة إلى أين يتجه . أو كيف يتغلب على ذلك الحاجز المفاجئ الكثيف .

الشرط الثالث – النقص فى البصيرة بواقع الحياة . فالمعرفة مضافا إليها الدُربة والحصافة فى معالجة الواقع والقدرة على التغلب على الصعوبات والعقبات تشكل جميعا شروطا أساسية للثبات الوجدانى ولعدم التحول من قطب إلى قطب مضاد . أما إذا كانت الشخصية فاقدة لتلك الضمانات المعرفية والوجدانية والمهارية ، فإنها تكون إذن عرضة للتأثر بالأحداث الطارئة حتى ولو كانت أحداثا ليست قوية أو ليست ذات فاعلية فى حد ذاتها . ولعل الشخصية كالجسم . فإذا كان الجسم قويا متينا فإنه يكون قادرا على مقاومة ما يصادفه من عوامل العدوى . وعلى العكس فإنه إذا كان عاجزا واهنا ، فإنه يكون إذن قابلا للعدوى بالكثير من الأمراض المتنوعة . فالشخصية القوية الواقفة على أرض صلبة لا تكون قمنة بأن تتأثر بما يصادفها من مواقف مفاجئة ، بل تظل محتفظة بلونها وغير خاضعة لمؤثرات المواقف المتباينة مهما كانت تلك المؤثرات عنيفة أو مفاجئة .

الشرط الرابع – القابلية الشديدة للإيحاء . فالواقع أن أولئك الأشخاص الذين يتقبلون المواقف بسهولة ويمتصونها . ويتلونون بكل لون يصادفهم . ويتأثرون بشدة لكل موقف يقابلونه ، فيستحيلون إلى فرحين إذا ما صادفوا أى موقف يشجع على الفرح ، ويحزنون بشدة إذا ما صادفوا أى موقف يحملهم على الحزن مع المبالغة فى كل حالة وجدانية ، ومع عدم ابداء أية مقاومة لأى موقف يصادفونه ، إنما يتعرضون فى الواقع للتقلب بين التفاؤل والتشاؤم .

وواضح أن التفاؤل كفلسفة فى الحياة وكنمط سلوكى ينتهجه المرء فى علاقاته الاجتماعية لهو أفضل من التشاؤم ، بل إن التفاؤل يجب أن يصير فى المجال الأخلاقى هدفا يرتجى وغاية يصبو المرء إلى تحقيقها فى شخصيته وفى عواطفه وعلاقاته الاجتماعية وفى رسمه لتلك العلاقات والمواقف . فبعد أن تناولنا التفاؤل والتشاؤم كنتيجتين لازبتين يتأتيان عن أوضاع وظروف نفسية معينة ، فإننا فى المجال الأخلاقى

ننظر إلى الإنسان ، لا باعتباره خاضعا لمجموعة من القوانين والحالات التى تشبه إلى حد ما القوانين التى تخضع لها المواد الطبيعية – كما لو أن الإنسان كائن غير مريد – فإننا فى هذا المجال الأخلاقى نتناول الإنسان من حيث علاقته بالتفاؤل والتشاؤم ككائن مريد بل وككائن قادر على المقاومة والتعديل والتغيير . إنه هنا كائن قادر على التحكم فى ذاته وعلى عدم الرضوخ لما يسمى بالقوانين النفسية .

ولعل واحدا يتساءل : أليس فى موقفنا إذن فى الحالتين : حالة دراستنا للإنسان ككائن خاضع للقوانين النفسية ، ثم دراستنا للإنسان ككائن مريد يقاوم الخضوع لتلك القوانين – تناقض ؟ الواقع أنه لا يوجد تناقض فى الموقفين ، بل هناك ما يمكن أن نسميه بالتفاوت . فهناك فرق واضح بين الصعب والمستحيل . فالمستحيل يجب عدم المطالبة به لأنه غير ممكن ، ولكن الصعب يمكن أن نطالب به لأنه ببذل الجهد يمكن تحقيقه . وبالاضافة الى المستحيل والصعب هناك حالة ثالثة هى السهل . والخضوع للقوانين السيكلوجية سهل ، أو هو الطبيعى أو القاعدة العامة التى يقع فى نطاقها الكافة . أما المستحيل فإنه مرفوض بُدَاءة . ولكن الصعب يجب الدعوة اليه والتمسك به ورسم الخطط لتحقيقه .

ومعنى هذا فى الواقع أن التدرب على التفاؤل ممكن . وأن التدرب على التخلص من التشاؤم ممكن أيضا . وبتعبير آخر من الممكن أن ندرب أنفسنا على الحصول على قوام ذاتى متين متفائل بنفسه ولا يعتمد فى تفاؤله على الواقع الخارجى أو الأحداث التى تقع فى مجريات الحياة . فهنا نجد ما يمكن أن نسميه بالإيمان بالذات وبالقدرات الشخصية . فالإيمان فى هذه الحالة الأخلاقية ينسحب من الخارج لكى يتمركز بالداخل . فالتاجر الذى نشب حريق فى محل تجارته وأتى على كل ما فيه ، يستطيع اذا كان مسلحا بالإيمان بالذات أن يبدأ من جديد لأنه يعتقد أن النجاح الذى سبق أن أحرزه فى الماضى لا يعزى إلى المصادفات الخارجية ، بل يعتمد على الفن الذى استحوذ هو عليه وعلى الذكاء الذى اختص به . إنه لا يقيم نجاحه فى ضوء النتائج ، بل فى ضوء ما يستطيع القيام به وممارسته .

فالتفاؤل كمبدأ أخلاقى هو إيمان بالقدرات الذاتية وسيطرة الداخل على الخارج . إنك قد تجد الفيلسوف أو العالم متفائلا ومبتسما لواقعه مع أنه لا يملك

أرصدة بالبنوك ، ولا يحوز سيارة خاصة ويسكن فى شقة بالأجر ، وما يربحه من عمله الفلسفى أو العلمى يكفيه بالكاد لسد نفقاته ونفقات عياله ، ولكنه لا يرضى بديلا عن فلسفته أو علمه ، بل يعتقد أن الوجود بأسره يخضع لعقله ، بل إنه يعتقد أن ما يملك ناصيته أكثر قيمة من كنوز العالم بأسره . وما يقال عن الفيلسوف والعالم يقال أيضا عن الراهب والمتصوف اللذين يعتقدان أن الزهد فى الدنيا يبشر بالخلود وأن ما يحصل عليه الإنسان عن طريق الروح أكثر قيمة مما يحصل عليه بطريق الجسد .

ولعل المبدأ الأخلاقى الذى يترسمه المؤمن بالداخل يقول : فلأبدأ من جديد . والمتفائل يحس دائما أن المستقبل يبشر بخير أفضل مما أسفر عنه الماضى . فلماذا التشاؤم إذن ؟ إنه يؤمن بقدرة الإنسان على خلق الظروف المواتية وأنه ليس مجرد قشة خاضعة لتحكم الظروف . فالمتفائل يحس بقيمة الإنسان وبقدرته على مغالبة الظروف . وهو يفيد من خبرات الأفراد والشعوب فى هذا الصدد . ألم تلق القنبلة الذرية على اليابان ، واليوم نجد أن الإنسان اليابانى بتفاؤليته قد استطاع أن يتفوق على غيره بل لقد صار يهدد الانسان الأوروبى والانسان الأمريكى بتفوقه عليهما ؟ وألم يحدث نفس الشئ بالنسبة لألمانيا بانهزامها فى الحرب العالمية الثانية ولكن الإنسان الألمانى أثبت بتفاؤليته أنه أقوى من أى إنسان أوربى أو أمريكى ؟ وهكذا يقال أيضاً عن جميع الأفراد بالتاريخ الذين لاقوا الأمرين ولكنهم كانوا أقوى من الصعاب تقف أمامهم ، وأشد بأسا من الأهوال تنهال عليهم ، فصار يشار إليهم بالبنان عبر التاريخ .

الوضع الاجتماعى :

يختلف أفراد المجتمع الواحد بعضهم عن بعض فيما يحظون به من تقدير وتقييم من الأفراد الآخرين ومن المجتمع ككل . ولقد يرتد ذلك الاختلاف الى أسباب تتعلق بالفرد نفسه ، كما قد ترتد الى عوامل خارجية واقعية ، كما قد ترتد أخيرا إلى قيم ومعتقدات ذات صلة بالماضى وقد اكتسبت صفة التقديس وعدم المناقشة ، اذ

صارت قضايا مسلماً بها لا يجوز الشك فيها أو تعديلها وبالأولى عدم التجرؤ على رفضها .

أما بالنسبة للأسباب التى تتعلق بالفرد نفسه ، فاننا نجد أولا – السن . فالأطفال بصفة عامة – والشيوخ فى بعض المجتمعات – لا يحتلون سوى مكانة ضئيلة ، بل وقد ينظر اليهم باحتقار ويجعلون فى المؤخرة ، ويجوز ضربهم وإيذاؤهم وحرمانهم من كثير من الحقوق المادية والأدبية التى يتمتع بها الكبار . وطبيعى أن الشخص بعد أن يخرج من طور الطفولة ، وقبل أن يندرج فى طور الشيخوخة لا يكون فى هذا الوضع المهين ، بل يتمتع بالحقوق التى يتمتع بها الراشدون قبل حلول الشيخوخة عليهم . ثانيا – مستوى الذكاء والقدرات الخاصة وما يترتب على ذلك من قدرة الفرد على تفهم ما حوله من جهة ، وحذق فن من الفنون التى يتطلبها المجتمع ويقدرها من جهة أخرى . ثالثا – مدى اتزان الفرد من الناحية الوجدانية وقدرته على التوافق للمجتمع ومسايرة القيم الاجتماعية الرئيسية التى يدين بها . رابعا – مدى قدرة الفرد ورغبته وبذله للجهد فى سبيل الحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية التى يدين بها المجتمع ويأخذ نفسه وأبناءه بها ، وكذا ماكان متعلقا بالتقاليد الاجتماعية والعرف ، أعنى القانون غير المكتوب الذى يراعيه المجتمع ويحاول الحفاظ عليه بإزاء العلاقات الاجتماعية بين أبنائه . خامسا – مدى خلو الفرد من العاهات التى تجعله شاذا .

وطبيعى أن يتخذ الفرد موقفا متفائلا أو موقفا متشائما فى جميع هذه الأوضاع التى تفرض عليه بسبب ما يتعلق بكيانه الشخصى . فصاحب العاهة أو الطفل المضطهد الذى يلاقى ألوان التعذيب والتحقير من الكبار ، والشيخ الذى يجد نفسه منفيا عن عالم الراشدين القادرين على ممارسة ألوان النشاط المتباينة فى الحياة والمساهمة إيجابيا فى شتى مناشط المجتمع ، وكذا صاحب الذكاء المنخفض أو الشخص المحروم من القدرات العقلية الخاصة التى تجعل أقرانه قادرين على إحراز التقدير من الناس المحيطين بهم فى المجتمع ، وكذا الشخص غير المتزن انفعاليا والذى لا يستطيع إحراز القدر المناسب من التكيف النفسى للآخرين ، وكذا الشخص

الذى لا يستطيع أن يتلاءم مع القيم والمعايير الأخلاقية أو أن يراعى التقاليد والعرف الذى استنه المجتمع لنفسه ولأبنائه . . . جميع هؤلاء من الطبيعى أن يتخذوا من المجتمع موقفا متشائما . وعلى النقيض من ذلك فإن أصحاء الجسم والعقلاء والأذكياء والمتزنين نفسيا والمتوافقين أخلاقيا والشيوخ الذين يلاقون معاملة توقرهم وتجلهم ، إنما يتخذون لأنفسهم موقفا متفائلا فى الحياة وبتجاه المجتمع الذى يحيون فى نطاقه .

أما من حيث العوامل الخارجية التى لا تتعلق بالفرد ، بل تتعلق بعوامل خارجية موضوعية مفروضة على الفرد ، فاننا نستطيع أن نلخصها فيما يلى : أولا – المستوى الاقتصادى الذى يحرزه الفرد . فالشخص الذى تفرض عليه الظروف أن يكون شخصا معوزا فقيرا ويحاجه الى أن يمد يده بالسؤال لغيره ، إنما يكتسب فى الغالب موقفا متشائما بتجاه المجتمع الذى يوجد به . وعلى نقيض ذلك فى الغالب فإنك تجد أن الأشخاص الذين لا يحسون بالحاجة إلى غيرهم ، وقد صار بين أيديهم من المال ما يجعلهم مرفوعى الرأس وغير محتاجين إلى غيرهم ، فإنهم يتلبسون بالاتجاه التفاؤلى بتجاه المجتمع الذى يحيون فى إطاره . ثانيا – الوقوع فى أسرة مضطهدة أو مهددة أو مكروهة لأسباب تتعلق بالأخذ بالثأر أو بسبب الطابع العام لتلك الأسرة ، وهو طابع غير مستحب ويُحَف بالكراهية والنبذ أو الاحتقار . ثالثا – حدوث كارثة مفاجئة للأسرة تأتى على أفرادها أو تنال من أعمدتها كأن يشب حريق يقتل رب الأسرة ويحرق ممتلكاته فيضحى أطفاله يتامى ويصيرون بحاجة الى من يمد يد العون المادى والأدبى لهم ورعايتهم من جميع الجوانب كبديل للعائل الأصلى ، أو وقوع طلاق فى الأسرة وحاجة الأطفال إلى زوج الأم أو الى زوجة الأب .

فليس غريبا أن نجد الطفل الذى نشأ فى أسرة مضطهدة أو مهددة أو مكروهة والطفل الذى وقعت كارثة مفاجئة لأسرته فصار منبوذا أو فى حاجة الى الارتماء فى أحضان بديل للوالدين أن يتلبسا بالاتجاه التشاؤمى فى الحياة . وعلى نقيض هذه الأحوال فإن من يقع فى نطاق ظروف خارجية طيبة ومواتية ، يكون فى الغالب متلبسا بالاتجاه التفاؤلى .

أما بخصوص القيم والمعتقدات التى ترتبط بالماضى وقد اكتسبت صفة التقديس ، أو بالأحرى صفة التبلور والتحجر ، فمن أشهر أمثلتها ما كان متعلقا باللون أو العقيدة أو الأصل أو النسب أو اللغة . فى المجتمع الأمريكى نجد أن الزنوج لا يحظون بنظرة معادلة للنظرة الى البيض . والعكس أيضا صحيح . فالسود ينظرون بتوجس إلى البيض . وفى البلاد المتعصبة ينظر بريبة وكراهية إلى من يختلفون فى العقيدة عن الغالبية ، وفى المانيا النازية كان ينظر باحتقار إلى غير الآريين ، وكذا يفعل اليهود بالنسبة لغير اليهود ، وما يزال ينظر فى أغلب المجتمعات (عدا السويد وبعض البلاد القليلة) إلى الطفل غير الشرعى بنظرة احتقار وتدنيس لأنه ابن الخطيئة . ولقد يتأثر الوضع الاجتماعى للفرد بسبب اختلاف لغته أو لهجته عن لغة أو لهجة باقى الأفراد بالمجتمع .

وواضح أن اختلاف الفرد عن الآخرين ووقوعه تحت طائلة التعصب بسبب اللون أو العقيدة أو الأصل أو النسب أو اللغة ، إنما يعرضه للتلبس بالتشاؤم . وعلى نقيض ذلك فإذا كان الشخص قد نشأ فى نطاق الأغلبية ذات اللون الواحد أو العقيدة المشتركة أو الأصل الواحد أو النسب غير المطعون فيه أو اللغة أو اللهجة الواحدة ، فانه يكون إذن قد تحرر من التشاؤم أو جانبه فينخرط بالتالى فى فئة المتفائلين .

وبتصفح جميع الحالات السابقة ، فإننا نلاحظ أنها يمكن أن تنقسم إلى ثلاث فئات أساسية : فئة لا يستطيع المرء أن يخرج من إطارها ، بل يكون قد حكم عليه بأن يظل حبيسها ، وفئة ثانية مؤقتة سرعان ما يتبخر تأثيرها وتخف وطأتها ، وفئة ثالثة يستطيع المرء أن يخرج من إسارها وأن ينتزع نفسه من سجنها . وطبيعى أن الشخص فى الفئة الأولى – كما هو الحال بالنسبة لضعيف العقل – يظل طوال حياته متلبسا بالنزعة التشاؤمية فى حياته ، سواء بينه وبين نفسه ، أم بينه وبين الآخرين من حوله . أما الشخص من الفئة الثانية فإن حالته تتغير بشكل طبيعى ، ومن ثم فإن التشاؤم الذى كان ملاحقا له يأخذ فى التلاشى . من

أمثلة ذلك ، الطفل بالمجتمع الذى يضطهد الأطفال ويقيم الوزن للكبار فحسب .

إن الطفل بمثل هذا المجتمع يظل متشائما إلى أن يشب عن الطوق وينخرط فى ركب الكبار فيصير متفائلا . أما بالنسبة للفئة الثالثة – وهى الفئة التى يستطيع الفرد أن يخرج من إطارها ويتخلص من إسارها – فإن تخلصه يكون بطريقين : الأول – الخروج الفعلى من الإطار المكانى ، كأن يبتعد الزنجى عن مجتمع البيض ويعيش فى مجتمع الزنوج من أمثاله ، والثانى – تحطيم الحواجز النفسية ، وذلك إما باسداء الخير والنفع للكارهين له ، وإما بالتفوق فى مجال ما من المجالات التى تهمهم وتجبرهم على التقدير وإبداء الاحترام له كما فعل كثير من اليونانيين فى أشد المجتمعات القروية المصرية انغلاقا خلال العشرينيات من هذا القرن ، فاستحالوا إلى ملاك لرقعة زراعية ضخمة بل وصاروا أصحاب نفوذ وجاه ، وذلك بفضل تعاونهم مع الفلاحين المصريين وتقديم القروض لهم ومساعدتهم على قضاء حوائجهم وسد مطالبهم وتجنب الصدام معهم وإقامة المؤسسات التى كانوا بحاجة إليها فعلا فى ذلك الوقت .

ولعلنا نذكّر القارئ بما سبق أن ذكرناه من أن التشاؤم لم يكتب على أى إنسان حتى فى أشد المواقف أو الظروف جلبا للتشاؤم . ذلك أن الإنسان لا يخضع لقوانين فيزيائية كما يخضع الحديد والنحاس وباقى الفلزات ، بل إن الإنسان يستطيع أن يعلو على ما يقرره علماء النفس من قوانين . فليس من المحتم على صاحب العاهة أن يكون متشائما ، كما أن الشيخ يمكن أن يرسم لنفسه فلسفة تخرج به عن الاطار التشاؤمى الذى ينخرط فيه كثير من أمثاله . وكذا يمكن أن يفعل بعض من تصيبهم الكوارث أو الذين لم يحظوا بمستوى ذكاء مرتفع ، أو من ليس لهم حظ كبير من النجاح فى الحياة . فالتشاؤم ليس إذن قدرا مكتوبا على بعض الناس . ومن هذا يتضح ما يتمتع به الإنسان من حرية بل ومن سلطان على مقدراته .

الظروف الاقتصادية :

سبق أن عرضنا فى أكثر من موقف لما للظروف الاقتصادية التى يمر بها المرء من أثر فى بلورة الاتجاه التفاؤلى أو الاتجاه التشاؤمى بالشخصية . ونود هنا أن نكشف الغطاء عن الأسباب الحقيقية التى تجعل للظروف الاقتصادية فى حياة الإنسان الأثر فى تكوين اتجاه أساسى لديه بازاء الحياة والمستقبل يتسم إما بالتفاؤل وإما بالتشاؤم .

الواقع أن المال فى حد ذاته لا يعطى مؤشرا لاتجاه الشخصية . فانك قد تجد أحد الأغنياء ولديه تشاؤم شديد تجاه ممتلكاته أو مستقبله الاقتصادى ، بينما تجد من جهة أخرى أحد الفقراء وقد تفاءل بوضعه الاقتصادى ولا يحس بخطر اقتصادى يتهدده . ومعنى هذا فى الواقع أن المال من حيث كثرته أو من حيث ضمان الحصول عليه أو تعرض ذلك للأقدار والظروف ، لا يشكل المحك أو المعيار الذى نحدد فى ضوئه مدى امكان تعرض المرء للتلبس بالاتجاه التفاؤلى أو بالاتجاه التشاؤمى .

وإذا كان ذلك كذلك ، فما هو المحك إذن ؟ وهل معنى هذا أن من الواجب أن نستبعد الظروف الاقتصادية من مجال دراستنا للتفاؤل والتشاؤم ، ونأخذ بعد ذلك فى البحث عن مؤشر آخر غير المال ؟ إننا لا نوافق على هذا ، وكل ما نريد تأكيده هو أن المال فى حد ذاته ليس جوهر القضية ، بل إنه يشكل العامل المساعد لإبراز فاعلية العامل الأصلى ، وهو عامل نفسى بحت نستطيع أن نسميه بعامل الإحساس بالأمن بازاء المستقبل . ولعلنا فيما يلى نحاول إلقاء بعض الضوء على هذا العامل النفسى الأصلى حتى نستبين أبعاده من جهة وعلاقته بالناحية الاقتصادية من جهة أخرى .

أولا – يولد الإنسان كائنا بيولوجيا يبحث عن ثدى الأم لكى يضمن لنفسه استمرار الحياة . ويظل هذا العامل البيولوجى مشكلا جوهر حياة الإنسان ككائن حى . وتضاف إلى التغذية المستمرة والمناسبة للظروف الجسمية مقومات أخرى كالكساء والمأوى والدفء والتهوية والدواء . ولقد عانت الإنسانية فى كثير من الظروف الطبيعية والظروف الحضارية من نقص الموارد التى تكفل استمرار البقاء كوقوع

الزلازل والبراكين والقحط والفيضانات والحروب والأوبئة وغير ذلك مما غرس فى طبيعة الإنسان الخوف من تصاريف الدهر وغوائله . فهذا الشعور بالخطر الغامض جعل من طبيعة الإنسان البحث عن وسائل تحميه ، فيأخذ فى جمع كل ماتستطيع أن تمتد إليه يداه من خير يحتفظ به لمجابهة الأخطار الغامضة التى قد تحيق به .

ثانيا – بيد أن الإنسان لم يعد كائنا طبيعياً ينهج وفق طبيعته . بل إنه اخترع ذلك المارد المسمى بالحضارة ، وما فتئ ذلك المارد أن استعبد الإنسان لإمرته . وظل يستلبه حريته وقدرته إلى أن جعله تحت رحمته . وقد استعانت الحضارة بالرمز بدلا من الأصل ، فحل الجنيه محل الطعام والكساء والمأوى ، أو بتعبير آخر فان المال صار هو الأصل ، وصارت جميع الحاجات هى النتيجة . أو صارت خاضعة لإمرة ذلك الأصل . فبالمال تستطيع أن تشترى كل شيء . فإذا ما تحطمت سيارتك أو فسد طعامك أو نَفَد دواؤك ، فبقدورك أن تستعيد كل ما خسرته أو استهلكته إذا كان لديك رصيد كاف بالبنك . فما عليك إلا أن تأمر مصباح علاء الدين فيأتى كل شيء إليك أبهى وأحسن مما كان عليه . المهم أن يظل المصباح السحرى فى قبضتك لا يفلت من بين يديك حتى تستطيع أن تحصل على كل ما تشتهيه نفسك . بيد أن هناك عدة مصابيح فى قبضة كثير من الناس غيرك . وكل مصباح أقوى من غيره من مصابيح يستطيع أن يستلب قدرتها جميعاً ويستقطب إمكانياتها فتفقد قيمتها . فالتاجر الأقوى ذو الرأسمال الأقوى والذكاء التجارى الأنجع يستطيع أن يمتص تجارة جاره التاجر ويستقطب ثروته ، ولا ينفعه عندئذ مصباحه الواهى والأضعف ، لأن المصباح الأقوى له سلطان على جميع المصابيح الأقل منه قوة وفاعلية . من هنا فإن كل إنسان فى ظل الحضارة يحاول أن يحرز مصباحا أقوى من مصابيح علاء الدين السحرية يضمن له السيطرة على المصابيح الأخرى الأضعف منها . ولكن أنىَّ لك أن تستحوذ على أقوى مصباح ممكن ؟ وحتى إذا تسنى لك ذلك ، فتأكد أن آخرين من حولك يرسمون الخطط الماكرة لانتزاعه من قبضتك . وطبيعى إن الإنسان يخاف فى الحالتين : حالة الخوف من أن يحوز غيره مصباحا أقوى من مصباحه فيستقطب قوته ، وحالة الخوف على مصباحه – وهو أقوى مصباح فى الوجود – لأن الناس من حوله يتربصون به ويرسمون الخطط لاقتناصه منه . والواقع أن ذلك ينتهى إلى حالة

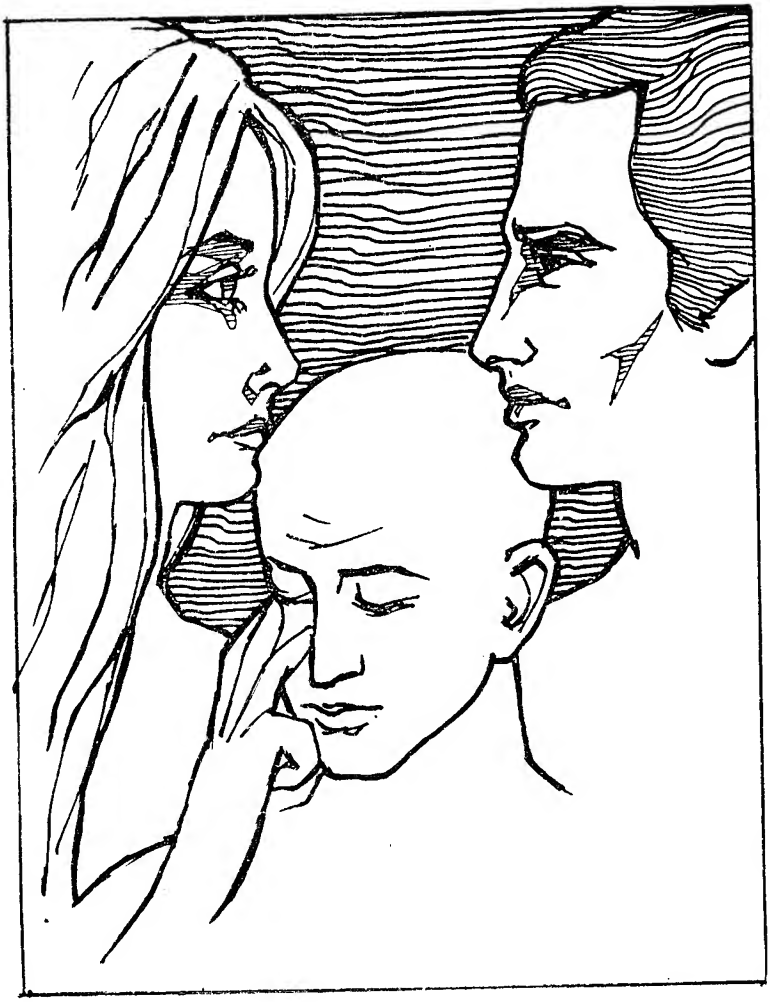
من حالتين : إما أن يُطَمئن المرء نفسه بأنه سيظل فى الموقع الأقوى والأنجع وبذا ينتحى إلى التفاؤل ، وإما أن تسيطر عليه الهواجس ويتوقع الهزيمة فيكسوه التشاؤم . وموقف الإنسان هنا كموقف الملاكم ، فهو إما أن ينهزم على يد من هم أقوى منه وهم كثيرون ، وإما أن يخرج إليه شخص لم يكن يخطر له على بال فيوقع به الهزيمة . بيد أنه مع ذلك قد يتلبس بحالة من حالتين : إما أن يتفاءل بالمستقبل فيعتقد أنه سيتسلق سلم المجد فيهزم كل من هم أقوى منه ويتبوأ عرش الملاكمة . وإذا كان على ذلك العرش فعلا ، فانه قد يتفاءل بأن أحدا سوف لا يدانيه فى قوته وبطشه . أما الحالة الثانية فهى الخوف من الأقوى فينتكس إلى الوراء ولا يحتل سوى مكان حقير فى معارج الملاكمة .

ثالثا – ثمة أيضا مقوِّم هام يلعب دورا خطيرا فى الإحساس بالطمأنينة بازاء المستقبل هو الخيال . والواقع أن الخيال الإنسانى يمكن أن ينصب على ضلع من أضلاع الزمان الثلاثة : الماضى والحاضر والمستقبل . وقد ينصب على الثلاثة أضلاع جميعا ولكن بنسب متباينة . وثمة من الناس من ينصب خيالهم أكثر ما ينصب على المستقبل . والخيال فى كثير من الحالات يتواكب مع الوجدان . فإذا اتجه الخيال المستقبلى إلى توقع الرخاء وتواكب معه الشعور بالطمأنينة ، فإن الإنسان يحس إذن بالتفاؤل . وعلى العكس من ذلك فإذا ما جنح الخيال إلى توقع الفقر والهوان وتواكب معه الاحساس بالخوف من ذلك المستقبل ، كان التشاؤم إذن مخيماً وساد الشخصية وقد سيطر عليها وأخذ بها كل مأخذ .

وواضح أن الخيال يمكن أن يكون خيالا توقعيا احتماليا ، كما يمكن أن يكون خيالا جانحا وغير واقعى بل هو خيال مختلق . وثمة حالات كثيرة يكون فيها الخيال المتعلق بالماضى أو الحاضر أو المستقبل مجانبا للواقع كل المجانبة . ونحن لم نستخدم هنا لفظ تذكر بازاء الماضى ولا لفظ إدراك بازاء الحاضر ، بل استخدمنا لفظ خيال ، وذلك لأن الشخص فى مثل تلك الحالات لا يتذكر ولا يدرك بل هو يختلق وينسج لنفسه من خياله صورا وأحداثا ووقائع ليس لها أساس من الصحة . وحتى من حيث التقدير فإن الواحد من هذا النوع من الناس المرضى نفسيا لا يقدر الأمور بميزانها

الصحيح . لقد يكون الشخص فى الماضى والحاضر غنيا ولكنه يضفى على نفسه صفة الفقر . وبهذه المناسبة أذكر أنى جلست إلى أحد الأغنياء يمتلك ثلاث عمارات ولكنه مصاب بفكرة ثابتة هى أنه فقير ومهدد بالفقر . وأخذ يشكو من حالته مقارنا نفسه بأصحاب الجاه والثراء . فلما ذكرته بما يمتلكه . أخذه ذعر عجيب وكأنى سأسطو على ممتلكاته . فهذا الرجل لا يريد أن ينفض عنه ما يرسمه له خياله السقيم . بل يريد الحفاظ على إحساسه بالدونية . بل والحفاظ على احساسه بالتشاؤم . وذلك بسبب عجزه عن التغلب على شعوره السقيم وإحلال التفاؤل محله .

ولعل من أهم عوامل تثبيت الاحساس بالطمأنينة بازاء المستقبل أن يؤمن الانسان بالعناية الالهية . ذلك أن عجز الانسان عن التحكم فى المستقبل بما يشتمل عليه من أحداث وتقلبات يجعله قمينا بالاحساس بالخوف وبالغموض . ولكن إذا ما تسلح الإنسان بما يكفل له من الناحية النفسية مايضمن له السلامة فى المستقبل ، والحماية ضد الجوع والعوز وتقلبات الزمان ، فإنه يضمن لنفسه إذن التخلص من الهواجس والشكوك تجاه المستقبل ، بل إنه يتذرع إذن بالتفاؤل والاستبشار بكل ما تحمله الأيام المقبلة من خير ورفاهية . والواقع أن أكثر ما ابتلى به إنسان الحضارة هو تلك المخاوف المتعلقة بالمستقبل . ذلك أن إنسان ما قبل الحضارة لم يكن يعيش إلا فى إطار الحاضر ولم يَكْلف بما سوف تحمله له الأيام من أحداث . سواء كانت أحداثا طيبة أم رديئة . إنه لم يكن يختزن الحبوب ولم يكن يضع أمواله بالبنوك . بل كان يحيا كالطير تلتقط ما ترزق به أولا بأول . ومن ثم فقد كانت حياته راضية مطمئنة . ولم تكن تعترضه مشكلة الخيار بين التفاؤل والتشاؤم كما هو حال إنسان الحضارة اليوم .



الفصل الثالث

المعنى الميتافيزيقي للتفاؤل والتشاؤم

الفصل الثالث

المعنى الميتافيزيقى للتفاؤل والتشاؤم

الجبر والاختيار :

احتلت مشكلة الجبر والاختيار رقعة كبيرة فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية بالديانات المتباينة .ذلك أن الإنسان قد أخذ يسائل نفسه ويسائل من حوله عن هذه المشكلة منذ أن أحس بنفسه ومنذ أن داعبته الآمال لادعاء الحرية لنفسه فيما يخطط للمستقبل وفيما يتصرف به فى الحاضر ، ومنذ أن لاحظ أن الأحداث والظروف والمواقف والامكانيات تقف له بالمرصاد وتأبى عليه أن يحقق الآمال التى راودته والأحلام التى داعبت خياله فيما يتعلق بحاضر يستمتع به ومستقبل يتعشق تحقيقه ويغوص بوجدانه فى مجاهله .

ولقد انقسم الناس بازاء هذا الموضوع إلى فريقين كبيرين : فريق انتحى أفراده إلى التفاؤل فقالوا بأن الإنسان هو سيد مصيره ، وأن ما يقع للإنسان من أحداث باعتباره فردا لا يحول دون تفاؤل غيره من الأفراد بأنه سوف لا يلقى ما يلقاه سواه من أفراد منكوبين . وأكثر من هذا فان الإنسان يستطيع بتسلحه بالتفاؤل والعزيمة والمثابرة عبر العصور أن يقهر كل العقبات وأن يتغلب على جميع الظروف غير المواتية . فالإنسان فى الغابة أيام القبائل البدائية ربما كان يظن أنه لا توجد قوة على الأرض تستطيع أن تقهر أنياب الأسد المنقض ، أو أن تهدئ من غضب النمر السريع الذى ينهش أترابه من آدميين ويلتهمهم فى دقائق معدودات . بل إن الكثير من الظواهر الطبيعية كانت تبدو للإنسان البدائى وكأنها قدر محتوم سوف يظل قاهرا للانسان عبر جميع العصور التالية . بيد أن تفاؤلية الانسان منذ أن كان بدائياً هى التى سمحت له بأن يتغلب على الصعاب وأن يقهر الأسباب التى يمكن أن تؤدى به إلى التهلكة .

أما فريق المتشائمين وهو الفريق الثانى فان أفراده يؤكدون أن الإنسان فى تغلبه على جانب ما من الجوانب الخطرة التى كانت تحيق به لم يكن ليحول بينه وبين نشوء جوانب خطرة جديدة أكثر عنتا وأشد خطرا من الجوانب التى تمكن من التغلب عليها وقهرها . وإذا كان الانسان قد استطاع بحضارته أن يتغلب على الكثير من الأخطار الطبيعية كالأمراض والوحوش وغيرها . فان حضارته التى خلقها بيديه قد تضمنت هى أيضا وحوشا وأمراضا جديدة أشد فتكا وأهول خطرا من الوحوش والأمراض التى كانت تتضمنها الطبيعة قبل أن تتلوث بيد الإنسان .

ويقع فى موازاة هذين الفريقين . فريقان آخران على نفس النحو : أحدهما فريق متفائل والآخر فريق متشائم . بيد أن هذين الفريقين لا ينظران إلى المسألة من الخارج . بل ينظران إليها من حيث الإنسان نفسه وما ينبعث عنه من تصرفات أو مشاعر أو أفكار . والفريق الأول من هذين الفريقين يعتقد أن الإنسان هو سيد تصرفاته بل هو سيد مشاعره وأفكاره . ومن ثم فإن المسئولية الأخلاقية تلقى على كاهله لأنه حر فى تصرفاته . فأمامك طريق الخير من جهة . وطريق الشر من جهة أخرى . ولك أن تختار الطريق التى ترغب فى انتهاجها . وحتى إذا كنت قد اخترت فيما مضى طريق الشر لنفسك وصرت فى زمرة الأشرار . فان بمقدورك أن تنسلخ من طريق الأشرار وأن تندرج فى طريق الأخيار . وأكثر من هذا فإن طريق النجاة من الشر مفتوح ومتاح لك طالما أنك على قيد الحياة . وحتى بالنسبة للآخرة . فإن المتفائلين يقولون إن رحمة الله تتسع لكثير من الخطاة طالما أن خطاياهم ليست من النوع الذى يستوجب التلظى بنار جهنم وبئس المصير .

أما المتشائمون من أفراد الفريق الثانى فانهم يذهبون إلى أن الأشرار ولدوا كذلك . وذلك لأن ثمة جدا لهم قريبا أو بعيدا اقترف شرا وتمرغ فى الخطيئة ، ومن ثم فانه أورث نسله ما ارتمى فى حضيضه من شر . ولسنا نقول بدعا فخطيئة آدم مورثة لذريته كما تقرر ذلك كثير من الأديان . والواقع أن غالبية الأديان تعتقد أن ابن الزنا يحمل الخطيئة بين أضلعه ولم يكن له أن يوجد على الاطلاق لأنه ابن سفاح وهو ثمرة لشهوة غير مشروعة وغير معترف بها من لدن السماء .

وأكثر من هذا فان هذه الفئة تعتقد أن الوليد شرير وان كان الشر الذى يحمله فى جنباته بمثابة بذرة لم يقيض لها النمو بعد . ولكن ما أن يقيض للطفل النمو والترعرع . فان الشر المغروس فى أعماقه ما يفتأ أن يظهر على سطح حياته ويتبدى فى سلوكه وفى أنحاء تصرفاته المتباينة .

ومن الطبيعى أن يعمد المتفائلون إلى ادعاء الحرية للإنسان . بينما ينكر المتشائمون عليه ذلك مؤكدين أن الإنسان مقيد إلى مصير قاتم . وأن جميع حركاته وسكناته مكتوبة عليه ، وأن لا فكاك من ذلك المصير أو التحرر من القدر المكتوب . فأنت فى نظرهم محدود بحدود كل كلمة قد دونت فى كتاب حياتك مُسْبقاً . فكل خير تلقاه مكتوب لك ، كما أن كل شر يمكن أن تصادفه فى مستقبل حياتك قد كتب عليك أيضا أن تراه .

وحتى اذا هيئ لك فى بعض الأحيان أنك حر فيما تقوم به من تصرفات . فإن حريتك تلك أشبه ما تكون باحساس عقرب الساعة – اذا قيض له أن يحس ويشعر – بأنه حر فى حركته . بينما الواقع أن كل حركة يضطلع بها قد كتبت عليه . وأن الحرية التى قد يزعمها لنفسه ما هى فى الواقع سوى وهم من الوهم وخرافة من الخرافة .

ولقد ذهبت بعض الأديان إلى القول بتناسخ الأرواح . وأن دورة الحياة التى سبق لك أن مررت بها ، إنما تمر بها أيضا فى حياتك هذه . ولسوف تمر بها فى دورات أخرى قادمة . وشاهد ذلك فى رأيهم ما تحس بأنه قد مر بك قبلا فيما يسمى بظاهرة الرؤية السابقة deja vue حيث تقول لنفسك . إن ما يحدث الآن أمامى سبق أن شاهدته فى موقف مطابق له تماما ، بل إنك قد تتنبأ بما سوف يقع فى تطور أحداث الموقف الذى تشاهده ، فلا يخالف ما يحدث عما تتوقع وقوعه بالفعل .

وطبيعى أن يناهض أصحاب المنهج العلمى الموضوعى الأخذ بالاجبار ويقولون صراحة أو ضمنا بالاختيار . فطالما أن أية حادثة تقع على هذه البسيطة إنما هى ترتد إلى سبب ما من الأسباب . فإذن إذا استطاع الإنسان أن يقف على الأسباب المفضية إلى النتائج ، فإنه يستطيع عندئذ أن يتسلح بتلك الأسباب حتى يضمن

لنفسه الحصول على النتائج المرجوة التى يبتغيها . وعلى نفس النحو فإذا عمد الإنسان إلى تحاشى الأسباب التى تؤدى إلى النتائج الرديئة التى يكرهها أو يخشاها ، فإنه بلا شك سوف يتخلص من إمكان أو من احتمال وقوع تلك الأحداث الرديئة .

وعلى هذا فإن جانبا كبيرا – ان لم يكن كل شئ – يمكن أن تتسلمه قبضة الإنسان . فيحظى بالخير ويتجنب الشر . فالإيمان بالعلة والمعلول . أى السبب والمسبب ، يسمح للإنسان بأن يصير سيدا للوجود . بيد أن الآخذين بالنظرة العلمية لا يؤمنون بالحالات الفردية بل بالحالات العامة . فالقانون العام لا يأخذ الجزئيات فى اعتباره بل يأخذ العموميات . فأنت عندما تقول أن الحديد يتمدد بالحرارة ، فإنك لا تقول أن هذه القطعة الحديدية الموجودة أمامى بعينها هى التى تتمدد بالحرارة بل تقول أن الحديد بوجه عام يتمدد بالحرارة . فقد لا أجرب هذه القاعدة العامة على قطعة الحديد هذه . ولكنى أطمئن إلى أن القاعدة العامة المقررة تنطبق عليها وانى اذا قمت بتعريضها للحرارة فإنها سوف تتمدد بالتأكيد . بيد أن الإنسان ليس على شاكلة الحديد . فالحديد ينتظر من يقوم بتعريضه للنار ولكن الإنسان هو سيد مصيره . إنه هو الذى يقتنص الحرية لنفسه أو يظل قابعا فى قبضة الواقع الضيق . فمن يبغى الحرية عليه بالسعى نحوها واقتناصها اقتناصا . المهم ان قاعدة السبب والمسبب هى الأساس ، ولكن قد تدخل فى حياتك أسباب أخرى ليس لك عليها سلطان . فاذا استطعت حذف تلك الأسباب أو إبطال مفعولها . فإن الأسباب التى توفرها لنفسك سوف تعمل عملها بالتأكيد . ولاشك أن ثمة أسبابا يتعذر التغلب عليها ، وتظل هى المهيمنة على مقدرات الأفراد بل وعلى مقدرات الجنس البشرى . فلابد اذن من الاعتراف بالحدود التى يمكن أن تصل اليها حرية الإنسان . ولكن هذا لا يحول دون التفاؤل بأن نسبة كبيرة من الحرية يمكن الاستحواذ عليها ، وأنه كلما كنا أكثر تفاؤلا ، كنا بالتالى اكثر حماسا للسعى نحو الحرية .

العنصرية :

العنصرية معناها أنك تعتقد أن ثمة جنسا ما من أجناس البشرية – سواء كان الجنس الذى تنتمى اليه أم أى جنس آخر – أفضل الأجناس جميعا . أو أن جنسا ما أفضل من جنس آخر . وعلى العكس من ذلك فان اللاعنصرية أو ما يمكن أن نسميه بالإنسانية ، تُؤكد أن بنى الانسان جميعا على نفس القدر من القدرة على التقدم وعلى نفس القدر من الاستعداد للخير وعلى نفس القدر من الذكاء ونفس القدرة على اكتساب الخبرات المتباينة والتقدم بالحضارة إلى شوط أبعد مما وصلت اليه .

ونستطيع أن نقرر من زواية أخرى أن العنصرية تعتمد على القول بالوراثة العامة للسلالة الواحدة ، بينما تعتمد الإنسانية على القول بالوراثة العامة الخاصة بالجنس البشرى بأسره . وبتعبير آخر فان النزعة الإنسانية قد جعلت المتغير الوحيد هو المؤثرات البيئية . وعلى هذا فإن إختلاف سلالة بشرية عن سلالة آخرى فى ناحية ما من أنحاء الحياة ، معناه أن ثمة تباينا قد وقع فى تلك الموثرات البيئية . وليس سبب الاختلاف بينهما هو اختلاف فى الإستعدادات الموروثة لدى كل من السلالتين .

وواضح من هذا أن العنصرين يسدُّون الطريق إلى التقدم والنجوع أمام السلالات الأخرى التى لا يتحمسون لها ، بل انهم يلقون فى روع الواقعين فى نطاق تلك السلالات أنه قد حكم عليهم بأن يظلوا قابعين فيما هم يقبعون فيه من تخلف وغباء وشر . وعلى النقيض من ذلك فإن الإنسانيين أو غير العنصريين يفتحون باب الأمل للتقدم والإزدهار والعبقرية والخير أمام جميع أفراد الجنس البشرى ، وذلك لأن أبناء الجنس البشرى جميعا يقعون فى نطاق فئة واحدة هى فئة الأسرة البشرية .

وبينما تجد أن العنصريين يتناولون التاريخ من الزاوية العنصرية فيدللون مثلا على عبقرية اليونان التى تفردوا بها فى مجال الفلسفة دون غيرهم بما ظهر من نهضة فلسفية باليونان وحدها خلال القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد ، مما يؤكد على أن الذكاء قد كتب لليونان القدماء دون غيرهم . أو يدللون على أن ما أظهره المصريون القدماء من عبقرية فى المعمار والحرف اليدوية والعلوم النظرية التجريدية كالهندسة التى

كانوا يمارسونها عمليا وقد انتظروا حتى زارهم فيثاغورس اليونانى وجرد ما كانوا يمارسونه عمليا واستخلص أول نظرية هندسية مجردة فى التاريخ ، إنما هو شاهد على أن المصريين لم يكونوا عباقرة فى الناحية النظرية بل كانوا عباقرة فى التطبيق العملى . وهكذا يميز العنصريون حتى فى دراستهم للتاريخ بين سلالة وأخرى بغير أن يردوا مثل ذلك التمييز إلى عوامل بيئية حضارية ، بل يردون ذلك إلى فطرة موروثة ومواهب مغروسة فى بنية السلالة التى يعمدون إلى تبجيلها والرفع من شأنها وإعلائها على باقى السلالات الأخرى .

أما أفراد الفريق الثانى – أعنى الانسانيين – فإنهم يذهبون إلى تأكيد المقومات التى تعزِّز وتحرك وتَدْعم العوامل البيئية والحضارية والعوامل التربوية وما يتبع فى تنشئة الأجيال النابتة البازغة التى ترث الحضارة وتستمر بها وتتقدم نحو آفاق جديدة أرحب من الآفاق التى قيضت للأجيال السابقة عليها .

ولسنا بحاجة أن نقرر أن العنصريين يشكلون فئة المتشائمين . بينما يشكل الانسانيون – أو البيئيون – فئة المتفائلين . فمن يسد الأبواب أمام شعوب الأرض مؤكداً أنها مهما اجتهدت ومهما قيض لها من عوامل التحضر والتنشئة فإنها سوف تظل قابعة ومتمرغة فى أحضان الجهل والفقر والتخلف والشر ، فإنه بلا شك يمثل التشاؤم أصدق تمثيل . وعلى النقيض من ذلك فإن من يفتح أبواب التقدم والإزدهار والحكمة والذكاء والتقدم والخير والسداد فى الحياة أمام جميع شعوب الأرض بغير تمييز بينها أو تفضيل بين شعب منها على باقى الشعوب ، فإنه بلا شك يمثل التفاؤل ويتلبس به وينحو إليه ويأخذ به ويجعله نبراسا يهتدى به فيما يسير عليه فى حياته وفى فكره وفى تفسيره للظواهر الحضارية والإجتماعية والعلمية .

ولعنا نتساءل هنا : هل الحقائق التى تقيض للمرء فيما يتعلق بالظواهر الحضارية والتاريخية هى التى تجعل منه عنصريا أو إنسانيا ، أم أن مزاجه والمقومات الوجدانية المعتملة لديه هى التى تسوق فكره إلى الاتجاه التشاؤمى أو إلى الاتجاه التفاؤلى ؟ الواقع أن علماء النفس فى جميع تاريخ علم النفس الحديث قد انقسموا إلى فئتين أساسيتين : فئة تقول بالداخل وقد أطلق عليهم اسم علماء نفس الأعماق

depth psychology ويمثل هذه الفئة فرويد ومدرسة التحليل النفسى . وفئة تقول بالخارج ويمثلها مدرسة السلوكيين الذين يقولون بارتباط الخبرة الجديدة بالحصيلة الخبرية التى حصَّلها المرء . وقد أخذوا يحللون جميع أنحاء الحياة الإنسانية فى ضوء المبدأ الإشتراطى أى إرتباط مثير جديد – أيا كان -- بمثير قديم له استجابة معينة لدى الإنسان . فالتلميذ الذى يخاف من الإمتحان يكون الإمتحان لديه هو المثير . والخوف من الامتحان هو الإستجابة . فإذا ما ارتبط صوت جرس اللجنة التى يعقد بها الإمتحان بكلمة إمتحان أو لجنة . فإن صوت الجرس المشابه لجرس اللجنة أو الإمتحان إنما يؤدى إلى حدوث نفس النتيجة . وهى الخوف فى نفس الشخص . وقس على ذلك مشاهدة صندوق الميت أو سماع جرس عربة الإسعاف أو الإطفاء أو مشاهدة اللون الأسود أو غير ذلك من مثيرات تسمى بالمثيرات الشرطية .

وبازاء العنصريين التشاؤميين والإنسانيين البيئيين المتفائلين ، فعلينا أن ننضم إلى فريق من فريقى علماء النفس بصدد تفسيرهما للسلوك الإنسانى . فإذا إنضممنا إلى علماء نفس الأعماق . فإن علينا إذن أن نقول إن الداخل المتعلق بالعوامل النفسية ، سواء من حيث التكوين الوراثى للمرء . أم من حيث الخبرات المبكرة فى الطفولة الباكرة وما تبلور حوله وجدان المرء واصطبغ به من صبغة معينة وتشكَّل وفقه من صيغ ثابتة نسبيا ، هو المسئول عن الانتحاء إلى القول بالعنصرية أو بالإنسانية ، ولا تكون المعلومات التى يحشدها العنصرى لإثبات صدق مزاعمه سوى تبريرات يلجأ إليها ويتذرع بها لمساندة ما سبق أن أعتمل لديه من مقومات وجدانية .

وعلى عكس ذلك فإذا إنضممنا إلى علماء النفس السلوكيين ، فيكون علينا إذن أن نؤمن بأن المعلومات والخبرات الموضوعية هى التى تشكل الكيان السيكولوجى للعنصرى أو للأنسانى وليس المقومات الوجدانية المتعلقة بالطفولة الباكرة وليس كذلك المقومات الوراثية المغروسة فى جبلة الجنس المعين من الأجناس ، سواء كانت مقومات وراثية تدفع إلى النبوغ والتفوق ، أم كانت مقومات وراثية تدفع بالجنس إلى الإنحطاط والتدهور .

والواقع أننا نؤمن بأن المزاج الذى فطرْعليه المرء والمؤثرات التربوية التى ساعدت على تشكيل ملامح وجدانه وبخاصة منذ الطفولة الباكرة لها أكبر الأثر فى حمل

العنصريين على القول بالعنصرية وحمل الإنسانيين على القول بالمقومات البيئية التربوية والتخفف من ثقل العوامل الوراثية . ولكن هل معنى هذا أن العنصرى أو الإنسانى يجعل المعلومات مجرد أدوات يبرر بها موقفه التحيزى المُسبقْ ؟ الواقع أن العنصرية أو الإنسانية يشكلان موقفا إجتماعيا ، بل قل موقفا سياسيا بالدرجة الأولى . فهتلر عندما أعلن أن الشعب الآرى شعب نقى ويسرى فى عروقه الدم الأزرق ، واليهود فى إعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وأن الأمم أقل منهم مرتبة من حيث القدسية ومن حيث القرب من الله ، إذ يؤثرهم بكل الخير ، بينما ينقم على جميع شعوب الأرض لأنهم أمميون ، إنما ينزعون فى ذلك عن نوازع إجتماعية وسياسية . وترتبط السياسة بشيئين أساسيين : منفعة مادية ومعنوية لشعب ما أو لمجموعة معينة من الناس ، وخفض من قيمة الشعوب الأخرى وألفت فى عضدها والتحقير من شأن تلك الشعوب أو المجموعات بقصد إضعافها والتهوين من شأنها . ناهيك عن التربية التى يتذرع بها السياسيون حتى يبثوا المعتقدات فى قلوب الناشئة ، فيستحيل ما رسم وخطط له مُسبْقا وبطريقة مفتعلة ومقصودة إلى عقيدة أشبه ما تكون بالعقيدة الدينية أو إلى عقيدة دينية بالفعل كما يقول أفلاطون بازاء المدينة الفاضلة لديه .

ولعنا بهذا نكون قد وضعنا النقط على الحروف فيما يتعلق بالسؤال الذى طرحناه . فنقول إن تشاؤمية العنصرى تنبع أساسا من موقف خارجى مفتعل ، ثم ما تفتأ أن تصير عقيدة مغروسة فى قلبه وقلوب باقى الناشئة من بعده . وكذا الحال بالنسبة للإنسانى فى تفاؤليته . وبذا يلتقى الخارج مع الداخل سواء بالنسبة للعنصريين أم بالنسبة للإنسانيين .

توارث الخطيئة وعواقبها :

ألمعنا فيما سبق إلى أن الذين يعتقدون فى الطبيعة الرديئة للإنسان منذ ميلاده ، إنما يعتقدون فى نفس الوقت أن ثمة خطيئة اقترفها الجد الأول للانسان ضد الإلـه فوقع عليه غضب أبدى يلاحق جميع نسله عبر العصور المتعاقبة . فالخطيئة كامنة لدى الوليد ثم تنمو مع نموه وتبدو للعيان حالما يتسنى له اقتراف الشر . وفى مقابل هذا الموقف نجد موقفين آخرين متباينين : الأول – يقول إن طبيعة الوليد إنما هى طبيعة حيادية . فالطفل يولد كصفحة بيضاء لم يدون عليها أى شىء بل يمكن أن يدون عليها الخير أو يدون عليها الشر حسبما تصادفه تلك الصفحة من كتابة . فالإنسان وفق هذا الاتجاه ابن بيئته وابن الظروف التى ينشأ فيها . أما الموقف الثانى ، فيقول أصحابه بأن الإنسان يولد طيبا يميل إلى الخير بطبعه . فهو تقى ومن جبلة نقية غير مشوبة بأى خلل أو خطيئة . بيد أن الحضارة الانسانية وما تحمله من أفكار واتجاهات وممارسات وقيم رديئة ما تفتأ تؤثر فى قوامه وتعزف به عن طبيعته النقية الخيرة إلى كيان آخر ردىء . فالشر ليس فى داخل الانسان بل فى خارجه .

وأكثر من هذا فان المدافعين عن هذا الاتجاه الأخير يقولون إن ما يبدو من شر فى الحالات الجزئية والفردية ، لا يعتبر كذلك إذا ما نظرنا إلى الموقف من الخارج ككل . فالحروب والأوبئة بل والجرائم المتباينة لا تعد شرا إلا إذا نظرنا إليها بالنسبة للحالات الفردية الجزئية . ولكن إذا تصفحناها من وجهة نظر كلية ، فانها لا تعد شيئا . فالحكم لا ينبغى – فى نظر أولئك الناس – أن يصدر على الحالات الفردية ، بل يجب أن يصدر على المحصلة النهائية للمجتمع الإنسانى ككل . وأكثر من هذا فإن نفس ذلك المجتمع الإنسانى يجب أن ينظر إليه عبر التاريخ ككل وليس فى نطاق حقبة تاريخية معينة ، ولا فى نطاق تاريخ شعب واحد من الشعوب . ولقد يغالى البعض فينادون بأن الحكم يجب أن يصدر على الإنسان كنوع من أنواع الكائنات الحية ينطرح عند الحكم عليه إلى جانب باقى أنواع الكائنات الحية المتباينة .

ومعنى هذا فى الواقع أن أصحاب هذه النظرة الأخيرة – وهى النظرة إلى المجموع لا إلى كل فرد على حدة – إنما يعمدون إلى إذابة الأفراد فى المجموع . وهذا المجموع

الذى علينا أن نأخذ به يتسع شيئا فشيئا إلى أن يشمل الجنس البشرى كنوع من أنواع الكائنات الحية عبر ملايين السنين . وهكذا يتخلص أصحاب هذا الاتجاه من الإحساس الشخصى الفردى ويحاولون الضرب به عُرْض الحائط إذا ما وجد لدى الفرد . فهم ينادون ويلحون فى النداء بأن أذب نفسك أيها الفرد فى المجموع حتى تتخلص من همومك الداخلية ، ولا تقم الوزن الكبير لنفسك فى وسط هذا الخضم الهائل من جحافل البشرية الذين يقضون شطرا من الزمن على هذه البسيطة ثم سرعان ما يتوارون فى الثرى وقد حل محلهم سواهم بل وأكثر منهم .

والواقع أن ضرب الفردية على هذا النحو والتشيع للجماعية والدعوة إلى إذابة الفرد فى نطاق المجموع وعدم إقامة أية اعتبارات للمشاعر والأحاسيس والوجدانات والعواطف الفردية ، إنما يذيب الانسانية ذاتها بما تحمله من خصائص هى أهم خصائصها . وهل من خاصية أرفع من خاصية إدراك المرء لنفسه كموضوعٍ خارجى يصدر الحكم بازائه بما فى ذلك إحساسه بالذنب والخطيئة ؟ إن من يقول إن أساس الإنسانية هو المجموع يمكن الرد عليه أيضا بأن أساس الإنسانية هو الفرد . فإذا قال قائل إن الفرد لا يستطيع أن يحيا وحده ولابد له من أن يتلبس بالقيم والمعايير التى ينشأ عليها بمجتمع معين ، فإننا نرد عليه أيضا بأن الأفراد هم الذين قاموا ببناء الصرح الهائل للمعايير والقيم الاجتماعية ، بل إن ثمة أفرادا بالذات كانوا المنظمين والمشرعين والمدعمين للقيم الانسانية عبر التاريخ يتمثلون أكثر ما يتمثلون فى الأنبياء والحكماء والفلاسفة والمشرعين والمصلحين الاجتماعيين .

ومهما يكن الأمر فنحن نعطى صوتنا للفردية بغير أن ننكر ما للمجموع من وزن هائل فى تسيير دفة الحياة الانسانية . ومهما يكن الأمر أيضا فلا محيص من الاعتراف بالإحساس بالذنب يعتمل بعمق فى أغوار الأفراد . ولعلنا نتساءل : هل الشعور بالذنب خصيصة عامة تشمل الجنس البشرى بأسره عبر العصور ، أم أنه حالات فردية غير عامة ؟ الواقع أن الإحساس بالخطيئة خصيصة عامة تشمل الجنس البشرى كافة عبر العصور المتعاقبة . وشاهد هذا ما كشف فرويد النقاب عنه من أن ثمة غريزة مقابلة لغريزة البقاء تعتمل لدى جميع الناس هى غريزة الموت . فلو أنك ارتقيت

سطح مبنى شاهق وتطلعت إلى الأرض وأنت فى ذلك الموضع المرتفع ارتفاعا شاهقا ، فانك تجد نفسك ميالا إلى الالقاء بنفسك إلى الأرض . فاذا صح هذا – وهو صحيح – فيكون الانسان ميالا إلى معاقبة نفسه بأن يقتل نفسه .

ولعلنا نفسر وجود توازن بين غريزتى البقاء والموت لدى الإنسان ، بالخير والشر يعتملان فى جبلة البشرية . فأنت تحافظ على كيانك من الموت لأنك تنظر إلى نفسك فتجد طبيعة الخير فيك ، وأنت أيضا تنحو إلى التهلكة لأنك تنظر إلى نفسك فتجد طبيعة الشر فيك أيضا . وبالنسبة للشخص السوى فان تعادلا يتم بين هاتين النظرتين فيتردد بين الحياة والموت ، ثم تدخل اعتبارات أخرى نفسية واجتماعية تغلب البقاء على الموت ، كالخوف من الخطر أو استيقاظ الضمير الديني أو الخوف من ضياع السمعة ، أو مجرد إجالة التفكير المنطقى فى الموقف .

وإذا صح زعمنا بأن الإحساس بالخطيئة مغروس فى جبلة الإنسان بغض النظر عن تباين التفسيرات والتعليلات المتعلقة به ، فإن علينا أن نضيف أيضا إلى هذا ، الإحساس بالخطايا الفردية وهو ما ينضاف أو يدعم الاحساس بالخطايا أو الخطيئة المتعلقة بالجنس البشرى نفسه . ولعلنا نفسر الاحساس بالخطيئة بأنه العراك بين مقومين أساسيين لدى الانسان ، أعنى مقوم الخير من جهة ومقوم الشر من جهة أخرى ، وقد قلنا إن الاحساس بخيرّية الانسان ينحو به إلى التشبث بالبقاء ، بينما ينحو به الاحساس بشريته إلى الانتحار والانتقام من ذاته ، أو الهروب من الحياة .

والواقع أن الناس ينقسمون إلى فريقين : متفائلون ومتشائمون بإزاء الإحساس بالخطيئة . والمتفائلون يعتقدون أن بمقدورهم أن يتخففوا من هذا الإحساس باتباع طقوس معينة أو بانتهاج سلوك معين . ولقد عمدت كثير من الشعوب إلى تقديم القرابين والذبائح للتخلص من وطأة الإحساس بالخطيئة أو لاسترضاء الآلهة أو الاله والتقرب إليه . ولكأن الإنسان وهو يذبح الضحية يكون قد أستبدل بنفسه – وهو المستحق للقتل – كائنا آخر كبديل له . ولكأنه يقول للالهة « ها إنى ذبحت نفسى فى شخص هذا الحيوان الذى أقدمه اليك قربانا على مذبحك » . ناهيك عن أن المتفائلين يتشيعون للخير وقد اعتقدوا أن ترجيح كفة الخير على كفة

الشر يمحق الشر فى نفوسهم ويمحو آثار الخطيئة الموروثة عن الأجداد من جهة . كما يمحو الخطايا الفردية التى اقترفها المرء نفسه من جهة أخرى .

وطبيعى أن يتخذ فريق المتشائمين الموقف المضاد لهذا الموقف . فهم يشاهدون الدنيا والآخرة بمنظار أسود . فالدنيا رديئة والآخرة أيضا شر من شر ، ومستقبل الإنسان مظلم كأشد ما يكون الظلام . وأكثر من هذا فان الخير لا ينفع المرء نفسه ولا يشفع فى مستقبله . أضف إلى هذا أن هؤلاء المتشائمين يعتقدون أنه لا سبيل إلى إصلاح حال الإنسان لأنه شرير بطبعه ، وقد أخذ يتربص بأخيه الإنسان ويخطط للقضاء عليه ويتشفى لما يمكن أن يصيبه ويقع عليه من مصائب . ولعل المتشائمين لا يعترفون بدنيا أخرى – آسف بآخرة بعد الدنيا – يمكن أن يتخلص الإنسان – وقد اقترب من أبوابها – مما سبق أن لصق به من شر فى هذه الدنيا ، سواء نتيجة تصرفاته أم نتيجة ما ورثه من شر عن أجداده القريبين والبعيدين . ولهذا فإنهم يعاملون أنفسهم ويعاملون غيرهم من هذا المنظور القاتم ، بل لعلهم يقصرون تقييم الوجود فى ضوء زاوية واحدة ومبدأ واحد هو مبدأ النفع والضرر ، أو مبدأ اللذة والألم ، وقد أخذوا يحطون من أقدارهم إلى مستوى ليس أرفع من مستوى البهائم التى تسعى لما يقيم أودها المادى ولما يعزف بها عن الألم ، منكرين على أنفسهم وعلى غيرهم ما خبئ فى جنباتهم من مقومات روحية غير مادية .

مستقبل الإنسانية :

ينقسم الناس إلى فئتين كبيرتين : فئة الرجعيين من جهة ، وفئة التقدميين من جهة أخرى . وبينما يعتقد لتقدميون أن الحاضر أفضل من الماضى ، وأن المستقبل سيكون حتما أفضل من الحاضر ، فان الرجعيين من جهة مقابلة يعتقدون أن الماضى كان أفضل من الحاضر ، وأن الحاضر أفضل من المستقبل . وواضح أن التقدميين يشكلون فى نفس الوقت فئة المتفائلين ، بينما ينعت الرجعيون بالتشاؤم .

وبناء على هذين الموقفين المتناقضين أشد التناقض ، فاننا نستطيع أن نتناول مستقبل الانسانية للنظر اليه من وجهة نظر كل من التقدميين المتفائلين ، والرجعيين المتشائمين .

فمن حيث المستقبل المادى للانسانية وما يتعلق بسد حاجاتها من ملبس ومأكل ومشرب ومأوى ، فانك تجد أن التقدميين يعتقدون فى قدرة الإنسان على حل مشكلات الغذاء والكساء والمأوى بما قيض له من علم وتكنولوجيا . ولعل المتفائلين يعقدون الأمل على الكيمياء كفن ناجح قادر على الاستغناء عن الموارد الطبيعية التى تقدمها الأرض والكائنات الوسيطة أعنى الحيوانات – فى سد حاجة الإنسان إلى الغذاء . إنهم يقولون إن بمقدور الإنسان أن يصنع اللحم من مواد متباينة ورخيصة ومتوافرة كالفحم أو البترول ، وبمقدور الإنسان – وقد استطاع الإنسان الصينى ذلك بالفعل – أن يصنع الأقمشة من أنواع معينة من الصخور . أما المأوى فلسوف يستغل الإنسان مهاراته فى بناء المساكن لجميع من تعوزهم السكنى . ولسوف يستغل الصحراوات وأعماق البحار بل والفضاء لهذا الغرض .

ويقوم التقدميون المتفائلون برسم صورة للمستقبل أقرب ما تكون الى الجنة . إنهم يعتقدون أن إنسان المستقبل سوف ينعم بالكماليات يستأثر بها المرفه من الموسرين اليوم ، ولكنها سوف تعتبر فى نظر إنسان الغد من الضروريات وليس من الكماليات . فالفارق بيننا وبين إنسان المستقبل كالفرق بين الإنسان القديم وبيننا . فما كان ينظر اليه الانسان القديم على انه كماليات ورفاهية قد ننظر إليه نحن الآن على أنه من الضروريات التى لا غنى عنها ولا محيص عن الاستعانة بها فى الحياة اليومية العادية .

وحتى بالنسبة لمشكلة السكان والتفجر السكانى ، فان التقدميين المتفائلين يعتقدون أن هذه المشكلة التى يصورها البعض على أنها مشكلة خطيرة تهدد الحياة على الأرض سوف تحل ببساطة عن طريقين : الطريق الأول – احتلال الكواكب المحيطة بالأرض – أو بعضها – حيث يتدخل علماء البيولوجيا فى قوام الانسان فيصير قادرا على التكيف للظروف المناخية بكل كوكب من الكواكب التى يراد تعميرها واحتلالها . لسوف يستغنى مثلا عن الرئتين كوسيلة لاستقبال الأكسوجين . لتحل محلها بدائل أخرى كأن يتلقى الانسان الأوكسجين بواسطة أجهزة أخرى بديلة تركب محل الرئتين . ذلك أن قطع غيار الجسم سوف تصير متوافرة ويتم الاقبال عليها وبخاصة اذا كانت أكثر نجوعا فى أداء المناشط التى يعجز انسان اليوم عن القيام بها .

لقد يتم تركيب أجنحة صناعية فى عضلات الذراعين والفخذين بحيث يصير فى مقدور انسان المستقبل أن ينتقل فى الهواء ولا يظل مرتبطا بالأرض فى حياته وعلاقاته اليومية كما هو حاله اليوم .

أما الحل الثانى لمشكلة التفجر السكانى التى يأمل التقدميون فى تحقيقها فهى التحكم فى عدد السكان بل وفى عدد الذكور والإناث ، وذلك عن طريق التحكم فى نوع الجنين لدى تكونه . وليس هذا بالشئ الغريب بعد أن ولد أول طفل تم تكوينه جنينا خارج رحم الأم . فبعد أطفال الأنابيب سيكون من الميسور أيضا اعداد الجنين بالمعمل . ولسوف يتم أيضا التغلب على كثير من مشكلات الوراثة بحيث يكون من الممكن وضع خصائص وراثية جديدة فى الانسان الجنين واستبعاد خصائص وراثية غير مستحبة .

ويسترسل المتفائلون فى أحلامهم فيعتقدون أن الانسانية سوف تفيق من كابوس الحروب الباردة والساخنة . وذلك بعد التوصل الى نظام عالمى جديد يحل محل الأمم المتحدة . ولسوف يساعد الاتصال ووسائله المتعددة والمتكثرة على المزج بين الأفكار المتباينة والمعتقدات المتضاربة والتقاليد والعادات الاجتماعية غير المتآلفة . فتتقارب الأفكار والأمزجة ، وينهار الجدار القائم بين سكان القرى وسكان المدن ، كما لا تصير هناك دول فقيرة متخلفة وأخرى غنية متقدمة . بل تصير جميع شعوب الأرض غنية ومتقدمة ، ولسوف تختفى أيضا التفرقة العنصرية بسبب لون البشرة ، وذلك لأن لون البشرة سيصير خاضعا لقدرة الانسان على التحكم فيه سواء عن طريق التحكم فى الوراثة ، أم عن طريق العقاقير والمراهم التى يمكن أن تكسب لون الجلد ما يرغب فيه صاحبه.ضف إلىهذا ما سوف يتذرع به الانسان من جراحات التجميل بحيث يتسنى تغيير ملامح الزنجى مثلا ليصير مطابقا لملامح الرجل الأوربى ، كما سوف يتم التحكم فى الطول والسمنة . ناهيك عن التحكم فى الأمراض التى تهدد صحة وسعادة انسان اليوم وعلى رأسها الأمراض السرطانية .

وفى مقابل هذا الموقف التفاؤلى الذى ينحو اليه التقدميون فيحيلون ظلام اليوم إلى نهار مشرق فى الغد القريب أو الغد البعيد ، ويجدون من خيالهم الخصب ردودا

يقدمونها أمام كل تشاؤم فى المستقبل . فإننا نجد أن المتشائمين يشيحون بوجوههم عن هذه الآمال التى يعتقدون أنها أمال طنانة فارغة . وينظرون بمنظار قاتم كالح الى المستقبل . إنهم يتباكون أولا على الماضى ويشيرون إلى المجاعة التى تهدد الإنسانية فى المستقبل القريب جدا – ان لم يكن الحاضر الملتحم والمتداخل مع المستقبل . إنهم يشيرون إلى فارق جوهرى بين ما يمكن عمله وبين ما تنحو إليه البشرية بالفعل . فالإنسانية تتجه إلى الهاوية التى حفرتها بمخالبها لنفسها . وكل تقدم حضارى إيجابى لرفاهية البشرية . يتواكب معه تقدم حضارى سلبى أخطر منه . بل يساوى فى قوته أضعاف التقدم الحضارى الإيجابى الذى يتم احرازه . فاستصلاح الأراضى للزراعة مثلا يتواكب معه اختراع قنبلة ذرية . والقيام برحلة إلى الفضاء وعقد الأمل على أن يكون أحد الكواكب مهبطا للانسان والاقامة به فى سلام . يتركه مسارعة رجال الحرب إلى جعل ذلك الكوكب قاعدة حربية ويحرِّمون على أى مدنى الاقتراب منه أو الاقامة به .

ولعل الإنسانية سوف تستنزف آخر قطرة دم وآخر قرش من جيوب الناس لكى تعد بهما الجيوش لمعارك حربية حقيقية أو موهومة . ولعل مايسمى بالحروب الباردة – وهى من ابتكارات الانسان الحديث – أشد فتكا للموارد المتاحة من الحروب الساخنة . واذا كانت الحروب الباردة تشغل كل وقت السلم وتسبق الحروب الساخنة . فمعنى هذا فى الواقع أن الانسانية فى حرب دائمة وفى استنزاف دائم للموارد .

أما بالنسبة للتفجر السكانى فان الأمل محدود للغاية فى أن تلحق التكنولوجيا . وتطبيقاتها على شئون الإنسان بالواقع المرير الذى وصل اليه حجم المواليد . وهل التكنولوجيا شىء جديد ؟ إننا فى مصر نجد أن الدعوة الى تنظيم النسل قد بدأت من أكثر من ربع قرن . وتكنولوجيا الطب تحاول بغير ما جدوى لوقف الطوفان السكانى . ناهيك عن مشكلات الهجرة الداخلية ونزوح الأهلين من الريف إلى المدن ، فالمدنية هى العدو اللدود للإنسان . ان كل فلاح يترك حقله ويلجأ إلى المدينة للالتحاق بركب المدنية لا يود أن يعود مرة أخرى إلى قريته ليخدم حقله من جديد .

اضف الى هذا أن المساكن تزحف على الأراضى الزراعية . وقد استغلت التربة الزراعية لصناعة قوالب الطوب لتشييد العمارات الهائلة .

أما الطب فانه كلما تغلب على أحد الأمراض ظهر جيش آخر من أمراض الحضارة . ولعل ما يصيب الانسان الحديث من أمراض أخطر وأشنع من الأمراض الناجمة عن التخلف الحضارى . فتلوث البيئة وإصابة الأجهزة العصبية بالانهيار نتيجة التوترت وسرعة الحركة والأصوات المرتفعة التى لا تكاد تخفت والحوادث الناجمة عن المواصلات والمخدرات المطردة فى الانتشار إلى أن شاعت بين الشباب بما فى ذلك الشباب الجامعى من الجنسين . والمشكلات الجنسية الناجمة عن تعذر الزواج بسبب أزمة الإسكان إلى غير ذلك ، إنما تصيب الإنسان الحديث بوابل من الأمراض الجسمية والنفسية . فتدمر سعادته وتيئسه من التمتع بمستقبل مطمئن . وهكذا تجد أن المتشائمين يرسمون لك صورة قاتمة كأشد ما تكون القتامة لمستقبل الإنسانية وما ينتظرها من نكبات ومآس وأوصاب .

النظرة الى الحياة والموت :

يتخذ المتشائمون مواقف متعددة من الحياة كتعبير عن تشاؤميتهم . بيد أنهم يتفقون جميعا بازاء المحور الذى يلتفون حوله وتتبلور حوله فلسفتهم ونظرتهم إلى الحياة . والمحور الذى يتفقون عليه هو أن الحياة ليست بذات قيمة . لأنها سرعان ما تتلاشى ويموت الإنسان ويستحيل إلى حفنة من تراب . ولعلنا نحاول فيما يلى أن نقدم المواقف المتباينة والمتعددة التى يتخذها المتشائمون بعد أن اتفقوا جميعا على هذا المحور الذى تدور حوله نظرتهم إلى هذه الحياة .

أما الموقف الأول فهو موقف النبذ وعدم الإقبال على الحياة إلا فى أضيق نطاق ممكن للإبقاء على الحد الأدنى للمناشط الحيوية . وبناء على هذه النظرة النافرة فإن المتشائم لا يستطيع أو لا يرغب فى الوقوف على ما فى الحياة من حق وخير وجمال . إنه لا يشاهد فى الحياة سوى الباطل والشر والقبح . ومن ثم فانك تجد المتشائم لا يَكْلَف بجماله ولا بجمال البيئة المحيطة به . إنه ينظر إلى القبح باعتبار أنه الحقيقة المطلقة

للوجود . فالجمال إن هو سوى خدعة يختلقها البعض لأنفسهم وقد أشاحوا عن الحقيقة المرة التى تهيمن على هذا الوجود . ولعل الهيبز وغيرهم من الشباب المتشائمين قد نحوا هذا المنحى وضربوا فى هذا الطريق . مهملين كل الوسائل التى يمكن أن تضيف الى أجسادهم وممتلكاتهم النظافة والجمال .

ونفس الشئ يقال عن موقف المتشائم من الخير. إنه لا يرى فى العلاقات الاجتماعية ولا فى طبيعة الناس سوى الشر . ومن ثم فانك تجده ينظر الى الناس كذئاب تتربص بالحملان .فليس من قانون يحكم العلاقات الاجتماعية فى نظرهم سوى قانون واحد هو قانون القوة . فالقوى ذئب والضعيف حمل . بيد أن المتشائمين لا يحصرون القوة فى مفهوم واحد أو فى ناحية واحدة ، بل ان القوة فى نظرهم متعددة الأشكال والأنواع . فثمة القوة العضلية . وثمة القوة الاقتصادية المتمثلة فى المال ، وثمة القوة الادارية . والقوة الحربية ، والقوة النفسية . والقوة العقلية . ولعل صاحب الحيلة من الضعفاء يستحيل إلى شخص قوى بالحيلة والدهاء والطرق الملتوية . المهم أن الإنسان بإزاء أخيه الإنسان لا يقيم وزنا لخير يعتمل فى جنباته كما قد يزعم المتفائلون . بل إنه ينبعث فى سلوكه عن شر معتمل فى قلبه ومغروس فى جبلته حتى وان ألبس الشر أثوابا تظهره كخير من الخير.

ونفس الشيء أيضا يقال عن موقف المتشائم من الحق . فليس ثمة حق فى هذا العالم بل هناك الباطل فقط . ولعل الحق الوحيد الذى يوجد فى العالم فى نظر المتشائم ما كان متعلقا بالحقائق الرياضية والوقائع الفزيائية . أما بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والنفسية فليس ثمة حق . فكل ما يتعلق بالانسان لا يحكم له أو عليه بأنه حق أو باطل ، بل هو هباء ولاتعين . أو قل إنه حق اذا أردته حقا وباطل اذا أردته باطلا .

أما الموقف الثانى الذى قد يتخده المتشائمون فهو موقف الاقبال بنهم على الحياة للاستمتاع بما تتضمنه من لذات . وفى هذا الموقف نجد المتشائمين لا يتعلقون الا بما يلذ . ولكأنهم يقولون لأنفسهم «طالما أن الحياة باطلة فلنستمتع بها قبل أن نمرض ونموت » . فهم لا يتناولون الحياة كشئ يستحق الاحترام والتقدير ، بل كشئ يستحق الامتهان والنهب . فاقبالهم على الحياة ليس إقبال المحب بل اقبال المنتقم .

ولقد يظن البعض أن مثل هذا الاقبال إنما يدل على التفاؤل وليس على التشاؤم . والواقع مخالف لذلك تماما . ذلك أن المتشائم ينهب الحياة ولا يعطيها شيئا . بينما يعمد المتفائل إلى الأخذ من الحياة والإضافة إليها فى نفس الوقت .

أما الموقف الثالث الذى قد يتخذه المتشائم فهو اللامبالاه . إنه فى هذا الموقف يتخذ الموقف الانسحابى الهامشى . فهو لا يجرى وراء الحياة ولا يجرى منها . إنه ينظر بغير اكتراث إلى نفسه والى ما حوله . ولكأنه من غير أهل الدنيا . إنه لا يقيم وزنا لنفسه ولا لغيره ولا للامكانيات المتاحة له أو التى يتيحها له غيره . وقد تستطيع ملاحظة مثل هذا الموقف غير المبالى فى احجام المتشائم عن إصدار الأحكام على الأشياء والمواقف . إنه يقف حيراناً أو كالحيران . أو لعل الحيرة نفسها لا تجد سبيلا الى نفسه ولا تقرع باب وجدانه . لأن الحيرة ذاتها تعبير عن جهد نفسى عاطفى قلما يرضى المتشائم اللامبالى عن بذله ولا يقبل على مثل هذا البذل .

وإذا كان هذا هو حال المتشائمين بتجاه الحياة . فان حالهم بتجاه الموت لا يختلف كثيرا عن ذلك . إنهم قد ينغمسون حتى آذانهم فى التدين خوفا من آخرة كلها عذاب وبئس المصير . ولقد تجد المتفائلين ينغمسون أيضا فى التدين ولكن لا خوفا وابتئاسا من مصير مدمر . بل استبشاراً بجنة فيها النعيم ومتع الروح . ولقد تجد المتشائمين يخشون الموت وقد ارتسمت علاماته على وجوههم وهيمنت المخاوف منه على حياتهم . ويرتبط بخوفهم هذا خوف أيضا من المرض أو من الحوادث لأنها تقربهم من ذلك الحدث المرير المفزع .

ولسنا بحاجة إلى أن نقرر أن المتفائلين يتخذون موقفا مضادا لموقف المتشائمين . بيد أن الواقع أن المتفائلين لا يتخذون موقفا واحدا بتجاه الحياة والموت . بل يتخذون عدة مواقف متباينة . فهم أولا قد يتعففون عن بعض ما فى الحياة من ملذات . ولكن تعففهم هذا ليس انصرافا من جانبهم بكراهية عن الواقع المحيط بهم . بل هو انصراف التفضيل وليس انصراف النبذ . فبينما ينبذ المتشائم كل الحياة . فان المتفائل يفضل جانبا منها على جوانب أخرى . أو هو يرتب مناحى الحياة حسب أولويات معينة . وينصب اهتمامه على ما يقع فى أوائل القائمة . وطبيعى أن

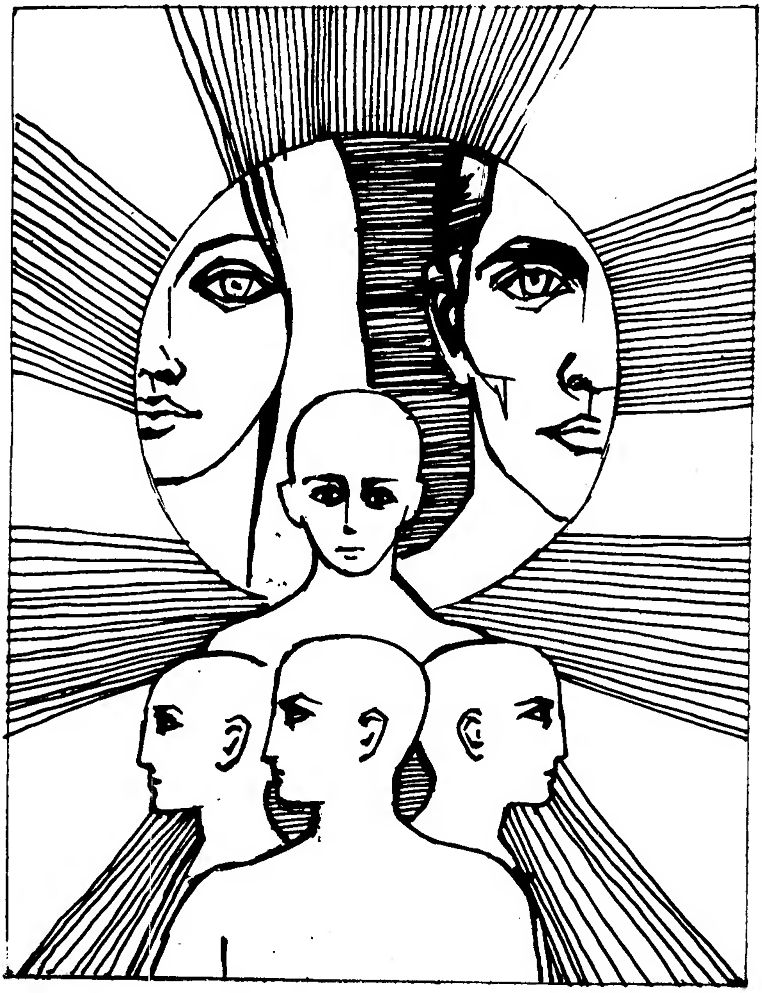
المتفائل يعطى كل شيء فى الحياة حقه بغير انصراف كامل عن شيء ما من الأشياء الأساسية فى الحياة .

أما الموقف الثانى للمتفائل فهو الاقبال على الحياة بالأخذ والعطاء . فهو يقدم ويسهم فى الحياة بقدر استطاعته ويأخذ أيضا حسب حاجاته . ولكأن المتفائل يميز بين الحاجات والرغبات . إنه يسد حاجاته . أو بتعبير آخر لا يسد الا الرغبات التى لا تتعارض مع حاجاته . إنه لا يأكل ما يضر بصحته حتى ولو رغب فى ذلك . ولا يتحاشى الدواء المر إذا كان فيه الشفاء من المرض . وقس على هذا جميع الأشياء الأخرى التى قد تتواكب فيها الرغبة مع الحاجة . أو قد تتعارض معها . أما المتشائم المقبل بنهم على الحياة فيما سبق ذكره . فانه يجرى وراء الرغبات دون اعتبار للحاجات .

والموقف الثالث الذى قد يتخذه المتفائلون هو الاهتمام بالحياة بغير مبالغة وبغير توتر . إنهم يعتبرون أنفسهم وكلاء على الامكانيات المتاحة لهم . فالمتفائل يستخدم الحياة ويشارك فى العلاقات ولا يتخذ موقف اللامبالاة بأية حال . إنه يظل حتى آخر لحظة من حياته إيجابياً يعمل ويدبر ويثابر على إقامة العلاقات بالناس ولا ينزوى فى ركن قصى ينتظر الموت يدهمه كما قد يفعل المتشائم .

وإذا كان هذا هو حال المتفائلين بإزاء الحياة . فان موقفهم من الموت يتسم أيضاً بعدم الهلع . إنهم يتقبلون الموت كواقع . أو كحلقة فى سلسلة لا تختلف فيها حلقة عن حلقة أخرى . ولعلهم يعتبرون الموت استمراراً للحياة ولكن فى صورة أخرى . وطبيعى أن المتفائل لا يصور لنفسه ما بعد الموت بصورة قاتمة مريرة . بل هو يعتبر ما بعد الحياة أكثر متعة وأبهج وأرحب من الحياة التى تتضمن هى الأخرى الكثير جدا من المتع والبهجة والرحابة . فالمتفائل لا يتمنى الموت حتى يتخلص من شرور الحياة . بل هو يتمتع بالحياة فى أنحائها المتباينة مؤملا أن يرقى إلى ما هو أمتع منها بعد الموت فى الآخرة . ولذا فانك لا تجد متفائلا يقبل على الانتحار هربا من حياته . بل تجده يحافظ على سلامته بغير تشبث مرير بالدنيا . والمتفائل من الشيوخ لا يبكى على شباب ولّى ، بل يبتهج بشيخوخة لا تخلو من متع وجمال لا يقل مقدارهما عما يحمله

الشباب من متعة وجمال . بيد أنه يميز بين ما يستمتع به هو وما يراه جميلا . وبين ما يستمتع به الشباب ويعتبرونه جميلا . ولعل الشيخ المتفائل يرى متعه وجماله فيما يتمتع به أولاده وأحفاده وما يجدونه جميلا رائعاً . ولقد يكون أبناؤه وأحفاده من لحمه ودمه ، وقد يكونون أولادا وأحفادا معنويين . ولقد يجد الأديب أو الموسيقى أو المصور فيما يبدعه يراعه من شعر أو نثر أو فى موسيقاه أو فيما ترسمه ريشته من صور أبناءً لا يقلون فى بنوتهم وقربهم من فؤاده عن بنيه اللحميين . ومن ثم فانه يحس بأنه خالد بأعماله حتى ولو فارق الحياة بالجسد .



الفصل الرابع

المعنى الوجودى للتفاؤل والتشاؤم

الفصل الرابع

المعنى الوجودى للتفاؤل والتشاؤم

هل تضيق الأرض بمن عليها ؟

من الحقائق المعروفة أن الأرض ذات وزن ثابت تقريبا مهما ازدادت عليها أعداد الكائنات الحية ومهما نقصت . فكل زيادة فى جانب أو فى نوع ما من أنواع الكائنات الحية النباتية أو الحيوانية يتبعه نقص فى جانب آخر أو فى نوع آخر من أنواع الكائنات الحية . فزيادة سكان الأرض يتضمن فيما يتضمن نقص الكم فى النبات أو الحيوان . ومعلوم أن النبات يغتذى ويستمد مقومات حياته من التربة من جهة . ومن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من جهة أخرى . وهو الذى يمكن اعتباره جزءاً لا يتجزأ منها . وحتى عندما يتلوث الغلاف الجوى بالغازات التى يصدرها إليه الإنسان من مصانعه أو من قنابله الذرية أو من غير ذلك من مصادر التلويث . فإن الوزن الكلى للأرض بما عليها وبما فى جوفها وبما فوقها يظل ثابتا تقريبا .

بيد أن هذا الوزن ليس كل شيء . فالكم يجب أن يتساوق مع الكيف دائما . وبتعبير آخر فإن الزيادة الكمية فى جانب ما من جوانب الأرض أو فى نوع ما من أنواع الكائنات الحية . قد يكون معناه الاضرار بجانب آخر أو بنوع آخر من أنواع الكائنات الحية . خذ مثالا لذلك زحف الصحراء على الأراضى الزراعية . أو زيادة عدد الذئاب فى البقعة المأهولة بالغزلان والأبقار والخيول . لا شك أن كل زيادة فى عدد الذئاب معناه بشكل آخر نقصان عدد الحيوانات التى تعيش على الحشائش . وزيادة عدد أفراد سمك القرش معناه نقص عدد أسماك أخرى يقتات عليها القرش . وأكثر من هذا فإن زيادة عدد الفيلة فى مكان ما مأهول بالغابات معناه تهديد الأشجار الرافعة أعناقها إلى السماء .

ولا شك أيضا أن الزيادة فى عدد سكان العالم من البشر فيه تهديد للكثير من جوانب البيئة الفزيائية والنباتية والحيوانية بل والإنسانية أيضا . وأكثر من هذا فان مثل تلك الزيادة قد تهدد أيضا الفضاء بما يمكن أن ينقله إليه الإنسان من تلوثات متباينة .

ولعل السؤال الذى يهمنا فى هذا المقام هو عما إذا كانت الأرض فى سبيلها إلى الضيق بمن عليها ؟ نجيب بأن المتفائلين يقولون إن بمقدور الإنسان أن يحيل الأراضى البور بل والصحارى إلى أراضٍ قابلة للزراعة ، بل إن الانسان يستطيع أن يسقط الأمطار الصناعية على المناطق التى يريد إسقاط الأمطار عليها وفى الأوقات التى يحددها . والإنسان يستطيع أن يزرع قيعان المحيطات ، بل ويستطيع أن يحيل مياه البحار إلى مياة عذبة ، كما يستطيع أن يحقق التوازن البيئى بين مختلف الكائنات الحية النباتية والحيوانية . وهو يستطيع أن يغير طبائع الحيوانات . فالحيوانات التى لم يتم استئناسها بعد يستطيع – إذا ما أراد وحاول – أن يستأنسها . ولقد سبق له أن استأنس الكلب والقط والبقرة والجاموسة والحصان وغيرها . ويستطيع الانسان أيضا أن يدخل التعديلات على كثير من أنواع الخضر والفاكهة بحيث يحيلها الى خضر وفاكهة شهية وصالحة لغذائه .

ويستمر المتفائلون فى تفاؤلهم فيعتقدون أن مشكلة السكان تتركز أكثر ما تتركز فى توزيع السكان وليس فى عددهم . فالهجرة الداخلية هى أس الداء وليس التفجر السكانى . أضف إلى هذا أن الأراضى الشاسعة كالصحراوات غير مأهولة بالسكان ، بل إن الحقول ذاتها مهجورة ويتزاحم الناس على المدينة حيث الرفاهية . وبمقدور الإنسان أن ينقل الرفاهية إلى حيث يريد زحزحة السكان . فإذا أنت وفَّرت جميع وسائل الراحة والرفاهية بالريف أو الصحراء ، فإن الإقبال سوف يشتد عليها بما لا يقل تكالبا عن التكالب الحالى على المدن . ناهيك عن ضرورة توافر الأمن الغذائى والأمن الاجتماعى بحيث تريد السكان على النزوح والاقامة .

ولا ينسى المتفائلون ما بدأ الإنسان فى غزوه وفتح آفاقه التى ظلت مستغلقة عبر ملايين السنين ، ألا وهو الفضاء الخارجى بما يشتمل عليه من كواكب مترامية

الأطراف وفائقة الحصر . أليس اقتدار الإنسان على فتح تلك الآفاق الرحبة أعظم قدرا وأكثر بعثا على التفاؤل من اكتشافه لأمريكا ؟ أليس من المتوقع – فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد – أن يتزاحم الناس على الهجرة إلى أحد الكواكب كما سبق أن تزاحم الناس على الهجرة إلى أمريكا واستراليا ؟ وألا يكون عدد سكان العالم فى مثل تلك الحالة – إذا ما قيض لها أن تتحقق – قليلا إذا ما قيس بما تستوعبه الأرضون الجديدة ، أعنى الكواكب التى سوف يعمد الإنسان إلى التكيف لمناخها وبيئتها أو ينجح فى تكييفها وتهيئتها وتطويعها لأغراضه .؟

وإذا كان هذا هو موقف المتفائلين بإزاء مشكلة ضيق الأرض واتساعها لاستيعاب من عليها من كائنات ، فاننا نجد من الجهة المقابلة أن المتشائمين يقدمون صورة قاتمة كالحة فى ردهم عن التساؤل الذى أثرناه . فهم يقولون إن علم الإنسان وتكنولوجيته لا يمكن أن يصمدا أمام عتو الطبيعة وطغيانها . وهل استطاع الإنسان بكل ما أوتى من علم وتكنولوجيا وقدرة على التنبؤ بالظواهر الطبيعية أن ينتصر على الزلازل والبراكين والفيضانات ؟ وماذا يستطيع الانسان أن يفعل اذا ما تمرد البحر أو المحيط وأغار على اليابسة ، أو إذا هبطت قارة بأكملها ليبتلعها البحر أو المحيط لكى تظهر يابسة جديدة فى مكان آخر بوسط المحيط ؟

أما ما يزعمه المتفائلون من قدرة الإنسان بالعلم والتكنولوجيا على إحالة كيف ما من الكيوف إلى كيف آخر ، كاحالة ماء البحار المالح إلى ماء عذب ، أو إحالة الأرض البور أو الصحراوية إلى أرض صالحة للزراعة ، أو استخدام الكيمياء لاستنباط أنواع جديدة من المواد الغذائية أو التدخل بالتحسين والتنقيح لما هو موجود بالفعل من خضر وفاكهة وحيوان ، فانه برغم الاعتراف بهذا كله ، فإن ما لا يمكن الاعتراف به هو إمكان التطبيق على النطاق الواسع لفائدة جميع البشر على السواء . ذلك أن التكاليف الباهظة التى يتكلفها الانسان لتحقيق هذه الأشياء ، تجعل ما يمكن إنجازه لا يعدو أن يكون مجرد عينات صغيرة لا تفى بأغراض الاستهلاك الجماعى . والأمر هنا أشبه بمن يزعم أن الإنسان يستطيع أن يركِّب الماء من غازى الأوكسجين والأيدروجين لأغراض الشرب والرى . صحيح أن الإنسان استطاع أن

يركب الماء معمليا من الغازين المذكورين . ولكن ليس من المعقول الاعتماد على هذا للأغراض الاجتماعية بسبب الصعوبات البالغة من جهة ، وبسبب النفقات الباهظة من جهة أخرى .

أما ما يقوله المتفائلون بإزاء إعادة توزيع السكان بحيث يخف الضغط عن المدن وتشجيع الإقبال على الريف والصحراء . فإن هذا كلام غير عملى على الإطلاق . ذلك أن من المتعذر أن تخفف من الواقع الذى حدث واستقر بالفعل . فبالنسبة لمدينة كمدينة القاهرة يمكن أن تقالل من الهجرة اليها . ولكنك لا تستطيع منع تلك الهجرة تماما من جهة ، كما أنك لا تستطيع أن تجبر المقيمين بها على الانتقال منها للاتجاه الى الريف أو الصحراء من جهة أخرى . والواقع القائم هو واقع مؤلم ومزعج فى حد ذاته . ناهيك عن أن هذا الواقع القائم يتزايد فى الإيلام والإزعاج يوما بعد يومٍ وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنةٍ .

ويؤكد المتشائمون أن الأرض تضيق فعلا بمن عليها . وشاهد ذلك ما تراه من زحام فى كل المرافق والمؤسسات . فطالما أن المساحة المتاحة للسكنى والإقامة وممارسة المناشط المتباينة مساحة محدودة وقابلة للضيق أكثر من قابليتها للاتساع بسبب إغارة البحار على الشواطئ من جهة . وبسبب إغارة الصحارى على الأراضى المنزرعة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى التكاثر العددى المطرد فى كل ثانية من ثوانى الأربع والعشرين ساعة كل يوم . فإن الأرض إذن ستضيق – أو هى ضاقت بالفعل – بمن عليها . ولو ان الإنسان كان قادرا على حل ذلك التكثف المطرد فى السكان ، لما كان قد وقف مكتوف اليدين بإزائه إلى أن وصلت الحال إلى ما وصلت إليه بحيث صار الإنسان الحديث مهددا بما لوح به مالثوس من أن المبارد الطبيعية تتدخل فى نهاية المطاف لتصحح الوضع الخاطئ . وذلك بالأمراض والمجاعات والحروب . ولعلنا نضيف مبردا رابعا لا يقل خطورة وبطشا عن المبارد الثلاثه التى لوّح بها مالثوس ألا وهو نشوء نظام اجتماعى لا يمكن تحديد معالمه ولا تبينّ أركانه إلا بعد أن يقوم أحد أجناس البشرية بافناء الأجناس الأخرى . ولعل الجنس الأصفر هو الذى سيقود مثل ذلك النظام المجهول بعد وقت يقصر أو يطول .

مستقبل الأرض :

بينما تجد أن المتفائلين يجعلون مستقبل الأرض مفروشا بالورود ، فانك تجد المتشائمين يترسمون فى أذهانهم وعلى ألسنتهم وأقلامهم طريق هذا المستقبل مفروشا بالشوك ومحفوفا بالهلاك . والواقع أن كلا من هذين الفريقين يتذرع بالبراهين التى يتسنى له أن يستقيها من أى جانب ومن أى مصدر معرفى . ولعلنا نبدأ بما يزعمه المتفائلون من براهين وحجج تبرهن على المستقبل الزاخر بالخير للأرض .

يقول المتفائلون إن المناخ على الكرة الأرضية والظروف البيئية مواتية لاستقرار حياة الإنسان عليها . وحتى ما يمكن أن تلحظه من تقلبات جوية وعدم استقرار فى المناخ ، فإنه لا يعدو أن يكون ظواهر عارضة لا تنم على شىء جوهرى . والجوهرى هو أن المناخ مستقر ويسير وفق نظام عام ثابت لا يهدد حياة الإنسان فى الحاضر أو المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . أما بالنسبة للزلازل والبراكين والعواصف والفيضانات ، فإننا نستطيع أن نعتبرها ظواهر عارضة ايضاً لا تتعلق بالقاعدة العامة وهى استقرار القشرة الأرضية وانتظام فيضانات الأنهار بشكل منتظم وبمعدلات ثابتة نسبيا .

أما بالنسبة للثروة الغذائية على مستوى العالم ، فإننا نستطيع أن نستبين جانبين أساسيين بازائها . فثمة الموجود من جهة ، والممكن من جهة أخرى . فالنسبة للموجود وما يزعمه البعض - أعنى المتشائمين - من أن الانسان على حافة مجاعة وشيكة تهدده بالفناء ، فإن المتفائلين يؤكدون أن المشكلة الغذائية لا تتعلق بنقص الموارد الغذائية المتاحة للعالم بالفعل ، وإنما هى مشكلة سياسية بالدرجة الأولى والأخيرة . فثمة دول غنية مستأثرة بالغالبية العظمى من المصادر الغذائية . وثمة من جهة أخرى دول فقيرة محرومة من ذلك . وحتى بالنسبة للدول الضعيفة التى لديها فائض غذائى كبير ، فإن ثمة حكومات تعلوها وتسيِّر أمورها قد أخذت فى الانصراف عن المطالب الغذائية للشعب أو هى تحتكر الموارد الغذائية لفئة معينة بها .

فمن الممكن إذن أن ننظر إلى مشكلة الغذاء بالعالم من زاوية سوء التوزيع ، وليس من زاوية الوجود وعدم الوجود . فمن بيده الفائض من الغذاء ، لا يكلف بأن

يوزع الفائض لديه على من ليس لديه أو على من بحاجة إلى ذلك الفائض . وحتى بالنسبة للمجتمع الواحد . فإنك تجد فئة من الأغنياء لا تعرف كيف تأكل أكثر ، فتلقى بالغذاء الفائض من موائدها الى القمامة مع أن البطون الجائعة تتلهف على أى شيء تتبلغ به وتشتهى جانبا من ذلك الفائض . وكان الأولى أن يأخذ الفرد من أولئك الأغنياء حاجته من الطعام ثم يترك الزيادة لغيره من المحتاجين اليه . أو يقوم بتوزيعه بنفسه عليهم .

ومن حيث الإمكانيات الغذائية التى لم يبدأ استغلالها بعد فإنها ذات حجم ضخم للغاية . ناهيك عما يستطيع الإنسان التدخل به من وسائل علمية وتكنولوجية متباينة . وثمة طريقان أساسيان يمكن أن يتدخل بهما الإنسان فى هذا الشأن : الطريق الأول – التحسين أو التعديل لما هو موجود . والطريق الثانى استخدام الكيمياء فى تركيب مركبات غذائية جديدة . فبالنسبة للطريق الأول ، فإن التعديل أو التحسين يصبو الى جعل غير المقبول للذوق والرائحة مقبولا . وغير الصالح للاستعمال الغذائى صالحا ، كأن يخلص أحد النباتات أو إحدى الثمار من عناصر سامة أو ضارة بصحة الإنسان إذا أقبل على تناولها . كما قد يصبو التعديل أو التحسين إلى زيادة الكم وذلك بأن تصير الثمرة أكبر أو الحبوب أغزر وأكثر وأكبر حجماً . أما عن المركبات الغذائية الكيميائية فإن أمامها شوطاً طويلاً ولكنه ممكن . وبمقتضى المنهج الكيميائى فى الغذاء فإن ثمة سبيلين أساسيين : السبيل الأول – محاولة عمل مركبات على نمط مركبات موجودة فى الطبيعة بالفعل . أو على نمط مركبات دأب الإنسان على استخدامها فى طعامه عبر العصور المتعاقبة كالخضر والفواكه واللحوم . أما السبيل الثانى فهو أن يقوم الإنسان باستغلال الكيمياء فى استحداث مركبات غذائية جديدة ليس لها شبيه بالطبيعة ولكنها تكون مفيدة غذائيا وغير ضارة بصحة الإنسان ومتمشية مع مذاقه وشمه . بل وتكون أيضا رخيصة الثمن ومتوافرة من حيث انتاجها بحيث تغطى الأسواق المحلية والعالمية . فالمتفائلون يعتقدون أن الإنسان سوف لا يجد صعوبة فى استغلال الكيمياء فى التصنيع الغذائى فى المستقبل القريب بعد أن يستشعر أنه اقترب من شفير الهاوية : بيد أن من الواجب أن يبدأ العلماء

والتكنولوجيون فى فتح هذا الأفق الغذائى على مصراعيه قبل أن تحتدم أزمة الغذاء فى العالم وقبل أن يدق ناقوس الخطر وذلك حتى يسير ذلك التصنيع الكيميائى جنبا لجنب مع استغلال الغذاء المتوافر بالطبيعة بالفعل .

وبينما نجد أن المتفائلين يؤكدون أن المستقبل أفضل من الحاضر وأن المسألة ليست سوى مسألة تنظيمية ، فإننا نجد المتشائمين من الجهة المقابلة يعمدون الى التحذير بل والى إعلان أن الخطر يهدد الإنسانية من كل جانب . فاحتمال فناء الأرض من الخارج لا يقل خطرا عن احتمال فنائها من الداخل . فمن الجائز أن يختل النظام الكونى – أو هو بدأ فى الاختلال بالفعل – بحيث تحترق الكرة الأرضية أو على الأقل يختل نظام دورانها فتضيع هباء أو يصير استمرار الحياة عليها من الأمور المستحيلة . ناهيك عن أخطار اصطدام الأرض بأحد النجوم أو الكواكب . وبالإضافة إلى هذا فإن جوف الأرض ما يزال يهدد من عليها وهو يطل برأسه من وقت لآخر على هيئة براكين وزلازل . فمن يدرينا فلعل بركانا هائلا يهيج بمصاحبة زلزال عنيف للغاية بحيث يتفجر ويحرق جميع البشرية أو غالبيتها العظمى . أضف الى هذا ما يمكن أن ينشأ من عواصف أو فيضانات أو اختلال توازن العناصر بسبب التجارب النووية فيكون الإنسان اذن كطفل أخذ يلعب بعود من الثقاب فأفلت منه الزمام وامتدت النار لتلتهم كل محتويات منزله بما فيها ذلك الطفل نفسه وذووه .

أما ما يقال عن التوازن البيئى فإنه مؤقت فى نظر التشاؤميين ، وقد عمل الإنسان على إفساده . والواقع أن التوازن البيئى كحبات عقد مربوطة بواسطة خيط واحد . فإذا قطع الخيط فان حبات العقد تنفرط حميعا ولا يبقى أى بصيص من النظام الذى كان عليه العقد قبل الانفراط . فالإنسان عندما عمد بادىء ذى بدء بدق الأرض ، أو عندما عمد الى قطع أول شجرة من الغابة التى كانت تحتضنه ، فإنه كان بذلك بمثابة من قطع بالموسى خيط العقد . ولعل آخر خطوتين خطيرتين قام بهما الإنسان لإفساد الكون هما شطر الذرة ورحلات الفضاء . فبشطر الذرة صار من المحتمل أن تقضى الاشعاعات الذرية على الحياة بجميع أشكالها . أما رحلات الفضاء ، فإنها تهدد الفضاء نفسه بالتلوث ، ثم إنها تهدد الطبيعة البشرية ذاتها ، إذ أن الحياة على

الكواكب الأخرى ستتطلب تكيفات بعيدة الغور ربما تنقل الإنسان الى مرحلة جديدة من التطور لا تقل عن مرحلة التطور من الحالة القردية إلى الحالة البشرية. وهل الإنسان صار بالتطور إلى الحالة البشرية أكثر سعادة أو أكثر أخلاقية من القردة ؟ لعل الإنسان قد تشبث بالمسئولية الأخلاقية بإزاء أفكاره ومشاعره وتصرفاته لأنه أحس بعد أن تطور أنه صار مفعما بالشر، بينما لا تحس القردة بشيء من ذلك اللهم إلا إذا عمل الإنسان على نقل العدوى الأخلاقية إليها. فلولا شر الإنسان ما كان إذن بحاجة إلى من ينبهه إلى تجنب الشر واتباع الخير. ولعل الإنسان بعد أن يعيش على الكواكب الأخرى سوف يحس بمسئوليات جديدة أعقد وأغور مما يحس به الآن.

ومن المحتمل أن طموح الإنسان نحو المكتشفات الجديدة سوف يجره إلى تدمير نفسه بيديه، بل إنه سوف – أو ربما – يدمر الأرض وكل ما فيها من حق وخير وجمال. وهذا قد يحدث بطريق من طريقين الأول – عن طريق العقول الالكترونية أو الناس الآليين الذين ربما بسبب خطأ غير مقصود يخرجون عن طوع الإنسان ويقهرونه. والثانى – الطريق البيولوجى حيث يحاول العلماء الآن القيام بعملية التخليق فى الأنابيب– أو الخلق أستغفر الله – ولقد يأخذ الجنى الجديد فى الاطاحة بكل شيء أو قد يقضى على الموجود والممكن من الأشياء. لقد يأخذ ذلك الجنى فى التكاثر الذاتى السريع، ولقد يتعاون مع رفاقه ضد الانسان بغير لجام أو بغير ضابط فيقضى على الانسانية وما على الأرض فى نهاية المطاف.

والأكثر من هذا فان الكائنات الأخرى التى قد تكون موجودة بأحد الكواكب القريبة أو البعيدة وهى التى قد تكون أكثر عقلا وذكاء وعتوا من الإنسان ربما تفكر فى شن حرب ضد الأرض بسبب خوفها من تجاسر الإنسان على غزو الفضاء والاقتراب منها، فتسلط أشعة معينة تدمر الحياة، أو قد تعمد إلى توجيه الأرض فى مسار نحو الشمس فتكون نهاية الأرض، وليس نهاية الإنسان والحيوان والنبات فحسب. فالمستقبل اذن مظلم قاتم كأشد ما يكون الظلام والقتامة فى نظر المتشائمين.

هل نشأت الحياة بصدفة سعيدة ؟

ثمة تفسيران أساسيان ينتحى المفكر إلى واحد منهما فيضم صوته إليه ويتشبث به : التفسير الأول روحانى ، والتفسير الآخر مادى . أما التفسير الروحانى فإنه يؤكد أن الحياة على الأرض لم تنشأ اعتباطا وبطريق المصادفة ، وإنما هى من فعل خالق يخطط ويرسم للمستقبل وينظم الحياة ويدرِّجها ويجعلها من أبسط صورة لها إلى أعقد صورة . والصورة المعقدة للغاية للحياة هى الصورة الإنسانية . ذلك أن الإنسان فى نظر أصحاب هذا التفسير يجمع فى نطاقه جميع الخطوط العريضة التى تتضمنها مقومات الكائنات الحية الأخرى . أما التفسير المادى فإنه يستبعد القول بالخالق المفكر والمخطط والمدبر ويكتفى بالقول بالأوتونومية التى تنتحى إليها الخليقة ، ابتداء من المادة الجامدة واستمرارا بالحياة فى أبسط صورها وانتهاء إلى الإنسان فى أعقد صورة ممكنة .

والواقع أن المتشيعين للناحيتين الروحانية والمادية يتفقون على شىء واحد ، وهو أن ثمة نظاما معينا دقيقا يسير التطور وفقه . فالتطور – إذا كان موجها بواسطة قوة إلهية خارجية – فإن القائل به لا يكون اذن ملحدا ، بل يكون مؤمنا . بينما الزعم بأن التطور يسير من دخيلة الوجود بغير استعانة أو بغير خضوع لقوة خارجية مفكرة ومخططة ومنظمة ومشرفة ، فإن القائل به يكون اذن ملحدا . ومن هذا ترى أن الذين يوجهون الاتهام إلى كل من يقول بالتطور ، إنما يزيغون عن الحق . ذلك أن ثمة تطوريين مؤمنين ، وثمة أيضا تطوريين ملحدين . فالمهم ليس القول بالتطور أو بعدم التطور ، بل المهم الاعتراف بوجود قوة خارجية توجه التطور بل وتخلقه بادىء ذى بدء أو عدم الاعتراف بها .

والقائلون بقوة روحانية خارجية تخطط للتطور وتشرف عليه وتوجهه – وهى قوة خيِّرة رحيمة – إنما يشكلون فئة المتفائلين . ذلك أن الخالق الحكيم الرحيم لا يمكن أن يكون قد دبر مكيده لمن قام بخلقهم لكى يوردهم موارد التهلكة ، بل لا بد أنه سوف يظل معتنيا بكل الوجود الذى قام بخلقه وقام أيضا بتطويره حسب نظام دقيق وضعه لذلك . فمستقبل الكائنات الحية جميعا من أبسطها تركيبا إلى أكثرها تعقدا ،

بل ومستقبل الخليقة غير الحية أيضا ، إنما هو مستقبل مضمون ومكفول بمستقبل تطورى مصون من كل شر . وعلى نقيض ذلك فإن القائلين بأن تطور الكائنات الحية ونشوءها نتيجة مصادفة سعيدة ، إنما يقولون فى نفس الوقت بأن تلك المصادفة لا تعدو أن تكون حادثة وجودية . والحادثة السعيدة يمكن أن تعقبها حادثة تعسة تودى بالكائنات الحياة وتقضى عليها . من هنا فإن أولئك الطبيعيين الملحدين يشكّلون فئة المتشائمين . ذلك أن الكائن الرحيم والموّجه بحكمة لخطوات التطور غير موجود لديهم . ولا يبقى الا ذلك الاطار المادى التلقائى الذى تسير وفقه الكائنات الحية .

ولعلنا نقول إن الدعوى الأساسية للطبيعيين قد انبنت فى أول الأمر بصفة رئيسية على زعم هو أن الوجود ثابت غير متطور . فالحديد يتمدد بالحرارة دائما وفى كل مكان . والماء يتبخر بالحرارة فى أى وقت وفى أى مكان أيضا . وبالنسبة للكائنات الحية ، فإن الأسماك تعيش بالماء بينما تحيا الطيور فى الهواء أو على الأشجار أو لا تستطيع أن تحيا بأن تغتذى بغير نوع معين من الطعام لا تخالف عنه . وكذا الحال بالنسبة للإنسان فهو لا يستطيع أن يحيا تحت الماء ولا يستطيع أن يطير بأجنحة فى الهواء .

بيد أن التطور قد زعزع هذا المفهوم الراسخ الذى انبنى عليه العلم أصلا ، أعنى القول بالثبات والرتابة والاستمرار والحتمية . فالكائنات الحية لا تتصف بناء على المبادىء التطورية بالثبات بل بالتغير ، وأكثر من هذا فثمة طفرات تقع فى التسلسل التطورى تكون بمثابة نقلات من مستوى تطورى معين الى مستوى تطورى أعلى وأرسخ قدما من المستوى السابق .

ومعنى هذا أن الحقائق التطورية بمثابة الخامة التى يمكن تصنيفها فى صيغتين متباينتين . فاذا كنت من المؤمنين المتفائلين ، فإنك تقول إذن إن التطور يخضع للتخطيط والتوجية ومكفول بالعناية الالهية . أما اذا كنت من الملحدين الماذيين ، فإنك سوف تقول إذن إن التطور واقع لا يخرج عن نطاقه . فهو يسيّر ذاته وليس بحاجة إلى عقل يخطط له ، ولا الى يد تسنده ولا إلى قلب رحيم يحنو عليه ولا إلى راع يدأب على العناية به ويرعاه بصفة مستمرة .

ولعلنا نتناول مفهوم الصدفة السعيدة بشىء من التفصيل حتى نستطيع أن نقابل بينها وبين مفهوم التدبير الإلٓهى ، وذلك بأن نتناول المفاهيم الأخرى المساندة أو المناهضة . نجد أولا – مفهوم الغائية . ونعنى بهذا اللفظ أن يستهدف التطور غاية معينة ينحو إليها ويريد أن يتحقق وفقها . فالنجار عندما يتناول ألواح الخشب لكى يصنع مكتبا ، وكذا الترزى عندما يتناول قطعة القماش بالمقص لكى يفصل بدلة ، إنما يكون كل منهما قد وضع نصب عينيه تصورا عقليا معينا أو هدفا يرغب فى تحقيقه . إن كلا منهما يترسم مثلا ذهنيا يجرى وراءه ويلح على تحقيقه ، سواء بواسطة الخشب فى حالة النجار ، أو بواسطة القماش فى حالة الترزى . ومعنى هذا أن الصورة الذهنية سابقة على الواقع الملموس . وبتعبير آخر فإن هناك وجودين : وجودا ذهنيا متصورا ، ووجودا حسيا متحققا فى الكيان المحسوس ، أو متلبسا بصورة محسوسة .

ونستطيع أن نؤكد أن الغائيين يقولون إن الواقع الذهنى سابق على الواقع الحسى وأقوى منه وأكثر كمالا منه . فالتطور الذى يقع فى الواقع المادى أو الحيوى البيولوجى أو العقلى أو الاجتماعى إنما هو مسبوق بصور عقلانية فى العقل الآلٓهى . فالغائيون يجعلون للوجود القائم فى العالم المحسوس وجودا ذهنيا أقوى منه وأكمل يترسمه العقل الآلٓهى قبل صدوره فى الواقع المحسوس . وحيث أن العقل الإلٓهى يتصف باللاتناهى ، لذا فإن الصور الذهنية التى تسبق التحقق المادى لا تتعلق بما تم وقوعه فحسب ، بل تتعلق أيضا بما سوف يتم . ومعنى هذا أن التطورات القادمة جميعا قد ارتسمت بادىء ذى بدء فى العقل الالهى ، وتخضع له ولا تخرجْ عن نطاق تدبيره وتنظيمه .

ومن الطبيعى أن ينفى الماديون القائلون بالصدفة السعيدة مفهوم الغائية إنكارا تاما ، بل يؤكدون أن التطور أعمى وأنه يسير نحو المجهول . إنه أشبه بعجلة تنحدر من فوق سفح جبل شاهق بغير ما هدف تتجه إليه . إنها تندفع نحو المناطق المنخفضة بحكم الاندفاع التلقائى الذى تتجه اليه ، وبغير هداية من أحد وبغير عناية أو حفاظ . فمثل هذه العجلة لا يمكن التنبؤ بنهايتها . ولذا فانك تجد أن المتشائمين – وهم فى نفس الوقت الماديون – يؤكدون أن المصادفة السعيدة التى أحدثت الشرارة

الأولى للحياة لم تكن من تدبير مدبر ، بل كانت خبط عشواء . وأكثر من هذا فلعلهم يؤكدون أن تلك المصادفة السعيدة ذاتها ربما تعقبها مصادفات أخرى سعيدة تحدث نقلة أو طفرة أخرى هي ما يسميه واحد مثل نيتشه بالسوبرمان ، أو قد لا تقع مصادفات سعيدة جديدة للوجود الحيوى بل قد تحدث مصادفات تعسة تعمل على حدوث نكسة وارتداد ، فلا تستمر سلسلة التطور . فواحد مثل برتراند رسل يقول إن المستقبل فى سلسلة التطور ليس مقيضا للإنسان بل للنمل الأبيض . فلقد لاحظ رسل أن هذا النمل يتجه فى نشاطه إلى البقاء والغلبة أكثر مما يقيض للإنسان أو لغيره من كائنات حية . ولعل ذلك النمل – أو غيره – قد تسلح بأسلحة أقوى وأمضى فاعلية من الذكاء البشرى . وألا يجدر بنا أن نخلص أنفسنا من التحيز للذكاء البشرى وألا نجحف حق الغرائز التى تسيِّر بها النمل والنحل مناشطها ؟ إننا ندعو الى أن نعيد النظر فى قضية نحكم فيها حكما جائرا بغير تفكير أو إجالة للذهن ، وهى أن الغريزة عمياء . ألا يصح أن نقول أو أن نزعم أن النمل والنحل وغيرها تتمتع بشىء آخر مساند للغريزة يكفل لها البقاء بل والغلبة بحيث يقيض لها الانتصار على ذكاء الإنسان فى المستقبل البعيد ؟ إننا كثيرا ما ننحاز إلى أنفسنا – نحن البشر – زاعمين لأنفسنا أننا وقفنا بفكرنا على حقائق الوجود وعلى جميع أسلحة الكائنات الأخرى فى تسيير دفة حياتها . والواقع أن ثمة غموضا ، بل ثمة قارة مجهولة فى حياة الكائنات الحية . وإذا صح تساؤلنا ، فيترتب اذن عليه إعادة النظر فى سلسلة التطور ، بل لقد نقول إن هناك أكثر من خط تطورى واحد يمكن أن يتجه اليه التطور ومستقبل الوجود . ومهما يكن من شىء فلسوف يظل المتفائلون والمتشائمون فى موقفين متضادين بإزا تفسير التطور والوجود .

العالم الروحانى :

قلنا إن الناس ينقسمون الى فئتين أساسيتين : فئة مؤمنة بوجود كائن علوى روحانى خالق ومدبر ومعتن بخليقته ، وفئة ملحدة لا تؤمن بوجود مثل هذا الكائن العلوى ، وبالتالى فإنها لا تؤمن بوجود العالم الروحانى كالملائكة والشياطين والجن وأرواح الناس بعد مفارقة الجسد والانتهاء إلى الموت . وقلنا أيضا إن القائلين

بالروحانيات متفائلون ، بينما يشكل الملحدون فئة المتشائمين . ولكن هل يمكن اعتبار جميع المؤمنين متفائلين ؟

الواقع أن الروحانيين المؤمنين بوجود كائنات روحانية مباينة للكائنات المحسوسة ، ليسوا جميعا من المؤمنين بالإلـه الرحيم الذى يُظِل خليقته بالعناية والرعاية ويشملهم جميعا بالرحمة والحنان ، بل إن من الروحانيين المؤمنين بالعالم الروحانى من يتبعون فى إيمانهم كائنا سفليا هائلا هو الشيطان ، أو قل إنهم يعبدون إلّها آخر غير إله الخير والحب والرعاية الذى يؤمن به أصحاب الديانات التى تدعو الى الخير وإلى تجنب الشر . فأولئك الذين يعبدون الشيطان يكفرون بالله وملائكته وقديسيه من جهة ، ثم هم يسجدون للشيطان ويطيعون أوامر أتباعه من الجن الأشرار كما يتبعون أوامر قادتهم من السحرة والداعين للشر .

وكما أن المؤمنين بالله يتقربون منه طالبين الخير للناس الآخرين ولأنفسهم ، فإن أتباع الشيطان يتقربون من الشيطان بالعبادة أيضا بواسطة الفنون السحرية المتباينة وقد رسموا خططا لإيذاء من لا يخضعون لمشيئتهم ولا يرتدعون لأوامرهم . والواقع أنك تجد تاريخ الأديان وقد سار جنبا لجنب فى خط متواز مع تاريخ السحر . وكما أن عدد المؤمنين بالخير كثيرون ، كذا فإن المؤمنين بالشر كثيرون أيضا . وعلى الرغم من أنك لا تشاهد مؤسسات أو معابد السحرة علنية ومرفوعة القباب والمآذن كالكنائس والجوامع ، فإن تلك المؤسسات موجودة ومزدهرة ولكنها تتخذ لنفسها الطريق السرى المستخفى . والواقع أن حروبا طاحنة شنت ضد السحرة بسبب إيذائهم للناس ورغبتهم فى قهر الجميع واخضاعهم تحت سلطانهم ، ولكن تلك الحروب والوسائل التأديبية لم تسفر الا عن استخفاء السحرة وهروبهم إلى الأماكن المظلمة البعيدة عن أعين الرقباء .

وإذا أردنا أن نميط اللثام عن الأسباب الحقيقية التى جعلت بعض الناس ينتحون إلى التدين وجعلت البعض الآخر منهم ينتحون الى السحر ، فعلينا إذن أن نتناول سيكلوجية الناس وما يعتمل فى وجداناتهم من أحاسيس ومشاعر . إننا نستطيع أن نقول إن الناس ينقسمون إلى متفائلين وإلى متشائمين . أما المتفائلون فإنهم

يؤمنون بأن طبائعهم وطبائع غيرهم خيِّرة ، وعلى العكس من ذلك نجد أن المتشائمين يؤمنون بأن طبائعهم وطبائع غيرهم من الناس شريرة . ومن هنا فإنك تجد أن المتشائمين ينتحون إلى السحر بينما ينتحى المتفائلون إلى الدين .

بيد أننا نعتقد أن الكثير من أولئك الذين يتمسحون فى الدين ويتمنطقون بأثواب التدين هم فى حقيقة الأمر ليسوا من الدين والتدين فى شىء ، بل هم سحرة وأتباع الشيطان حتى وإن هم لم يذكروا الشيطان على ألسنتهم . والفيصل فى الحكم عليهم هو موقفهم من أنفسهم ومن سائر الناس . فالذين يحتقرون أنفسهم ويحسون أنهم أشرار وأن الناس جميعا فى خضم الشر وأن لا مفر من الارتماء فى أحضان الشر ، وأن الناس – وهم أيضا – جديرون بالاحتقار وبالعقوبات تنزل عليهم وبالعذاب يحيق بهم من كل جانب فى الدنيا والآخرة ، فهم إنما يكونون فى تدينهم ودعواتهم سحرة ، وذلك لأن ما يتمنونه لغيرهم شر من الشر وبهتان من البهتان . أما أولئك الذين يحسون بالخيرية تجاه أنفسهم وتجاه غيرهم ، وبأن الناس فيهم طبيعة خيِّرة إلى جانب ما يمكن أن يكون بهم من طبيعة شريرة مع تغليب الطبيعة الخيِّرة على الطبيعة الشريرة ، فإنهم يكونون اذن متدينين ، وتكون صلتهم بالله قائمة وليس بالشيطان .

ويخطىء من يعتقد أننا لا نصير روحانيين – أى جزءاً من العالم الروحانى – إلا بعد الموت . الواقع أن الروحانية فينا وليست شيئا يضاف إلينا بعد الموت عندما نصير أرواحا بلا أجساد . وشاهد ذلك ما تقول به دراسات علم النفس المعاصر فيما يعرف باسم علم نفس الخوارق وما يتعلق به من ظواهر روحانية كالتخاطر والرؤية الروحية وقراءة الأفكار والتلبس بالجن أو مخاطبة الجن أو أرواح الأموات الى غير ذلك من ظواهر لم يعد ينظر إليها باعتبار أنها خزعبلات وخرافات كما ألقى علم النفس المادى ذلك فى رُوع الناس لمدة طويلة .

ومعنى هذا فى الواقع أن الناس يؤثِّرون بعضهم فى بعض بتأثيرات روحانية إنْ بالخير وإنْ بالشر . فالأخيار يتركون أثرا خيِّرا فيمن يتصلون بهم ، بينما يترك الأشرار انطباعات شريرة فى غيرهم . وهذا يسوقنا إلى الحديث عن الحسد . فالحسد فى الواقع هو سحر غير مقصود يمارسه الحاسد بسبب مايختمر فى نفسه من شر. فالشر

فى عينيه ولسانه بحيث يصيب الآخرين بشر مباشر بمجرد أن يمتدح شيئا أو شخصا . ولعل علم النفس يتمكن فى المستقبل من كشف الستار عن سر تلك القوة المعتملة فى عين الحسود وفى كلامه .

على أننا نستطيع أن نقدم الخصائص الأساسية التى تتمثل فى شخصية الحسود . فهو أولا يكون شاعرا بنقص شديد فى شخصيته ، ولكنه نقص غير متعين وغير محدد فى نطاق معين . ثم إنه يكون شديد الحساسية والحقد قبالة ما يحرزة الآخرون من نجاح أو خير أو تقدم . فهو يدأب على عقد مقارنة سريعة ومريرة بينه وبين غيره حتى ولو كانوا فى غير سنه أو من مجال عمل آخر غير المجال الذى يعمل به أو حتى من غير جنسه (ذكر أو أنثى) . ولكأن الحاسد يعتقد أن كل خير يحظى به غيره إنما هو انتقاص مما كان يمكن حصوله هو عليه . والخصيصة الثالثة التى تتمثل فى الحاسد شدة الكَلَف بشئون الآخرين وأخبارهم وأسرارهم الشخصية . وأخيرا فإن الحاسد يكون قليل الأهداف فى حياته الشخصية ، الأمر الذى يجعله فى فراغ يقضيه فى مراقبة الآخرين والوقوف على أخبارهم وتحركاتهم .

ولا شك أن الشخص الحسود هو شخص روحانى . ذلك أن المقومات الروحانية تعتمل لديه أكثر مما هو الحال لدى كثير من الحاقدين غير نافذى الحسد فيمن يحيطون بهم . فالحسود شخص ارتبط بغير أن يقصد بالشياطين التى تعبَّد لها بغير أن يدرك ذلك . لقد يكون الحسود متدينا جدا ولكنه لا يدرك أنه فى توجيهه لصلواته لم يكن يتجه بقلبه إلى الله بل إلى الشيطان ، وذلك لأنه لم يتقرب بقلبه فى تعاطف مع الآخرين بل فى حقد عليهم وحسد لهم وكراهية لطبيعته وطبائع الناس من حوله . فكل روحانية تعتمل بين أضلعه إنما هى روحانية سلبية سحرية حتى ولو كانت فى صورتها الظاهرية روحانية مقدسة ودينية .

ولعلنا نزعم بحق أن الخطوة الأولى للإنسلاخ من التبعية للشياطين – سواء كانت تلك التبعية صريحة ومشعورا بها أم كانت مضمرة ولا شعورية – إنما تتمثل فى التخلص من التشاؤم . ذلك بأن نجاهد أنفسنا لتغيير النظرة إلى أنفسنا وإلى غيرنا . فالإحساس الشديد بالذنب والإحساس بأن المرء شرير وأن لا سبيل الى التخلص أو

حتى الى التخفف من شرِّيته ، والنظر إلى جميع الناس حتى الأطفال منهم باعتبار أنهم أشرار ومتربصون بغيرهم ، أو أنهم يحملون بذور الشر فى أنفسهم بحيث إذا ما واتتهم الفرصة فإنهم ينقضُّون كالذئاب على من يحيط بهم من حملان ، إنما يجعل الإنسان متشائما ، وبالتالى يكون معرضا لأن يكون تابعا للشيطان وأداة من أدواته حتى ولو كان ذلك بغير إرادة من جانبه كما هو الحال فى الحسد .

بيد أن تغيير النظرة إلى الذات وإلى الآخرين من الصعوبة بمكان . ذلك أنك كثيرا ما تسدى الخير لغيرك فتجده يقدم اليك الشر بدلا من الخير ، ويتربص بك بدلاً من أن يقول لك كلمة شكر . ولكن إذا أنت آمنت بأن الخير موجود أيضا فى قلوب أشد الناس ميلا وممارسة للشر ، وأن عليك أن تستحث بدأب كوامن الخير لدى غيرك ، فإنك بلا شك ستزداد إيمانا بخَيِّرية الطبيعة البشرية . وطبيعى أن من الواجب عليك فى نفس الوقت أن تتحمل قدر طاقتك فقط . فلست مضطرا بأى حال أن تظل فى معاناة مستمرة من قِبَل الأشرار الذين يمعنون فى الشر . فمثل أولئك ابتعد عنهم وتجنبهم حتى لا تنتقل العدوى إليك .

أصل الإنسان :

ينقسم الناس بإزاء أصل الإنسان إلى فريقين رئيسيين : الفريق الأول يقول إن الإنسان فى أصله كان كاملا كل الكمال ، ولم تكن تشوبه أية شائبة . فلقد كان على خلق كريم كما كانت طبيعته نقية كل النقاء ، بل لقد كان يَفْضل الملائكة فى مكانته واستحقاق كماله ، بل وفى علمه ومعرفته وحكمته . أما الفريق الثانى فإنهم يقولون إن الإنسان لم يكن سوى نوع من أنواع الكائنات الحية الأقل مرتبة من الإنسان . فمن حيث التكوين الجسمى فإن الإنسان قد انشعب عن نوع من القردة العليا . ومن حيث الذكاء فإنه لم يكن على هذا المستوى العقلى الذى يتمتع به إنسان اليوم . وبتعبير آخر فقد كان الإنسان فى منزلة وضيعة ثم أخذ فى الارتقاء إلى أن بلغ ما بلغه من مستوى تطورى ممتاز .

ولقد نستطيع القول بأن أفراد الفريق الأول يشكِّلون فئة المتفائلين بإزاء أصل الإنسان ، بينما يشكل الفريق الآخر فئة المتشائمين . ولقد سبق لنا أن قلنا إن نظرتنا

إلى التفاؤل والتشاؤم لا تقتصر على المستقبل وانما تشمل الزوايا الثلاث للزمان . فيمكن أن ينظر إلى التفاؤل والتشاؤم من زاوية الماضى ، كما يمكن أن ينظر إليهما من زاوية الحاضر ، وأخيرا يمكن أن ينظر إليهما من زاوية المستقبل . فليس من العجيب إذن أن نتناول التفاؤل والتشاؤم بإزاء نشأة الإنسان ، فنقول إن أولئك الذين ينظرون الى الطبيعة الانسانية فى نشأتها الأولى على أنها طبيعة ممتازة نقية ، إنما يشكلون فئة المتفائلين ، بينما نعتبر أولئك الذين ينظرون الى تلك الطبيعة باعتبار أنها خسيسة متشائمين .

ونستطيع فى الواقع أن نعتبر أن الفريق الأول ينظر بنظرة تنازلية إلى الطبيعة الإنسانية ، بينما ينظر أفراد الفريق الثانى إلى تلك الطبيعة بنظرة تصاعدية . فبينما يعتبر الفريق الأول أن الإنسان كان فى مكان سنى ، ثم أخذ يتدهور وينحدر منه إلى مكان دنى وأقل ارتفاعا وسموا ، فإن أفراد الفريق الثانى يعتبرون أن الإنسان كان فى مكان منخفض ثم أخذ فى الارتفاع والتسامى إلى أن بلغ مكانا مرتفعا يشبه أن يكون جبلا عاليا . وهذا معناه كما سبق أن قلنا أن الفريق الأول يعتبر أن ماضى البشرية أفضل من حاضرها ، بينما يعتبر الفريق الثانى أن حاضر البشرية أفضل من ماضيها .

والمتفائلون يعتبرون أن ما يسمى بالحكمة ، وهى ما كان يتمتع بها الإنسان القديم قبل تدهور مكانته وقبل تلوث طبيعته الإنسانية ، إنما هى أفضل ، بدرجه بالغة ، من العلم والمعرفة العلمية التى يزعم الإنسان الحديث أنها تبصِّره بالحياة وبالعلم والكون . فالحكمة التى كانت من طبيعة الإنسان القديم لم تكن تعتمد على المحسوسات يستقى منها معرفته ، ولم تكن العمليات العقلية التالية للإدراك كالذاكرة والذكاء والخيال والاسترجاع والتصور موجودة لديه ، أو حتى لازمة له فى الوقوف على الحياة من حوله ، بل إنه كان يتمتع بموهبة أخرى أرقى وأسمى هى الحدس المباشر والإلهام المستمر من الفيض الآلهى .

ويزعم المتفائلون بازاء القوام الأصلى للإنسان القديم بأن ما حصل عليه الإنسان الحضارى من علم ومعرفة إدراكية إنما يعتمد بالدرجة الأولى والأخيرة على المدركات الحسية المحيطة بالإنسان ، فهو لا يعمل فى واقع الأمر على الارتفاع بالمستوى

المعرفى – أعنى المعرفة الحقيقة بهذا الاسم ، أى الحكمة – وإنما هو يعمل على انطفاء المواهب اللَّدنية التى تتصل بالبصيرة الفطرية التى كان بمقدور الإنسان أن يستعين بها فى الوقوف على كل شيء بغير إجالة للفكر ، وبغير بذل لجهد عقلى . فما بدأ علم النفس الحديث جدا فى الكشف عن خباياه من قدرات روحانية خارقة كالتخاطر والرؤية الروحية وقراءة الأفكار ونحو ذلك ، إنما يعتمد بالدرجة الأولى على بداية خلو الانسان من الشواغل الحسية ومن التعلق بالأرض وبما تتضمنه من محسوسات . وبتعبير آخر فإن بداية اهتمام الانسان بما حوله من أشياء بواسطة الحواس والإدراك كان بمثابة الحكم بانتهاء عمل الذرائع الروحية والقضاء عليها قضاء تاما . ولعل ذلك قد حدث نتيجة لاهمال الذرائع الروحانية والأسلحة المعرفية التى كان الإنسان القديم متمتعا بها قبل أن يشغل نفسه بالمحسوسات . والامر هنا أشبه بضمور بعض الأجهزة النفسية التى كان الانسان القديم يتمتع بها . فلقد كان الإنسان القديم متمتعا بالقدرة البالغة على التصوير ، كما كانت لديه قدرة كبيرة على الحفظ . لقد كانت الكتابة لدى قدماء المصريين مثلا لا تعدو أن تكون رسما لأشياء وأحياء وأناسى وإقامة علاقات بين تلك الصور التى كانوا يقومون برسمها للتعبير عما كان يدور بخَلَدهم من معان . ويخطىء من يعتقد أن استخدام الكتابة بالرسم عند الفراعنة وغيرهم كان قاصرا على العباقرة من الرسامين دون باقى الشعب . والحقيقة أن جميع الناس فى تلك العصور كانوا يتمتعون بالموهبة والقدرة على الرسم ، ثم كانت المدرسة تأخذ فى التنقيح والتهذيب والتجويد لما كانوا يرسمونه . وما يقال عن موهبة التصوير ينسحب أيضا بإزاء الحفظ . وشاهد ذلك ما تزخر به الكتب الأدبية القديمة الخاصة بالتراث العربى والتى تنبئك بما كان يتمتع به الحُفَّاظ من قدرة على الحفظ المباشر بغير إجالة للفكر وبغير بذل للجهد الذهنى . كان المرء يسمع ويحفظ مباشرة بغير أن تتوه عنه الألفاظ . ولم يكن ذلك قاصرا على الشعر والنثر ، بل كان قائما أيضا بإزاء الأحداث والتواريخ . فالإنساب كانت تحفظ فى الأذهان وليس بالأقلام والأوراق . ولا نستطيع أن نقول إن اللجوء الى الكتابة والتسجيل كانا نتيجة تدهور القدرة على الحفظ ، بل نستطيع القول بأن استخدام الأوراق والتسجيل كان هو السبب فى حدوث ذلك التدهور .

ونفس الشيء وقع – فى رأى المتفائلين الذين يقولون بأن طبيعة الإنسان القديم كانت أفضل من طبيعة الإنسان الحديث – بإزاء المواهب الحدسية والإلهامية والمواهب الروحانية الأخرى التى لا نستطيع أن نحددها بسبب فقداننا لها ، وعدم ترك أثر كبير منها فى حياة الانسان المعاصر .

وفى مقابل ما يقوله المتفائلون نجد ما يزعمه المشائمون الذين يقولون إن الانسان القديم كان فى مكانة حقيرة ثم ارتفع الى مكانة سامية . فما كان يتمتع به الإنسان القديم لم يكن ليزيد عما تتمتع به القردة العليا من مواهب عقلية تتعلق بالأدوات المعرفية المتباينة . وهل كان للإنسان القديم أن يصنع الآلات الحاسبة الدقيقة والعقول الإلكترونية المتباينة والاضطلاع بالمكتشفات العلمية الدقيقة سواء كانت مكتشفات طولية أم كانت مكتشفات عَرْضية ؟ ونعنى بالمكتشفات العرضية تلك النوعيات الجديدة من الأشياء التى يقوم الإنسان بالكشف عنها . أما المكتشفات الطولية فإنها تلك المكتشفات التى تتعلق بالشيء نفسه ولكن من زوايا جديدة لم تكن معروفة من قبل . فالذرَّة مثلا والوقوف على أسرارها تعد من المكتشفات الطولية ، بينما يعتبر اكتشاف الميكروبات كفئة حية جديدة على يد باستير اكتشافا عَرْضيا .

ونود أن نعود فنؤكد أن القول بالتفاؤل والتشاؤم – أو بتعبير أدق الحكم بهما – إنما يعتمد على الجانب الذى نركز انتباهنا عليه . فنحن هنا ننظر إلى أصل الإنسان وليس إلى تطوره . فنحن إذا نظرنا إلى فئة المتشائمين بإزاء أصل الإنسان ، فإننا نستطيع أن نحكم بأنهم هم أنفسهم متفائلون إذا ما نظرنا إليهم من جانب آخر وهو مستقبل الانسانية . وعلى العكس فإذا نظرنا إلى فئة المتشائمين بإزاء أصل الإنسان الذين يقولون بأن ذلك الأصل كان منحطا ثم أخذ فى الارتقاء ، فاننا نجد أن نفس تلك الفئة تعتبر فئة متفائلة إذا ما تصفحنا كلامها بإزاء مستقبل الإنسان .

ولعل البعض يجدون فى كلامنا هنا شيئا من التناقض . والحقيقة أن الحكم بالصفة ونقيضها على نفس الشيء يتوقف على الزاوية التى نحكم منها . افترض أن أمامنا ثلاثة سوائل . الأول درجة حرارته خمس درجات مئوية ، والثانى درجة

حرارته خمسون درجة مئوية والثالث درجة حرارته مائة درجة مئوية . فإذا قارنا بين السائل الأول والثانى فإننا نقول إن السائل الثانى ساخن والأول بارد ، ولكن إذا نحن عقدنا مقارنة بين السائل الثانى والسائل الثالث ، فإننا نصف السائل الثانى بأنه بارد وهو الذى سبق لنا أن وصفناه بأنه ساخن وأن السائل االثالث هو الساخن . ولا يكون فى حكمنا ما يتناقض مع العقل السليم أو مع الحكم الصائب . وهكذا يقال أيضا عن الحكم على المتفائلين بازاء أصل الانسان أنهم متشائمون من زاوية التطور ، كما نحكم على المتشائمين بإزاء أصل الإنسان من حيث أنهم متفائلون فى ضوء التطور . فالحكم بالتفاؤل على الأصل والمنشأ يستحيل إلى تشاؤ م ، كما يحكم بالتفاؤل مرة والتشاؤم فى المرة التالية حسب تناولنا للماضى والمستقبل .



الفصل الخامس

المعنى الفلسفى للتفاؤل والتشاؤم

الفصل الخامس

المعنى الفلسفى للتفاؤل والتشاؤم

الواقع الخارجى كانعكاس للداخل :

ذهب بعض الفلاسفة إلى إنكار وجود العالم الخارجى - بركلى مثلا - وقد أناطوا الوجود كله للعالم الداخلى ، أى لما يدور بدخيلة المرء من أفكار وأخيلة وتصورات وأوهام . فكل ما نعتقد فى وجوده بخارجنا ما هو سوى أنسجة ذهنية ننسجها لأنفسنا كما يقوم العنكبوت بنسج بيته - وهو كل عالمه المحيط به - من عصارة نفسه ومن صميم كيانه . فما يراه العنكبوت حوله كخارج عنه ، إنما هو فى الحقيقة من صلب كيانه وليس من الخارج فى شئ ، بل هو من دخيلته ومن قوامه الذاتى الأصيل .

ولسنا هنا بصدد التعرض للوجود والعدم ، وإنما نحن نقصر حديثنا على الصبغة التى يصطبغ بها العالم من حولنا ، سواء كانت صبغة ناصعة البياض ومزهرة جميلة ، أم كانت صبغة داكنة كالحة ومقفرة قبيحة .فإذا كنا نقول بأن الخارج إنما هو مجرد انعكاس للدخائل المعتملة بقوام الأفراد ، فإن التفاؤل أو التشاؤم لا يكونان سوى ما يعكس الداخل على الخارج المحيط بالمرء .

والواقع أن من يقول إن الداخل يسيطر على الخارج لا بد له أن يكون قد آمن مُسْبقا بمجموعة من العقائد . أولى تلك العقائد الإيمان بالإنسان وترجيح كفة الجهاز المعرفى لديه على الواقع الموضوعى المحيط به . وأكثر من هذا فلا بد من الإيمان بالنمو الداخلى للمقومات المترسبة فى أعماق الإنسان . فثمة جهاز أوتونومى يتحرك بذاته وينتج بغير دفع من الخارج . إنه يتناول المقومات الموجودة بالداخل ويأخذ فى تصنيعها باستمرار فى صيغ متباينة متجددة باستمرار . على أن تلك الصيغ الجديدة

التى يقوم هذا الجهاز بصنعها ليست واقفة عند حد . إنها من جهة أخرى تتكثر وذلك بما يتم بين مقوماتها من تلاقح أشبه ما يكون بالتلاقح الذى يحدث بين الذكور والإناث فى عالم الحيوانات ، وتتأتى أجيال جديدة تقوم من جديد بالتلاقح فيها بينها لكى ينشأ عنها أنسال جديدة متجددة الشباب وفتية القوة ، ومفعمة بالنشاط الوافر .

وأكثر من هذا فإن الخارج يمكن أن يتغير من حيث صبغته ومن حيث ترجمته الوجدانية ، إذا ما استطعنا أن نغير الصبغة الداخلية ، وإذا ما استطعنا أن نقدم ترجمة أخرى مناسبة للصبغة التى نريد تحقيقها فى العالم الخارجى . ومعنى هذا فى الواقع أن ثمة تصورا مسبقا يجب أن يعتمل بالذهن قبل تحقيقه وجدانيا فى القلب من جهة وفى الواقع الخارجى من جهة أخرى .

وإذا كان ذلك كذلك ، فلا بد من الاعتراف بأهمية الإقتناع كخطوة أولى للإيمان بالصورة المبتغاة . أضف إلى هذا أن تركيب تلك الصورة التى نقتنع بها يجب أيضا أن يسبق عملية الإقتناع ذاتها . وعلى هذا فإننا نستطيع أن نرتب العمليات الداخلية التى يجب أن يمر بها المرء حتى يتسنى له التأثير فى العالم الخارجى بتأثير معين وصبغة معينة على النحو التالى :

أولا – تشكيل أو تركيب صورة ذهنية تتعلق بالحياة المحيطة بنا ، ويمكن أن نحلل الحياة إلى أشياء وأحياء وأناسى ، ثم إلى علاقات تقوم بين جميع الكائنات المذكورة . وتتشكل العلاقات من علاقات تجاذب من جهة ، وعلاقات تنافر من جهة أخرى . ولقد تقوم علاقات بيننا وبين ما يحيط بنا بحيث نكون طرفا فيها ، أو بتعبير أدق بحيث تكون لنا إرادة معتملة فى الموقف ، كما قد تنشأ العلاقة بغير أن تكون لارادتنا صلة مباشرة أو بغير أن نقدم على إحداث تلك العلاقة . وهذا النوع الأخير هو ما نسميه بالحوادث . فالعربة التى تدهم شخصا وتقضى على حياته أو تصيبه بجراح ، إنما تكون قد أقامت علاقة معينة بينها وبينه ، ولكنها علاقة غير مرغوبة من قبله ، بل وتكون علاقة ليس له إرادة بإزائها ، اللهم إلا إذا كان قد أقدم على الانتحار بأن يتصدى لحركتها .

وبالنسبة للحوادث أو للعلاقات التى تفرض علينا فرضا بغير أن يكون لإرادتنا أى دخل فيها بل تفرض علينا فرضا ونُقْسر على إقامة علاقة بها تضر بنا أو تقضى علينا ، فإننا نعمد إلى إناطة تحركاتها بقوة خارجية بحيث يمكن إلجامها أو حمايتنا منها . فيحمل البعض منا أحجبة تحمية أو يردد أدعية معينة لتبعد عنه أخطار تلك الحوادث . .

ثانيا – الإقتناع بتلك الصور الذهنية التى نشكلها عن العالم المحيط بنا بما يحمله من أشياء وأحداث . وهذا الإقتناع يسير فى الواقع فى مراحل متتابعة . فما كنا نقتنع به منذ عام مثلا قد لا نكون مقتنعين به الآن . والاقتناع يتوقف على عدة عوامل نفسية وجدانية وذهنية عقلانية . فثمة أولا صلة بين العاطفة والاقتناع . فما نحبه نقتنع به ، وما نبغضه نرفضه عقليا ونبحث له عن تعلاَّت تحملنا على رفضه ، وعدم الإقتناع به . ومن جهة أخرى فإن البراهين العقلية القوية تحملنا على التنازل عن أشياء اقتنعنا بها وتقبُّل اشياء جديدة لم نكن مقتنعين بها قبلا . ويمكن أن نزعم أن من الضرورى توافر بطانة وجدانية لدى المرء قبل اقتناعه أو رفضه لما يقدم إليه من أفكار .

ثالثا – استحالة الاقتناع إلى إيمان لا يناقش تقريبا . فثمة أشياء نؤمن بأنها جيدة وأشياء أخرى نؤمن بأنها رديئة .

وطبيعى أن الصبغة العامة التى تسود اقتناعاتنا وإيماننا بازاء العالم المحيط بنا ، تحدد موقفنا من التفاؤل والتشاؤم . فإذا كانت الصبغة العامة لتلك الاقتناعات ولذلك الإيمان صبغة ايجابية ، وذلك بأن ننظر بارتياح إلى العالم من حولنا بوجه عام ، فإننا نكون إذن من المتفائلين . وعلى العكس من ذلك إذا كانت الصبغة العامة سلبية ، فنكون إذن متشائمين .

على أن العالم المحيط بنا ليس عالما واحد ، بل هو فى الواقع ثلاثة عوالم . عالم الماضى وعالم الحاضر وعالم المستقبل . ولقد سبق أن قلنا إن التفاؤل والتشاؤم لها ثلاثة أضلاع زمانية هى الماضى والحاضر والمستقبل . فإذا كنت تنظر إلى طفولتك فتجدها طفولة تعسة وتتنهد لدى تذكرك لها ، فإن حاضرك الباسم لا يشفع لك . بل تكون

متشائما بازاء ضلع رئيسى من أضلاع حياتك الثلاثة ، أعنى ضلع الماضى . وطبيعى إذا كانت طفولتك سعيدة ولكن عالمك الحاضر تعس ، فإن ضلع الحاضر يكون إذن مصطبغا بصبغة قاتمة متشائمة . وكذا إذا كنت تنظر بتوجس إلى المستقبل وتراه مظلما كما يفعل كثير من الكهول الذين يرقبون الشيخوخة بكل توجس وخيفة ويأس ، فإن ضلعا أساسيا من الأضلع الثلاثة فى عوالمك الثلاثة يكون قد اصبطغ بصبغة تشاؤمية .

وحتى بالنسبة لأولئك الذين يقدمون نظرة عامة وفلسفة شاملة للحياة وكأن نظراتهم متجردة من الذاتية وتنم على الموضوعية البحتة الحيادية ، فإن المحلل لمثل تلك الفلسفة ، يستطيع الوقوف على العناصر الذاتية التى تختبئ وراء تلك الفلسفة العامة الموضوعية الحيادية . ذلك أن الإنسان بطبيعته يميل إلى التعميم . فكما أننا نصل إلى تصورنا للشجرة عن طريق العديد من الأشجار التى شاهدناها فنقول لفط « شجرة » بازاء أية شجرة فى أى مكان وفى أى زمان ، مع أن الأصل هو الخبرات الجزئية التى حصلنا عليها فى حياتنا ، كذا فإننا نفعل بازاء خبراتنا الشخصية التى نسارع إلى تعميمها . فيقول واحد مثل شوبنهور إن طبيعة المرأة فاسدة وقد أخذ فى فلسفته ينظر بنظرة تشاؤمية إلى النساء وذلك كنتيجة لمشاجراته العديدة مع أمه وعلاقاته السيئة المستمرة بها .

ومعنى هذا أن العام والموضوعى يأتى كصدى للخاص الذاتى . ولكأن الإنسان يعيش فى إطار دوائر أشبه ما تكون بدوائر الماء التى تبدأ صغيرة بعد سقوط الحجر به ، ثم تأخذ الدوائر الأوسع فى الظهور بحيث تتلو الدائرة الأوسع الدائرة الأصغر منها إلى ما لا نهاية . فمن الدائرة الأضيق تبزغ الدائرة الأوسع . وعلى نفس النحو فإن دائرة الخبرة الخاصة تتسع لتشمل الدائرة العامة التى تتعلق بخبرات الآخرين بل والتى تتعلق بالعالم كله . والواقع أن الفيلسوف – أى فيلسوف – يزعم فى فلسفته أن ما يقوله ينطبق على الماضى والحاضر والمستقبل . فليس من فيلسوف يخطط لمجتمعه الراهن وقد أغمض عينيه عن عالم الماضى وعالم المستقبل . إنه يصبو إلى اللانهائى كما تفعل دوائر الماء بعد أن تبدأ الدائرة الأولى فى الظهور فتتلوها دوائر أوسع منها إلى ما

لانهاية . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الواقع الخارجى يمكن اعتباره انعكاسا أو صدى للداخل .

الداخل كانعكاس للواقع الخارجي :

بينما نجد بعض الفلاسفة يرجحون كفة الداخل على كفة الخارج ، فإننا نجد من جهة أخرى أن ثمة فلاسفة آخرين يرجحون كفة الواقع الخارجى منكرين على الداخل أن يكون ذا قوام قائم بذاته ، بل يجعلونه مجرد انعكاس أو صدى للواقع الخارجى . وإنك لتجد أن أفراد الفئة الأولى يقعون بوجه عام فى نطاق المثاليين ، بينما يقع أفراد الفئة الثانية فى فئة الواقعيين الماديين .

ولعلنا فى هذا المقام نتناول الوجه الآخر المكمل للوجه الأول الذى عرضناه فى الموضوع السابق ، فنتدارس هنا الداخل باعتباره انعكاسا وصدى للواقع الخارجى . بيد أننا سوف نفعل كما فعلنا فى الموضوع السابق وذلك بأن لا نبحث الموضوع من زاوية وجودية ، بل من زاوية الصبغة الوجدانية التى يتلبس بها المرء فى دخيلته كصدى لما يعتمل فى حياته الواقعية الخارجية . فنحن هنا سوف لا نستعرض آراء الفلاسفة الذين قالوا بالوجود الخارجى دون الوجود الداخلى ، بل سنعمد فقط إلى محاولة الكشف عن تأثير واقع الإنسان فى حياته الوجدانية ، وبخاصة فيما يتعلق بنظرته التفاؤلية أو التشاؤمية إلى نفسه أو إلى غيره أو إلى العالم من حونه بأبعاده الزمانية الثلاثة ، أعنى الماضى والحاضر والمستقبل .

وإنك لتجد أن الذين يزعمون أن المهم هو الخارج وليس الداخل ، أو أن أول الخيط هو السلوك الذى يأتيه المرء وليس انتحاءاته الوجدانية ، يقولون لك إنك إذا ضحكت فإنك تستشعر السرور والبهجة ، وإذا بكيت فإنك تستشعر الحزن . وطبيعى أن الذين يرجحون كفة الداخِل على الخارج يقولون لك إنك إذا سررت فإنك تضحك ، وإذا حزنت فإنك تبكى . وطبيعى أن المرجحين لكفة الخارج على الداخل يقيمون الوزن كل الوزن للظروف والوقائع والأحداث الخارجية ، لأنها تنعكس على دخيلة المرء . فنجاح الطالب فى الامتحان واقعة خارجية . ولهذه الواقعة

تأثير فى نفسيته فينشرح صدره ويبتهج فؤاده وترتسم الابتسامة على شفتيه وتمتلئ أساريره بالحبور والبهجة . وعلى العكس من ذلك يقال عن موت قريب أو صديق عزيز لدى المرء . فواقعة الموت حادث خارجى يحتل مكانا وزمانا فى حياة المرء . وهذا الحادث يطبع الحالة الوجدانية بطابع معين هو طابع الحزن والأسى . وهذا يقال عن جميع الأحداث والأحوال والظروف التى يلاقيها المرء فى حياته .

والسؤال الذى ينبغى أن نثيره فى هذا المقام هو : هل الأشياء أو الأحداث فى حد ذاتها هى التى تفضى إلى الانطباعات النفسية الوجدانية بالسرور أو بالحزن من جهة ، أو بالتفاؤل والتشاؤم من جهة أخرى ، أم أن هناك شيئا آخر يؤثر فى الموقف ؟ إننا نعتقد أن الأشياء فى حد ذاتها لا تؤثر من قريب أو من بعيد فى حياة المرء الوجدانية . وشاهد ذلك أن الحدث الواحد يقع لشخصين مختلفين فتكون له نتيجة وجدانية معينة لدى أحدهما ، ونتيجة أخرى مباينة لدى الآخر . ولقد يقابل أحد الأشخاص موقفا ما أو حادثة معينة تصيبه فى حياته أو فى حياة أو صحة أو مستقبل أعز الناس لديه فيقابل المصيبة التى حاقت به بلامبالاة مذهلة تبعث على الاستياء أو الاستنكار ، بينما قد تقع نفس الحادثة أو تلم نفس المصيبة بشخص آخر فيسارع إلى الانتحار لعدم تحمله وطأة ما وقع له . فهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن التأثير النفسى لا يصدر عن الحدث نفسه ، بل يصدر عن شىء آخر لعلنا نحاول الكشف عنه واستبانة ملامحه ومقوماته .

إننا نعتقد أن الإنسان مقوِّم (أو مقيِّم) لكل ما يقابله فى الحياة ولكل ما يقع تحت حسه . ولعل أول مراحل التقييم التى مر بها الإنسان منذ العصور البدائية هى التقييم باللذة والألم . فالثعبان ردىء لأنه يؤلم باللدغ ويقتل بالسم ، والموز جيد لأن طعمه مستساغ ويدفع الجوع عن المرء . وطبيعى أن الإنسان فى مراحل تطوره المتتابعة قد أخذ فى توسيع دائرة تقييماته سواء من حيث الكيف أم من حيث الكم . فقطاع الأشياء الملذة وقطاع الأشياء المؤلمة قد اتسع من حيث الكم ، وبزغت فى نفس الوقت نوعيات جديدة للتقييم إلى جانب النوعية الأولى المتعلقة بالملذ والمؤلم . فظهرت نوعية الخير والشر . والخير قد يكون ملذا فى بعض الأحيان ، كما أنه قد

يكون مؤلما فى أحيان أخرى . ومن جهة أخرى فإن الشر قد يكون ملذا فى بعض الأحيان ، بينما قد يكون مؤلما فى أحيان أخرى . ولكن على المرء أن يقفو الخير حتى ولو كان مؤلماً ، وأن يتحاشى الشر حتى ولو كان ملذا .

ولعل من أخطر مراحل التقييم – أو أخطرها جميعا – مرحلة الرمزية فى التقييم . فبعد أن كان البدائى فى حزنه وفرحه مرتبطا بالمؤلم والملذ كل الارتباط ، فإن حزن الإنسان المتطور وفرحه قد أخذا أبعادا جديدة فسيحة لا ترتبط بالمحسوسات فحسب ، بل ترتبط بالشئ الذى يرمز له المحسوس . فقيمة الفرد فى نظر صديقه أو قريبه لم تعد تعتمد على ما يمكن أن يصدر عنه من لذائذ حسية ، بل صارت مرتبطة بمعان وذكريات ومشاعر مختزنة عبر سنوات متعاقبة . فالابن يظل مقدرا لوالديه حتى بعد الشيخوخة وبعد أن يصيرا غير قادرين على الانفاق عليه أو توفير متع الحياة له ، بل يكون قد صار هو المسئول عن توفير الاحتياجات لهما . وكذا يقال عن جميع القيم وألوان السلوك التى يقرها الدين ويمتدحها أو لا يقرها ويذمها . فلقد يحزن الشخص لأنه خالف عن أمر من أوامر الدين ويبكته ضميره أمرَّ تبكيت ، بينما قد يجد لذة معينة فى تنفيذ وصايا دينه ويجد نفسه مرتاح الضمير ومبتهجا وسعيدا فى حياته الداخلية .

والواقع أن القيم الاجتماعية هى بيت القصيد فيما يتعلق بخارجية المرء . فالذهب ليس له قيمة فى ذاته ، بل له قيمة إجتماعية فحسب . وشاهد ذلك أنك إذا تهت فى الصحراء وقد حملت معك طنا من الذهب وألم بك الجوع والعطش ، فإنك سوف تفضل كوبا واحدا من الماء ، أو كسرة جافة من خبز حتى ولو كان خبزا عفنا على طن الذهب الذى تحمله معك ، وهو ما لا يطفئ ظمأ ولا يسد جوعا . فحيثما ولىَّ المجتمع الأدبار عنك ، أو زغت عنه أو ضللت طريقك عن طريقه ، فإن خروجك عن إطاره يفقدك تقيما إجتماعيا أساسيا لذلك المعدن النفيس اجتماعيا وعديم القيمة فرديا .

وحتى بالنسبة لأكثر القيم قدسية كالزواج ، فإنها لا تظل محتفظة بكيانها إلا فى الإطار الاجتماعى . افترض أنك ضللت طريقك ووجدت نفسك وحيداً فى جزيرة

أنت وواحدة من بنات حواء وقد تحطمت الباخرة التى كانت تقلكما وانقطعت كل صلة بينك وبين العالم بأسره ، ولم يبق فى الوجود لك من بنى البشر إلا تلك المخلوقة . أليس من المتوقع أن تكوِّن أسرة جديدة باتصالك بتلك المخلوقة بغير أن تسجل زواجك على يد مأذون أو كاهن ؟ وما يقال عن الذهب والزواج ينسحب على جميع الأشياء والعلاقات والمواقف والتصرفات .

ومما يجدر ذكره ما يعرف بنمو القيم . وهذا النمو إما أن يكون نموا فرديا وإما أن يكون نموا اجتماعيا . فبالنسبة للفرد ، فإننا نجد أن الطفل يأخذ فى تشرب القيم الاجتماعية منذ طفولته الباكرة وينشأ على تلك القيم ، وقد يحاول تعديلها قليلا أو كثيرا ، ولكن مهما أدخل عليها من تعديلات فإن الخطوط العريضة التى اكتسبها فى طفولته ومراهقته وشبابه تظل راسخة لا تتزعزع . أما بالنسبة للمجتمع – أى مجتمع – فقد ظل عَبْرَ العصور المتعاقبة يكتسب ويرسخ قيمه حتى بلغ ما بلغه من مرحلة تقييمية . وكما أن الفرد يعدِّل قيمه ، كذا فإن المجتمع يدخل تعديلات كثيرة على قيمه . بيد أن هناك قيما قابلة للتغيير السريع ، بينما تظل قيم أخرى راسخة الأركان ومحددة الملامح .

ولا شك أن القيم التى يتشربها المرء فى طفولته قد تتضارب مع القيم السائدة بالمجتمع ، كما أنها قد تتساوق معها وتتآلف . ولعلنا نزعم أن تضارب القيم الفردية مع القيم الاجتماعية يشكل السبب الرئيسى فى غرس التشاؤم لدى المرء ، بينما يعمل التساوق بين القيم الفردية والقيم الاجتماعية على غرس روح التفاؤل لديه . على أننا نشترط بالنسبة لحالتى التضارب والتساوق بين القيم الفردية والقيم الاجتماعية بزوغ نتائج مؤثرة فى حياة المرء وفى علاقاته مع ذويه والمتصلين به عن قرب . فعندما تكون تلك النتائج إيجابية ، فإن المجال يكون مناسبا لازدهار التفاؤل . وعلى العكس من ذلك إذا كانت النتائج سلبية وغير مواتية ، فإن المجال يكون إذن مهيأ لترعرع التشاؤم . وهكذا تصطبغ حياة المرء بالتفاؤل أو بالتشاؤم كنتيجة لما يحيط به من قيم .

المثالية تشاؤم :

تختلف المثالية عن الواقعية من حيث أن المثالية تعتمد على صور ذهنية معينة ثابتة عبر الزمان والمكان جميعا ولا تقبل التغيير أو التطوير ، بينما لا تعتمد الواقعية على صور ذهنية ثابتة أو أزلية أبدية . صحيح أن ثمة صورا ذهنية تعتمل فى ذهن الواقعى ، ولكنها صور مرحلية من جهة ، وتلْوية من جهة أخرى . فكل صورة ذهنية فى ذهن الواقعى تولد فى ضوء المرحلة الواقعية التى يعيشها ، ثم إن الصورة الذهنية لا تخلق فى ذهن الواقعى بُدَاءة ، بل تخلق نتيجة للواقع العملى الذى يحياه أو نتيجة للعمليات التى يضطلع بها .

ولعلنا نستطيع القول بأن الاطلاق هو الصفة السائدة بالصورة الذهنية لدى المثالى ، بينما تتسم الواقعية بالنسبية . والإطلاق كمال واستمرار بغير تغير ، بينما النسبية تقدُّم حثيث نحو الكمال وتغيُّر مشمول بالتوقف حينا والتحرك حينا آخر . فالمثالى لا يقنع بنتائج الواقع ، بل هو يصبو إلى تحقيق الصور الذهنية التى اقتنع بها بغير أن يقبل التنازل عن أى جانب من جوانب تلك الصور ، بينما يرضى الواقعى بما توصل إليه ، مؤملا فى التقدم شيئا فشيئا فى المراحل التالية أو بممارسة العمليات التالية .

وإذا نحن نظرنا إلى ما يعتمل فى وجدان المثالى فى كل جنبات حياته العملية ، فإننا نجده غير راض عن النتائج التى توصل أو يتوصل أو سيتوصل إليها . ذلك أنه مهما بذل من جهد ، ومهما اضطلع بمسئوليات ، فإنه يجد أن ثمار جهده لا تتطابق مع صوره الذهنية الكاملة والمطلقة والتى لا تشوبها أية شائبة من أى نوع . وكيف يتسنى للمثالى أن يحقق صوره الذهنية وهى الصور التى تبلغ غاية الشوط من الدقة والكمال والاتقان ؟

ولعلنا نتناول المثالية من زاوية الأبعاد الزمانية الثلاثة التى طالما ذكرناها ، أعنى الماضى والحاضر والمستقبل . فنرى أولا من حيث الماضى أن المثالى عندما ينظر إلى ماضيه ، فإنه يتحسر ويمتلئ قلبه حزنا لأنه لم يتمكن من تحقيق الصور الذهنية التى كان قد ترسَّمها فى ذهنه لتحقيقها وقد أخطأه التوفيق فى ذلك ، فلم يتسنَّ له إلا تحقيق جانب ضئيل من تلك المثل العليا التى كان يبتغيها . ومن جهة ثانية فإن المثالى

عندما ينظر إلى حاضره ويتفحصه ، فإنه يحس أيضا بالمرارة لأنه يجد أن ما لديه من امكانيات وقدرات وطاقة لا يمكن أن يفي بالأهداف التي يصبو إليها ويرجو إحالتها إلى واقع حي في حياته . إنه يلاحظ أن ثمة مفارقة شديدة وبعيدة الغور بين المرجو وبين الممكن . ومن جهة ثالثة فإن المثالي عندما يستشرف المستقبل فإنه يصاب أيضا بخيبة أمل ، وذلك لأنه يجد أن توقعاته وترقباته للنتائج المتوقعة لا تشفي غليله ولا ترضي مطامحه . ولذا فإنه يبتئس ويحس بضآلته وعجزه عن الوفاء بما جعله مثلا عليا يسعى لإحالتها إلى واقع عملي حي في حياته ، أو في البيئة المحيطة به ، أو في إطار العلاقات الاجتماعية التي يؤثر فيها ويتأثر بها .

ونستطيع أن نستبين أنواعا متباينة من المثالية وليس نوعا واحدا فقط . فثمة أولا – المثالية الروحانية ، وَثَّم ثانيا – المثالية الوجودية ، وثم ثالثا – المثالية الأخلاقية ، وَثَّم رابعا – المثالية العقلية ، وَثَّم خامسا – المثالية اللغوية ، وَثَّم أخيرا المثالية الاجتماعية .

فمن حيث المثالية الروحانية ، فإنك تجد الروحاني يعتقد أن الطبيعة البشرية كانت كاملة لا تشوبها شائبة من النقص أو من الخطيئة ثم تلوثت وانزلقت عن المكانة السنية التي كانت تحتلها ، ومن ثم فلا بد من بذل الجهد لاسترجاع تلك المكانة المفقودة واسترداد الجنة الضائعة . وطبيعي أن يتباكى المثالي الروحاني على تلك الرفعة التي تلاشت وعلى الفردوس الذي كان في قبضة يد الإنسان ولكنه فقده بفقدان طبيعته الروحانية . ومهما تعبد الإنسان المثالي أو تقرب وصبا إلى الكمال ، فإنه سوف يظل مستشعرا النقيصة بل والخطيئة تعتمل بين أضلعه وتفصل بينه وبين المثل الأعلى الروحاني – أعني المنزلة الرفيعة التي فقدها – ولا يكون من أمل سوى الاقتراب نسبيا من تلك المنزلة القديمة التي كانت تتمتع بها الطبيعة البشرية قبل السقوط .

أما المثالية الوجودية فإن التابع لها أو المؤمن بها يقول إن ثمة بالفعل وجودا هو الوجود الأمثل لكل شئ في الوجود ، فثمة حصان مثالي وثمة بيت مثالي ، وثمة إنسان مثالي وثمة كتاب مثالي وثمة كيان مثالي لكل شيء كائنا ما يكون . وبتعبير آخر فإن العالم الذي نعيش في إطاره لا يعدو أن يكون ظلا أو خيالا أو شبحا لعالم آخر هو

العالم الحقيقى أو المثالى الذى ينعكس ظله فتتبدى الأشياء الواقعية التى نقف عليها بحواسنا كظلال خافتة لذلك العالم المثالى الذى له حقيقة الوجود وتمامه وكماله بغير ما نقص أو نقيصه تلحق به . ومن الطبيعى أن ينظر المثالى الوجودى إلى هذا العالم الذى تصل انطباعاته إلى حواسه بنظرة مشوبة بالاحتقار والامتهان والريبة . إن صفة الحقيقة لا يمكن إلحاقها بهذا العالم الذى نعيش فى اطاره . فهو وهم من الوهم وباطل من الباطل .

أما المثالية الأخلاقية فإن المتلحف بها يترسم فى ذهنه أنماطا سلوكية سواء من حيث الألفاظ التى يفوه بها اللسان للتعبير عن المعانى أو المقاصد أو العواطف أو الانفعالات أو حتى الآمال التى تتعلق بالمستقبل . ناهيك عن التصرفات التى يأتيها المرء فيما يتعلق بالعلاقات التى تقوم بينه وبين غيره بإزاء الأشياء والإمكانيات المتباينة . فكل شيء سبق أن رسم وحدد بدقة وبتفصيل كامل بغير ما إغضاء عن أية نأمة تصدر عن اللسان وعن أية إيماءة يعبر بها المرء عن أى احساس . فكل شيء محدد ومرسوم بدقة متناهية . وكل مخالفة عن الصورة المثالية المرسومة يعد شائبة قد لحقت بالسلوك وقد عزفت به عن الكمال ، ومن ثم فقد صار سلوكا رديئا .

أما المثالية العقلية فإنها تحدد ملامح التفكير السديد وتخضع الفكر الإنسانى لمجموعة من الأُطُر والقوالب التى لا محيص عنها . ولقد حاولت الفلسفة الحديثة أن تتحرر من فلسفة أرسطو التى قامت بتحديد تلك الأطر بحيث صارت الإنسانية تصب فيها فكرها بغير خروج عنها أو تمرد عليها عبر عصور متعاقبة كثيرة . وطبيعى أن المثالى العقلانى كان دائم الاتهام لنفسه ولغيره إذا هو خالف عن تلك القوالب العقلية ، بل إنه كان – وما يزال هذا حال الكثيرين حتى اليوم – يتهم الفكر الإنسانى اليومى بالمروق عن حظيرة الفكر المنطقى السديد .

وكذا أيضا حال المثالى اللغوى الذى يعتقد أن اللغة الحقيقة بالاستخدام هى تلك اللغة التى لا تخرج عن أُطُر معينة ، أو هى اللغة التى لا تقبل التطور – أو التحريف حسب مفهومهم وتعبيرهم . فمن يريد أن يتكلم أو أن يكتب ، فعليه بصب كلامه فى تلك القوالب اللغوية المثالية التى ترتكز على أسس مطلقة ثابتة لا تقبل التعديل أو

التطوير . وهكذا تجد المثالى اللغوى يتحسر على كل تطور يلحق باللغة ، ويجاهد فى منع تسرب كلمات أجنبية أو تأثر لغة حديثه أو كتابته باحدى اللغات الأخرى ، أو تأثرها حتى باللغة العامية التى يستخدمها أصحاب اللغة فى حياتهم اليومية .

وأخيرا فإننا نجد أن المثالى الاجتماعى يرسم صورة متكاملة الملامح والتقاطيع للمجتمع المثالى . وإنك لتجد بالفعل أن بعض المثاليين (افلاطون مثلا) ، قد قام برسم الملامح التفصيلية للمدينة المثالية ولما ينبغى أن يسود ذلك المجتمع المثالى من علاقات اجتماعية متباينة . وإنك لتجد حتى الآن أن ثمة مثاليين إجتماعيين يترسمون مثلا عليا لما ينبغى أن يسير عليه المجتمع ويتلبس به من صيغ سواء كانت صيغا سياسية أم صيغا اقتصادية أم صيغا قانونية . وطبيعى أن أولئك المثاليين ينظرون بنظرة تشاؤمية إلى كل ما يتباين فيه المجتمع الذى يعيشون فى إطاره عن الصور الذهنية المثالية التى آمنوا بها ولا يرضون عنها بديلا .

وهكذا نجد أن المثالية بجميع أنواعها تبعث على التشاؤم والتوجس لدى كل من يتلحف بها ، وذلك لدى وقوف المثالى على المفارقة الشديدة بين الواقع الراهن الذى يحيا فى إطاره وبين الصور المثالية الذهنية التى ترسمها فى ذهنه ويتمنى تحقيقها عمليا فى الواقع المحسوس . وطبيعى أن الحسرة التى يستشعرها المثالى إنما تتأتى نتيجة عجزه عن تحقيق صوره الذهنية المطلقة وغير المتطورة على الإطلاق .

الواقعية تفاؤل :

عقدنا فى الموضوع السابق مقارنة بين المثالية والواقعية ، واتضح لنا من تلك المقارنة أن المثالى متشائم بازاء الزوايا الثلاث للزمان ، بل ومتشائم فى جميع أنواع المثالية التى عرضنا لها . وقلنا أيضا إن الواقعى متفائل لأنه لا يترسم صورة ذهنية سامية لا يستطيع بلوغها ، ومن ثم فإنه لا يجد مفارقة بين ما يجده فى ذهنه من جهة ، وبين ما يتسنى له تحقيقه فى الواقع سواء فى مجال الأشياء أو فى مجال العلاقات الإنسانية وغير الإنسانية من جهة أخرى .

ولعلنا نتساءل عن نوعية المقارنة والتقييم التى يلجأ إليها الواقعى ؟ إنه يعتمد فى المقارنة والتقييم على ما تم حدوثه فى المراحل السابقة ، أعنى أنه يقتبس الصورة الذهنية لا من مثل أعلى ذهنى يترسمه ويقفوه ، بل يقتبسها من واقع فعلى استطاع إحرازه وتحقيقه بالفعل . ولنضرب مثالا يوضح الفرق بين الموقف الواقعى وبين الموقف المثالى بالطالب الذى يقيس المدرس تقدمه فى ضوء ما كان عليه مستواه الدراسى ثم ما صار إليه ذلك المستوى بعد فترة من التوجيه والتدريس . إن موقف مثل هذا المدرس من مدى تقدم تلميذه هو موقف واقعى . أما المدرس الذى يقيس التلميذ فى ضوء مستوى معين يجب أن يصل إليه (الحد الأدنى للنجاح أو للتفوق مثلا) فإنه لا يكون واقعيا بل مثاليا .

ومن الطبيعى أن أى مرب يتبع الطريقة الواقعية يستطيع أن يلمس شيئا من التقدم فى حياة تلميذه الدراسية ، ومن ثم فإنه يجد نفسه متفائلا بازاء مدى ما يستطيع ذلك التلميذ إحرازه . وأكثر من هذا فإن المربى الذى ينهج نهجا واقعيا ، سوف لا يرتبط بمنهج دراسى معين بل سيهتم بما لدى الناشئ من ميول واستعدادات ويأخذ فى استثمار تلك الميول والاستعدادات . فهو يعتمد فى تربيته على ما لدى الطفل وليس على ما يرجى لكل طفل مهما كان وبغض النظر عمن يكون كما يفعل المثاليون التربويون . فالمثالى من رجال التربية يضع معيارا عاما لجميع الأطفال الواقعين فى نطاق عمر معين ويفترض أنهم جميعا يستطيعون بلوغ ذلك المستوى الذى يقرره لهم . ولكن من جهة أخرى فإن الواقعى من رجال التربية يعتبر أن كل طفل على حدة يمثل فئة بذاتها لا يمكن إدماجها مع فئات أخرى ، أى مع أفراد آخرين . ومن ثم فإنه يأخذ فى اعتباره الطفل الواحد عامدا إلى استكشاف ما لديه من امكانيات يمكن العمل على نموها والترعرع بها واخراجها من الكمون إلى حيز الواقع الحى .

وطبيعى أن ما ينطبق بإزاء التربية ينطبق بالتالى على جميع المجالات المتباينة : فى الاقتصاد والسياسة والقانون ، بل وفى جميع مجريات الحياة . وحتى بالنسبة للطب فإن الطبيب الواقعى يعمد إلى علاج المريض مستهديا فى تقييمه بمدى تحسن المريض

لا بصورة ذهنية عن الصحة المثلى ، بل مستهديا بالمقارنة بين حالة المريض نفسه السابقة (فى اليوم السابق مثلا) وبين حالته الراهنة الآن ومدى ما أمكنه إحرازه من تقدم نحو الشفاء . ولعلك تلاحظ أن تفاؤلية الواقعى إنما تنبع من أن الصورة الذهنية التى يتوخاها فى مقارنته بالموقف الراهن ، إنما تكون فى غالبية الحالات أقل مستوى وليست أحسن مستوى كما هو الحال لدى المثالى . فالمدرس والطبيب المثاليان يقارنان ما يعرض أمامهما من أشخاص فى ضوء نماذج عقلية لا يمكن بلوغها ، أما المدرس والطبيب الواقعيان فإنهما يقارنان من يعرض عليهما من أشخاص فى ضوء صور ذهنية لنفس أولئك الأشخاص فى السابق ، وهى صور تكون فى الغالب صورا أقل مستوى من الحالة الراهنة التى بلغوها . ذلك أن المدرس الواقعى يكون قد قدم خبرات بعد وقوفه على الصورة – أو الحالة الواقعية السابقة – التى كان عليها تلميذه ، وهو يدرك بخبرته أن تلك الخبرات التى يقدمها إلى تلميذه سوف تؤثر فيه وتعمل على تقدمه أو تخلصه من مواطن الضعف الدراسية . وكذا الحال بالنسبة للطبيب الواقعى . فهو يقدم الدواء ويصف العلاج الذى يدفع بالمريض إلى الخطو خطوات قليلة أو كثيرة نحو الشفاء والإبلال من المرض . فالصورة الذهنية التى استشفها الطبيب عن مريضه قبل تقديم العلاج إليه أقل مستوى من الصورة التى يستشفها عنه بعد مواظبته على العلاج وإعادة فحص الطبيب له فى المرة التالية .

وثمة فى الواقع أساس تعتمد عليه الواقعية ، وهو أساس نفسى – يزعم بمقتضاه الواقعى أن بمقدوره أن يتحكم فى مُقَدَّرات الموقف وفى تسيير دفته إلى حيثما يريد . ذلك أنه غير مقيد بقيود معينة ، كما أنه ليس ملزما بتحقيق صورة ذهنية مسيطرة على ذهنه وتعتمل فى أنحائه . فصوره الذهنية ليست صورا مخلوقة بالخيال ، وإنما هى مدركة من الواقع عن طريق الحس . فالطبيب الذى يشخص حالة المريض بُداءة ، إنما يكتسب عن طريق ذلك التشخيص صورة ذهنية واقعية يستطيع أن يجعلها ركيزة يتسنى له على أساسها أن يقف على تأثير الدواء الذى أمر المريض بتعاطيه وعلى النتائج المترتبة على أسلوب العلاج الذى رسمه لمريضه .

فالواقعى يستجوب الواقع ليوجهه الوجهة المناسبة له لا المناسبة لصور ذهنية خيالية ارتسمت فى ذهنه . وطبيعى أن الواقعى لا يحس بغضاضة إلا إذا هو فقد ثقته

فى نفسه وفى علمه أو إذا تأكد من عجزه قُبالة الموقف الواقعى الذى يعترض طريقه . ولكن الواقعى المتمكن والمحنك لا يقف موقف العاجز أمام الواقع ، بل هو يعمد إلى الأساليب والحيل التى يتسنى بها تحريك ذلك الواقع وفق الخطوط التى ترسَّمها فى ذهنه وَقَفَاها فى المعالجة . بيد أن الواقعى يعرف أيضا حدود قدرته . فهو عندما يجد نفسه عاجزا أمام الواقع غير المواتى – سواء بسبب النقص فى عمله أو بسبب حدود الخبرة البشرية فى ذلك المضمار – فإنه لا يبتئس ولا يتشاءم طالما أنه متشبث بالواقعية وصريح مع نفسه ومع غيره . ولكنه إذا ما أنسلخ عن الاتجاه الواقعى وحلَّق فى آفاق المثالية وذلك بأن يترسم أخيلة ذهنية غير واقعية محاولا العمل على تحقيقها ، فإنه يكون بذلك قد خرج من نطاق التفاؤلية الواقعية وارتمى فى أحضان التشاؤمية المثالية .

ولعلنا نستبين عدة أنواع من الواقعية . فثمة الواقعية الآنية المتعلقة بالحاضر الراهن . وثمة من جهة ثانية الواقعية التاريخية المتعلقة بالماضى . وثمة من جهة ثالثة الواقعية التتبعية ، وثمة من جهة رابعة الواقعية الاحصائية . وثمة من جهة خامسة الواقعية التنبؤية .

فمن حيث الواقعية الآنية فإن الواقعى الآنى يعمد إلى الوقوف على أنحاء الموقف الراهن ويتصرف بإزائه فى ضوء جِمَاع خبرته السابقة بغير أن تتعين لديه خبرة متعلقة بشكل مباشر بالموقف الراهن أمامه . فلقد يعمد الطبيب الواقعى الآنى إلى علاج أحد المرضى بغير أن تكون لديه صورة ذهنية مباشرة سابقة عن ذلك المريض بعينه ، وإنما هو يستلهم خبراته الطبية السابقة فى تشخيص مرضه وتحديد خطط العلاج .

وبالنسبة للواقعية التاريخية ، فإن المرء يفيد من وقائع مشابهة حدثت فى الماضى . وهذا النوع من الواقعية مفيد جدا للقادة العسكريين والزعماء السياسيين والمصلحين الإجتماعيين .

وبالنسبة للواقعية التتبعية فقد ضربنا أمثلة بخصوصها لدى تعرضنا للمدرس والطبيب . أما بالنسبة للواقعية الاحصائية ، فإن المرء فيها يعمد إلى الاحصاء بالأرقام كما هو الحال فى دراسة بعض الظواهر الاجتماعية كمدى انتشار الأمية أو تحديد

النسل أو انتشار بعض الآفات الزراعية أو الأمراض المتوطنة . وذلك بمقارنة احصاء سابق باحصاء لاحق بعد اتباع مجموعة من طرائق العلاج أو طرائق الإصلاح .

أخيرا فإنه بالنسبة للواقعية التنبؤية ، فإن الواقعى التنبؤى يعمد إلى تقديم تنبؤات حول ما سوف يقع بعد تنفيذ مجموعة من التطبيقات أو بعد تنفيذ بعض المشروعات . فيقرر ما سوف يقع من أحداث أو ما سوف تتطور إليه بعض الجوانب ، أو ما سوف يبدو من أعراض جانبية .

وإنك لتجد أنه فى جميع تلك الأنواع من الواقعية تكون الإيجابية التى تظهر فى سلوك الواقعى سمة ظاهرة واضحة للعيان . وهى ايجابية تدعمها الخطوات العملية المستمرة والدائبة التى بمقتضاها يقف الواقعى على ما أسفرت عنه محاولاته للتقدم والتحسن ، أو للعلاج وإبعاد الخطر والقضاء على الجوانب غير المواتية . ويجب أن ننبه إلى أن الحكم بالتفاؤل للواقعى إنما هو حكم يصدر فى ضوء الصبغة العامة فى حياته وفى مواقفه وليس فى ضوء جميع تفاصيل حياته ومواقفه . ذلك أن التشاؤم يمكن أن يلم بوجدان الواقعى فى المواقف التى يحس فيها بعجزه أو بعجز وسائله ، ولكنه إذا كان على إيمان متين بواقعيته ، فإنه سرعان ما يسترد تفاؤليته ويدأب ساعيا نحو إخضاع الواقع لارادته وتخطيطه ومحاولاته .

العقل والعاطفة :

أيهما أسبق : العقل أم العاطفة ؟ إنك ربما تجيب بسرعة بأن العقل سابق على العاطفة ، فنحن نرى الأسد ثم نخاف منه ، أو نرى النار مشتعلة فى الأشياء من حولنا وندرك الخطر ثم يبدأ الخوف يندلع فى قلوبنا كاندلاع النار فى الأشياء.بيد أننا نتساءل عن الأسبقية التى يحظى بها العقل أو العاطفة لا فى حياتنا اليومية الراهنة ، بل من حيث بزوغ العقل وبزوغ العاطفة فى حياة الإنسان كفئة من فئات الكائنات الحية . فثمة فارق جوهرى بين ما يقوم فى حياتنا من حالات بعد أن تم لنا التطور إلى المرحلة التطورية الراهنة ، وبين ما حدث فى حياتنا من تطور منذ ملايين السنين فيما يتعلق بنشأة العقل من جهة ، وبنشأة العاطفة من جهة أخرى . وما نتساءل عنه هنا

هو الأولوية التى حظى بها العقل أو العاطفة فى الكيان البشرى فى سياق تطور الجنس البشرى .

ولقد يحسن بادئ ذى بدء أن نسلط بعض الضوء على العلاقة بين العاطفة وبين الانفعالات ، ثم بين الانفعالات بعامة وبين الوجدان . يجب أن نقرر أولا أن الانفعال فى منشئه عبارة عن فوران جسمى وتغير عضوى فى الكيان الجسمى للكائن الحى نتيجة تغير معين فى نسبة هورمونات الجسم التى تفرزها الغدد الصم كلها أو بعضها . وتنشأ عن تلك التغيرات الجسمية أحاسيس وجدانية معينة . ولقد تساءل علماء النفس عن الأسبقية فى ترتيب تلك التغيرات الجسمية والأحاسيس الوجدانية . فهل تبدأ الغدتان فوق الكليتين مثلا فى إفراز الأدرنالين فى الدم قبل أن أحس بالغضب ، أم أنى أغضب ثم تبدأ هاتان الغدتان فى زيادة إفرازاتها من ذلك الهرمون ؟ الواقع أن هناك ما يعرف بالتأثير التبادلى بين إفراز الغدد وبين الإحساس الوجدانى . فإذا أنا غضبت فإن أمراً يصدر إلى الغدتين فوق الكليتين بأن تقوما بافراز هورمون الأدرنالين بشدة فى الدم . وعلى العكس من ذلك فإذا ما قام أحد المجربين بحقنى بحقنة أدرنالين لكى يراقب تطور حالتى الانفعالية والوجدانية ، فإنه سوف يلاحظ أنى بدأت أصير شديد الحساسية الوجدانية وأنى صرت مستعدا لأن أغضب أو أن أغضب بالفعل ، وذلك بأن ترسم على ملامح وجهى جميع المظاهر التى تنم على الغضب .

ونستطيع أن نقرر أن جميع الحالات العاطفية هى حالات انفعالية تجمع بين أوضاع أو حالات جسمية من جهة وأوضاع أو حالات وجدانية من جهة أخرى . على أن العاطفة ليست وجدانات مبعثرة أو مشتتة . بل هى وجدانات متبلورة حول موضوعات معينة . وقد تكون تلك الموضوعات متعينة وقابلة لأن تحس بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس ، كما أنها قد تكون موضوعات متعينة ولكنها تتسم بأنها موضوعات معنوية مجردة كالإنسانية والديموقراطية أو كالشفقة والاستقامة أو كالأدب والفلسفة ونحو ذلك من موضوعات ليس لها وجود محسوس ولكن لها وجوداً ذهنيا . وقد تكون الموضوعات التى تدور حولها العاطفة موضوعات غير محددة بحدود

عقلية معينة ولكنها تكون متعينة فى نفس الوقت . وذلك كالموضوعات الروحانية كالذات الإلهية والملائكة ونحو ذلك من كائنات روحانية يعتقد المرء فى وجودها ولكنه يعجز عن تحديد ملامحها وتقاطيعها .

فالعاطفة إذن بوجه عام هى وجدان متبلور وليست وجدانا فحسب . أو قل إن الوجدان هو الخامة التى نقوم بتصنيعها بالتحامها مع الموضوعات المختلفة وتبلورها حولها واتخاذها صفة الثبات والاستقرار والاستمرار النسبى . وإذا نحن اتخذنا تطور الإنسان الفرد كملخص لتطور الإنسانية كما فعل بعض علماء النفس التلخيصيين ذلك ، فإننا نقرر إذن أن الحياة الوجدانية تسبق فى تطورها ونشوئها الحياة العاطفية . فالطفل الوليد يبكى ، وبعد عدة أشهر يبتسم أو يضحك بغير أن تكون هناك موضوعات معينة تبلورت حولها وجداناته بحيث تدفع به إلى البكاء أو الضحك . ولا نستطيع أن نتصور نشوء عاطفة كائنة ما كانت قبل توافر عمليتين عقليتين أساسيتين هما أولا – عملية الادراك ، وهى القدرة على ترجمة الإحساس الذى تتلقاه حاسة ما من الحواس الخمس إلى صورة ذهنية ذات معنى ، أما العملية الثانية – فهى اختزان تلك الخبرات الذهنية بحيث يتسنى استدعاؤها وقتما تتطلب الحاجة ذلك . فأنا عندما أقابل صديقا لى قريبا من قلبى وأكتنز له فى فؤادى مودة وأحتفظ له فى سريرتى بحصيلة كبيرة من الود ، فإنى أستدعى تلك المعانى سواء كنت مدركا لها بعقلى الشعورى الواعى ، أم كان استدعائى لتلك المحصلة المحفوظة بطريقة لاشعورية غير واعية وغير مقصودة .

ولا شك أن الصورة الذهنية المرتبطة بالوجدان تسبق الصورة الذهنية المتجردة من الأحاسيس الوجدانية . فمفهوم ١ + ١ – ٢ مفهوم متجرد من الوجدان ، ولكن استخدامى للقوالب العقلية الشديدة التجرد يرتبط على نحو أو آخر ، وبدرجة أو أخرى من درجات الأحاسيس الوجدانية . فلابد فى جميع الحالات اعتمال بطانة وجدانية فى التفكير ، ولكن كمية الوجدان تختلف من صورة ذهنية إلى صورة أخرى .

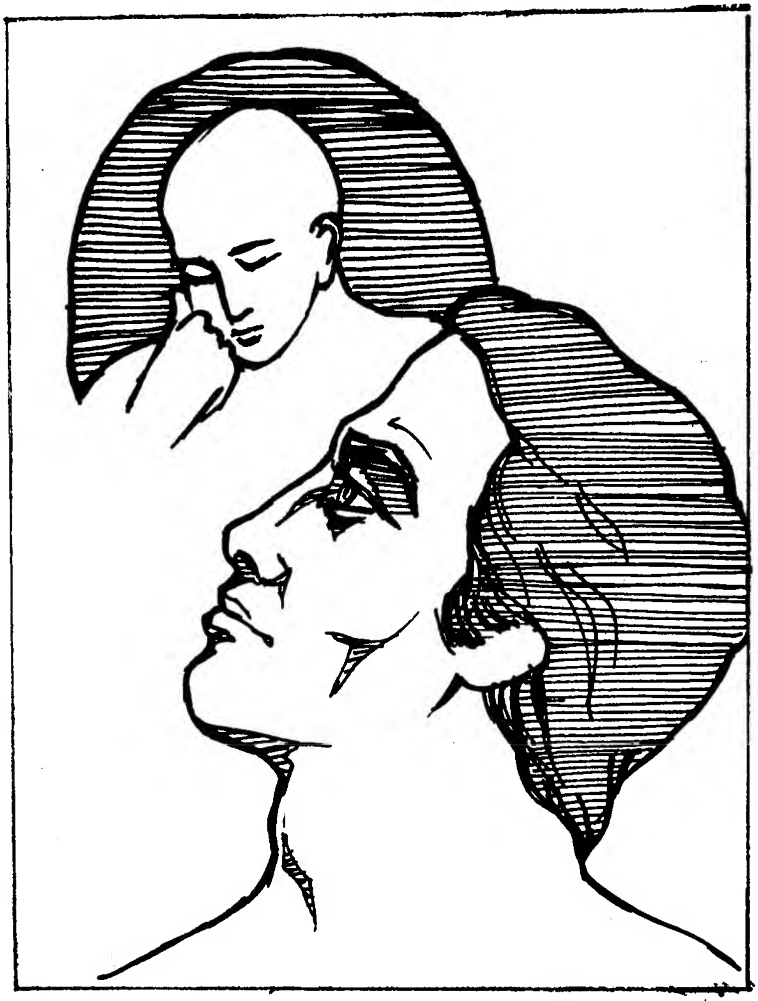
ولعلنا نتساءل بعد هذا عن علاقة هذا الموضوع بالتفاؤل والتشاؤم ؟ الواقع أن اعتمال المخزون الوجدانى فى حياة الإنسان يسير بطريقة جبرية حتمية . بينما لا تتبدى الحرية الإنسانية إلا فى القطاع الشعورى العقلى المنطق . فأنا عندما أقول إن الشفقة أفضل من القسوة ، فإنى أقرر ذلك بعقلى المنطق . ولكن هل معنى هذا أن سلوكى لا بد أن يتسم بالشفقة لمجرد أننى اقتنعت بأن الشفقة أفضل من القسوة ؟ لو كان الأمر كذلك لكان من السهل للغاية أن نحيل الشرير أو المجرم أو المنحرف أو حتى المريض نفسيا الذى التوى وجدانه إلى الطريق السوى ، ولاستطعنا أن نحيل السلوك القاسى فى حياتهم جميعا إلى سلوك متسم بالعطف على الضعيف وأن نحيل القسوة فى بطانتهم الوجدانية إلى عطف وتعاطف مع الأضعف أو الأقل ثروة أو علما أو صحة أو مكانة أو اقتدارا .

ولعلنا نتساءل بعد هذا : هل من الممكن أن نعمل على تغيير الركامات الوجدانية أو المخزون من الخبرات الوجدانية بحيث نحل الجيد محل الردئ منها ؟ أو هل بمقدورنا أن نحمل الآخرين ممن اعوجت وجداناتهم والتوت عواطفهم إلى التلبس بحياة وجدانية جديدة مفعمة بالشفقة أو بغير ذلك من عواطف مرغوبة وخيِّرة ؟

هنا ينقسم المجيبون عن هذين التساؤلين إلى متفائلين ومتشائمين . فالمتفائلون يقولون نعم من الممكن أن نحيل الأسود إلى أبيض فى حياة المرء الوجدانية . بينما يجيب المتشائمون بالسلب مؤكدين أن الأسود فى تلك الحياة الوجدانية سوف يظل قائما مهما عمدنا إلى توفير المفاهيم العقلية التى تؤكد صحة الخير وبطلان الشر . ومهما عمدنا إلى إقناع من التوت أفئدتهم بعكس ما يعتمل فى طياتهم من انعطافات رديئة ، وما يسير حياتهم ويلوّن سلوكهم بطريقة خاطئة وبصبغة رديئة .

فالمتفائلون يؤمنون بإمكان التغيير والتعديل فى حياة المرء الوجدانية ، بينما يؤكد المتشائمون عدم إمكان ذلك بأى حال من الأحوال . والواقع أن المعالجين النفسانيين من أمثال فرويد والسلوكيين يندرجون فى إطار المتفائلين لأنهم يبشرون بإمكان رد الضال وجدانيا عن طريق الضلال إلى طريق السوية الوجدانية . ومن جهة أخرى فإن المتشائمين يؤكدون استحالة القيام بذلك ، وأن ثمة حتمية وجدانية تسيطر على

حياة المرء الوجدانية . ويتزعم أولئك المتشائمين . أولئك القائلون بالوراثة الذين يقررون أن الإنسان يولد وهو مفعم بجميع الملامح والتقاطيع الوجدانية التى سوف تتبدى فى حياته والتى سوف تسيطر على سلوكه وعلاقاته الاجتماعية . أضف إلى هذا واحدا مثل يونج تلميذ فرويد الذى قال بتوارث الخبرات فيما يسمى بالعقل الجمعى . فنحن الأناس المعاصرين قد ورثنا أفكار ومشاعر الأناس البدائيين الذين عاشوا منذ ملايين السنين قبلنا . ناهيك عن الارثات التى نزلت إلينا على كروموزومات خلايانا الجرثومية عن آبائنا وأمهاتنا المباشرين . فثمة وراثتان لا وراثة واحدة : وراثة عن أجدادنا البعيدين ، ووراثة أخرى عن آبائنا وأمهاتنا المباشرين أو أجدادنا وجداتنا القريبين . وبتعبير آخر هناك وراثة نوعية تتصل بالجنس البشرى وما يحمله فى طياته من تاريخ طويل يمتد إلى ملايين السنين وقد أخذت تتجمع فيه بلايين البلايين من الخبرات التى تنزل إلينا على هيئة استعدادات كامنة يمكن أن تخرج من حيز الكمون إلى حيز الواقع أو قد تظل كامنة ؛ وهناك من جهة أخرى وراثة فردية تتعلق بأفراد معينين ومحددين هم آباؤنا وأمهاتنا وأجدادنا وجداتنا المباشرون . وفى الحالتين فإن المتشائمين يؤكدون أن المرء يظل تحت رحمة الحتمية والجبرية التى تتخذها تلك المقومات الموروثة وتطفو على سطح سلوك وحياة الإنسان .



الفصل السادس

ملامح الشخصية المتفائلة

الفصل السادس
ملامح الشخصية المتفائلة

الملامح الجسمية :

اهتم علماء النفس منذ وقت طويل باستبانة الخصائص الجسمية التى ترتبط ارتباطا قويا أو ضعيفا بالخصائص النفسية . ولقد تباين الدارسون فيما يعتمدون عليه من جوانب جسمية يقيمون عليها تفسيراتهم . لقد اعتمد بعضهم على ملامح الجسم الخارجية وبخاصة الجمجمة ، بينما اعتمد آخرون على ملامح الوجه ، واعتمد فريق ثالث على طريقة التعبير الحركى وطريقة الجلوس والوقوف والمشى وطريقة التطلع إلى الأشياء أو طريقة الانصات أو نحو ذلك . أضف إلى هذا طريقة الكلام وطبقة الصوت . أما الفريق الرابع من علماء النفس فقد اتجهوا إلى كيمياء الجسم يقيمون عليها تفسيراتهم ، سواء اعتمدت تلك التفسيرات على مجرد نظريات وآراء ، أم كانت معتمدة على المشاهدة والتجريب . فى العصر الحديث نجد أن علماء الغدد قد استطاعوا أن يستبينوا العلاقة بين إفراز الغدد الصم للهورمونات وبين الأمزجة والحالات النفسية المتباينة .

ولسنا هنا لنكْلف بما يقع فى كيمياء الجسم من تغيرات إنْ فى نطاق إفرازات الغدد الصم أم فى غيرها ، وإنما يتركز كلفنا فى خارجية الجسم ، وفى البادى منه للعيان ، سواء كان الشخص وحده ، أم كانت بينه وبين غيره علاقات اجتماعية معينة ، وسواء كانت علاقاته علاقات يومية معتادة ، أم كانت علاقات اجتماعية طارئة غير معتادة . وما نزعمه هنا هو وجود صلة وثيقة يمكن استبانة جوانبها وأنحائها بين الكيان الجسمى وبين حالة المرء المزاجية بحيث يتسنى لنا إصدار أحكام صائبة على الشخصية بتلبسها بالتفاؤل أو بتلبسها بالتشاؤم . ولعلنا نركز الجهد فى هذا المقام

على تلك الملامح الجسمية التى تنم على تلبس الشخصية بالاتجاه التفاؤلى وترسمها له بالذهن أو بصبغ تصرفاتها وسلوكها بصفة عامة بصبغته .

ولعل أول شئ يصافح أعيننا هو وقفة المرء ومشيته وطريقة جلوسه وطريقة نومه . والملاحظ بوجه عام أن الشخصية المتفائلة تتسم بالاسترخاء النسبى مع استخدام التوتر المناسب فى جميع الحالات التى ذكرناها . والواقع أن التفاؤل يمثل – من الناحية النفسية – الحالة السوية التى يجب أن تتشح بها الشخصية – أى شخصية – وأن التشاؤم لا يعدو أن يكون التواءً وخروجاً عن نطاق الصحة النفسية . ومن ثم فإنك تجد الشخصية المتفائلة توظف كلا من الاسترخاء والتوتر الاستخدام السليم . والأصل فى الجهاز العضلى هو الاسترخاء وليس التوتر . فكل توتر يحدث فى إحدى العضلات ينبغى أن يكون توترا وظيفيا يستهدف تنفيذ منشط أو أكثر من المناشط التى تستطيع تلك العضلة أن تنهض بها . ولكن بعد الانتهاء من ممارسة ذلك النشاط يجب أن تعود العضلة من جديد إلى ما كانت عليه قبلاً من استرخاء . أما إذا ظلت العضلة على ما أصابها من توتر حتى بعد الانتهاء من ممارسة النشاط المطلوب منها ، وظلت على هذه الحال من التوتر ، فإن المرء يكون إذن قد خرج من حال السوية وانخرط فى حال الاعوجاج النفسى .

فبالنسبة للمتفائل فإنك تجده قد اتشح بالاسترخاء طالما أنه يكون فى غير ماحاجة إلى التذرع بالتوتر . ومن ثم فإنك تجده فى وقوفه أو جلوسه أو مشيته أو نومه غير متوتر بوجه عام ، وإن كان هذا لا يعنى استمرار استرخائه فى جميع المواقف . إن ما نعنيه هو أن المتفائل يقدم الحد الأدنى من التوتر فى سلوكه العضلى المتعلق بمواقفه وأوضاعه .

أما فيما يتعلق بملامح الوجه – وهى الملامح التى تتخذ صفة الثبات النسبى بعد المرور فى خبرات كثيرة من نوع متشابه سواء كانت خبرات سارة أم خبرات مكدرة – فإنك تلاحظ أن المتفائل يتسم بملامح مفعمة بالأمل ، وهى ملامح تشيع الأمل فى الرائى لها . فثمة مايشبه أن يكون ابتسامة خفيفة بالعين وحولها ، كما أن عضلات الوجه لا تكون مشدودة ، ولا تكون نظرات المتفائل حادة فيمن يتحدث إليه ، كما

أنها لا تكون نظرات زائغة ومشتتة . إنك عندما تتحدث إلى المتفائل . فإن نظراته إليك تبعث فى نفسك الطمأنينة ، ولكأنه يشجعك ويبشرك بخير سوف يأتيك أو بنجاح سوف يكلل خطواتك ومساعيك ، ولكأنه يخفف بنظراته إليك ما قد يكون ران عليك من هموم . أو ما تملكك من غضب أو ما شابك من يأس .

وثمة علاقة بين لون الوجه وبين التفاؤل . ولا نعنى هنا بلون الوجه لون البشرة الذى يسود جلد الجسم كله . وإنما نعنى مقدار الدموية وتدفق الدم فى شعيرات الدم الموجودة تحت جلد الوجه . إننا نلاحظ بوجه عام أن المتفائل يكون حاضر الدموية فى ملامح وجهه ، كما تكون دموية وجهه لها صفة الثبات والاستقرار النسبى . إنه لا يتقلب بين الاحمرار الشديد فى الوجه وبين الاصفرار . بل يظل الوجه متسما باللون الوردى تقريبا حتى ولو كان لون البشرة ضاربا إلى السمرة بصفة عامة . إنك تستطيع أن تلاحظ هذا حتى بإزاء من لهم بشرة سوداء داكنة . صحيح أن هذا يمكن ملاحظته بسهولة لدى الأشخاص ذوى البشرة البيضاء . ولكنه غير متعذر بإزاء أصحاب البشرة الداكنة .

وبالنسبة للحاجبين فإنك تلاحظ أن المتفائل . لا يحرك حاجبيه فى أثناء الحديث إلا حركة بسيطة للتعبير عن الدهشة مثلا . والواقع أن استقرار الحاجبين بغير حركة تقريباً يعد شاهدا على استقرار أجزاء الوجه بعامة وعدم تحركها بغير ما داع يدعو إلى ذلك .

وطبيعى أن المتفائل لا يكون عرضة للإصابة بالتفكير بصوت مرتفع بغير أن يكون متحدثا مع أحد . على أن بعض المتفائلين يمكن أن ينطقوا بعبارات تنم على تفاؤلهم فى حديث مع النفس لرفع الهمة وفتح باب الأمل والرجاء أمام ذواتهم . لقد يحادث المتفائل نفسه بكلمات أو بجمل تشجيعية كما لو أنه يخاطب شخصا آخر ويقوم بتشجيعه . بيد أن المتفائل عندما يتحدث إلى نفسه – وهذا نادر الوقوع – فإن هذا لا يحمله على تقطيب الوجه ، بل على العكس من ذلك يحمله على الابتسام أو اتخاذ ملامح السعادة والبشر . ولقد لا يتحدث المتفائل بصوت مرتفع إلى نفسه . ولكنه يفكر ويمعن فى التفكير ويُطوِّف فى الآفاق السعيدة التى تجعله ينطبع بطابع السعادة

والرجاء . والواقع أن ثمة علاقة أكيدة بين الملامح الثابتة التى يتخذها الوجه بصفة دائمة وبين ما يعتمل بدخيلة المرء من أفكار ذات صبغة معينة .

أما عن صوت المتفائل فإنك تلاحظ أنه صوت موظَّف توظيفا سليما ومعقولا بإزاء الأغراض التى يقال فيها الكلام . ولعلك تلاحظ أن المتفائل يتمتع بالصوت الثابت الخالى من الاضطراب والتقلقل والتردد ، كما أن طبقة الصوت تكون لديه متناسبة مع عدد المستمعين ومدى بعدهم عنه : فهو لا يقدم طاقة صوتية أكثر من اللازم ولا أقل من اللازم كما قد يفعل المتشائم . ذلك أن التفاؤل يحمل المتصف به على مراعاة الحصافة فى بذل الطاقة الصوتية وجعلها فى مكانها الصحيح وبغير تبذير أو تقتير. ناهيك عن الاستخدام السليم الذى يتحراه المتفائل فى الضحك أو البكاء ، إذا كان ثمة ما يبعث على الضحك أو البكاء . على أن المتفائل لا يبالغ فى إبداء الفرح أو الحزن . إنه لا يقدم فى الموقف سوى ما يستحقه من انفعالات . ففى المواقف التى تبعث على الضحك ، فإن المتفائل يضحك ولكنه لا يبالغ فى الضحك ، كما أنه فى المواقف المحزنة يحزن ويبكى ولكنه لا يبالغ فى الحزن والبكاء . ذلك أن المتفائل لا ينفجر فى الضحك كنتيجة للتعبير العكسى عما يعتمل لديه من تخوف أو توجس أو نتيجة الامتلاء بالاحساس باقتراب الشر ، بحيث يقدم تعبيرا معكوسا لما يعتمل بالفعل فى قلبه . إن ضحكه لا يرتبط بماض نفسى يهيج لديه ، بل يرتبط بالموقف ذاته .

أخيرا فإن المتفائل ينحو منحى سويا فيما يتعلق بهضم الطعام والنوم . فمن حيث الطعام فإنك تجد أن المتفائل يتمتع غالبا بجهاز هضمى سوى . وثمة فى الواقع علاقة وطيدة بين الهضم وبين تمتع المرء بالتفاؤل . وكذا الحال بالنسبة لتمتع المتفائل بالنوم العميق الخالى من الأحلام المزعجة ومن التوترات وكثرة التقلب من وضع إلى وضع آخر . فالتفاؤل يحمل المتصف به على الانخراط فى النوم بسرعة مع استرخاء أطراف الجسم وعضلات الوجه وعدم تغيير وضع الجسم من وقت لآخر خلال فترة النوم . ناهيك عن عدم تشخير المتفائل فى أثناء النوم بل الخلود إلى الهدوء والدعة .

الملامح الوجدانية :

بالإضافة إلى الملامح الجسمية التى يتميز بها المتفائل ، فإنه يتميز أيضا بمجموعة من الملامح الوجدانية . وواضح أن ثمة علاقة وطيدة بين الجانب الإنفعالى وبين الجانب الوجدانى . أو قل إن هناك علاقة تبادلية بين الوجدان والانفعال . وقد سبق أن عرضنا لتلك العلاقة بشئ من التفصيل . بيد أن السمات الوجدانية تقوم أيضا بذاتها بحيث يكون لها قوام ذاتى مستقل وغير تابع للقوام الجسمى الإنفعالى . فعلى الرغم من الإرتباط الوثيق بين الوجدان والإنفعال ، فإننا نستطيع أن نستبين ملامح وجدانية مستقلة بالشخصية ، سواء كانت شخصية متفائلة أم كانت شخصية متشائمة .

وأول سمة وجدانية تتسم بها الشخصية المتفائلة هى الإتزان الوجدانى . ونعنى بالاتزان الوجدانى عدة أمور هى : أولا – الاستمرار بالحالة الوجدانية المعينة مدى طويلاً نسبيا . فالمتزن وجدانيا لا يتقلب بين الحزن والسرور ، أو بين الغم والفرح ، أو بين الأمل واليأس . إنه يظل على حال واحدة فترة معقولة .

ثانيا – الارتباط فى الحالات الوجدانية بوشائج متينة مع المواقف والأحداث الخارجية التى تهم المرء . فالمتفائل لا يحزن أو يفرح لأسباب غامضة وبغير ما باعث أو سبب يدعو إلى ذلك . فهو يرتبط بصلة وثيقة بالواقع الاجتماعى المحيط به ، ولا يخضع فى حالاته الوجدانية لأهواء داخلية تعصف به عصفا وتدفع به دفعا .

ثالثا – تتناسب الحالة الوجدانية لدى المتفائل مع قوة وشدة وفاعلية الحدث أو الظرف الخارجى . فهو لا يضيف إلى شدة وتأثير الواقع الخارجى قوة من دخيلته بسبب مقومات وجدانية مكبوتة تتعلق بخبرات سابقة أو بانحرافات مزاجية معينة .

أما الملمح أو السمة الثانية من سمات الشخصية المتفائلة وجدانيا فهى القابلية للرضى بالقليل والفرح بالكثير . فالمتفائل لا ينهج فى حياته بمبدأ الكل أو لا شئ ، أو بتعبير آخر فإن لكل شئ عنده ميزانا وقيمة حتى الصغير من الأشياء وقليل القيمة من الأمور . فهو يرضى بالقليل من الطعام طالما أنه يسد جَوْعةً ، ولا يهمه أيضا نوع

الطعام إذا كان غالى الثمن أو رخيصه . وكذا الحال بالنسبة للملبس والمسكن والمركب أو غير ذلك من مطالب الحياة . فما يهمه هو سد حاجاته الأساسية ، أو الحصول على الضروريات التى تكفل له البقاء بيولوجيا والتكيف نفسيا والتوافق إجتماعيا . وطبيعى أن يفرح المتفائل بالكثير إذا ما توافر له . إنه لا يحجم عن الاستمتاع به والإحساس بالسعادة لحصوله عليه .

والملح الثالث الذى يتسم به المتفائل هو عدم توقع السلبى إذا توافر الإيجابى . فهو لا يترقب الغم إذا ما فرح ، ولا يتوقع لنفسه أن يبكى إذا ما انخرط فى الضحك ، ولا يتوقع لنفسه الفقر إذا ما رفل فى حلل الثراء والعزة . ولا يتنبأ لنفسه بالهزيمة إذا ما انتصر ، أو بالفشل إذا ما نجح . العكس هو الصحيح بإزاء توقعات المتفائل لنفسه ولغيره . إنه يتوقع الزيادة فى كل ما هو ايجابى . لماذا لا يزيد الحبور حبورا ؟ . ولماذا لا ينتشر الفرح ؟ . ولماذا لا يعم الضحك ويستمر ؟ . ولماذا لا يظل الثراء وتتأكد العزة ؟ ولماذا لا تظل الإنتصارات مستمرة ؟ ولماذا لا يكلل النجاح كل أنحاء الحياة فى الحاضر وفى المستقبل ؟ فالمتفائل لا ينحو إلى التذبذب بين قطبين متناقضين . وحتى إذا كانت حقيقة الحياة تتمثل فى مثل هذا التذبذب بين النقائض . فإن المتفائل لا يضع هذا فى حسبانه ، بل هو يغمض عينيه أو لا يفكر فى شر مقبل أو فى مصيبة لابد آتية .

والملمح الرابع هو عدم الربط بين الأشياء المتوقعة والمؤكدة الوقوع وبين الشحنات الانفعالية التى يعمد المتشائم إلى الربط بينها وبين تلك الأشياء والأحداث غير المواتية التى لابد أن تقع لكل امرئ . فالمتفائل ينظر إلى المرض والشيخوخة والموت بغير رهبة وبغير يأس مُسْبق . إنه ينظر إلى الشيخوخة كنظرته إلى الشباب ، وإلى المرض كنظرته إلى الصحة . وإلى الموت كنظرته إلى الحياة . وهو على الأقل يعايش حاضره بغير أن يجعل لأحداث المستقبل القاتمة مكانا فى وجدانه ولا تشكل شبحا يخيفه فى منامه .

أما الملمح الخامس من الملامح الوجدانية التى تتمتع بها الشخصية المتفائلة فهو عدم ضغط الخبرات الوجدانية المكبوتة القديمة على غلاف الشعور والتأثير بطريق غير

مباشرة فى تفسير الحياة والوقوف منها موقفا متوجسا . فالمتفائل يجد فى حاضره ذريعة للتغلب على عُقَد الماضى ، كما أنه يجد فى الماضى السعيد ما يشفع للحاضر غير المواتى . ولكأن المتفائل يخرج بمحصلة بين ماضيه وحاضره ، بل إنه قد يضيف أمل المستقبل الباسم إلى تلك المحصلة لكى يخرج بمحصلة عامة راجحة وجيدة يسعد بها ويرسخ حياته الواجدانية بواسطتها .

والملمح السادس لدى المتفائل هو التجاوب وجدانيا مع وجدانات ومشاعر الآخرين . فهو يتجاوب مع الوجدانات والمشاعر الإيجابية ليزيدها إيجابية . إنه يفرح مع الفرحين ليزيد فرحهم ، كما أنه يتجاوب مع الوجدانات والمشاعر السلبية لكى يمتص ويستقطب تلك المشاعر السلبية ويخفف من وطأتها على أولئك الذين تعتمل فى قلوبهم . وهكذا نجد أن المتفائل بازاء كلا النوعين من الوجدانات والمشاعر يعمد إلى ترسيخ الإيجابيات والقضاء على السلبيات . فهو بالتجاوب إيجابيا مع المشاعر الإيجابية يعمل على تخصيبها ، كما أنه بالتجاوب مع المشاعر السلبية يخفف من وطأتها ويقضى عليها ، بل إنه يزيد من رجحان كفة المشاعر الإيجابية لدى المصابين بالحزن أو الشاعرين باليأس والهزيمة والفشل .

والملمح السابع هو مراعاة النغمة الوجدانية السائدة لدى الآخرين وعدم الانغلاق على النفس . فالمتفائل لا يستقل بوجدانه ومشاعره عن الآخرين ، بل إنه يكون فى شركة مع غيره فى الأحاسيس والمشاعر . وقد قلنا إن المتفائل يستقطب أحزان ومشاعر الآخرين السلبية . وهو ما لا يمكن أن يتوافر إذا كان المرء منغلقا على ذات كيانه الوجدانى ، ولا يمكن أن يتم إلا إذا توافر له الانفتاح وجدانيا على المحيطين به .

والملمح الثامن من الملامح الوجدانية لدى الشخصية المتفائلة هو إشاعة الرضى والطمأنينة وتوقع الخير والأحداث السارة لدى الآخرين . فالمتفائل لا يكون مجرد مرآة تعكس ما يعتمل بداخله أو بدخائل الآخرين من مشاعر ووجدانات ، بل إنه يقوم بدور الخالق لتلك المشاعر الوجدانية الإيجابية حيثما لا تكون متوافرة أو حيثما لا تكون موجودة على الإطلاق . إنه يستطيع أن يرسم الابتسامة على شفاه الآخرين ،

ويستطيع أن يشيع الأمل فى قلوب اليائسين ، بل إنه يعمد إلى إيقاد شمعة الأمل فى حياة كل امرىء يلقاه أو يحتك به أو يتعامل معه .

والملمح التاسع هو التمتع بأحلام نوم وأحلام يقظة سعيدة . والواقع أن أحلام النوم وأحلام اليقظة يمكن أن تعتبرا مؤشرين ناجعين للدلالة على ما يعتمل فى قلب الإنسان من وجدانات ومشاعر . وإنك لتجد المتفائل ينعم بأحلام نوم وبأحلام يقظة مغعمة بالأمل والنجاح والسعادة . ومن الطبيعى أن تكون أحلام النوم وأحلام اليقظة بمثابة انعكاسين لما هو واقع فى الشعور واللاشعور . فحياتنا خلال الوقت الذى نلهو فيه عن أنفسنا تكون حياة صادقة غير مفتعلة ، على عكس ما يمكن أن يبدو فى السلوك الواعى من افتعال وتصنع وتقديم أنماط سلوكية معكوسة حيث يضحك البائس ، ويأمل اليائس ، ويظهر الفاشل نفسه فى هيئة الناجح ، والمنهزم فى هيئة المنتصر .

والملمح العاشر والأخير يمكن استبانته فيما يقبل المرء على قراءته من قصص ، أو فيما يقبل على مشاهدته من أفلام أو تمثيليات ، أو فيما ينخرط فيه من أحاديث . ولعل الألوان أيضا لها صلة وثيقة بما يعتمل فى قلب الإنسان من وجدانات ومشاعر . فالمتفائل يقبل على الألوان الزاهية وغير الداكنة ، كما أنه ينحو إلى الألوان البسيطة والمتدرجة ، كما أنه لا يميل إلى التعقيد بل يميل إلى البساطة فى كل شئ .

ومن الطبيعى أن المتفائلين لا يتساوون جميعا فى ظهور تلك الملامح أو السمات فى حياتهم ، وإنما يتفاوتون فيما بينهم تفاونا كثيرا أو قليلا من سمة إلى أخرى . ولكن تجمعهم على أية حال سمات مشتركة حتى وإن تباينت فى كثافتها وشدتها . أضف إلى هذا أن ثمة تدرجا فيما بين التفاؤل والتشاؤم مما يجعلنا ننظر بنظرة نسبية إليهما .

الملامح العقلية :

يجدر بنا وقد عرضنا لكل من الملامح الجسمية والملامح الوجدانية التى يتصف بها الشخص المتفائل أن نعرض بعد ذلك للملامح العقلية التى يتصف بها . على إننا نذكّر قبل البدء فى استعراض الملامح العقلية للمتفائل بأن ملامح الشخصية المتفائلة

متداخلة بعضها مع بعض بل ومتكاملة بعضها مع بعض . وما يدعونا إلى عزل كل نوع من أنواع تلك الملامح عن سواه إنما هو التنظيم والتصنيف وتسهيل المهمة على كاهل الكاتب والقارئ جميعا . بيد أنه بالاطلاع على جميع الملامح التى أوردناها وسنوردها بهذا الموضوع والموضوعين التاليين الخاصين بالملامح اللغوية والملامح الاجتماعية ، فإن صورة الشخصية المتفائلة سوف تكون واضحة ومتكاملة فى نفس الوقت .

وأول ملمح من ملامح الشخصية المتفائلة فى قوامها العقلى هو الميل إلى تحصيل المعرفة باكتساب الأنماط العقلية والمعلومات الصحيحة الصائبة وليس عن طريق الوقوف على الأنماط العقلية الشائهة والمعلومات الخاطئة . وبتعبير آخر فإن الشخصية المتفائلة لا تكتسب المعلومات والخبرات - بصفة عامة - عن طريق المحاولة والخطأ بل عن طريق اكتساب الصائب مباشرة . فالتركيب العقلى للمتفائل يحمله على البحث عن الصائب لكسبه وتأكيده لا البحث عن الخطأ وتكذيبه .

ولا يقتصر هذا على الاكتساب المعرفى بل إنه ينسحب بإزاء القضايا المنطقية والقضايا التى يتنازع حولها الناس ويكون ثمة خصم له ادعاءاته المضادة لادعاءات الطرف الآخر الذى يقوم أحد المحامين - وهو ما نفترض أنه شخصية متفائلة - بالدفاع عنه وعن موقفه . إن المحامى المتفائل يكون قديرا فيما يتعلق بتقديم البراهين التى تؤيد موكله ، ولكنه لا يكون قديرا فيما يتعلق بتنفيذ أو تكذيب ادعاءات الخصم . فهو يميل إلى الاثبات ولا يميل إلى التكذيب .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الناس جميعا ينقسمون إلى فريق ينحو إلى ترجيح الكفة التى يؤيدها بالبراهين الإيجابية ، وفريق آخر ينحو إلى تأكيد كفته لا بالبراهين يسوقها لصالحها بل بالبراهين يسوقها لتكذيب وتفنيد وزلزلة الكفة المضادة لكفته . وحتى فى العلاقات العادية فإن المتفائلين يبحثون عن القيم الإيجابية فيما يعرض أمامهم من مسائل وأحاديث وكأنهم يزنون ما يقال لهم بميزان يقيس كمية الصدق فقط ولكنه لا يزن كمية الكذب .

والمتفائلون عندما يقرأون الكتب أو المقالات فإنهم لا يبحثون فيما يقرأون عن مواطن الضعف أو السقطات التى زلت فيها أقلام المؤلفين . وإنما هم يبحثون عن مواضع الصدق والإتقان والابتكار والتجديد والجمال ويعمدون إلى إبرازها . وحتى فيما يتعلق بالتقدير الجمالى فإن المتفائل يقع على مواطن الجمال فيما يشاهده ويعمد إلى إبرازه ، بينما يعمد المتشائم إلى الوقوع على مواطن القبح ويعلنها على الملأ .

أما الملمح العقلى الثانى من الملامح العقلية التى تتصف بها الشخصية المتفائلة فهو اتخاذ الموقف التقبلى إلى أكبر حد ممكن . فطالما أن المتفائل يبحث عن الجمال والحق والخير مهما كان ضيئلا . فإنه بالتالى يكون ميالا إلى الثناء والتقدير لمعظم الأشياء التى تشتمل على معايب لا يستبينها لأنه لا يَكْلَف بالبحث عنها واستقصائها . على أننا يجب أن ندافع عن المتفائل بقولنا إن كَلَفه بالجميل والحقيقى والخيِّر يدفعه إلى عدم مشاهدة ما بالأشياء والناس من مثالب جمالية أو غير جمالية . فكل ما يهمه ويجذب انتباهه هو الإيجابى من الأمور والأشياء والناس . أما السلبى فإنه لا يدركه أو لا يقيم له وزنا كبيرا . على أنه بالنسبة للأشياء التى تسقط دعائمها إذا ما شابتها شائبة فإن المتفائل لا يأخذ بها طالما أنه أدركها ووقف عليها .

ولنأخذ مثالا يوضح موقف المتفائل . افترض أن أحد مصححى أوراق إجابة أحد الامتحانات كان متفائلا بطبعه ، ووجد أحد الطلبة قد أجاب عن جزء من سؤال ولكنه أخطأ فى سياق إجابته مما جعل باقى الإجابة خاطئا من حيث المضمون ولكنه صحيح من حيث الخط الفكرى الذى يقفوه . فإنه قد يتجاوز عن الخطأ الذى وقع فيه الطالب طالما أن الجوهر والسياق سليمان . ومن الطبيعى أن تجد المتشائم يسقط كل شئ من حسابه عدا الخطأ الذى أطاح بكل شئ فى نظره ومن ثم فإنه يعطى السؤال درجة صفر لأنه ركز ذهنه على الخطأ دون الصواب .

أما الملمح العقلى الثالث الذى يمتاز به المتفائل فى تفكيره فهو النظر إلى فكر الآخرين من حيث هم لا من حيث هو . فالمتفائل لا ينكر على غيره ما يفكرون فيه أو كيف يفكرون ، ولا ما يؤمنون به وكيف يؤمنون . ولا ما يمارسونه من أشياء ومهارات وكيف يمارسون . فالمتفائل يميل إلى أن يكون ذا نظرة نسبية إلى كل شئ . فهو لا يأله

عندما يجد غيره يفكر أو يعتقد أو يمارس على نحو مباين أو حتى متضارب مع ما يفكر فيه وما يعتقده وما يمارسه . والواقع أن هذا الموقف النسبى يتمشى تمشيا كاملا مع الموقف التقبلى الذى ذكرناه قبلا . فلتكن للطفولة طريقة تفكيرها ، وليفكر القرويون بطريقتهم الخاصة ، وليؤمن الهنود (بعضهم) بأن البقرة مقدسة ، ولنؤمن نحن بذبح البقرة ، وليأكل بعض الناس بأيديهم أو بملاعق خاصة . ولنأكل نحن بطريقتنا . وليكن لكل واحد أو لكل مجموعة أو لكل إقليم أو لكل شعب ، أو لكل عصر ما يكون . هذا هو موقف المتفائل فى نظرته إلى طريقة تفكير الناس وطريقة إيمانهم وطرائق ممارساتهم .

أما الملمح العقلى الرابع فهو الاستعداد للحذف والإضافة العقليين ، سواء فيما يتعلق بالمعلومات أم فيما يتعلق بالمعتقدات الفرعية غير الأساسية . فالمتفائل لا يعتقد أنه قد تبلور وتحجر نهائيا فى صيغة غير قابلة للتطور ، بل هو يعمد إلى تطوير نفسه بصفة مستمرة ، مؤكدا لنفسه ولغيره أن أمامه شوطا بعيدا عليه أن يقطعه . وأنه مهما بلغ من العلم والمعرفة فإنه لم يخط سوى خطوات قليلة فى المجال المعرفى . وأكثر من هذا فإنه يتشوف إلى وسائل جديدة يكتسب بها المعرفة ، كما أنه يتطلع نحو مهارات جديدة يكتسبها تساعده على التعبير عما يدور بخلده من أفكار أو مشاعر أو اتجاهات أو معتقدات على نحو أفضل .

أما الملمح الخامس من الملامح العقلية لدى المتفائل فهو الإيمان بدينامية عقله . فهو لا يعتقد أن عقله بمثابة مرآة عاكسة لما يصل إليها من معرفة ، أو ليس مجرد أرشيف معرفى حيث توضع كل معلومة فى رف أو درج لاستخدامها وقتما تتطلب الحاجة ذلك ، بل يعتقد أن الأفكار بمثابة كائنات حية تتلاقح فيما بينها لكى تتوالد وتتكاثر وتخرج أفكاراً جديدة لها ملامح جديدة ليس لها نظير فيما استقبلته الحواس وتفهمه الذهن واستقر فى ثنايا المخ . فالمتفائل يؤمن بقدرة العقل الإنسانى على إفراز معرفة وفلسفة وفكر ليس مجرد تجميع من هنا وهناك ، وليس مجرد تصنيف أو ترتيب للموجود أو المحفوظ أو المفهوم . فالمتفائل يؤمن بعبقرية الإنسان وبعبقريته هو شخصيا وبأنه يستطيع – أو يحتمل – أن يقدم جديدا يشار إليه بالبنان لم يكن ليخطر على بال أحد سواه لأنه من إفراز عقله شخصيا .

والملمح السادس – وهو يرتبط بهذا الملمح الخامس الذى عرضنا له توا – فهو أن المتفائل لا يختص نفسه بالدينامية الفكرية وبالعبقرية الفذة ، بل إنه يفترض وجود ذلك لدى الغالبية العظمى من الناس . ولكن الظروف الخارجية من جهة والاجتهاد والدأب من جهة أخرى هما وحدهما القمينان بابرازهـــا فى طيات عقول الناس وتفتيق مواهبهم المطمورة التى تشبه أن تكون ماساً لا يسهل العثور عليه مع أنه موجود بالفعل فى باطن الأرض . بيد أن الأفكار الإنسانية أسمى وأصعب منالا من الماس لأنها بحاجة إلى معاناة مستمرة وإلى عرق كثير وجهد متواصل .

والملمح السابع والأخير من ملامح الشخصية المتفائلة فى الجانب العقلى هو الإيمان بالمستقبل . ففكرنا من حيث المضمون والطريقة سوف يكون أفضل سواء كأفراد أم كجماعات . فالمتفائل يعتقد أن بمقدور إنسان العصر الحديث أن يتفاعل مع جميع مقومات التراث الإنسانى السابق وأن يخرج من مثل ذلك التفاعل حصائل أو محصلات جديدة تضاف إلى تراث الماضى ولا تشجبه وذلك لأن المتفائل لا يحتقر الماضى ، كما أنه يحترم الحاضر ويتشوف بتفاؤل إلى المستقبل .

الملامح الكلامية :

الواقع أن من أهم الخلفيات التى يمكن أن تتبدى فى ضوئها اتجاهات الشخصية هى تلك الخلفية المتعلقة بالتعبير ، وقد سبق أن استعرضنا ما يتعلق بالتعبير بملامح الوجه أو بالوقوف والمشى والقعود . وفى هذا المقام سوف نعرض للتعبير الكلامى من حيث اشتماله على نغمات عامة تنم على الصبغة التى تصطبغ بها الشخصية . ولقد سبق لنا أن ألمعنا أيضاً إلى ما للصوت من دلالة على التفاؤل أو التشاؤم . بيد أن الصوت يشكل فى الحقيقة مستويات كلامية متباينة من حيث البساطة والتعقد ، ومن حيث الغموض والوضوح ، ومن حيث الفجاجة والدقة ، بل ومن حيث مدى الارتباط بكل من الوجدان والعقل .

ومن المعلوم أن الإنسان يشترك مع الكائنات الحية الأقل منه مرتبة فيما يتعلق بإستخدام الكلام كوسيلة تعبيرية انفعالية . فنحن نضحك بطريقتنا ونصرخ ونتأوه

ونرحب ونندهش ونبدى من الأصوات جميع الأطياف التى تشكل تعبيرا صريحا ومباشرا عما يدور بخلدنا من أحاسيس وجدانية ، وعما يلم بمشاعرنا من وجدانات متباينة . فإذا ما ضربنا طفلا أوكلبا ، فإن كلا منهما يصرخ معبرا عن ألمه وخوفه ، ولا يختلف الواحد منهما عن الآخر إلا من حيث طريقة التعبير عن الألم والخوف التى يختص بها الانسان ، وطريقة التعبير عن الخوف والألم التى يختص بها الكلب .

بيد أنه مهما تجردت لغة الكلام عن العواطف والانفعالات ، فمما لاشك فيه أن ثمة أطيافا وجدانية وانفعالية تبطن وتغلف الكلام . على أن البطانة الوجدانية الانفعالية التى يرتكز عليها الكلام قد تكون بطانة وثيقة الصلة بالكلام المنطوق أو المكتوب ، كما أنها قد تكون ذات ارتباط غير مباشر بذلك الكلام . فعندما تذكر صديقا أو قريبا لك توفاه الله وذكراه عزيزة إلى فؤادك ، فإنك قد تقول كلاما عنه وأنت متأثر أشد التأثر وقد تدمع عيناك ويتهدج صوتك ، فنقول إن بطانتك الوجدانية الانفعالية التى ترتبط بما تقوله من كلام عن الشخص الفقيد ، إنما هى بطانة ذات صلة وطيدة ومباشرة بالكلام المقول . ولكن اذا عمدت إلى حل إحدى المسائل الحسابية ، فإنه على الرغم من وجود بطانة وجدانية انفعالية فى الموقف — وهى قد تكون بطانة قوية ، وقد تتصبب عرقا أو قد يلم بك الغيظ والحنق كل الالمام — نقول على الرغم من هذا كله ، فإن بطانتك الوجدانية الانفعالية فى مثل هذا الموقف إنما تكون بطانة غير مباشرة لأنها لا تربط بالموضوع الذى تصب اهتمامك عليه مباشرة ، بل ترتبط بأشياء أخرى خاصة بك كالاحساس بالعجز أو الارتباك أو نحو ذلك مما قد تحس به بإزاء أى موضوع آخر يكون على نفس المستوى من الصعوبة أو على نفس القدر من الارباك .

وهناك فى الواقع بطانتان وجدانيتان انفعاليتان : بطانة مؤقتة ، وبطانة أخرى ثابتة ولها صفة الديمومة النسبية . والبطانة الأولى ترتبط بالموقف فتنشأ بنشأته وتذوى بذَوْيه . أما البطانة الوجدانية الانفعالية الثابتة والمستمرة نسبيا ، فإنها تشكل القوام الوجدانى الانفعالى الذى يعتبر الكلام صدى له ، أو تعبيرا عن الصبغة التى يصطبغ

بها . ولعلنا نستبين نوعين أساسيين فى هذا النوع الأخير من البطانة الوجدانية الانفعالية الثابتة والمستمرة . فثمة بطانة وجدانية تفاؤلية من جهة ، وبطانة وجدانية تشاؤمية من جهة أخرى . ولاشك أن كلام الشخص المتفائل ينم على بطانته الوجدانية المتفائلة ، على عكس كلام المتشائم الذى تنم تعبيراته الكلامية على بطانته الوجدانية الانفعالية المتشائمة .

ولعلنا نستبين ملامح تلك البطانة الوجدانية الانفعالية المتفائلة التى يختص بها الشخص المتفائل وذلك من خلال وقوفنا على ملامحه الكلامية ذاتها . وأول تلك الملامح الكلامية ذكر الأحداث والوقائع والقصص التى تشير إلى الرضى والحبور والانشراح والنجاح . وإنك تلاحظ أن المتفائل يستخدم ألفاظا لها وقع مريح ومبشر بالخير . وحتى عندما يحاول التعبير عن حالات غير مواتية ، فإنه يتخير عن غير قصد أخف الألفاظ وقعا كأن يقول « فلان غير سعيد » بدل أن يقول « فلان تعس » وكأن يقول « فلان توفى أو رحل » بدل أن يقول « فلان مات » . أما الملمح الثانى من ملامح كلام الشخصية المتفائلة فهو الرغبة أو الميل إلى نقل الأخبار السارة التى تتعلق بالآخرين . فتجد أن المتفائل بنشر أخبار النجاح وأخبار الأحداث السعيدة المتعلقة بالأفراد أو الجماعات . إنه إذا كان موظفا – مثلا – فإنه يسعد بأن يبشر زملاءه بحركة الترقيات التى تخصهم أو تخص غيرهم ، والمتفائل يحاول أن يبشر غيره بالخير الخاص أو العام . ولعلك تلاحظ أن الشخصية المتفائلة تبدأ فى استطلاع الأخبار البنَّاة والإيجابية فى أثناء تصفحها للجرائد والمجلات وتنبو عن استطلاع الأخبار الهدامة أو الاجرامية . فهى لا تكون مشوقة بشغف للوقوف على أخبار الكوارث والمصائب التى تلم بالناس ، سواء كانوا قريبين أم بعيدين . بيد أن هذا لا يعنى أن المتفائل يقف موقف اللامبالاة من مصائب الناس ، بل العكس هو الصحيح ، فهو يتأثر أبلغ التأثر لدى سماعه عن نبأ مكدر ، ولكنه يقول لنفسه ولمن حوله « ليتنى ما سمعت بذلك » على عكس المتشائم الذى ينتشى لدى سماعه بنبأ مكدر أو بمصيبة ألمت بشخص أو بمجموعة من الأفراد .

أما الملمح الثالث من الملامح الكلامية التى يتصف بها الشخص المقاتل فهو تشجيع همم الآخرين لا تثبيطها . فالمتفائل لا يطفىء شمعة مضيئة ، ولا يوقف

شخصا عن تقدمه مهما كان ذلك التقدم ضعيفا أو بطيئا . إنه يشجع كل من يقابلهم مبرزا الجوانب المشرقة فى حياتهم ، وشادا على أيديهم لكى يدعموا تلك الجوانب المبشرة بالنجاح والتى تشير إلى احراز أى شىء من التقدم . فالأب المتفائل يهنىء ابنه الناجح فى دراسته الجامعية وقد حصل على تقدير جيد مشيرا بأن ثمة زملاء لابنه لم يحصلوا إلا على تقدير مقبول ، كما أن ثمه زملاء له آخرين قد رسبوا وخانهم التوفيق فى عبور الامتحان واجتيازه بنجاح . وطبيعى أن موقف الأب المتفائل يختلف عن موقف الأب المتشائم الذى نجح ابنه بتقدير جيد أيضاً . إنه يعمد إلى تذكيره بأن ثمة زملاء له قد حازوا تقدير جيد جدا أو ممتاز فى نفس الامتحان ، ومن ثم فإنه لا يستحق التقدير والتهنئة لأنه تخلف عن أولئك المتفوقين .

أما الملمح الرابع من ملامح كلام المتفائل فهو شكر الله على كل خير يصيبه . إنه لا يعمد إلى مقارنة نفسه بالآخرين الذين كسبوا أكثر أو حصلوا على تقدير أحسن أو كان حظهم فى الحياة أوفر . إنه يشكر الله على ما حصل عليه ولا يبتئس بسبب أشياء لم يحصل عليها أو التى خانه التوفيق فى إحرازها . فنظره ينصب ويتركز على الايجابيات التى بين يديه لا على ما كان يتمنى الحصول عليه من أشياء .

أما الملمح الخامس من ملامح كلام المتفائل فهو اشاعة الطمأنينة فى الآخرين على صحتهم أو بإزاء أشياء أو مواقف أو توقعات يخشون من نتائجها . فالمتفائل اذا ما عاد مريضا فإنه يأخذ فى إشاعة الطمأنينة فى قلبه وقلوب ذويه ، كما أنه اذا ذهب لمواساة أحد فى مكروه فإنه يأخذ فى التخفيف من وطأة المصيبة وهول الواقعة عليه .

أما الملمح السادس من الملامح الكلامية التى يتميز بها المتفائل فهو عدم الاكثار من العبارات التى تنم على التشاؤم كتلك التى يستخدمها المتشائمون . من تلك العبارات الشائعة « الشر بره وبعيد » ، فلان سافر من غير شر» . . . الخ .

أما الملمح السابع من هذه الملامح الكلامية ما ينحو إليه المرء من أحاديث الذكريات . فالمتفائل يود أن يطرق أحاديث الذكريات التى تتسم بالخير والنجاح ، بغير أن يتطرق إلى الأحاديث المشئومة التى تتعلق بشرور وقعت له أو لغيره ، سواء فى الطفولة أو المراهقة أو الشباب ، ولا حتى ما كان متعلقا بالمآسى التى وقعت

للآخرين . ويسير جنبا لجنب مع هذا تلك الأحاديث التى تتعلق بالتصرفات المستهجنة التى صدرت عن الآخرين أو ما فاهوا به من كلام غير مستحب . فالمتفائل لا يلوك أحاديث مشئومة ولا يأخذ فى انتقاد الآخرين فيما صدر عنهم من تصرفات أو فيما فاهوا به من ألفاظ : وعلى العكس من ذلك فإن المتفائل يرغب دائما فى ذكر الجوانب المشرقة فى جوانب شخصيات الآخرين ، ويود أن يستعرض ما أحرزه من نجاح وما نالوه من تقريظ أو مديح بسبب أعمالهم وأقوالهم الحميدة . أضف إلى هذا ما يدأب على ذكره من مزايا ظاهرة فى الأصدقاء والأقرباء والجيران والزملاء .

الملامح الاجتماعية :

نود أن نستعرض فى نهاية المطاف بهذا الفصل الملامح الاجتماعية التى تتصف بها الشخصية المتفائلة . ويحسن بنا أن نتذكر دائما أن التكامل والتداخل هما السمتان الرئيسيتان اللتان تتسم بهما ملامح الشخصية أيا كانت ، وأن ما يحدو بنا إلى تقسيم ملامح الشخصية إلى هذه الأنواع الخمسة - أعنى الملامح الوجدانية والملامح العقلية والملامح الكلامية والملامح الاجتماعية - هو توفير الفرصة والمجال لتركيز الذهن على كل جانب معين والاستفاضة فى الحديث عنه . ولعلك تلاحظ أن الملامح الكلامية - مثلا - إنما هى فى نفس الوقت ملامح اجتماعية ، وذلك لأن الكلام باعتبار أنه صيغ سلوكية معينة للاتصال بالآخرين ، إنما يشكل إطارا اجتماعيا للشخصية بالدرجة الأولى ، ومن ثم فإن الملامح الكلامية تعد فى الواقع ضمن الملامح الاجتماعية .

بيد أننا فى هذا المقام - ولأجل تركيز الذهن والتخصيص - فإننا سنقصر استخدامنا للملامح الاجتماعية على الجوانب السلوكية البادية للعيان فى شكل تصرفات وعلاقات ، سواء كانت تصرفات وعلاقات موجهة ومتعلقة بالأفراد بعضهم وبعض ، أم كانت تصرفات وعلاقات موجهة ومتعلقة بالأفراد قبالة مجموعة أو أكثر ، أم كانت تصرفات وعلاقات موجهة ومتعلقة بالجماعات بعضها وبعض .

ولعل أول ملمح من الملامح الاجتماعية التى تتصف بها الشخصية المتفائلة هو الاطمئنان إلى الناس بصفة عامة . فالمتفائل لا يتوجس فى نيات الآخرين ولا يتوقع

منهم شرا ، ولا يخوّن من يتعامل معهم ولا يرتاب فيما يقصدونه ولا يظن بهم الظنون ولا يعتقد أنهم يتربصون به ويكيدون له ويخططون للإيقاع به كما يفعل المتشائم . وهذا فى الواقع نابع من أن المتفائل يقع على الإيجابيات الموجودة والمعتملة فى شخصيات الآخرين . إنه يتأمل الجوانب الحسنة ويعمل على إنمائها وترعرعها والتقدم بها إلى أقصى حد ممكن . وطبيعى أن المتفائل المتسم بهذا الاتجاه الاطمئنانى إلى الآخرين ، إنما يقدم لهم بدوره سلوكا يطمئنون اليه ، فلا يتوجسون منه ، ولا يخشون غدره أو الانقلاب ضدهم أو مناوأتهم أو إيقاع الضرر عليهم .

أما الملمح الثانى من الملامح الاجتماعية للشخصية المتفائلة فهو أن المتفائل لا يجد تعارضا بين نجاحه ونجاح الآخرين ، ولا بين تقدمه وتقدمهم ، ولا بين أن يكون غنيا وسعيدا وأن يكون غيره من الناس أغنياء وسعداء أيضاً . بيد أننا بهذه المناسبة يجب أن نميز بين نوعين من المطالب أو الرغبات : نوع لا يكون هناك تعارض بين أن أحصل عليه غيرى ، وهذا النوع هو الذى أطلق عليه برتراند رسل اسم الرغبات المتساوقة compossible desires ، وهناك من جهة أخرى من المطالب أو الرغبات ، أطلق عليه رسل اسم الرغبات المتعارضة incompatible desires ومن أمثلة النوع الأول من المطالب أو الرغبات أن أقوم بتأليف هذا الكتاب ، ويقوم غيرى من الكتاب بتأليف كتاب آخر . فلا تعارض بين أن تقوم المطبعة بطبع كتابى وطبع كتابه فى نفس الوقت ، وأن يعرض كتابى ويعرض كتابه جنبا لجنب بنفس المكتبة التى تقوم بنشر الكتابين . ولكن اذا كان الشئ المطلوب أو الرغبة المعتملة مما لا يمكن تحقيقه كأن يرغب شخص فى الزواج بفتاة ويرغب شخص آخر فى الزواج بنفس الفتاة ، فإن واحدا منهما فقط سوف يفوز ويتزوج تلك الفتاة المرغوبة .

وبالنسبة للمتفائل فإنه لا يجد أية غضاضة فيما يتعلق بالرغبات المتساوقة ، على عكس المتشائم مثلا يجد غضاضة فى أن يقوم غيره بالكتابة والتأليف . وذلك لأنه يظن أن جميع الرغبات والمطالب إنما هى رغبات متعارضة . فهو يعتقد أن أى مؤلف يقوم بالكتابة سوف يسد أمامه الطريق حتى ولو كتب فى مجالات بعيدة عن المجال الذى يحبه أو يكتب فيه . والمتفائل يميز جيداً بين ما يقع فى نطاق الرغبات

المتساوقة وما يقع فى نطاق الرغبات المتعارضة ، ومن فإنه يكون واسع الصدر بازاء غيره من أشخاص ويشد على أيديهم مهنئا من قلبه بنجاحهم أو تفوقهم بغير أن يحس بأن فى ذلك تهديدا لمستقبله .

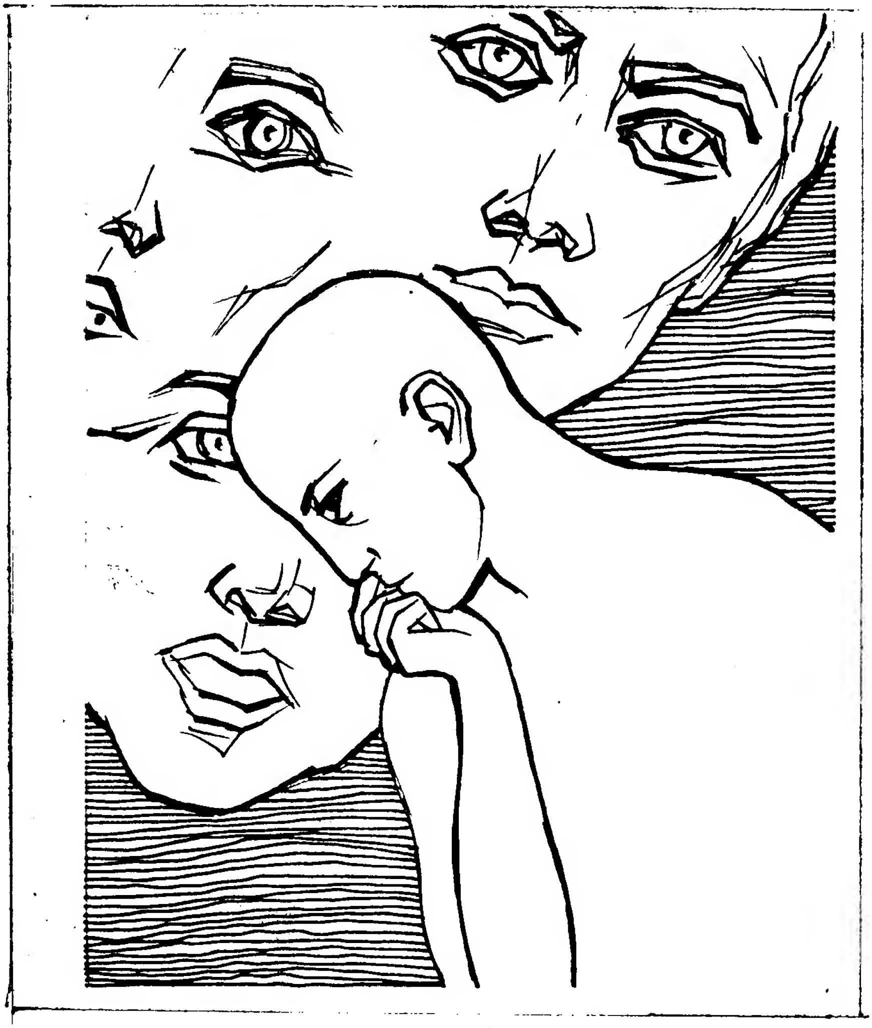
أما الملمح الثالث من الملامح الاجتماعية للشخصية المتفائلة فهو المساهمة فى بناء الأجيال الجديدة على أمل أن ينبت الجيل الجديد على نحو أفضل من الجيل القائم ، وقد تخلص فى معايبه ومعايب الأجيال السابقة عليه . ولقد سبق أن قلنا إن المتفائل ينظر إلى المستقبل بنظرة باسمة ولا يعتقد أن الأجيال القديمة أفضل من الأجيال الحالية المقبلة . وهذا الموقف فى الواقع موقف مناهض لموقف المتشائم الذى يأسف على الحاضر والمستقبل جميعا زاعما أن التدهور هو سنة الحياة ، وأن الفرد والمجتمع يهبطان إلى هاوية لا قرار لها وأن ثمة ما يشبه السوس ينخر فى قوام المجتمع .

أما الملمح الرابع فهو عدم قياس المرء لنفسه أو لغيره من زاوية واحدة كما يفعل المتشائم الذى اذا ظن ان تلك الزاوية على غير ما يرام فإنه يعتقد عندئذ أنه قد ضرب بالفشل والتدهور . لقد يعمد المتشائم إلى قياس نفسه وقياس غيره فى ضوء زاوية واحدة قد تكون الدخل والمستوى الاقتصادى فيحكم على نفسه بالفشل فى الحياة طالما أنه لم يربح الأموال الطائلة التى تجعله من ذوى اليسار الرافلين فى حلل الرفاهية والمتبوئين كراسى المجد . أما المتفائل فإنه يعمد إلى توسع دائرة قياس النجاح فى الحياة . إنه لا يعتمد على زاوية واحدة يقيس فى ضوئها النجاح فى الحياة ، بل هو ينحو إلى زوايا كثيرة ، ولا يشترط التبريز فى كل زاوية من تلك الزوايا العديدة ، بل يكتفى بأى زاوية منها للحكم على المرء بالنجاح فى الحياة . فهو يعتقد أن الغَنى والعالم والقديس والمنتج والصانع بيديه ، بل وربة البيت المتقنة لعملها بل وكل عضو من أعضاء المجتمع يكون قد حاز التوافق الاجتماعى الجيد وتسلح بأدوار إيجابية فى الحياة وفى علاقاته بالآخرين فانه يصير بذلك شخصية ناجحة . وطبيعى أن توسيع دائرة القياس يجعل فرصة الحكم بنجاح شخصيات كثيرة فى الحياة متاحة إلى أبعد حد ممكن .

أما الملمح الخامس من الملامح الاجتماعية للشخصية المتفائلة فهو النظر إلى الحياة من زاوية عامة لا من زاوية صغيرة ضيقة . لقد ينظر المتشائم إلى موقف واحد غير

موت أو إلى كارثة أو مصيبة أو خسارة أو مرض أو فقدان حبيب أو الوقوع فى أزمة اقتصادية ثم يصدر حكمه على الحياة كلها أو على المجتمع بأسره . أما المتفائل فإنه يأخذ فى اعتباره جميع الزوايا الممكنة . إنه ينظر إلى الصحة والمال والسمعة والأولاد وما سبق أن حظى به وما هو مخبوء له أو لذويه من خير فى المستقبل ثم يصدر حكمه بعد ذلك . وهو لا يصدر حكمه على المجتمع من زاوية واقعة اجتماعية حدثت له كأن يقابله شخص عدوانى ويهينه ، أو كأن يكيد له شخص حاقد ويهدد مستقبله أو يتسبب له فى شر أو ضرر أو إعاقة بازاء التقدم فى ركب الحياة ، فيحكم على الناس جميعا بأنهم أشرار . إن المتفائل لا يحكم من زاوية الجزئيات بل من زاوية الكليات . إنه يعتقد أن الحياة بصفة عامة جميلة ، وأن الانسان بصفة عامة يحب الخير ويقابل المعروف بمثله ، ويسقط من حسابه تلك الحالات الشاذة التى تحمل المتشائم على التعميم والحكم القاطع بأن الحياة رديئة وبأن المجتمع شرير وبأن الانسان نزّاع بطبعه إلى الشر والأذى والوقيعة .

أما الملمح السادس فهو احترام الشخصية الانسانية بل وتعليق الأمل على الحكمة البشرية فى سياسة أمور الحياة المعيشية فى الحاضر والمستقبل . فكما أن الانسان قد استطاع عبر العصور أن يتواءم مع الواقع والامكانيات المتوافرة له ، وكما أنه استطاع أن يتغلب على كثير من تقلبات الطبيعة وما وقف أمامه من مشكلات أو عوائق ، فإنه على نفس النحو سوف يتمكن من التوافق لظروفه الجديدة بل وللظروف التى يمكن أن تنشأ فى المستقبل . وحتى عندما تنشأ بعض المشكلات كأزمة المساكن أو التفجر السكانى أو أزمة الغذاء أو المواصلات ، فإن المتفائل يؤكد أن تلك الأزمات ليست بمثابة طرق مسدودة أمام الانسان ، بل هى عقبات عارضة سرعان ما يتغلب عليها بذكائه . فلسوف يتسنى للانسان أن يغلّب المنطق على العاطفة والانفعالات المؤقتة ، بل وسوف يغلب المصالح الاجتماعية على الأحقاد بين الشعوب وما ينجم عنها من حروب وأوبئة وجوع ومرض وتهديد للأمن والرعب من مصائب المستقبل واليأس من الحياة والنظر باشفاق على الأجيال القادمة وما سوف تعانيه من دمار ومصائب ونوائب .



الفصل السابع

ملامح الشخصية المتشائمة

الفصل السابع

ملامح الشخصية المتشائمة

الملامح الجسمية :

لسنا نريد أن يكون هذا الفصل مجرد صورة عكسية لما أوردناه بالفصل السابق ، اذ أننا لو فعلنا ذلك لكان بمثابة تحصيل حاصل ولا نخرج من قراءته بشيء جديد . وأكثر من هذا فإن القارىء يستطيع إذن أن يتنبأ مقدما بكل تفصيلة من تفصيلاته ، إذ يكون بمقدوره أن يتصفح ما ورد بكل فقرة من فقرات الفصل السابق ويضع أمام كل ملمح من الملامح المذكورة به الملمح المناهض أو المضاد لكى يكون قد ضمن لنفسه الوقوف على كل ما ورد بفصلنا هذا . ولهذا فإننا سنحاول ملحين فى المحاولة ألا نكرر فكرنا بتقديم الخصائص أو الملامح المضادة ، بل سيكون ديدننا فيما نكتب أن نقدم الجديد الذى لا يسمح للقارىء بالتنبؤ به بمجرد الالمام بالفصل السابق .

ولعلنا نبدأ بقبح الخلقة . والواقع أن الشخص ربما لا يتنبه إلى ما يتصف به جسمه من قبح وخروج عن السوية من ذات نفسه ، بل يكون ذلك التنبه ناجما عما يعايره به الآخرون ، أو نتيجة اشفاقهم عليه والحرص على عدم ذكر ما يتعلق بدمامته أمامه ، سواء بالتصريح أم بالتلميح . ولقد يكون الشخص غير دميم الخلقة اذا ما قيس بمقاييس الجمال ، أو اذا ما قورن بسواه من أفراد بنفس البيئة التى يوجد بها . ولكن يكون هناك بعض من المحيطين به قد بدأوا فى الإشارة إليه أو التغمز عليه أو التلميح اليه أو مجرد الابتسام بابتسامة خبيثة فى أثناء وجوده أو مروره ، فيأخذ صاحبنا فى التساؤل بينه وبين نفسه عن أسباب اتخاذ المحيطين به لمثل تلك المواقف والتصرفات بإزائه إلى أن يعثر على إجابة عن تساؤله بالمصادفة فيعرف أن الدافع لهؤلاء هو اعوجاج خلقته أو ما يتصف به من قبح ، فيستمر فى ترسيخ فكره حول

دمامته أكثر فأكثر إلى أن تصير لديه عقيدة لا تقل شدة ويقينا عن أيه عقيدة دينية يعتقدها الانسان فى الحياة .

والدمامة قد ترتبط بوجود عاهة جسمية معينة وقد لا ترتبط بذلك . لقد يكون الجسم كله سليما ومع ذلك يكون الشخص دميما – أو غير جذاب على الأقل – ومن ثم فإنه يتخذ الموقف التشاؤمى قبالة نفسه وقبالة علاقة الناس به . وبعد ذلك قد يعمم موقفه من نفسه فيصير التشاؤم والنظر بتوجس إلى الوجود من حوله سمة سائدة فى سلوكه وأخلاقه وتصرفاته . على أن الدمامة قد ترتبط أيضا بواقع جسمى معيب يتمثل فيما يسمى بالعاهة . والعاهة إما أن تكون افتقارا إلى ممارسة نشاط معين بسبب عجز جسمى ما ، كالعمى أو ضعف البصر الشديد مما يعوق الرؤية ، أو الصمم أو ضعف السمع الشديد مما يعوق القدرة على استبانة ما يقوله الناس للشخص . واما أن تكون العاهة انحرافا عن الوضع أو عن طريقة العمل السائدة مع عدم تعطيل النشاط المطلوب من العضو الذى تتصل به العاهة . فكثير من حالات الحَوَلَ أو حالات العرج أو العُسْر (أى استعمال اليد اليسرى فى تناول الأشياء والأكل والكتابة ونحو ذلك بدلا من اليد اليمى) لا تعوق الانسان المصاب بها عن العمل أو النهوض بالنشاط على أكمل وجه . ولكن المحيطين بمثل أولئك الناس الذين يشذون عن سواهم فى طريقة ممارسة المناشط المتباينة قد يلقون منهم العَيْر ، إذ يعايرونهم بما يبدو لديهم من شذوذ أو خروج عن المألوف .

ولسنا نعمم فنقول إن جميع المصابين بعاهات من أى نوع لابد أن يتخذوا موقفا متشائما من أنفسهم ومن غيرهم ومن البيئة الاجتماعية ومن الوجود بعامة ، بل إن بعض أولئك المصابين ببعض العاهات ربما يكونون متفائلين . وفى هذه الحالة يكون المصاب بالعاهة قد استطاع أن يعوض نفسه عما اصابه بالتبريز فى ناحية أو أخرى من نواحى الحياة ، سواء كان تبريزه متصلا بعاهته اتصالا مباشرا . كما حدث بالنسبة لبيتهوفن مثلا وتفوقه فى الموسيقى حتى بعد أن أصيب بالصمم ، كما قد يكون تبريزه غير متصل اتصالا مباشرا بعاهته كأن يتفوق الاعرج فى الشعر أو فى التمثيل مع أن الشعر والتمثيل لا يتصلان من قريب أو من بعيد بالعرج .

ولقد يرتبط التشاؤم بجانب جسمى آخر غير العاهة لا يكون متعلقا بملامح الشخص الجسمية أو بنشاطه الخارجى المحدد فى ناحية معينة بالذات ، بل يكون مرتبطا بالشخص ككل . من ذلك ما كان متعلقا بالضعف العام أو بأحد الأمراض التى يتعذر الشفاء منها أو يستحيل . فالمصاب بمرض السكر أو ضغط الدم مما يصعب الشفاء منه ، أو بمرض السرطان أو الأورام الأخرى الخبيثة التى يتعذر الشفاء منها ، إنما يكون قمنا بأن يكون متشائما فى نظرته إلى الحياة من حوله .

وليس يخاف أن إصابة الإنسان فى جهازه العصبى - الأورام التى قد تنشأ بالمخ أو الخراريج التى قد تنتشر على سطحه مثلا - إنما تعمل على إصابة المصاب بها بالتشاؤم كانعكاس أو كصدى لما يكون قد ألم بالجهاز العصبى من اعوجاجات أو أمراض . ولقد نزعم أن مثل تلك الاصابة فى النظرة إلى الحياة يمكن أن تتغير فيصير الشخص متفائلا من جديد اذا ما قيض له أن يحظى بالشفاء . بيد أننا نقرر مع هذا أن من الصعب أن يتحول المرء من التشاؤم إلى التفاؤل ، بينما لا يصعب تحول المرء من التفاؤل إلى التشاؤم .

ولقد يكون لضعف الجهاز العصبى أو لاضطراب بعض الغدد الأثر البعيد فى النقص فى القدرة الجنسية عند بعض الرجال ، واضطراب الحياة الجنسية لدى بعض النساء والاصابة بالبرود الجنسى أو بعدم التوافق الجنسى . أضف إلى هذا أن النمو الجنسى المبكر أو النمو الجنسى المتأخر أو نقص النمو بصفة عامة فى الأعضاء التناسلية ، إنما يصبغ حياة الشخص بصبغة تشاؤمية فى غالبية الحالات . وهنا ينبغى أن نذكر مبدأ التعميم الذى تخضع له الحياة النفسية لدى الانسان . فبعد أن يحس الشخص بالتشاؤم قبالة النجاح فى الحياة الجنسية وفى العلاقات الجنسية مع الزوجة أو الزوج ، فإن تلك النظرة التشاؤمية المحصورة فى نطاق العلاقات الزوجية سرعان ما تنتشر لتعم الشخصية بأسرها ، بل لكى تشكل النظرة العامة إلى الحياة بما فى ذلك النظرة إلى الوجود بصفة عامة ، بل وإلى الحياة الدنيا والآخرة أيضا .

ولقد تؤثر القامة والسمنة فى النظرة إلى الحياة بأن يستحيل الشخص إلى شخصية متشائمة . فربما يكون قصر القامة الشديد أو الطول الفارع أو الافراط فى

السمنة أو النحافة الشديدة سببا فى الإصابة بالتشاؤم . ويدعم ذلك بعض المواقف التى يلقاها الإنسان فى حياته ، كأن لا يقبل فى إحدى الكليات العسكرية بسبب عدم لياقته الجسمية ، أو عندما تشكل السمنة الشديدة سببا فى انصراف الأخطاب عن الفتاة أو عن الفتى . فمثل ذلك الشخص الذى لا يجد له خطبا من الجنس الآخر ، إنما يتلبس فى الغالب بنظرة تشاؤمية إلى ذلك الجنس بعامة ، أو بنظرة تشاؤمية إلى جميع الناس ، بحيث تتبدى نظرته التشاؤمية فى الفكر والعاطفة والتصرف والعلاقات الاجتماعية جميعا .

ولا ننسى أن نذكر أن منع الشخص الذى دأب على ممارسة نشاط معين أو النهوض به من ممارسته أو النهوض به ، إما لأن ثمة ظروفا اجتماعية أو قوانين تحتم ذلك كالاحالة إلى المعاش أو التقاعد أو الفصل من العمل ، أو بسبب ضعف جسمى أو مرض أو بسبب الضرب فى الشيخوخة بسهم وافر أو الاصابة بالشيخوخة المبكرة أو نحو ذلك من عوامل أو ظروف ، إنما يكون معرضا لأن يصاب بالتشاؤم ، وبكراهية الحياة وترقب الشر المستطير . ويدعم الموقف التشاؤمى فى مثل تلك الأحوال ما قد ينجم عن عدم ممارسة النشاط الذى دأب الفرد على النهوض به من هبوط فى المستوى الاقتصادى أو العوز والفاقة . ففى مثل تلك الحالات تجد أن الشخص يتلمس مواقف أخرى تدعم وتؤكد إحساسه بالتشاؤم . خذ مثالا لذلك تنكر الأبناء أو الزوجة أو الزملاء السابقين أو المرءوسين السابقين للمرء بعد أن ألمت به تلك الحالة التى نجمت أساسا عن ملمح جسمى معين يتمثل فى ضعف عام أو فى بلوغ سن معينة أو الإصابة بمرض أو عجز أو نحو ذلك . فيزداد التشاؤم ويتدعم أكثر فأكثر وبخاصة اذا ما أحس الشخص وتأكد بأن الطريق مسدودة أمامه لاستعادة ما كان عليه من كفاءة سابقة .

الملامح الوجدانية :

من أهم الملامح التى تتسم بها الشخصية المتشائمة إحساس المتشائم بالانقباض والتوجس من المجهول . فمن الملاحظ أن تسود سمات الاكتئاب على وجه المتشائم . فالسعادة لا تجد إلى قلبه منفذا ، ولا تكاد الابتسامة ترتسم على محياه . إنه يستشعر

الأخطار الغامضة والمصائب الموهومة تتربص به وتكاد تطبق على رقبته وتأخذ به كل مأخذ . ولقد تجد من المتشائمين من تومض فى أخيلتهم لمعات من الأمل البراق فتبتهج نفوسهم بشدة ويستشعرون الأمل الدافق بالخير العميم . ولكنهم ما يكادون يحسون بالايجابيات تنسرب إلى قلوبهم حتى ينقلبوا ظهرا لبطن ويعودوا إلى أشد ما كانوا عليه من غم شديد وهَمٍ مقيم . ولقد يفسر مثل ذلك الاكتئاب بأسباب بيولوجية تتعلق بحالات عضوية كيميائية معينة ، كما قد يفسر بالطريقة التى ذهب اليها فرويد ومدرسته ، وذلك بالرجوع إلى الخبرات المكبوتة منذ نعومة الأظفار ، وما ترسب فى اللاشعور من مقومات غير مواتية أو محزنة لا تكاد تستطيع أن تطل برأسها إلا من خلال تلك التعبيرات غير الكاملة عن جِمَاعها . فالمتشائم شخص لا يستبين بعقله الواعى ما يحزنه أو ما يلم بوجدانه من انقباض وتوجس ، بل يستشعر الخوف من المجهول ويتوقع الشر من أشياء لا يعلم لها مغزى أو تفسيرا ، ولا يربط بينها وبين أشياء أو مواقف أو حتى خبرات ماضية وقعت له فى حياته .

وحتى اذا حاول المتشائم أن يرد تشاؤمه وتوجسه وانقباضه إلى خبرات أو وقائع ماضية ، فإنه يفعل ذلك بغير يقين أو تثبت . إنه إنما يفعل ذلك على سبيل التخمين . ذلك أن الانسان بطبعه ينحو إلى البحث عن أسباب يرد إليها الظواهر التى يقع عليها . فإذا لم يجد أسبابا وجيهة يرد اليها ما يقع عليه ، فإنه يأخذ عندئذ فى الربط بين الأشياء التى يبحث لها عن أسباب وبين أى شىء مهما كان حتى ولو لم يجد أية رابطة معقولة تبرر مثل ذلك الربط . تخيل مثلا أنى أرى أمامى كوبا من الماء به عود من الثقاب أو قطعة صغيرة من الخشب وقد ترسبت فى قاعة وغطاها الماء من كل جانب ، ولاحظت أن الماء الموجود بالكوب يغلى بشدة مع أنه لا توجد نار أو ما يسبب وجود حرارة به (عن طريق وجود عمودين من الفحم مثلا متصلين بتيار كهربائى ومغموسين بالماء) . من المؤكد أنى عندما لا أجد تفسيرا لغليان الماء بالكوب ، فإن انتباهى سوف يتجه إلى أى شىء . ربما يتجه التفسير إلى عود الثقاب أو إلى قطعة الخشب الموجودة بالقطاع ، أو ربما يتجه إلى الزجاج الذى صنع منه الكوب أو يتجه إلى المائدة التى وضع عليها الكوب . والواقع أن مجرد تنبهى إلى وجود

عود الثقاب أو قطعة الخشب أو الزجاج أو المائدة كسبب لإحداث الحرارة ، إنما يدل على حدوث مثل ذلك الربط ولو للحظة واحدة . أما كونى أتشبث بالتفسير أو أرفضه ، فإن هذا شيء آخر .

وهذا ما يحدث لدى المتشائم . إنه يبحث عن أسباب لاكتئابه أيا كانت لكى يتسنى له الربط بينه وبينها . وطالما أنه لا يستطيع استبانة الأسباب الحقيقية التى تدفع به إلى التشاؤم ، فإنه يتعلق اذن بأية أسباب مهما كانت بادية السخف أو بادية السذاجة ، أو بادية المخالفة عن المعقول .

ومن السمات أو الملامح الوجدانية الأساسية الأخرى فى حياة المتشائم الوجدانية عدم تبلور وجدانه حول موضوع ما من الموضوعات لمدة طويلة ، أو عدم تبلوره على الاطلاق . فنى الحالات التى يتم فيها تبلور وجدان المتشائم حول شخص أو حول أحد الكائنات الحية أو حول شيء ما أو حتى حول مبدأ أو فكرة ، فإن مثل ذلك التبلور لا يكاد يستمر مدة طويلة ، بل إنه ينقشع فجأة وبعد مدة وجيزة . ذلك أنه لا توجد جذور راسخة فى عواطف المتشائم . ولعل السبب فى ذلك هو انعدام ثقة المتشائم فى أى شخص أو فى أى شيء أو فى أية فكرة أو مبدأ مهما كان . فهو شخص مفعم بالوجدان من جهة ومشتعله ، ولكنه من جهة أخرى لا يستطيع أن يثبت على شيء يبلور الوجدان حوله . فهو كالنحلة تتنقل من زهرة إلى أخرى بغير استقرار وبغير اقتناع بأيةٍ من الزهرات التى تقف عليها برهة . بيد أن الفرق بين النحلة وبين المتشائم يتضح فى أن للنحلة هدفا محددا هو امتصاص الرحيق وتنويع الزهرات التى يتم الامتصاص منها . ولكن تذبذب المتشائم بين أنحاء متباينة وموضوعات كثيرة بغير أن يتبلور وجدانه حول موضوعات محددة إنما يجعله دائم التشتت وعاجزا عن النهوض بالوظيفة الواجب قيام الحياة الوجدانية بها .

أما السمة الثالثة من السمات الوجدانية لدى المتشائم فهى الوسواس والشك فى نيات وعواطف ومرامى الآخرين . فالمتشائم تسيطر عليه الأفكار الثابتة الناشئة عن عوامل وجدانية وليس عن مقومات منطقية . فلقد يعتقد المتشائم أن شخصا معينا يكيد به ويحيك له المكائد وينوى القضاء على حياته أو على سمعته . ومهما بذلت مع

المتشائم من جهد اقناعى لتخفف من غُلَوَاء الأفكار المتسلطة على عقله ووجدانه ، فإنك لا تستطيع بلوغ غايتك حتى ولو أبدى المتشائم ما ينم على اقتناعه بما تقوله له وبما تسرده عليه من براهين تدحض بها أوهامه . ولكن الواقع أن من المتعذر أن يقلع المتشائم عما تملك عليه من أفكار ثابتة ومن أخيلة ليس لها أساس وليس لها رصيد من الواقع ، وذلك لأن المتشائم لا يكون قد توصل إلى أفكاره الثابتة نتيجة وقائع فعلية مكينة ولها جذور من الحقيقة ، بل إن ما يترسمه فى ذهنه إنما ينبعث وينشأ ويترعرع نتيجة اعوجاج معين فى حياته الوجدانية . فما يفكر فيه يكون نتيجة لذلك المرض الوجدانى لا العكس . فليس وجدانه وما يعتمل به نتيجةً لأفكاره المعتملة بعقله كما قد يظن بداءة .

أما السمة الرابعة من السمات الوجدانية لدى الشخصية المتشائمة فهى الاحساس بالبغض والكراهية والمقت بتجاه كل من الماضى والحاضر والمستقبل . فالماضى مشحون بالخبرات الكريهة ، والحاضر مفعم بالمنغصات التى تقلق منامه ، وكذا فإن المستقبل مفعم بالدلالات التى تؤكد أنه يحمل فى طياته الكثير من الأحداث الرديئة والمفاجآت المفجعة . والواقع أن حياة المرء سلسلة متصلة الحلقات . فالحاضر هو ماضى الغد ، والمستقبل أيضا هو ماضٍ لما بعد ذلك المستقبل . من هنا فإن السياق الزمنى مستمر دائما ولا يتوقف على الاطلاق فى أية لحظة من لحظات العمر . ومن ثم فإن الخبرات المؤلمة والخبرات السارة تضرب بأصدائها فى حلقات لا نهائية تظل قائمة موجودة طالما أن الإنسان على قيد الحياة حتى وإن بدت آخذة فى الضعف والذبول والضمور . فخبرات الطفولة حية أيضا فى المراهقة والشباب والشيخوخة . وإذا كانت الطفولة فى حياة الشباب تمثل الماضى ، وإذا كان الشباب يمثل حاضره ، فإن الشيخوخة تمثل مستقبله . ومن هنا فإذا كانت نقطة الانطلاق فى حياة المرء – أعنى الطفولة – قاتمة مريرة ، فأغلب الظن – أو من المؤكد – أن تلك القتامة سوف تظل معتملة فى الحياة الوجدانية للشخص خلال مراحل حياته التالية .

أما السمة الخامسة من سمات الشخصية المتشائمة فهى وجود بعض المخاوف المرضية phobias كالخوف من الأماكن المغلقة أو الأماكن المرتفعة أو الخوف من

الماء أو الخوف من بعض الحيوانات أو الحشرات التى لا تضر ولا تفتك بالانسان . والمخاوف المرضية هى تلك المخاوف التى لا تتناسب مع مصدر الخوف وسببه أو لا يوجد لها مبرر للخوف منه على الاطلاق . والواقع أن الخوف من أشياء لا تخيف على الاطلاق أو لا تخيف بالقدر البادى فى وجدان وسلوك المرء ، إنما يعد شاهدا ودليلا على أن الخائف متوجس من المجهول ، وقد تلبس ذلك المجهول أو اتخذ له رمزا هو ذلك الشىء الذى يخاف منه المتشائم . ولكأن المتشائم يعتقد أن الخطر أو الموت يمكن أن يتأتى له أو لذويه من أى شىء مهما بدا غير مخيف فى حد ذاته . بيد أن المتشائم لا يدرك ذلك عن طريق حياته الواعية ، بل يستشعره بوجدانه متمثلا فى دلالات الخوف وشواهده اذا ما اقترب منه أو لامسه ذلك الشخص الذى يخاف مرضيا . ولقد يعبر المتشائم عن خوفه المرضى بعبارات لاتبدو فى ظاهرها من الخوف فى شىء . إنه يقول إنه يتشائم من الأماكن المغلقة أو من رؤية الفأر . ولا يقول لك إنه يخشى الأماكن المرتفعة أو أنه يستشعر الخوف لدى مشاهدته للفأر . ولعل كلمة « أتشاءم» أخف وطأة على النفس وعلى الأذن من كلمة « أخاف » إذ أن المتشائم يلقى باللائمة على الشىء الذى يتشاءم منه ، بينما اعترافه بمخاوفه المرضية سوف يجعل الآخرين يتهمونه بالمرض النفسى ، أو بتعبير أصرح بالجنون .

الملامح العقلية :

سبق أن ذكرنا أن المتفائل يبحث عن الإيجابيات فى الأشياء على عكس المتشائم الذى يعمد دائما إلى البحث عن السلبيات . فإذا ما عرض أمر على المتفائل فإنه يقع على الجوانب الصحيحة به ، بينما إذا عرض نفس الأمر على المتشائم فإنه يجتهد فى الوقوف على النقائص التى تلم به وجوانب القصور التى تشوبه . ومن هذا يمكنك أن تلاحظ ضرورة توافر المتفائلين والمتشائمين على إصدار الأحكام على الأعمال الأدبية والفلسفية والعلمية والفنية بل وعلى إصدار الأحكام على جميع الأشياء التى يجب تقييمها وإبراز جوانب الجوده أو الصدق فيها وجوانب الرداءه والبطلان بها . ولقد سبق أيضا أن قلنا إن الناس لا ينقسمون إلى متفائلين ومتشائمين بحيث يكون الواحد من المتفائلين متفائلاً قُحًّا ، ويكون الواحد من المتشائمين متشائما قحا ، بل إن الناس

يمكن أن يجمعوا فى قوامهم بين التفاؤل والتشاؤم بنسب متفاوته ، بحيث يكون حكمنا على الشخص بالتفاؤل أو بالتشاؤم فى ضوء الصبغة العامة التى تسود حياته وعقليته واتجاهاته فى الحياة بل وعلاقاته مع غيره وعلاقته مع نفسه .

وإذا نحن أردنا الوقوف على طبيعة التفكير حتى يتسنى لنا أن نقف على الملامح العقلية لدى المتشائم ، فإن علينا أن نقف أولاً على ما يدور بالعقل من عمليات وما يسيطر على المخ البشرى من نظام فى العمل . فنجد أن ثمة عمليتين أساسيتين يضطلع بهما المخ : العملية الأولى هى العملية الاستثارية excitatory أما العملية الثانية فهى العملية الكفية inhibitory وبمقتضى العملية الأولى فإن المخ يستجيب لما يوجه إليه من مثيرات ، وبمقتضى العملية الثانية فإن المخ يمتنع عن القيام بالاستجابة لما يوجه إليه من مثيرات . وبتعبير آخر فإن المخ يقوم بعمليتين : الأولى عملية الإقبال ، والثانية عملية الإدبار . ويلاحظ أثر هاتين العمليتين فى النشاط الإنسانى بعامه بدءا بالعمليات الانعكاسية البسيطة وإنتهاءً إلى العمليات الاجتماعية المعقده . وإنك لتلاحظ أن الأعصاب التى تسيطر على العضلات إما أن تأمر تلك العضلات بالانبساط ، وإما أن تأمرها بالانقباض . وفى الحياة النفسية هناك الحب وهو انبساط ، والكراهية وهى انقباض . وفى الحياه الاجتماعية هناك التعاون وهو انبساط والتنافس وهو انقباض .

ولعلنا لا نخطئ اذا قلنا بأن الحياة العقلية الانسانية تخضع لهذين المبدأين أيضا . فالتفاؤل انبساط والتشاؤم انقباض . ومعنى هذا أن المتشائم يأخذ بنصيب وافر من العمليات الانقباضية الرفضية لما يقدم اليه من أفكار . وبتعبير فسيولوجى نستطيع أن نزعم أن المتشائم شخص تكون لديه العملية الكفية بالمخ أقوى من العملية الاستثارية به .

وتتضح الانقباضية أو الكفية لدى المتشائم فيما يقوم به من مجادلات لا يقصد من ورائها تأكيد حقائق معتملة بذهنه يؤيدها ويؤمن بها ، بل يكون قصده الأساسى هو إثبات أن الآخرين لا يفكرون بالطريقة الصحيحة ، أو أن المعتقدات أو المذاهب أو النظريات التى يقولون بها إنما هى بطلان من البطلان وزيف من الزيف وخرق من

الخرق . وكلما وجد المتشائم مقاومة من خصومه ضد تنفيذ اعتراضاته ضد أفكارهم وما يعتقدون فيه ، فإن اصراره على التنفيذ والنقد والهدم يتصاعد ويشتد قوة وصلابة . ولعل أكثر ما يضنى المتشائم ويقهره فى مواقفه الجدلية هو الانصراف عنه وعدم المبالاة بما يقول . بيد أنه قد يحاول إشعال أوار المجادلة باتهام خصومه بالخوف من براهينه الباترة ومن مواقفه الصارمة ومن منطقه الذى لا يُفَل . ولكن كلما أمعن من يوجه اليهم المتشائم الاتهامات ببطلان فكرهم وآرائهم فى الإغضاء عنه واللامبالاة به ، فإنه يزداد فتورا وتخاذلا ، ولكأنه فقد الركيزة التى يقيم عليها نظامه العقلى بأسره ، وهو الذى يشيد مجده الفكرى على أساس من هدم أفكار وآراء ومعتقدات الآخرين .

بيد أنه ينبغى ألا نحط من شأن أصحاب التشاؤم العقلى الذين يقوم جماع فكرهم على مناهضة ونقد ما يذهب إليه الآخرون . ذلك أن ثمة من الفلاسفة التشاؤميين – بهذا المعنى الذى ننحو إليه – من تربعوا على عروش مجدهم بفضل موقفهم النقدى الجدلى اللاذع . من أمثال هؤلاء فرانسيس بيكون الذى عمد إلى كشف النقاب عما فى الفكر السائد لوقته من أوهام وخرافات ومزالق .

ولقد يوجه المفكر التشاؤمى نقده اللاذع إلى نفسه وإلى عقله ، فيضع القوالب الصحيحة لفكره فى ضوء تحطيم القوالب السائدة التى ظل الناس يأخذون بها ويعترفون بصحتها . فهنا نجد أن المفكر لا ينصب محكمة عقلية لغيره ، بل ينصب محكمة عقلية لنفسه . وهذا ما فعله واحد مثل ديكارت ، وقد ضيق الخناق على نفسه حتى توصل إلى حقيقة رأى أنها مؤكدة وقاطعة هى أنه طالما أنه يفكر ، فهو موجود اذن . وفى هذا الموقف تستطيع أن تلاحظ أن المفكر يسير فى مرحلتين : مرحلة التفكير ، ثم مرحلة نقد التفكير . فهو كمن يجمع من الحقل كل شئ ثم يأخذ فى فرز ما لا يريده مما قام بجمعه ويستبعده . وطبيعى أن المفكر التشاؤمى لا يقوم بالنقد والفرز بُدَاءة لأنه كيف يستطيع أن يفرز مستبعدا الردئ بغير أن يكون قد جمع خليطا من الجيد والردئ .

والواقع أن القائلين بالمحاولة والخطأ فى التعليم هم فى نفس الوقت من المتشائمين

العقليين ، وذلك لأن مجرد الاعتراف بهذا المبدأ معناه الأخذ بمبدأ رفض المحاولات الخائبة التى لا تفضى إلى نتائج إيجابية طيبة . ولكأن القائل بهذا المبدأ لا يؤمن بإمكان التقبل للصواب مباشرة ، بل هو يعتبر أن الحصول على الأشياء المتباينة هو الأساس ثم يتلو ذلك عملية الحذف والاستئصال .

ويتجه الفكر التشاؤمى إلى انكار قيمة الحواس والمحسوسات كأساس للمعرفة . بل يجعل شيئا آخر هو الأرض الصلبة التى ينبغى أن يقوم التفكير على قوامها . وهنا نجد أن التشاؤميين ينقسمون إلى فريقين : فريق يجعل العقل بمثابة الركيزة التى يعتمد عليها كل ما هو حقيقى ، وفريق آخر يجعل عالم المثل – أفلاطون ومن لف لفه – هو القمين بالوثوق والتصديق . وقد سبق أن قلنا إن المثالية تشاؤم . وأن الواقعية تفاؤل .

ولقد نستطيع أن نقول إن القطاع الايمانى فى عقل المتشائم العقلى لا يكاد يحتل أى نطاق . وحتى اذا هو احتل نطاقا ما أيا كانت مساحته فى عقله . فإن المتشائم العقلى يمكن أن ينقض على تلك المساحة ليخضعها للتفكير الرفضى . وأكثر من هذا فإن ما سبق أن سلم به المتشائم العقلى بالفكر والمنطق يمكن أن يعود عليه بالرفض من جديد متهما نفسه بأنه سلم به خطأ وعن سهو . ومن ثم فإنه يأخذ فى إعادة حساباته حتى مع المسائل التى سبق أن اقتنع بها وسلم بصحتها . وطبيعى أن يتخذ المتفائل موقفا عكسيا من ذلك ، اذ أنه يكون على أتم استعداد للاقتناع والايمان بأشياء كثيرة ، بحيث لا يعود فينكر ما سبق أن آمن أو اقتنع به.إنه يكون مستعدا للإضافة إلى رقعة الايمان لا للحذف منها أو تقليل مساحتها .

وهذا يسوقنا إلى التعرض لما يسمى بالقابلية للتصديق والقابلية للإيمان . والقابلية للتصديق تدفع بالأشياء التى لم تكن متعقله أو غير معقولة إلى أن تكون متعقلة ومعقولة . أما القابلية للإيمان فإنها تدفع بالأشياء التى تم تصديقها إلى أن تصطبغ بصبغة وجدانية بحيث تحول العاطفة حتى دون التفكير فيها بالتقييم والنقد . فهى تصير أمورا أعلى وأسمى من أن تخضع للتفكير المنطقى أو للتقييم الذهنى . ولدى المتشائمين العقليين تجد أن القابلية للتصديق والقابلية للإيمان ضعيفتان . ومن جهة أخرى فإنك

تجد أن القابلية للتشكك والقابلية لعدم الايمان هما المهيمنتان على عقولهم . والواقع أن الشخصية المتكاملة هى تلك الشخصية التى تأخذ طرفا من كل شئ . فهى شخصية تؤمن بأشياء وتشك فى أشياء ، وهى الشخصية التى لا تسيطر عليها الثقة العمياء أو الرفض الأعمى لكل شئ حتى تلك الأشياء التى سبق أن تأكدت وترسخت فى العقل والقلب جميعاً . وبهذه المناسبة فإننا نرفض القول بأن شك واحد مثل ديكارت كان شكا منهجيا ، بل نؤكد أن ديكات كان يشك لاكمن يمثل أنه يشك ، بل كان يشك بعقله وقلبه جميعا . وكان شكه نابعاً من قوام شخصيته التى لا انفصال أو انفصام فيها بين ديكارت الانسان وبين ديكارت الفيلسوف .

الملامح الكلامية :

إنك اذا قمت بتسجيل كلام أحد المتشائمين لمدة ربع ساعة فقط ثم أخذت فى رصد الكلمات أو الأصوات التى فاه بها فى جدول مقسم إلى نهرين : أحدهما لتضع به الكلمات التى تعبر عن الانشراح والانبساط ، والثانى لتضع به الكلمات التى تنم على الانقباض والاكتئاب ، اذن لوجدت أن النهر الثانى قد احتشد بالكلمات الكثيرة ، بينما افتقر النهر الثانى إلى ما يملؤه من كلمات أو إلى ما يملأ قسطا بسيطا منه . ولعلك تستطيع بهذه الطريقة أن تميز بين الأفراد لكى توزعهم إلى متفائلين أو متشائمين . فالذين يتغلب النهر الأول لديهم على النهر الثانى يكونون من المتفائلين ، بينما يعتبر أولئك الذين يمتلىء النهر الثانى بكلماتهم من المتشائمين .

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى معانى الكلمات كوسيلة لوضعها بأحد النهرين أصوات الكلمات أيضا . ولقد سبق أن قلنا إن الأصوات قد سبقت المعانى فى تطور الكلام لدى بنى الانسان . فثمة شحنات انفعالية تتلبس بالكلمات التى نستخدمها . فالشحنة الانفعالية التى تحملها كلمة « أسكت » أو كلمة « هات » أو أى كلمة من كلمات الأمر ، أقوى من الشحنة الانفعالية التى تحملها كلمة « شكرا » أو « حاضر »

ولعلنا نجد أنواعا متباينة من الشحنات الانفعالية التى تحملها الكلمات . فثمة شحنات ايجابية من جهة ، وشحنات سلبية من جهة أخرى . والشحنات الإيجابية

تحمل الرضى والثناء والامتنان وغير ذلك من عواطف إيجابية . والشحنات السلبية تتمثل فى الزجر والذم والمنع وغير ذلك من الرغبات السلبية التى ترمى إلى منع الاخرين من عمل شىء أو التى يطلب إليهم فيها الكف عن عمل شىء أو القيام بتصرف ما من التصرفات .

وثمة محاولات قام بها بعض علماء النفس للوقوف على اتجاهات الشخصية سواء كانت اتجاهات تفاؤلية أم اتجاهات تشاؤمية ، وذلك بتقديم مجموعة من الأسئلة ليجيب عنها الأشخاص الذين يراد معرفة اتجاهاتهم . وفى ضوء ما يقدم من اجابات يستطيع عالم النفس أن يقرر ما اذا كان الشخص المختبر متفائلا أم متشائما . وبالنسبة للمتشائمين فإن اجاباتهم تتسم بالكراهية أو القسوة أو توقع الشر أو الرغبة فى حدوث مصائب وكوارث للآخرين . وطبيعى أن ينحو المتفائلون إلى تقديم إجابات تنم على اتجاهاتهم المتفائلة .

وهناك أيضا ما يعرف بالقصة الناقصة ، اذ يطلب إلى الشخص أن يكمل القصة بأية طريقة وعلى النحو الذى يرغب فيه . وطبيعى أن يعمد المتشائم إلى تقديم إجابات تدل على اتجاهاته التشاؤمية . وهناك أيضا ما يعرف ببقعة رورشاخ نسبة إلى صاحب هذه الطريقة ، وذلك بأن تسكب نقطة حبر على ورقة ثم تطبق حول مركز البقعة ثم تفرد وتعرض على الأشخاص الذين يراد اختبارهم لكى يقولوا أى شىء يخطر ببالهم بصدد تفسيرهم لما يشاهدونه فى بقعة الحبر الموزعة . وبهذه الطريقة يمكن معرفة ما إذا كان الشخص متفائلا أم متشائما .

والواقع أن المتشائمين يختلفون عن المتفائلين فى سردهم للوقائع أو وصفهم للأحداث التى يشاهدونها أو تصل إلى آذانهم أو يطلعون عليها بالصحف والمجلات . ذلك أنهم يلونون ما يقومون بسرده من قصص أو أخبار أو أحداث بلون مزاجهم أو بصبغة عواطفهم وما يدور بخلدهم من انفعالات وأفكار وملامح وجدانية . ولعل المتشائم يتجه أكثر من ذلك إلى إضافة أحداث لم تقع أو إلى تلوين الكلمات التى قيلت أو العبارات أو الحركات أو الاشارات أو الايماءات بلون وجدانه وما يعتمل فى قلبه من مشاعر وما يكون قد ألم بأجهزته النفسية من عقد . وحتى بالنسبة للكلمات

التى قيلت ببساطة أو التى لم يكن يقصد من وراء التفوه بها ما يسىء أو ما ينم على الذم أو التثريب ، فإن المتشائم يتجه عن غير قصد - أو بقصد - إلى تلوين كل ما يقال وكل ما يتصرف به الآخرون بلون قاتم مثلما يعتمل بدخيلته .

وهنا يجب أن نعرض لما يعرف بالاسقاط Projection وهو العملية اللاشعورية التى يضطلع بها المرء بغير قصد من جانبه فيصبغ ما يشاهده أو يسمعه أو يشمه أو يتذوقه بصبغة نفسه . فمن امتلأ قلبه بالحقد أو الكراهية فإنه يعكس ما لديه على ما ومن حوله ، فيكسب كل شىء يراه أو يدركه بأية حاسة من حواسه الخمس الأخرى ، وكل شخص من معارفه وأصدقائه أو زملائه أو منافسيه ما ينم على الرداءة والشر . ولكأن كل شىء يحيط به شر من الشر ، ولكأن الناس جميعا قد استحالوا إلى ثعابين وعقارب لادغة مؤذية .

وحتى بالنسبة للذكريات فى العلاقات التى كانت قائمة بين المتشائم وغيره من الناس ، فإنك تجده لا ينتقى من ذكرياته سوى تلك القصص والمواقف المملوءة بالرعب والخلافات والمصائب . فإذا ما جالست المتشائم وهو يذكر لك شيئا عن حياته الماضية ، فإنك ستظن أنه لم يمر بيوم سعيد خلال حياته الماضية كلها . وأكثر من هذا فإنك ستستشف من قصصه أنه لم يصادف فى كل حياته الماضية شخصا واحدا كان يحب له الخير أو يمد إليه يد العون أو يقول له كلمة تشجيع واحدة .

وبالإضافة إلى هذا فإن المتشائم فى حديثه مع الآخرين فى أية زيارة أو جلسة أو اجتماع لا يعرض لشىء أو لشخص إلا لكى يذمه ويظهر أنه معيب فى فكرة أو فى نواياه أو فى كفاءته . إنه لا يكاد يمتدح أحدا . وحتى اذا هو امتدح شخصا ما فى سياق حديثه ، فإنه مايفتأ يذمه أو ينهش عرضه أو يلوك سمعته بطريقة أو بأخرى . فالناس فى نظر المتشائم جميعا أقزام وأردياء . وإنك لتلاحظ أن المتشائم لا يستخدم الكلمات الايجابية حتى إذا هو امتدح شخصا - وهو قلما يفعل ذلك - بل يستخدم الكلمات السلبية كأن يصف الشىء أو الشخص العظيم بقوله « مش بطال » أى ليس بردىء . فالجيد عنده يوصف بأنه ليس رديئا ، والناجح يوصف بأنه ليس فاشلا ، كما يوصف الجميل بأنه ليس قبيحا ، إلى آخر ما يصف به الناس بصفات تنفى السلبى

فحسب ، ولا تقرر الايجابى . وهناك فى الواقع فارق جوهرى بين أن تقول « هذا الشخص ليس غبيا » لكى تشير إليه بأنه ذكى ، وبين أن تقول « هذا الشخص ذكى » ولعل من الخطأ أن تصف أحد الأغنياء بقولك عنه « إنه ليس فقيرا » كما يفعل المتشائمون .

والواقع أن من الخطورة بمكان أن تعرض على أحد المتشائمين ما يعن لك من مشروعات بناءة أو أفكار ايجابية ترغب فى تنفيذها . ذلك أن المتشائم يصب تشاؤميته على جميع ما تعرضه عليه من أفكار ومقترحات . إنه يثبط همتك ويحذرك من أخطار لا وجود لها إلا فى ذهنه وخياله القاتم . ولا يختلف شخص عن شخص آخر فى نظر المتشائم بل الجميع سواسية فيما يصدره من أحكام على ما يبدونه من أفكار أو ما يقترحونه من مشروعات . فسواء كان المتشائم محبا لصاحب المقترحات أم كان كارها له ، فإنه فى جميع الحالات يسقط على ما يعرض عليه من ظلام نفسهُ وقتامة وجدانه ونظرته غير المستبشرة . ولا يستثنى من ذلك أبناء وبنات المتشائم أنفسهم . فهو لا يقع فى توجيهه لهم إلا على ما يصطبغ بالتشاؤم . ومن هنا فإنك تجد أن أبناء وبنات المتشائم وقد خيم عليهم ظلام التشاؤم ، بل إنهم فى الأغلب يصطبغون بالتشاؤمية التى نشأوا فيها وتربوا على أعشابها السامة .

ومن الطبيعى أن ينبو المتشائم عن الجو المرح ، ولكن هذا لا يعنى بالتالى أن المتشائم لا يستطيع أن يقدم مواقف كوميدية فى حياته اليومية كانسان أو كممثل كوميدى اذا كان من هواة التمثيل . فثمة فئة كبيرة من الكوميديين الناجحين يمكن وضعهم فى نطاق المتشائمين . فالمرارة ، أو الجو القاتم الذى يخيم على الجو النفسى لدى المتشائم يمكن أن ينعكس إلى الخارج فى صيغ تدعو إلى الابتسام أو حتى إلى الضحك . خذ مثالا لذلك الفنان نجيب الريحانى الذى كان فى أدوراه وأيضا فى حياته الشخصية نابيا عن الضحك ، بل إنه كان ينعى على حظه التعس كما أنه كان ينظر إلى الدنيا من زاوية قاتمة . ولعل نجاحه يتمثل ساسا فى أنه كان يطابق بين حياته ومزاجه الشخصيين وبين الأدوار التى كان يقوم بتمثيلها على خشبة المسرح أو فى الأفلام السينمائية . والواقع أن كثيرا ممن يسعدوننا بأحاديثهم ونكاتهم يكونون من

المتشائمين بغير أن نتنبه إلى ذلك . وسبب سعادتنا بهم هو مهارتهم فى عملية القلب ، اذ يخرجون من واقعهم النفسى المرير ما يسر ويضحك . فهم لا يغيرون جوهر حياتهم بل يفتنون فى الصيغ التى يقدمون بها آلامهم وأحزانهم ونظراتهم القاتمة إلى الواقع من حولهم .

الملامح الاجتماعية :

يتضح من تعرضنا لملامح الشخصية المتشائمة أن أصحاب تلك الشخصية لا يمكن أن يكونوا إيجابيين فى علاقاتهم الاجتماعية . ولعل السبب الأساسى فى هذا هو أن الجهاز النفسى المسمى « بالنحن » يكون أضعف لديهم كثيرا من الجهاز النفسى المسمى « بالهُمْ » . ويحسن بنا أن نلقى بعض الضوء على هذين الجهازين النفسيين حتى يتسنى لنا أن نستبين الملامح الاجتماعية التى يتميز بها المتشائمون . الواقع أن الانسان يولد كائنا بيولوجيا لا يحس بالولاء إلى أية جماعة من الجماعات الانسانية ، كما أنه لا يحس بأن ثمة جماعات إنسانية أخرى تقف له بالمرصاد وتكيد له وتتربص به وتخطط للنيل منه أو القضاء عليه . ولكن ما أن ينمو الفرد حتى تجده يحس بالولاء الى بعض الجماعات من جهة ، كما يحس بالا مبالاة أو بالعداء قبالة جماعات أخرى .

والتفسير النفسى لظاهرة الولاء ، ولظاهرة العداء هو نمو جهازين نفسيين على أكبر جانب من الأهمية فى حياة الانسان . أما الجهاز الأول فهو جهاز « النحن » . والجهاز الثانى هو جهاز « الهم » . والفرد يحس بالولاء بواسطة جهاز « النحن » بينما يحس باللآمبالاة أو حتى بالكراهية بواسطة استخدامه لجهاز « الهم » . والواقع أن كلا الجهازين يتكونان تدريجيا كنتيجة لترسب عناصر الحب من جهة ، ونتيجة لترسب عناصر الكراهية من جهة أخرى فى الشخصية . بيد أن كلا من هذين الجهازين ما أن يتم له التبلور والنضج حتى يعمل وحده فى استقلال ودينامية . فبدل أن تنتظر حتى تترسب فى شخصيتك عناصر الحب أو عناصر الكراهية . فإنك باستخدامك لهذين الجهازين الناضجين لديك ، تستطيع أن تحس بالولاء قبالة بعض الجماعات ، بينما تحس اللامبالاة أو بالكراهية قبالة جماعات أخرى . افترض

مثلا أننا خرجنا مع الأصدقاء فى رحلة ووجدنا مكانا مناسبا للعب الكرة ، فاقترح واحد منا بأن ننقسم إلى فريقين وأن نقيم مبارة فى كرة القدم على سبيل التسلية والترفيه عن النفس وإشباع ما يعتمل فى أوصالنا من ميل نحو التعاون ونحو التنافس جميعا ، فقمنا بالفعل بتشكيل الفريقين ، وأقيمت المبارة بما تتضمنه من تعاون بين كل فريق وأفراده من جهة ، وبما تتضمنه من تنافس وتنابذ بين كل فريق والفريق المضاد من جهة أخرى . فهل من الممكن أن يزعم أحد أن عناصر الحب وعناصر الكراهية ، أو بتعبير آخر عناصر التعاون وعناصر التنافس قد ترسبت فى أعماق كل منا تدريجيا قبالة الفريق الذى يلعب فيه بالحب والتعاون ، وقبالة الفريق الذى يلعب ضده بالتنافس والكراهية ؟

الإجابة عن هذا التساؤل واضحة بالطبع فهى الإجابة بالنفى . فما سبق أن تشكل بدخائلنا ، أعنى جهاز « النحن » من جهة ، وجهاز « الهم » من جهة أخرى هما اللذان أخذا يلعبان الدور الأكبر فى دفعنا إلى اتخاذ موقف معين قبالة الفريقين . فليس الحب ولا الكره هما اللذان يدفعان إلى خلق جهازى « النحن » و « الهم » لدى تشكيل الفريقين المتنافسين ، بل إن جهازى « النحن » و « الهم » هما اللذان أشعلا فينا الحب للفريق الذى نلعب فيه ومن أجله ، والكره للفريق الذى نلعب ضده من أجل قهره والانتصار عليه .

وإذا كان هذا هو حال الانسان فى حياته اليومية العادية ، فإننا نجد من جهة أخرى أنه بالنسبة للفرد الواحد من الناس ، فإنه قد ينحو بصفة عامة إلى جانب الحب ، أو قد ينحو بصفة عامة إلى جانب الكره. وبتعبير آخر فإن الانسان قد يكون إنسانا إيجابيا بصفة عامة ، أو قد يكون إنساناً سلبيا بصفة عامة . فإذا ما رجحت كفة الحب فى حياة الانسان ، فإنه يكون متفائلا ، أما اذا رجحت لديه كفة الكره ، فإنه يكون متشائما . ولعلنا لا نزوغ عن الصواب اذا قلنا إن أولئك الذين ترجح لديهم كفة الحب إنما يكونون قد أحرزوا جهازا نفسيا قويا هو جهاز « النحن » بينما يكون الكارهون قد أحرزوا جهازا نفسيا قويا أيضا ولكنه جهاز « الهم » . ولسنا بحاجة إلى أن نثبت وجود كل من هذين الجهازين مُسْبقا قبل مواجهة المواقف المتباينة

فى الحياة . ذلك أن المتفائلين يكونون على أتم الاستعداد لحب الآخرين والتعاون معهم حتى قبل أن يعرفوهم أو يتعارفوا عليهم ، بينما يفعل المتشائمون العكس فيبدون الكراهية حتى لأولئك الذين لم يسبق لهم أن تعاملوا معهم أو عاشروهم .

ولا يخفى علينا أن المتشائم – سواء اختلط بالناس وتعامل معهم أم اعتزل الناس ونأى عنهم – فإنه فى الحالتين يتوجس من الناس ويشك فى نواياهم ولا يعتمد على ما يقطعون له من عهود ولا ما يقدمون اليه من وعود . إنه يحس فى دخيلته بأن جهاز « الهم » هو المسيطر على مقاليد حياته النفسية ، والموجه لدفة حياته الاجتماعية وعلاقاته بالآخرين . وحتى اذا ما حاول المتشائم أن يرتبط بالآخرين فى علاقات ودية وأن يقيم مع غيره صداقة وطيدة ، فإنه يجد نفسه مدفوعا دفعا إلى فسخ تلك الصداقة والقضاء عليها بين لحظة وأخرى . ذلك أنه يحس فى دخيلته أن جهاز « النحن » ضعيف واهن . بينما يجد فى نفس الوقت أن جهاز « الهم » قوى سائد وله الكلمة العليا على عواطفه وأفكاره وتصرفاته .

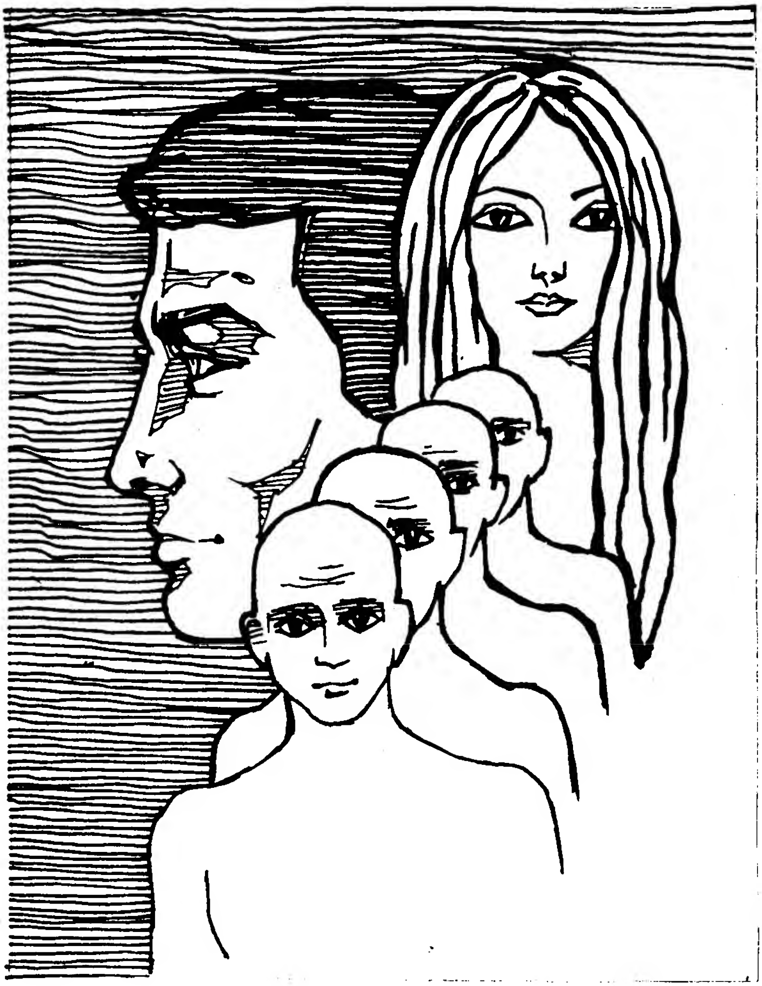
بيد أن المسألة لا تقتصر على هذا الحد ، بل تتعداه إلى المشروعات والأعمال والمسئوليات التى توكل إلى المتشائم أو تناط به أو يطلب اليه إنجازها والنهوض بها . إنه ما يكاد يبدأ حتى يتوقف ، ولا يكاد يخطو خطوة واحدة حتى يرجع خطوتين ، ولا يكاد ينجح فى عمل حتى يخشى الفشل فيه فينكص عنه ويتوقف ولا يرغب فى الاستمرار . ولكأن النجاح الذى واتاه كان وليد الصدفة السعيدة ولا يمكن أن يتكرر فى المرات التالية . ومن ثم فإنه ينكص إلى الوراء . فالنكوص وليس الإقدام هو السمة السائدة على حياة المتشائم . ولعل السبب الرئيسى فى هذا هو ذلك الجهاز النفسى الذى يدفع به إلى حياة التشاؤم. ولعل السبب الرئيسى فى هذا هو ذلك الجهاز النفسى الذى يدفع به إلى العزوف عن الاستمرار فى الإيجابيات والخلود إلى السلبيات فالواقع أن « الهم » يحمل المتشائم على عدم الثقة فى الأشياء كعدم وثوقه فى الأفراد من الناس . فكما أنه قد يعتقد أن الآخرين يمكن أن يخونوه ويخرجوا على حبه ، فإنه فى نفس الوقت يعتقد أن الأشياء يمكن ألا تستقيم معه ، وأن الحظ الباسم يمكن أن يعبس فجأة ، ويستحيل إلى حظ عاثر وإلى شر من الشر كما تحل

الظروف الرديئة محل الظروف السعيدة . ولماذا يستثنى المتشائم نفسه من الناس والأشياء ؟ إذا كان الناس والأشياء قد ضرب عليهم الالتواء والانحراف والخيانة ، فلماذا لا تخونه نفسه وتكون هى الأخرى ملتوية زائغة ؟

وهكذا تجد أن المتشائم شخص قليل الثقة فى نفسه كما أنه قليل الثقة فى غيره . ولكن ما هو أهم من هذا هو عدم رضا المتشائم وعدم قناعته بما حصل وبما يحصل وبما سيحصل . إنه يعتقد أن الفشل والتعاسة والحظ العاثر قد سيطرت جميعا عليه فى الماضى والحاضر والمستقبل جميعاً . ولذا فإنه لا يرضى عن المجتمعات التى سبق أن انخرط بها ، ولا عن المجتمع الراهن الذى يعيش الآن فى إطاره ، ولا عن أى مجتمع إنسانى يمكن أن ينتسب اليه أو سوف يقع فى إطاره فى المستقبل .

والواقع أن الزعامات السياسية المتشائمة هى التى عملت على العدوانية بالداخل والخارج جميعا . فكم من معتقلات فتحت وامتلأت بكل من له رأى مستقل ؟ وكم من حروب شنت وحروب يستعد لها الزعماء السياسيون لمتشائمون بالتخطيط والتدبير؟ ولسنا نغالى إذا قلنا إن كل رائد فى موقع اجتماعى مهما كان : رب الأسرة وناظرة المدرسة ورئيس المصلحة وكل من يقع تحت إمرته آخرون ، يعذبهم اذا كان من المتشائمين . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن التشاؤم ينتشر كالجرب . وكما سبق أن قلنا فإن من السهل أن يتحول الشخص من التفاؤل الى التشاؤم ، ولكن العكس ليس سهلاً . فليس من السهل – ان لم يكن من المتعذر – أن يستحيل المتشائم إلى متفائل .

وخلاصة القول إن الشخصية المتشائمة تنحو إلى السلوك السلبى فى علاقاتها الاجتماعية . وحتى اذا هى تلحفت بالسلوك الإيجابى فإن مثل ذلك التلحف لا يظل قائماً بصفة دائمة بل بصفة مؤقتة ، وذلك لأن دينامية الشخصية المتشائمة تعتمد ، بل وتستمد قوتها من الجهاز النفسى المسمى « بالُهمْ » . « فالهم » تجعل المتشائم نابيا فى علاقاته الاجتماعية مرجحا كفة اللامبالاة والكره على كفة الانتماء والحب .



الفصل الثامن

دور الوراثة فى التفاؤل والتشاؤم

الفصل الثامن

دور الوراثة فى التفاؤل والتشاؤم

هل للوراثة أثر فى التفاؤل والتشاؤم

عندما يتعرض الدارسون للوراثة ودورها فى الكائنات الحية ، فإنهم يركزون ذهنهم وكلامهم على الجانب البيولوجى وحده دون باقى الجوانب الأخرى . فهم يغضون النظر غالبا عن الوراثة النفسية ، ناهيك عن الوراثة الاجتماعية . بيد أن العلماء مع هذا لا يزعمون لأنفسهم أنهم استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن كل ما يتعلق بالعوامل الوراثية وأبعادها ومدى تأثيرها فى الحياة الإنسانية والاجتماعية . ومن هنا فإن ما يقال عن الوراثة غير البيولوجية كالقول بالوراثة المتعلقة بالتفكير واتجاه الوجدان والميول والمواهب والعلاقات الاجتماعية ونحو ذلك ، إنما يندرج فى نطاق الفلسفة الى أن يأتى اليوم الذى تتحقق فيه أو تدحض النظريات المقدمة فى هذا المضمار .

والواقع أن الفلسفة تسبق العلم الطبيعى أحيانا ، وفى أحيان أخرى تأتى بعده . فمثلا عندما قرر انكساغوراس (٥٠٠ – ٤٢٨ ق م) أن الكواكب لا تعدو أن تكون أحجارا ضخمة تناثرت من الأرض وقت أن كانت ملتهبة ، بينما كان معاصروه يقدسون الكواكب ويعتبرونها آلهة مفكرة ، فإنه كان فيلسوفا . ذلك لأنه لم يستند الى براهين حسية يثبت بها ما يقرره ، بل كان يعتمد فى ذلك على عقله . وبعد أن تقدم علم الفلك بما يسانده من مناظير ، وأخيرا بعد أن وصل الإنسان بالفعل إلى سطح بعض الكواكب ، فقد صار ما ذهب إليه أنكساغوراس بالفلسفة واقعيا بالعلم . وإنك لتجد الفلاسفة فى العصر الحديث يجمعون النتائج والقوانين العامة لمجموعة العلوم ويستخلصون منها نظريات عامة لا تنطبق على علم واحد بعينه ، بل تشكل نظرة عامة إلى الوجود والحياة . فإذا قلنا مثلا إن نظرية التطور المتعلقة

بالكائنات الحية تنصب أساسا على علم الأحياء ، وأن نظرية التطور المتعلقة بطبقات الأرض ومراحل تكونها تنصب بصفة أساسية على علم الجيولوجيا ، ونظرية التطور المتعلقة بنشوء وتطور الكواكب تنصب بصفة أساسية على علم الفلك ، فإننا من جهة أخرى نستطيع أن نعثر على فلسفة تجمع جميع النظريات التطورية فى إطار واحد عام وشامل بحيث تتحدد معالم لنظرية تطورية شاملة وعامة يطلق عليها إسم الفلسفة التطورية أو فلسفة التطور .

ومن المؤكد أنه قبل أن يكتشف جريجور جوهان مندل (١٨٢٢ - ١٨٨٤) قوانين الوراثة فإن الناس كانوا يتحدثون عن الوراثة أو كانوا يلاحظون أوجه الشبه بين الأبناء وأسلافهم ، مما كان يحدو بهم إلى التحدث عن الوراثة . ولكن ما كانوا يتحدثون عنه كقوانين لم يكن قوانين علمية بل قوانين فلسفية . ونفس الشيء يحدث لدى تحدثنا عن الوراثة وفعلها وقوانينها فى المجالات المتباينة التى تخرج عن نطاق المحسوسات المعروفة لنا حاليا على الأقل ، والتى يمكن أو لا يمكن الوقوف عليها فيما بعد . والواقع أن العلم حاليا لم يعد يتشبث بضرورة وقوع الأشياء التى تصلح كموضوع للعلم فى نطاق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس مباشرة أو بطريق ما يساعد الحواس الخمس من مكبرات أو مقربات . فثمة مثلا فى علم النفس حاليا ما يعرف بعلم نفس الخوارق ، وهو العلم الذى يتناول الظواهر الروحانية التى لا يشترك فيها جميع الناس أو التى لا تتصل بحياتنا اليومية المعتادة كالتذكر والتصور والادراك والتخيل ونحو ذلك من عمليات ووظائف عقلية متباينة مما يدأب علم النفس التقليدى على النهوض بدراسته .

وفيما يتعلق بتوريث التفاؤل والتشاؤم ، فإن صعوبة التجريب تتبدى فى أن الأبناء ينشأون غالبا فى أحضان أسرهم مما يجعل من العسير تمييز ما يتعلق بالتربية مما يتعلق بالوراثة التى لا دخل للعوامل البيئية فيها . فإذا ما لاحظنا أن أبناء المتفائلين يتفاءلون ، أو أن أبناء المتشائمين يتشاءمون ، فإننا سرعان ما نرد ما نراه من انتحاء إلى التفاؤل أو إلى التشاؤم إلى التقليد والايحاء ولا نتجاسر بأن نعزو ما نشاهده الى الوراثة . ذلك أن الكثير من علماء النفس ظلوا منذ نشأة علم النفس يعمدون إلى

التخفيف من سلطان وجبروت الوراثة ، وذلك لأن مجرد القول بالوراثة معناه الوقوف فى يأس وعجز أمام الظواهر التى تتبدى فيها أصداء الوراثة . ناهيك عن أن نسبة كبيرة من علماء النفس المحدثين كانوا مهتمين فى نفس الوقت بالتربية ، أو أن مصدر اهتمامهم بعلم النفس قد نشأ لديهم أساسا كنتيجة لاهتمامهم بتنشئة الأطفال . والمربى المتحمس لا يحب أن يقف عاجزا أمام أية ظاهرة تتحداه ، بل هو يقدم ببأس ودأب على الصعوبة يتحداها وعلى الظاهرة السلوكية يلوى عنقها تحقيقاً لأهدافه ومراميه .

ولعلنا نستطيع أن نجد لدى أحد تلاميذ فرويد وهو يونج ما يشير الى توارث الأفكار فيما أطلق عليه اسم العقل الجمعى . فالخبرات السالفة لدى البدائيين تنزل إلينا جيلا بعد جيل ، بحيث نجد لبعض النزعات والاتجاهات المعاصرة جذوراً بعيدة للغاية لدى أسلافنا البعيدين جدا . وهذا فى الواقع ليس مباينا لما يمكن الوقوع عليه فى بعض الحالات – وان كانت حالات نادرة – حيث يولد طفل بتكوين خِلْقِى أقرب ما يكون الى الانسان البدائى ، أو ينشأ شخص ما ببيئة عادية ثم يضبط فى وكر بعيداً عن الأنظار وهو يلتهم قطعة من اللحم البشرى . كما كان يفعل بعض القبائل البدائية أكلة لحم البشر cannibals . فإن دلت تلك الحالات النادرة على شيء ، فانما تدل على امتداد الوراثة البعيدة عبر الأجيال المتعاقبة بحيث تطل برأسها من وقت لآخر من شرفة الحياة الإنسانية ، وقد ضربت بالتقاليد الاجتماعية عرض الحائط مبرزة ما كان قائما فى العهود القديمة جدا من تقاليد أو عواطف أو اتجاهات .

واذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للوراثة البعيدة ، فما بالك بالوراثة المباشرة ؟ أليس من الجائز لنا أن نزعم أن الأطفال يحملون فى مقوماتهم الوراثية المعروفة باسم الإرثات genes ما ينم على التفاؤل أو التشاؤم جريا وراء ما كان قائما ومعتملا فى الكيان العضوى لآبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم ؟ وأكثر من هذا ألا يجوز لنا أن نفترض أن المصائب والنوائب والكوارث والصدمات الانفعالية التى يلقاها أحد الأشخاص فى حياته ، يمكن أن تؤثر فى مقوماته الإرثية بحيث يكون ثمة احتمال بأن يتم توارث تلك النتائج الوراثية فتتبدى فى شكل سلوك ، أو على الأقل فى هيئة

استعدادات يمكن – أو لا يمكن – أن تظهر بجلاء فى تصرفات الأبناء والأحفاد ؟ وإذا جاز هذا بالنسبة للخبرات المؤلمة ، فلماذا لا يجوز أيضا بالنسبة للخبرات السعيدة والسارة ؟

ولعلك تجد شواهد لزعمنا هذا اذا اتفقت معنا على أن الشعوب برغم اختلاطها واتصالها بعضها ببعض أشد اتصال وأوثقه ، فإنها ما تزال تتصف باتجاهات واستعدادات خاصة بها شبه ثابتة فيما يتعلق بالتفاؤل والتشاؤم . فالمصريون مثلا لديهم ميل سائد نحو التفاؤل والتشاؤم . وشاهد ذلك ما تجده بالصحف والمجلات من حيِّز يكرس لقراءة الحظ ، أو ما يكتب من حكم أو ما يرسم من رسوم – خمسة وخميسة مثلا – لابعاد النحس ، أو ما يحمله البعض من أشياء تجلب لهم الخير وتبعد عنهم الشر .

واذا قال قائل إن ما يشيع بالشعوب من ميل متفاوت نحو التفاؤل والتشاؤم إنما يرتد فى نهاية المطاف الى التقاليد الاجتماعية وليس إلى المقومات الوراثية ، فإننا سوف نزعم بدورنا أن ثمة نوعين من الوراثة : وراثة بيولوجية ، ووراثة اجتماعية ونفسية وإذا كان سبيل النوع الأول من الوراثة هو المقومات البيلوجية ، فسبيل الوراثة الثانية هو مايسمى بالتشريب indoctrination . والتشريب هو العملية التى ينقل بها الجيل القائم ما يعتز به – أو ما يتبرم به – من قيم واتجاهات وميول وعواطف الى الجيل النابت الذى يمتص ما يقدمه اليه جيل الكبار امتصاصا لاشعورياً ، ثم يبدأ بعد الامتصاص السيكلوجى فى ايجاد المبررات والتفسيرات لما استوعبه وامتصه . ولعلنا نضع التفاؤل والتشاؤم فى هذا الاطار ، فنقول إن الناشئة يمتصون ويتشربون المعتقدات الخاصة بالتفاؤل والتشاؤم من الكبار وبخاصة الوالدين . فإذا أضفنا هذا النوع من الوراثة النفسية الاجتماعية الى الوراثة البيولوجية التى زعمناها وافترضنا وجودها إلى أن يؤكد العلماء وجودها أو إلى أن يؤكدوا عدم وجودها ، فإننا نستطيع خلال ذلك أن نؤكد شدة تأثير الوراثة بنوعيها فى التفاؤل والتشاؤم . ولكن لعلنا بعد هذا نتساءل عن متى وكيف يتم للانسان التغلب على الوراثة فى هذا المضمار لإمرته وتطويعها ؟

متى وكيف يتغلب الانسان على الوراثة ؟

أما عن الموعد الذى سوف يتغلب فيه الانسان على المقومات الوراثية البيولوجية بحيث تتحقق المواصفات المطلوب توافرها فى الأجيال التالية ، فإنه سوف يتحدد عندما يتسنى للعلماء الكشف عن جميع الحقائق المتعلقة بالوراثة . وبعد أن يتسعوا بالوراثة إلى المجالات الإنسانية المتباينة التى ما تزال فى الطور الفلسفى ولم تستحل بعدُ إلى الطور العلمى التجريبى . والواقع أن كل ما استطاع علماء النفس القيام به تجريبيا حتى الآن هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم « تجريب الظروف » وليس « تجريب المضمون الوراثى » . فهم يراقبون الظروف المتعلقة بالوالدين أو الأجداد وعلاقة تلك الظروف بالناتج من الذرية الجديدة . فالدراسات التى تتعلق بمستوى الذكاء مثلا قد انصبت بصفة رئيسية على علاقة مستوى لأبناء بمستوى الوالدين أو بمستوى الأجداد القريبين والأجداد البعدين نسبيا . ولكن التجارب التى تمت لم تجرؤ على إحداث متغيرات فى المضمون الوراثى نفسه ، أعنى فى الارثات (الجينات) التى يحملها الجنين أو الوليد أو الطفل أو الكبير البالغ .

ولكن لسوف يأتى الوقت الذى يصير فيه كلامنا هنا مجرد تحصيل حاصل ، عندما يصير تدخل أخصائيى الوراثة – أو أطباء المستقبل – لمعالجة الارثات الرديئة وإحالتها إلى إرثات صحيحة جيدة . وأكثر من هذا فسوف يأتى الوقت الذى يستطيع فيه العلماء أن يقوموا بعمليتى الحذف والاستئصال للردىء ، والإضافة والاستحداث للجيد .

ومن الطبيعى أن هذا سيتم أولا بإزاء ما يتعلق بالتكوين الجسمى ، ثم يتلو ذلك ما كان متعلقا بالنواحى الوجدانية والعقلية والكلامية والاجتماعية . ومن المتفق عليه حاليا بين العلماء أن ما يفتقده الانسان ويكون خلوا منه لا يمكن أن يبدو فى حياته من قريب أو من بعيد . بيد أن ما يحمله المرء من مقومات وراثية لا يظهر أو يطفو بالضرورة على سطح الحياة السلوكية للإنسان . فقد يكون بداخلى شاعر عبقرى ، ولكن الظروف البيئية التربوية التى أحاطت بى ووقعت تحت تأثيرها لا تسمح لذلك

الشاعر الكامن بداخلي أن يطل برأسه إلى حيز الوجود الواقعي فى حياتى . فلا بد أن تتفاعل المقومات البيئية مع المقومات الوراثية حتى يخرج ما أحمله من مقومات وراثية إلى حيز الواقع .

على أن الإنسان قد بدأ سيطرته على الأشياء بدءاً من الخارج وتدرجا إلى الداخل . فلقد بدأ مثلا بعلاج الكثير من الأمراض عن طريق تناول الأعشاب أو بممارسة بعض العمليات ، على الرغم من أنه كان غير واقف على كُنْه تلك الأعشاب التى استخدمها ولا على مضمون تلك العمليات التى كان يمارسها . وما السحر فى الواقع فى جانب كبير منه سوى مواد وعمليات وممارسات يستخدمها الانسان أو يمارسها بغير أن يقف على المضمون الداخلى لها . فلا بد للساحر من تناول الأشياء والاضطلاع بمجموعة من الطقوس بغير أن يحاول سبر أغوارها أو إدخال أى تعديل عليها .

ولعل الخطوة الخطيرة التى اضطلع بها العلم هى التجرؤ على تناول المادة أو الوسيلة التى كان الساحر يستخدمها بالفحص والتقليب ، بل وبالفصل والتجزىء والاختبار . بيد أن الانسان فى اختباره قد نزع عن نفسه صفة أساسية كان يتذرع بها الساحر وهى الإيمان . فأحل محل الإيمان بالمادة أو الذريعة التى يستخدمها الفرض ثم الملاحظة أو التجريب . فإذا ثبتت صحة الفرض ، فإنه لا يؤمن بل يقتنع . والفرق الجوهرى بين الإيمان وبين الاقتناع هو أن الإنسان المؤمن لا يكون مستعدا للتنازل عما يؤمن به ، أما المقتنع فإنه يكون مستعدا للتنازل عما سبق له أن اقتنع به ليقتنع بشىء جديد إذا كان ثمة جديد يمكن أن يقتنع به .

والإنسان فى محاولاته العلمية قد بدأ بالكبير وانتهى إلى الصغير . ففى الفيزياء مثلا بدأ بما يسمى بالماكروفيزياء Macrophysics قبل أن يسبر أغوار الميكروفيزياء Microphysics فتناوله للفلزات مثلا يدخل فى باب الماكروفيزياء ، بينما تناوله للذرات يقع فى نطاق الميكروفيزياء . وكذا الحال بالنسبة للوراثة . فالتهجين مثلا قد عرف قبل أن يلج الإنسان باب المقومات الوراثية الدقيقة ويوم يلج هذا الباب فإنه يكون قد

انتهى من مرحلة الماكرو وراثة ليبدأ فى مرحلة الميكرو وراثة – إذا صح أن نستعير من مجال الفيزياء لفظى ماكرو (كبير) وميكرو (صغير أو دقيق) .

وعندما يلج الإنسان مرحلة الميكرو وراثة ، فإنه سيكون قادرا عندئذ على تحديد الصفات النفسية والخلقية المرغوبة والصفات النفسية والخلقية المستكرهة ، فيبدأ فى البحث عن وسائل مهاجمة الصفات الرديئة وهى بعدُ فى طور الكمون وما تزال فى عقر دارها . ولعل من بين تلك الصفات الرديئة تلك الصفات المتعلقة بالتشاؤم ، ولعل أيضا ضمن الصفات الممدوحة التى سيجتهد الانسان فى استحداثها تلك الصفات المتعلقة بالتفاؤل .

وإذا كان ما ذكرناه متعلقا بولوج الانسان فى مضمار الوراثة البيولوجية وما يمكن أن تتضمنه من مقومات وراثية جسمية ونفسية وخلقية واجتماعية ، فيصح لنا بعد هذا أن نلقى ببعض الضوء على الوراثة الثقافية التى قلنا فى الموضوع السابق إنها تنتقل بالتشريب والامتصاص المباشر عن طريق الإيحاء والتقليد ، وهما عمليتان لا شعوريتان تجعلان الإنسان أقرب ما يكون إلى نطاق الوراثة البيولوجية . وشاهد ذلك أنك كلما نضجت جسميا وعقليا ووجدانيا واجتماعيا ، وصارت لك الشخصية القائمة بذاتها والمستقلة عمن عداها ، فإنك تكون بمنأى عن التأثر بعملية التشريب هذه ، بل ويكون لك قوامك الثقافى غير القابل للتأثر – الا برغبتك وطوع بنانك – بما يقوله أو يفعله الآخرون من حولك .

والواقع أن الإنسان الحديث يحاول طَرْق باب التشريب المخطط . ذلك أن التشريب الواقع الآن ومنذ أن فتح الإنسان عينيه على المجتمعات الإنسانية إنما يقوم على التلقائية . وحتى ذلك التشريب الذى قامت به بعض المجتمعات مثل مجتمع اسبرطة قديما فى بلاد اليونان ، أو مجتمع الجمهورية عند أفلاطون كما تخيله فى ذهنه ثم فشل فى تطبيقه ، أو المجتمع النازى أو غير ذلك من مجتمعات حاول القادة فيها التخطيط للتشريبات ، فانه لم يكن متضمنا لمعرفة المضمون الداخلى ، بل كان يعالج القشرة الظاهرة من الشخصية الانسانية فحسب .

وما يهفو إليه الإنسان الحديث هو سبر أغوار التشريب كما فعل بإزاء الفيزياء عندما خرج من نطاق الماكرو فيزياء إلى حيز الميكروفيزياء ، وعندما خرج من نطاق الجاذبية الأرضية إلى الفضاء . فلعل المحاولات السابقة للتشريب قد ارتكزت على المحاولة والخطأ ، وذلك بوضع وتحديد المحاولات والوسائل التى يحتمل أن تؤثر فى الشخصية الإنسانية ، تماما كما كان يفعل الإنسان البدائى أو الساحر بازاء تجربة الأعشاب للعلاج من الأمراض المتباينة بغير أن يقف على المقومات الداخلية للعناصر التى تتضمنها تلك الأعشاب الموصوفة وتفاعل تلك العناصر مع المقومات المرضية . فهل يتسنى للإنسان فى المستقبل أن يعزل العناصر المؤثرة فى التشريب بحيث يتحقق بالحتمية لا بالاحتمال ، وبنتائج مقاسة لا بنتائج اعتباطية .

ولعلنا فى المستقبل سوف نجد من بين اخصائيى التربية فئة قد تخصصت فى التشريب ، فلا ينشأ الأطفال على التأثر الاحتمالى بما يقدم اليهم من أفكار أو أنماط سلوكية . بل يكون التأثير بشكل مباشر فى الطفولة . ولعل ذلك يتم عن طريق إيلاج جرعات خِبْرية أو ما يشبه أشرطة التسجيل بالمخ بحيث يتسنى إضافة استعدادات مزاجية وذهنية جديدة لم تكن موجودة ، أو دعم الموجود فعلا عن طريق تلك المقومات أو الخلايا الخبرية الجديدة . ناهيك عما يمكن أن يفيده إنسان المستقبل من علوم سيكلوجية كالتنويم أو التخاطر أو قراءة الأفكار أو غير ذلك . فسوف يستطيع أخصائى التشريب أن يؤثر بطريق مباشرة فى شخصية الانسان فيحيله الى شخصية متفائلة بعد أن يكون شخصية مفعمة بالتشاؤم أو يجعله ينظر الى الماضى بنظرة جديدة ، وأن يبتهج بحاضره ومستقبله .

ولسنا نشك فى أن إنسان المستقبل سوف يتمكن من تخليص الانسانية من كثير من العوامل التى تعمل على إشاعة التشاؤم فى نفوس كثير من الناس . فالعلاقات بين الناس يمكن أن تصير علاقات نظيفة وخالية من عوامل الحقد ، كما يمكن قهر مصادر الأخطار والكوارث والتغلب أيضا على ما يمكن أن يحيق بضمان المستقبل الآمن . ولعل طوق النجاة للإنسان يتمثل أساسا فيما يعرف بعلم تحسين النسل .

هل يتحكم الطب فى الوراثة الجسمية ؟

لقد يعتقد البعض أنه لا توجد أية صلة بين الحالات الجسمية وبين التفاؤل والتشاؤم . فما يبدو فى القطاع الجسمى شيء ، وما يبدو فى قطاع العقل والوجدان شيء آخر . ولكن البعض الآخر من الناس يعتقدون أن الحالات العقلية والوجدانية لا تعدو أن تكون انعكاسا أو صدى لما يعتمل فى المقومات الجسمية من أوضاع وحالات . وأكثر من هذا فإن ثمة فريقا من الناس يعتقدون أن الوجدانات والفكرات ما هى فى الحقيقة سوى حالة من الحالات الجسمية . وهم يشبِّهون الوجدان والفكر بالنار بازاء الخشب . فالنار لا تعدو أن تكون صورة من صور الخشب أو هى استحالة للصورة التى يتبدى فيها الخشب إلى صورة أخرى ، وأنه لا توجد عناصر أو مقومات مضافة إضافة إلى المقوم الأساسى الذى كان قائما قبل حدوث الاشتعال فى الخشب . فالخشب هو هو لم يتغير من حيث جوهره ، بل تغير من حيث مظهره فحسب .

ومهما يكن من شيء فما لا شك فيه أن ثمة علاقة وطيدة بين الخشب والنار ، كما أن ثمة علاقة وطيدة بين الجسم وبين الوجدان والفكر . وسواء قلنا ولم نغال بأن العلاقة بين الخشب والنار أو بين الجسم والوجدان إنما هى استحالة كاملة أو استحالة جزئية ، أو أن الوجدان والفكر إن هما إلا مجرد انعكاس ، أو هما مقومان آخران لهما إنيتهما الذاتية ، فما لا شك فيه أن ثمة صلة وتأثيراً تبادلياً بين الجسم والنشاط الوجدانى والعقلى . فإذا كان الجسم يؤثر فى الوجدان والفكر ، فإننا نجد من جهة أخرى أن الوجدان والفكر يؤثران أيضا فى الجسم .

ولعل من أكثر الشواهد والدلائل على ذلك التأثير التبادلى بين الجسم من جهة والوجدان والعقل من جهة أخرى ما يشاهد من علاقة تبادلية بين الحالات الوجدانية المزاجية والاتجاهات الذهنية وبين كيمياء الجسم . ولعل أوضح المؤشرات الى تلك التغيرات الكيمائية الجسمية هو تغير الاتزان الهورمونى بسبب الزيادة فى إفراز بعض هورمونات الغدد الصم بعضها عن بعض فى الوقت الواحد . ومن المعروف أنه اذا مازادت أو نقصت بعض الهورمونات عن الحد المطلوب للجسم ، فإن انعكاس ذلك

يظهر فى الوجدان والفكر . لقد يحدث تفاؤل فى بعض الحالات وتشاؤم فى حالات أخرى . وكذا فإنه إذا ما تلبس المرء بنوع معين من الوجدان أو بمجموعة معينة من الأفكار ، فإن مثل ذلك التلبس يجد له صدى فى نسبة إفراز الغدد الصم وفى الاتزان الهورمونى لدى المرء .

والواقع أن الطب الحديث يحاول إخضاع الحالات النفسية والعقلية وتوجيهها الوجهات المبتغاة لا عن طريق الاقناع أو تغيير دفة الوجدان بتجاه الطريق المرغوبة ، بل بشىء آخر هو التأثير فى كيمياء الجسم كما ورثها الشخص بواسطة العقاقير. والواقع أن بعض الناس قد عرفوا تلك الحقيقة منذ أمد بعيد ، فعكفوا على معاقرة الخمر وتعاطى المخدرات بقصد الحصول على نتائج نفسية تفاؤلية . ولا شك أن الفارق الجوهرى بين ما يلتسمه الطبُ وبين ما يلتسمه السكير أو مدمن المخدرات كالفارق بين من يقود سيارة بعد علم ودراية بفن القيادة وبين من يقود سيارة وهو لا يعلم عن القيادة شيئا ولم يتمرس بفنها وأصولها . فالأول يفيد من الجلوس الى عجلة القيادة ، بينما يودى الآخر بنفسه ويعرض حياته للخطر . وشاهد ما نقوله هنا هو استخدام الطب للكحول والمواد المخدرة فى أغراض طبية متباينة منذ أمد بعيد حتى قبل ظهور الطب الحديث القائم على أسس علمية دقيقة .

بيد أن الطب القديم والطب الحديث جميعا لم يعمدا الى استخدام الكحول والمواد المخدرة الا فى باب واحد هو التخفيف من شدة الألم . فلدى إجراء العمليات الجراحية أو بتر بعض الأعضاء الفاسدة ، فإن أصحاب الطب القديم والحديث على السواء قد استعانوا بتلك المواد المغيبة التى تخفف من شدة الألم أو تجعل الشخص الذى تجرى له الجراحة عاجزا عن مقاومة مشرط الجراح . ولعل الفتح الجديد الذى بدأ الطب الحديث فى تكريس جهد كبير له هو السيطرة على كيمياء الجسم سيطرة تامة ، بحيث لا تعطى العقاقير الكحولية والمخدرة كعوامل تخفيف مؤقتة سرعان ما يتلاشى تأثيرها ، بل كعوامل تغيير جذرى للكيان الكيميائى الحيوى بالجسم . وفى مثل هذه الحالات لا يكون هدف الطب هو علاج الشخص من مرض ألم به ، أو

لتهيئته لإجراء جراحة له ، بل يكون هدفه هو تغيير حالته المزاجية وطريقة نظرته إلى الحياة وتفسيره للأمور وتقديره للمواقف.

وبذا سوف لا تكون مهمة عالم النفس مقتصرة على رصد الحالات النفسية أو تحديد النمط الذى ينخرط به أحد الأفراد ، بل ستكون مثل تلك الدراسة التشخيصية مجرد خطوة مبدئية تتلوها خطوة إجرائية هى تحويل الفرد من الناس من نطاق أحد الأنماط الى نطاق نمط آخر.

وإنك لتجد اليوم أن الطب النفسى اذا ما استخدم العقاقير ، فإنه يستخدمها لمجرد التهدئة أو لاستحداث حالات مزاجية طارئة ومؤقتة ومخففة . ولكنه لا يجرو على الزعم حتى الآن بأنه سيقوم بتغيير كيميائية الجسم تغييرا جذريا بحيث تتحقق أهداف وجدانية وعقلية معينة . وحتى بالنسبة للعقاقير المهدئة والمخففة فإنها تستخدم اليوم بحذر شديد خوفا من حدوث ردود فعل تنتكس بالحالة وتزيد الطين بلة . واعتقادنا هو أن اقتحام الطب لمجال التغيير الجذرى لكيمياء الجسم بقصد تغيير أو ضبط الحالة المزاجية والعقلية للإنسان وَفْق خطة موضوعة وحسب هدف مرسوم سوف يشكل فتحا جديدا فى مجال الطب النفسجسمى لا يقل خطورة عن اكتشاف باستير للقاح الواقى من بعض الأمراض والذى يكسب الجسم مناعة ضد الإصابة بها وانتقال العدوى اليه . ولسوف يكون هذا الفتح الطبى الجديد محققا لأكبر قسط من السعادة لكثير من بنى الانسان ، وذلك لأنه سيكون بمقدور الطبيب أن يخرج مريضه من إطار فئة أو نمط نفسى الى فئة أو نمط نفسى آخر.

وأما المجال الثانى الذى ينتظر الطب فهو جراحة المخ . لقد وقفت جهود الطب حتى الآن عند استخدام جراحة المخ للتخلص من الأورام أو الخراريج أو لاستخراج شظية تكون قد نفذت فى حادث إلى داخل المخ . ولكن الجراحات لم تتطرق إلى موضوع تغيير المزاج الشخصى أو طريقة النظر إلى الأشياء واتخاذ المواقف أو انتهاج طريقة معينة فى التفكير. بيد أن المصادفة – كما يقول الكسس كارل فى كتاب له بعنوان « الإنسان ذلك المجهول » – قد كشفت النقاب عن أثر الجراحة فى المزاج العام وتفكير المرء . ذلك أن أحد العمال فى إحدى ورش الخراطة قد تطايرت شظية

بالورشة لتستقر فى مقدمة مخه ، وكان لابد من إجراء عملية جراحية له لإخراج الشظية . وبعد أن أجريت العملية الجراحية بالمخ واضطرار الطبيب الجراح إلى استئصال جزء صغير من المخ الذى استقرت به الشظية وشفاء الرجل . فقد لوحظ أن ذلك الشخص قد استحال إلى شخصية أخرى تماما . وبتعبير آخر فإن الجراحة التى أجريت له قد أخرجته من نطاق نمط سيكلوجى إلى نطاق نمط سيكلوجى آخر .

وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الطب سوف يتجه إلى مجال جديد هو مجال « تجميل الشخصية » ، وذلك عن طريق الجراحات التى يمكن اجراؤها بالمخ . فإذا كنت ذا مزاج تشاؤمى وترى الحياة بمنظار أسود كالح ، فإنك سوف تتوجه إلى الطبيب فى المستقبل لكى يجرى لك جراحة بالمخ تدفع بك بعد الشفاء إلى شاطئ السعادة والاستبشار . ذلك أن جراحى المستقبل سوف يحددون كل منطقة بالمخ يمكن أن تتأثر على نحو أو آخر إذا ما أجرى فيها مشرطه . ولسوف يتم التحكم فى المزاج وفى طريقة التفكير لا بواسطة التحكم فى كيمياء الجسم فحسب ، بل وعن طريق التحكم فى الجهاز العصبى أيضا عن طريق مشرط الجراح أيضاً .

ولعل المجال الثالث الذى سوف يشقه الطب مستقبلا هو تحديد الأطعمة والأشربة التى تعمل فى المدى البعيد أو فى المدى القريب على تغيير الملامح الوجدانية والعقلية للشخصية . ولعل التساؤل سيتجه وجهات جديدةً بإزاء تأثير الأطعمة والأشربة . فبدل أن يقتصر التساؤل عن المفيد والضار للصحة الجسمية ، فإنه سيتجه إلى مجال آخر هو محاولة الكشف عن مدى تأثير هذا أو ذلك من الطعام أو الشراب فى الحالة المزاجية وفى استحداث حالة التفاؤل أو حالة التشاؤم لدى المرء .

الوراثــة الوجدانيــة :

على الرغم من أن بعض الدارسين لعلم النفس قد جعلوا الوجدان وأيضا العقل مجرد صدى للحالات الجسمية . أو بتعبير أدق أنهما لا يعدوان أن يكونا مجرد وظائف يضطلع بها المخ وأنه لا يوجد شئ يسمى وجدان بل هناك عمليات وجدانية ، كما أنه لا يوجد شئ يسمى عقل ، بل هناك عمليات عقلية ، فأننا نستطيع

أن نقول ان الغالبية العظمى من الدارسين قد أناطوا بالوجدان والعقل كينونة قائمة بذاتها وأن كانت كينونة كل منها مترتبة على الكينونة الجسمية وغير منفصلة عنها . وحتى إذا نحن أخذنا بتشبيه الوجدان والعقل بالنار ، وتشبيه الجسم بالخشب ، وقلنا إن النار هى صورة من الصور التى يتلبس بها الخشب ، فأننا فى نفس الوقت ومن جهة أخرى يجب أن نقول إن الخشب المحترق كخشب مازال ولم يحترق بعد له كينونته القائمة بذاتها ، كما أن النار المشتعلة فى جانب منه لها كينونة أخرى ليست بخشب بل هى نار من نار .

ولقد نستطيع القول بأن الوجود المتمايز والقائم برأسه لكينونة ما من الكنيونات يمكن أن ينبثق عن وجود آخر . فالماء والأوكسجين وجودان متمايزان يسبقان وجودا آخر مستقلا وقائما بذاته هو وجود الماء . والماء حالة من حالات اتحاد الأوكسيجين والايدروجين . بيد أن كينونة الماء لا تقل فى جوهريتها وقوامها المتمايز والمستقل عن وجود كل من الأوكسجين والأيدروجين . ولكن هذا لا يحول دون القول بأن الماء حالة من حالات اتحاد الاوكسجين والايدروجين اذا ما افترضنا أن من الممكن أن يتحد الاوكسجين والايدروجين على نحو آخر غير اتحادهما فى حالة التميؤ (نعنى حالة الاستحالة الى ماء أن جاز التعبير) .

وهكذا نخلص الى أن للوجدان كيانا قائما بذاته بحيث نستطيع أن نتحدث عنه ككيان قائم بذاته ومستقل عن غيره.وأكثر من هذا فأننا نستطيع أن نقول إن وجـــدان الخلف هو امتداد واستمرار لوجدان السلف . واذا صح هذا فيكون معناه اذن أن ثمة وراثة وجدانية ، كما أن ثمة وراثة جسمية . صحيح أن من الصعوبة بمكان إحالة كلامنا هذا الى عبارات علمية ولكن ليس من المتعذر سوق الحديث فى عبارات فلسفية . ولقد سبق أن قلنا إن الفلسفة سابقة على العلم وممهدة له الطريق . وبتعبير آخر فأن من الممكن أن يأتى عالم تجريبى يحيل ما نسوقه هنا كفلسفة الى علم . وهل هذا فيه إغراب ؟ ألم يقم علماء النفس باحالة الكلام عن الذكاء من النطاق الفلسفى الى النطاق العلمى بعد أن وضعوا معايير رقمية للذكاء وللعمر العقلى ؟

والواقع أن الاتجاه العام الشائع اليوم بازاء الحديث عن الحياة الوجدانية يتحيز تحيزا أعمى الى الاكتساب وينبو نبوا يكاد يكون تاما عن الوراثة . فالشائع هو القول بأن الحياة الوجدانية العاطفية برمتها تخضع للظروف البيئية والتربوية التى تغلف الفرد من الناس ، ولا تأثير من قريب أو من بعيد للمقومات الوراثية فى هذا الصدد والحقيقة التى لا محيص عنها هى أن كل ما يتبدى فى حياة المرء الواقعية لا ينشأ عن عدم ، بل هو مجرد تفتيق لكيان مطمور فى طيات الشخصية . فالشجرة بتفصيلاتها كانت موجودة مُسْبقا فى البذرة ، والانسان فى تمام نضجه الجسمى والعقلى والوجدانى إنما كان بتفصيلاته الوجودية موجودا لحظة تكوين الجنين الأولى ، ولكن البيئة هى التى تسمح بالنمو أو بالتفاعل بين الكيان الجامع للتفاصيل الكامنة وبين عوامل الزيادة والتفتيق . ولقد تكون المقومات البيئية صالحة للنمو والتفتيق ، كما قد تكون تلك المقومات فاسدة بحيث تحول دون النمو الكامل أو التفتيق السليم أو بحيث تنحرف بالنمو والتفتيق فينشأ الفرد معوجا فى جانب أو أكثر من جوانب شخصيته.

فليس بدعا اذن أن نقرر أن حياتك الوجدانية موروثة من حيث هى استعدادات ، ولكن من الخطأ والخطل أن نقول إن ملامح تلك الحياة الوجدانية وطريقة نموها مقررة بالوراثة . والصحيح فى الواقع أن نقول إن الوراثة متسعة النطاق ومفعمة بالكثير جدا من المتغيرات Variabilities التى يتسنى للبيئة أن تختار من بينها لتنشطها وترعاها وتغذيها وتهيىء لها أسباب النمو والنضج . من هنا نستطيع أن نقف على الحرية والسلطان اللذين تتمتع بهما العوامل البيئية والتربوية ولعلنا لا نجاوز الصواب اذا قررنا أن الحياة الوجدانية مليئة بالمتناقضات . والواقع أن فرويد كان له الفضل فى الكشف عن مثل هذا التناقض حتى فى حياة الكبار . فالحب والكراهية متلازمان . والرغبة فى الموت والرغبة فى البقاء أيضا متلازمان . ومعنى هذا أن ما هو مغروس فينا بالفطرة ، أو ما ورثناه عن آبائنا وأمهاتنا وأجدادنا وجداتنا القربيين والبعدين إنما هو خصب أشد الخصوبة لدرجة أنه يجمع الشىء ونقيضه . ولكن التربية والمقومات البيئية هى التى تؤثر فتخرج البعض من تلك المقومات الوراثية الى حيز الواقع ، بينما تبقى بعضها الآخر مطمورا لا يتسنى له الاطلال برأسه الى

خارج منطقة الكمون الوراثية – اذا صح التعبير ولقد تعمل البيئة والتربية على التأثير فى الشيء ونقيضه ولكن يكون تأثيرهما فى واحد من النقيضين أقوى من تأثيرهما فى الآخر، فيتبديان كلاهما على سطح حياة المرء ولكن بقوتين متباينتين.

ويجب أن نلاحظ أيضا أن البيئة والتربية تحددان الموضوعات التى تلتف وتتبلور حولها الوجدانات. ذلك أن الوجدان – كما سبق أن قلنا – بمثابة الخامة التى تصنَّع منها العواطف. فالناس الذين أوجه إليهم الحب أو الكره – وكذا الأشياء والأفكار والمبادىء والعلاقات إنما هم موضوعات تجعل أمامى لكى أدير حولها النسيج الوجدانى الى أن يتم لذلك النسيج التبلور بحيث تصير هناك صبغة وجدانية شبه ثابتة هى ما يطلق عليها اسم العاطفة. والعاطفة التى تتكون إما أن تكون عاطفة إيجابية بالحب، وأما أن تكون عاطفة سلبية بالكره.

فالوراثة اذن لا تتعلق بهذا الموضوع أو ذاك بعينه. فلا أستطيع أن أزعم مثلا أن حب الشاعر للشعر متعلق بالوراثة، ولكنى أستطيع أن أؤكد أن الشاعر لديه مقومات وارثية جمالية تتعلق بالانسجام الصوتى. والانسجام الصوتى قد يتمثل فى الشعر أو فى أى شئ آخر كالموسيقى أو الخطابة أو غير من أصوات تتعلق بالانسجام الصوتى. ومعنى هذا أن الوراثة الوجدانية هى وراثة عامة وليست وراثة متخصصة فى جانب بالذات. ولكن اذا كنت أحمل إثارثات تتعلق بالانسجام الصوتى، وكان والدى قد حمل فى مقوماته نفس ذلك النوع من الارثات ووجهها الى الشعر فصار شاعرا، فالمتوقع والأرجح أنى سأقفو والدى وأضرب فى مجال الشعر بسهم أو بآخر. ولكن قد يكون شعر والدى مما لا يتفق وذوقى ولا يرقى الى مستوى إعجابى، فأوجه ما لدى من مقومات وراثية الى شئ آخر يتعلق بالانسجام الصوتى كالموسيقى أو الخطابة مثلا.

وبالنسبة للتفاؤل والتشاؤم، فأن ما قد أحملة من إرثات تفاؤل أو إرثات تشاؤمية لا يمكن أن ينصب على موضوعات بعينها بادىء ذى بدء وقبل ميلادى.

ولكن البيئة والتربية هما اللتان تعملان على توجيه إرثاتى الى ما أتفاءل به أو الى ما أتشاءم منه . ولقد أحمل مقومات وراثية تفاؤلية وأخرى تشاؤمية فتعمل التربية على إخراجها الى حيز الوجود جميعا ولكن بقوتين غير متساويتين لقد أجد نفسى أكثر ميلا الى التفاؤل أكثر من ميلى الى التشاؤم . ولكن فى الحالتين فأن مجرد وجود تلك المقومات الموروثة . سواء كانت مقومات لا تكفى لجعلى متفائلا أو متشائما ، فلا بد من تغذية وتنمية الموروث وجعله يتفاعل مع المقومات والموضوعات البيئية حتى يستحيل ما لدى بالقوة الى وجود فعلى بائن وفعلى فى حياتى .

والواقع أن الانسان فى محاولاته حتى الآن للتعامل مع المقومات الوراثية الوجدانية لم يفعل سوى تقديم مؤثرات بيئية وتربوية يعتقد أنها صالحة لنمو أو لاعاقة نمو المقومات الوراثية . فهو يحاول التأثير ايجابيا فى المقومات الموروثة الجيدة ، كما يحاول التأثير سلبيا فى المقومات الوراثية الرديئة . بيد أن علماء الوراثة لم يجرؤا حتى الان - أو لم يقدروا - على التأثير فى الكيان الوراثى الوجدانى نفسه لدى الفرد . ولكن من المؤكد أن الانسانية فى سبيلها الى ذلك بعد بدء عصر انسان الأنابيب . وبعد أن يتسنى لأنسان المستقبل القريب أو المستقبل البعيد أن يسبر أغوار الوراثة ويقف على دينامياتها ووسائل التحكم فيها وتوجيهها . وكما فعل الانسان بازاء الدمج النووى ومحاولاته الراهنة فى التحكم فى الطاقة النووية والافادة منها حسب الطلب فى المجالات المتباينة فأنه بلا شك سيفعل ذلك بازاء التحكم فى الوراثة الوجدانية فى القريب العاجل أو فى البعيد الآجل .

الوراثة العقلية :

اذا كان علماء النفس قد احرزوا نجاحا ضئيلا فيما يتعلق بالوقوف على الوراثة لوجدانية من حيث نوعية قوانين انتقالها من السلف على خلف ، فأنهم قد نجحوا الى حد بعيد فى الوقوف على الوراثة العقلية وبخاصة فيما يتعلق بانتقال الذكاء والقدرات العقلية الى الأجيال التالية ، بل وفى تحديد النسبة التى ينتقل بها ذكاء من الوالدين الى أبنائهم .

بيد أن علماء النفس ما يزالون فى موقف المتفرج على ما يتم بالوراثة وانتقال ذكاء الوالدين الى أبنائهم بغير أن يحاولوا التأثير فى مستوى الذكاء . فواحد مثل جالتون (١٨٢٢ – ١٩١١) الذى اشتهر ببحوثه المتعلقة بالوراثة ، والذى اقترح قيام علم جديد هو علم تحسين النسل eugenics لم يخرج فى مفهومه الخاص بذلك العلم عن حدود استبعاد منخفضى الذكاء من لعبة الانجاب ، وقصر انتاج النسل الجديد على الأذكياء ومتوسطى الذكاء وحدهم . ذلك أنه لم يفكر لحظة واحدة فى امكان التغلب على ما يحمله الوالدان من مقومات وراثية عقلية غير مواتية ، ولم يطمع بحال فى أن يتحدى العلم سلطات الوراثة وذلك بأن يتدخل ويهاجم الارثات غير المواتية فى عقر دارها وأن يشجع ويشدد الارثات الجيدة ويؤازرها ويأخذ بيدها .

والواقع أن الأفق الجديد الذى سيكون اكتشافه فى مستوى أهمية اكتشاف الطاقة النووية والتحكم فيها أو الانخلاع من قيود الجاذبية الأرضية والوصول الى الفضاء الخارجى والحط على سطح القمر والكواكب الأخرى ، هو أفق الارثات لا من حيث جمع الحقائق حولها أو دراسة نظامها أو وصف مجرياتها أو تحديد القوانين التى تخضع لها ، بل من حيث التحكم فيها وتوظيفها الخاضع لاهداف معينة ومرام مرغومة يبتغيها الإنسان لصالحة . ويوم يتحكم الإنسان فى المقومات الوراثية وبخاصة ما كان متعلقا بالذكاء والقدرات الخاصة ، فأن ما ينظر اليه اليوم من شذوذ أو تدهور فى جانب ما من جوانب الوراثة سوف يعتبر عرضا مرضيا يمكن التخلص منه وعلاج المصاب به بعقاقير معينة أو بجراحات خاصة أو بتناول أغذية وأشربة معينة أو تعاطى بعض الجرعات من الكهرباء أو من نوع معين من لاشعاعات .

وإذا ما تحقق هذا فلسوف نجد أن ما يصيب الانسان اليوم من تخلف عقلى . وهو ما يعبر عنه بالكم العقلى – أو ما يصيب الانسان من اعوجاج عقلى – وهو ما يعبر بالكيف العقلى – سوف يعتبر عرضا زائلا يمكن التغلب عليه . وبذا فأنك سوف تذهب مع ذويك الى الطبيب فى المستقبل لكى يصف لك أقراصا لتقوية

العقل أو لتصحيح طريقة التفكير. ومن المحتمل أن يشخص طبيب المستقبل التشاؤم باعتبار أنه اعوجاج عقلى أو باعتبار أنه عرض مرضى يمكن للمصاب به أن يتخلص منه وذلك باتباع نظام معين فى الغذاء والنوم ، وبالانتظام على تناول جرعات معينة من عقاقير سيكون انتشارها بالأسواق كانتشار الأسبرين. وبذا فأنك سوف تجد أن محاولة اقناع المتشائمين بالاقلاع عن تشاؤميتهم سوف يبطل الأخذ بها ، ولسوف ينظر الى من يمارس مثل تلك المحاولة كمن يحاول اقناع الشخص المصاب بالحمى بأن يقلع عن المرض وأن يشفى بالنصيحة والاقناع.

ومن الحقائق المعروفة أنه كلما كان الكائن الحى أقرب من حيث تكوينه من وقت حدوثه كان التأثير فيه أفعل وأدوم. وعلى العكس من ذلك فأن التأثير فى الكائن الحى كلما تأخر عن وقت التكوين الأول ، كان ذلك التأثير أقل نجوعا وأقصر مدى. ولنضرب أمثلة توضح ما نقصده. نقول إن التأثير فى مقومات طفل عمره شهر واحد ، أنما يكون أقل نجوعا وأقصر مدى من التأثير فى مقومات طفل بعد ميلاده مباشرة. ومن جهة أخرى فأن التأثير فى الجنين الذى بلغ عمره شهرين مثلا يكون أقوى وأدوم من التأثير فى نفس الجنين وقد بلغ من العمر سبعة أشهر.

وإذا صح هذا فأننا نستطيع اذن الانتهاء الى القول بأن التأثير فى مخ الجنين كلما كان فى وقت مبكر ، كان هذا أدعى الى التفاؤل فى فاعلية التأثير واستمرارة. وبتعبير آخر فأنه كلما كان مجال التاثير أكثر قربا من الحالة الوراثية البحتة ، كان اذن تأثيرا أقوى وأدعى الى الاستمرار والفاعلية منه اذا ما ابتعد عن الحالة الوراثية.

بيد أنه ينبغى أن نقرر أن عزل المقومات الوراثية عن المقومات البيئيه فى حياه الانسان إنما هو عزل مصطنع وبعيد عن الواقع. ذلك أن ثمة ما يمكن أن نسميه بالتفاعل التراكبى المستمر بين آخر حالة وصل اليها الكائن الحى – وهو هنا الانسان – وبين المؤثر البيئى الجديد الصالح لأن يتفاعل معه. فأنت عندما تقرأ هذا

الكلام المسطر أمامك هنا وتفاعلت بقراءته فان تفاعلك لا يتم بين ما ورثته من ذكاء أو قدرات خاصة عقلية خاصة وبين ما تقوم بقراءته ، بل الصحيح أو نقول إنك تتفاعل بجماع جهازك العقلانى الذى تشكل لديك نتيجة السلسلة الهائلة من التفاعلات الذهنية منذ اللحظة الأولى الذى ولدت فيها ، أو حتى قبل ذلك فى تلك البيئة التى تسمى بالبيئه الحشوية . ذلك أن التفاعلات العقلية تتم على مستويين : مستوى لا شعورى بالمعنى العام للكلمة وليس بالمعنى الفرويدى ، ومستوى شعورى واع . ولعل هناك - بل هذا ما نؤكده - ما يسمى بالتفاعلات الذهنية اللاشعورية تتم والانسان بعد فى المرحلة الجنينية .

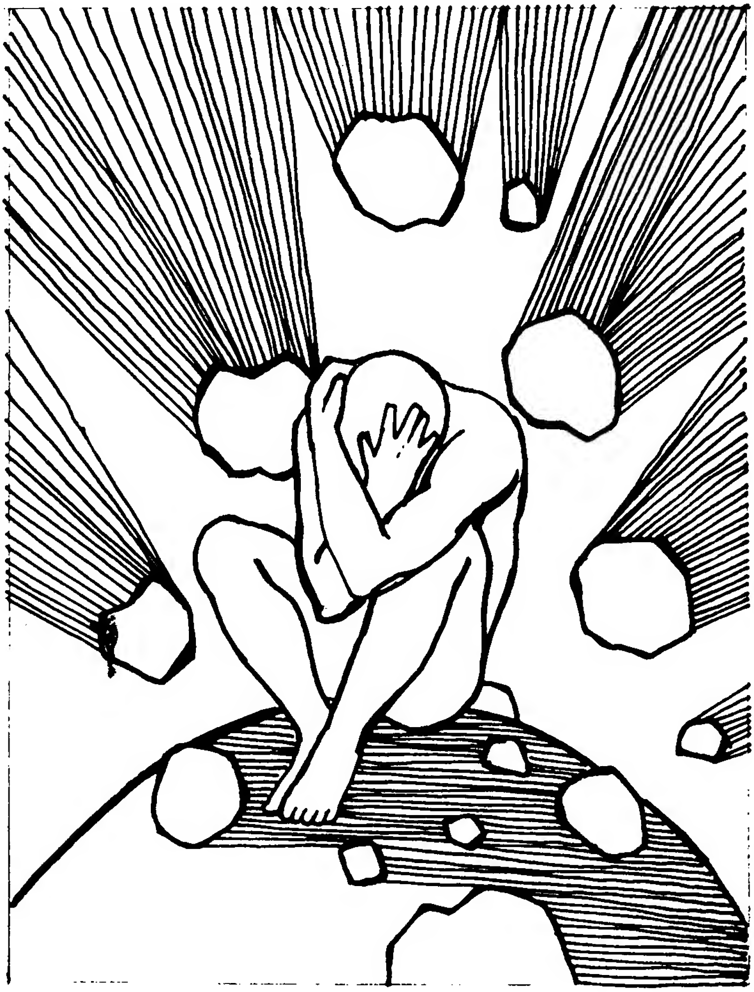
وليس من المعقول فى الواقع أن نقصر مجال التفاعلات الذهنية على ما بعد الميلاد . ذلك أن ثمة بالضرورة مرحلة هائلة من الإعداد الذهنى للعقل ومراكز الادراك الحسية قد أخذت طريقها ونافحت لتحقيق وجودها الشعورى خلال تلك المرحلة الجنينية لكى تكون مهيأة للمرحلة الجديدة التالية ، أعنى مرحلة الطفولة الأولى . وليس من المعقول أن يفجأ الوليد من حوله بعد أيام قليلة من ميلاده بأن يدرك بعض الأشياء التى تحيط به . ألم يحدث نمو داخلى لا شعورى والطفل بعد فى بطن أمه لتلك الأجهزة الحسية والمراكز الادراكية بالمخ قبل أن تبدأ فى ممارسة وظائفها الشعورية ؟

والواقع أن مجرد القول بوجود وراثة عقلية قبل تكوين الجنين فى مقومات الأب والأم ثم تبدى تلك المقومات منذ اللحظة الأولى من تكوين الجنين ، يعنى أن تلك المقومات قد بدأت فى النمو والتفتق . وليس من المعقول أن نفترض استمرار كمون تلك المورثات العقلية الى أن يولد الطفل . والأصح هو القول بمرحلتين للنمو العقلى : مرحلة لاشعورية أشبه ما تكون بنمو العضلات فى الناحية الجسمية - ومرحلة شعورية واعية تتبدى فى تفاعل ما تنتهى اليه الكائن الحى من نضج لا شعورى وبين المقومات البيئية الجديدة . ولقد نقول أيضا إن ثمة تفاعلات لا شعورية بنفس المعنى الذى نحدث اليه هنا وبين بعض المقومات البيئية يحدث حتى فى حياتنا نحن الكبار . ناهيك عن التفاعلات الذهنة

الداخلية التى تتم بين مقوماتنا الذهنية وخبراتنا التى حصلنا عليها بعضها وبعض .

وليس يخاف أن الانسان يبدأ من حالة اللاتمايز واللاتخصص الى التمايز والتخصص . ففى المراحل الأولى القريبة من حالة المقومات الوراثية البحتة ، لا يكون ثمة تمايز بين الوجدانى والعقلى . ولكن كلما قيض النمو للمرء ، فان ثمه تمايزاً وتخصصا يتأكدان فى حياته . فيتباين الوجدانى من العقلى . ولكن يظل ثمة تواز بين الحياه الوجدانية والحياة العقلية . فكما أننا نجد فى الحياة الوجدانية قطبين اساسيين هما الحب والكراهية - وهما القطبان اللذان نشآ عن قطبين حسيين هما اللذة والألم فاننا نجد فى الحياة العقلية قطبى الحق والباطل ، أو الأفكار التفاؤلية الايجابية والافكار التشاؤمية السلبية . ولعلنا نقول إن ثمة خطاً تطوريا يبدأ من اللذة ويمر بالحب وينتهى إلى التفاؤل ، وهذان الخطان التطوريان يبدآن من المستوى البيولوجى ويمران بالمستوى الوجدانى وينتهيان إلى المستوى العقلى .

وطالما أن من الممكن اقتحام مجال الوراثة فى المستوى البيولوجى ، فيكون من الممكن أيضا اقتحام مجال الوراثة فى المستويين الوجدانى والعقلى . ويكون من الممكن - ولو فى المستقبل البعيد - التأثير فى الوراثة العقلية إما بالطريق المباشر وإما بالطريق غيرالمباشر . والطريق المباشر يتمثل فى التغيير العضوى بجهاز التفكير أعنى المخ . أما الطريق غيرالمباشر فأنه يتمثل فى التأثير فى الجهاز المعرفى للمرء . أعنى فى آخر مستوى وصل اليه الشخص . وذلك على أساس أنه كلما أثرت فى المركب الخبرى للشخصية . فأنك تكون قد اثرت بالتالى فى المقومات الوراثية العقلية بشكل غير مباشر .



الفصل التاسع

دور البيئة فى التفاؤل والتشاؤم

الفصل التاسع

دور البيئة فى التفاؤل والتشاؤم

اثر الأسرة :

لا شك أن للأسرة أثرا بعيد المدى فى تشكيل شخصية الطفل ووجدانه ، وفى مدى تلبسه بالتفاؤل أو بالتشاؤم . بيد أن الاعتقاد فى أن الطفل بمثابه مرآة عاكسة لما يصدر اليها من صور ، إنما هو اعتقاد خاطئ كل الخطأ ، وإن كان قد ساد وما زال يسود على كثير من العقول ويوجه الكثير من الآباء والامهات فى علاقاتهم بأبنائهم . ولعلك تدهش إذ تجد شخصاً قد نشأ فى أسرة متدينة ولكنه لا يتمسك بالدين على الاطلاق ، أو تجد أسرة لا تأخذ بالدين فى قليل أو كثير من حياتها وعلاقاتها ، ولكن ابنا أو بنتا من أبنائها يتمسك بالدين إلى درجة يمكن أن توصف بأنها إيمان جارف أو استمساك شديد بتفاصيل الدين ووصاياه . وأكثر من هذا فانك قد تجد أبا سكيرا وابنه أو ابنته لا يذوقان الخمر ، أو أبا أو أما معوجة السلوك جنسيا ، ولكن أبنا أو بنتا لهما لا ينتحيان نفس المنحى بل يتمسك الواحد منهما بتلابيب الشرف والعفة والبعد عن الدنايا الجنسية . وعلى العكس فإن الأب والأم قد لا يكونان سكيرين أو لا يقربان الخمر على الاطلاق ويتعففان فى مسائل الجنس ويسلكان سلوكا مشهودا له بالاستقامة ولكن البعض من أبنائهما وبناتهما قد ينحرفون سواء بتجاه الخمر أم بتجاه المسائل الجنسية .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ثمة نوعين متباينين من التأثير يمكن أن تؤثر به الأسره فى الطفل : النوع الأول – هو التأثير الايجابى الذى فيه يكون نوع التأثر مشابها لنوع المؤثر ، أو حيث يكون سلوك الطفل الناجم عن تأثير الوالدين مشابها ومنسجما مع سلوكهما ومطابقا لهما على نحو أو آخر . أما النوع الثانى من التأثير فهو التأثير السلبى حيث يأتى تأثر الطفل على نحو عكسى . وعلى الرغم من أن هذا

النوع الأخير من التأثير السلبى شائع بنفس القدر الذى يشيع به النوع الأول الإيجابى ، فقد دأب الناس منذ القدم على التأكيد بأن الأبناء يأتون كنسخ مطابقة أو مشابهة على الأقل لآبائهم وأمهاتهم . ولعل الإغضاء عن هذا النوع من التأثير واعتباره شذوذا عن القاعدة قد نجم عن الغموض الذى يكتنفه بحيث لا يسهل التفسير . وأنت تعلم أن كل ما يغمض ويعسر تفسيره يلقى الإنكار من جانب غالبية الناس ويشيحون عنه مؤكدين عدم وجوده ، أو إذا هم اعترفوا له بالوجود فإنما هم يؤكدون فى اعترافهم بأنه شذوذ عن القاعدة التى يجب ألا يعترف إلا بها .

والواقع أن هذا ينسحب أيضا بازاء التفاؤل والتشاؤم . فالآباء والأمهات المتفائلون قد ينقلون تفاؤلهم إلى أبنائهم وبناتهم وقد لا ينقلونه إليهم ، بل قد يأتى أولئك الأبناء والبنات متشائمين كأشد ما يكون التشاؤم . وعلى العكس أيضا فاننا نجد أن الآباء والأمهات المتشائمين قد ينجبون أبناء وبنات متشائمين ، وقد يأتى أبناؤهم وبناتهم متفائلين . والمسأله تتوقف برمتها على نوعية جهاز الاستقبال التأثرى لدى الطفل .

ولعلنا نزعم بحق أن الناس ينقسمون إلى فئتين أساسيتين : فئة لديها جهاز استقبالى تأثرى إيجابى أو تقبلى ، وفئة لديها جهاز استقبالى تأثرى سلبى أو رفضى . والنوع الأول أو الفئة الأولى يتأثرون بآبائهم وأمهاتهم ، بل ويتأثرون فى حياتهم اليومية بمن يقابلونهم من شخصيات ويأخذون عنهم ويتقبلون منهم . أما أفراد الفئة الثانية فانهم يرفضون التأثر بغيرهم ويتخذون موقفاً مضاداً لما يوجه إليهم ويقفون الموقف المضاد أو العكسى لما يقدم إليهم . فإذا كان المقدم اليهم أبيض فانهم يرفضونه ويختارون الأسود ، وإذا كان السلوك المقدم أمامهم سلوكا متفائلا ، فإنهم يرفضونه ويقع اختيارهم على السلوك المتشائم . وإذا كان السلوك المقدم اليهم ينم على التشاؤم فانهم يرفضونه ويقع اختيارهم على السلوك الذى ينم على التفاؤل .

ولقد يفسر تكوين الجهاز التأثرى فى ضوء الوراثة كما قد يفسر تكوينه فى ضوء خبرات الطفولة الأولى ، فيقال مثلا إن الطفل الذى عومل بحدب وقد أشبعت جميع مطالبه وحاجاته ولم يعامل بقسوة مِن قِبَل الكبار من حوله ، فإنه ينشأ شخصا

متفائلا . وعلى العكس فإن الطفل المحروم من إشباع وتلبية مطالبه وقد أخذ الوالدان والكبار من حوله فى معاملته بالقسوة فإنه ينشأ وقد تلبس بجهاز تشاؤمى .

وهناك من الأسر من تتقوقع على نفسها فى جانب أو أكثر من جوانب حياتها . فمثل تلك الأسر المتقوقعة تعمل فى الغالب على عزل أطفالها عمن عداهم من أطفال وتضربهم بالشك فى نوايا الآخرين أو فى أفكارهم أو فى قيمهم . وهناك من جهة أخرى أسر متفتحة وغير منعزلة عن الأسر الأخرى ، فينشأ أبناؤها مفعمين بالطمأنينة إلى الآخرين وغير متوجسين فى نواياهم أو مراميهم . وهناك من جهة أخرى بعض الأسر التى تَكْلف بأبنائها كل الكَلَف وقد وضعت الأطفال تحت الرعاية المباشرة والدائمة بحيث لا يستطيع الطفل أن يتحرك حركة أو أن يتصرف بتصرف إلا بعد أخذ مشورة الوالدين . وطبيعى أن تجد الأبناء الناشئين فى مثل هذه الأسر الشديدة الوطأة عليهم غير مطمئنين إلى أنفسهم وإلى أحكامهم . ومن ثم فانهم ما يفتأون وقد انخرطوا فى ركب الحياة المدرسية حتى يجدوا أن الوالدين قد ابتعدا عنهم أو تركاهم وحدهم لأنفسهم . وعندئذ يأخذون فى التبرم من حياتهم وتَسْود الدنيا فى أعينهم ويستشعرون التشاؤم وقد أخذ يخيم عليهم ليل نهار .

وطبيعى أن تجد الآباء والأمهات الذين لا يغالون فى العناية بأبنائهم ولا يغالون فى إهمالهم وتركهم وراء ظهورهم وقد أخذوا يساعدون أولئك الأبناء على أن يفتحوا أعينهم على الحياة من حولهم باستبشار وتفاؤل . ناهيك عما يسود الأسرة من سلام ووداد أو من خطر متربص بكيانها ومعتمل بين أفرادها . فالأسرة التى يظللها السلام والاستقرار والوئام والوداد خليقة بأن تعكس ما يسود جوها من سلام وحب وتفاؤل ، بينما تكون الأسرة التى يظللها الشجار ويضرب التفكك فى أوصالها خليقة بأن تشيع التشاؤم بين أطفالها .

وحرى بنا ألا ننسى المستوى الاقتصادى وتأثيره فى تكوين الاتجاه التفاؤلى أو الاتجاه التشاؤمى بالشخصية . وبادئ ذى بدء يجب أن نميز بين الضروريات والكماليات . والواقع أن الضروريات والكماليات تصورات نسبية تختلف من عصر لآخر ، ومن بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى ، بل إنها تختلف أيضا بالنسبة

للشخص الواحد من سن إلى سن أخرى ، ومن مكانة اجتماعية إلى مكانة اجتماعية أخرى .

وثمة ما يعرف بالتقدير الشخصى للضروريات والكماليات . فالشخص الذى دأب واعتاد على استخدام السيارة فى تنقلاته من مكان لآخر ولا يستعين بوسائل المواصلات العامة فى هذا الغرض ، فإنه قد ينظر إلى سيارته باعتبار أنها من الضروريات فى حياته بدرجة لا تقل عن أهمية وضرورة لقمة الخبز أو المسكن أو الكهرباء . وطبيعى أن الشخص الذى اعتاد استخدام وسائل المواصلات العادية فى الانتقال لا يحس بأن عدم امتلاكه لسيارة يشكل نقصا أو افتقارا لشئ فى حياته . والواقع أنك ما تكاد تحصل على الشئ وتعتاد عليه حتى يدخل فى نطاق ضرورياتك .

بيد أن هناك عاملا آخر غير عامل الاعتياد والاستخدام اليومى يؤثر فى الضروريات هو عامل الخيال . فكلما اشتهيت لأن يكون لديك سيارة واستسلمت لأحلام يقظتك بهذا الصدد ، فانك بعد عودتك إلى حالتك الطبيعية وقد أفقت من أحلامك تحس بأنك فقدت ما كنت تمتلكه بخيالك . وهذا ما يؤثر لدى كثير من الناس ويشكل نظرتهم بالمرارة إلى حياتهم وحالتهم . فالطفل الذى يتخيل وضعا مباينا لما يسود أسرته ، ويطوف بخياله بعيدا عن آفاق أسرته ، إنما يستحيل إلى شخص بائس بمرور الوقت . وهذا لا يقع بالنسبة لغيره من أطفال ممن يظلون محصورين بخيالهم فى نطاق أسرتهم وإمكانياتها الاقتصادية أو إذا هم سبحوا بخيالهم فانهم لا يسبحون إلى آفاق مترامية البعد . وهذا يفسر لنا ما يتلبس به بعض الأطفال من تفاؤل وتلبس البعض الآخر منهم بالتشاؤم .

بيد أننا لا نستطيع فى الواقع أن نحصر أسباب التفاؤل والتشاؤم فى سبب واحد ، بل يجب علينا أن نجمع جميع العوامل المؤثرة فى الشخصية وأن نؤلف بينها ونأخذها فى اعتبارنا لدى القيام بالتفسير . ولكن مما لا شك فيه أن الأسرة تؤثر فى أبنائها بالايجاب أو بالسلب فى ناحية أو أكثر من جوانب الشخصية . ولكن علينا أن

نضع فى اعتبارنا دائما - كما سبق أن قلنا - أن التأثير يشتد تأثيرا وفاعلية كلما كان الطفل أصغر سنا وأكثر قربا من لحظة التكوين الأولى فى بطن أمه كجنين .

أثر المدرسة

ظهرت المدرسة إلى أفق الحياة الانسانية أول ما ظهرت لكى تساعد الأسرة وتخدمها وتشد من أزرها وتخفف عنها بعض المسئوليات المنوطة بها . بيد أن هذا المعين أو الخادم ما فتئ ينافس سيده على عرش رعاية الطفولة ، لدرجة أنه صار يهدد باستلاب الأسرة جميع مهامها وتجريدها تماما من سلطاتها ومما تستعين به من وسائل لرعاية الناشئة النابتين فيها . ومما ساعد على زيادة أطماع المدرسة فى الاستيلاء على حقوق الأسرة ومسئولياتها اشتغالُ المرأة وترك البيت هى وزوجها مهجورا فى وقت زادت فيه تطلعات المشتغلات بالخدمة بالمنازل حيث صرن يبحثن عن عمل يدر عليهن ربحاً أوفر ويكفل لهن حرية أكثر ويحفظ لهن حقوقا بواسطة التأمينات حتى يضمَنَّ لأنفسهن معاشاً بالشيخوخة . ولقد وجدن مبتغاهن فى المصانع والمعامل والمحال التجارية حيث تستطيع الواحدة منهن أن تنهض بعمل لا يشترط فيه مؤهلات . وحتى إذا اشترط محل العمل معرفة القراءة والكتابة فهذه مهمة بسيطة يمكن انجازها وحذقها فى بضعه شهور قليلة فى أى مركز من مراكز محو الأمية .

على أن تكنولوجيا البيت لم تعجز هى الأخرى عن الاستغناء عن الشغالة تعمل به وقد وفرت لربة البيت الثلاجة والغسالة والرضعات الجاهزة والمأكولات المعلبة والمكانس الكهربية وغير ذلك مما جعل مهمة تنظيم البيت وتنظيفه وتوفير أسباب الرفاهية والراحة به متاحا بغير شغالة بالبيت .

ولكن الشيء الوحيد الذى لم تستطع التكنولوجيا توفيره للطفولة هو ذلك الجو الدافئ الذى كان يتمتع به الطفل الناشئ فى أحضان والديه ، وقد كان يجد لديهما الحنان الطبيعى والرعاية الفطرية التى وإن كانت ساذجة ، فإنها كانت مؤثرة فى شخصية الطفل أكبر تأثير وأعمقه . ولقد وجد طفل الحضانة نفسه بين أطفال عديدين يتوزع عليهم الحنان والرعاية ، فلا يكاد يحظى الا بقسط ضئيل منهما

ناهيك عن أن مدرِّسة الحضانة لا تحس بملكيتها للأطفال كما تحس الأم ، بل إنها قد تحس بالظلم يقع عليها اقتصاديا ، إذ تشاهد الأموال تنسرب إلى جيوب أصحاب دار الحضانة بينما لا تحظى هى إلا بأقل القليل الذى لا يكاد يغطى مصروفاتها ونفقاتها الشخصية فى المظهر والمواصلات . ومن ثم فإنها قد تقسو على الأطفال ، وقد لا تعطى لهم من حنانها شيئا إلا نظير ما يقدم إليها من الهدايا بطريق الوالدين .

ولا شك أن الأطفال بالحضانة يحسون بمن يحبهم حبا حقيقيا ومن يحبهم لأنه حصل من الأب أو الأم على هدية ، أعنى ذلك الحب المؤقت الذى يزول بزوال المؤثر ، أو عندما يقدم والد طفل آخر هدية أقيم تعمل على إزالة تأثير الهدية الأولى . ولقد يجد الطفل من مُدَرسته غلظة أو مجافاة أو لامبالاة ، كما أنه قد يحس بأن أمه بالبيت لا تكاد تشاهده إلا خلال لحظات عابرة كل يوم . وحتى إذا هو تعلق بها فى أثناء إجازتها السنوية ، فإنها تصده بعد انتهاء الأجازة لكى ينخرط من جديد فى جو الحضانه الذى لا يكاد يحس فيه بالاطمئنان والحب والحدب والاعتزاز .

ونخطئ اذ نعمم القول فنزعم أن هذه هى الحال بالنسبة لجميع أطفال الحضارة المنخرطين فى دور الحضانة . ذلك أن هناك أطفالا أكثر قدرة على التواؤم من سواهم . فهناك أطفال كثيرون أيضا قد استطاعوا أن يجمعوا بين حب الوالدين بالبيت وبين حب دار الحضانة بمن فيها . ونحن لا نستطيع أيضا أن نزعم أن جميع دور الحضانة فاسدة ، أو أنها جميعاً مستغلة ، أو أن جميع مدرسات الحضانة ناقمات على أصحاب تلك الدور ، أو أنهن ينتظرن هدايا الآباء والأمهات ، أو أنهن يعاملن الأطفال بغلظة ومجافاة ولامبالاة . فالواقع أن هناك أيضا ظروفا مواتية بالبديل الجديد للأسرة أو قل بدار الحضانة التى تتعاون إيجابيا مع الأسرة .

ولا شك أن أولئك الأطفال الذين لديهم قدرة كبيرة على التواؤم للجو الجديد البعيد عن جو الأسرة يشكلون فئة المتفائلين فى مستقبل حياتهم . وعلى العكس من ذلك فإن الأطفال الذين يجدون فى أنفسهم قصورا عن مثل ذلك التواؤم ، فإنهم ينشأون بلاشك على التشاؤم . ويساعد على بث روح التفاؤل أو روح التشاؤم فى قلب الطفل ما يلقاه من معاملة من مدرسات الحضانة إن بالايجاب وإن بالسلب .

ولعلنا نذكِّر هنا بالمبدأ التربوى الذى سبق أن ذكرناه وأكدناه فى أكثر من موضع وهو أن التأثير فى الشخصية كلما كان فى وقت مبكر من الطفولة كان أنجع وأدوم . من هنا فإننا ننوط بمدرِّسة الحضانة نصيب الأسد فيما يتعلق بتشكيل وجدان الطفل على أن يكون شخصية متفائلة أو على أن يكون شخصية متشائمة . وحتى بالنسبة لما ينساه الطفل بعقله الواعى ، فانه يظل يعمل عمله فى أعماق شخصيته . ولقد سبق أن قلنا إن ما ندركه ونتذكره ليس وحده الذى يؤثر فى أعماقنا ويوجه دفة سلوكنا . وحتى بالنسبة للقطاع الجسمى من شخصياتنا ، فليس الذى نحس به وحده يكون له أثر فى كياننا الجسمى أو فى مستوانا الصحى . فأنت لا تكاد تعلم شيئاً عن البنكرياس الذى يقوم بوظائف جسمية لا تحس بها إحساسا مباشرا كما تحس بأعضائك الخارجية البادية أمامك والتى تدرك شكلها ولونها بل وتحس بها كالعين مثلا . ولكن هل عدم ادراكك لما يقوم به البنكرياس يكون مدعاة لإنكار قيمة تأثيره فى جسمك ؟

وحتى بالنسبة لنا نحن الكبار ، فثمة مواقف أو نظرات أو ملاحظات قد تصدر الينا عن غيرنا بغير أن نترجمها ذهنيا إلى معان ، ولكن يكون لها بالغ الأثر فى حياتنا وفى مدى ثقتنا بالنفس بل وفى توجيه دفة حياتنا فى المستقبل . وهكذا تجد أن المدرسة بما فيها من معلمين وزملاء ومناهج وإدارة مدرسية وعلاقات مرسومة وعلاقات تلقائية تؤثر فى تلاميذها بكافة المستويات والنوعيات التعليمية تأثيرا بعيد المدى . ولعل أهم ما يعمل على تشكيل شخصية التلميذ فى أى مستوى وفى أى نوع من أنواع التعليم هو ما يلقاه من تقييم له ولما يصدر عنه من سلوك . ونحن نحب أن نميز بين تقييم الشخص وبين تقييم ما يصدر عنه من مناشط . والواقع أن هذين النوعين من التقييم يشكلان فلسفتين متباينتين لتقييم التلاميذ . فثمة فلسفة تربوية تعتمد فى التقييم على تقييم مدى نمو شخصية التلميذ فى جانب أو أكثر من جوانبها ، وثمة فلسفة تربوية أخرى تعتمد فى التقييم على نتائج السلوك والتحصيل المدرسى .

وفى كلتا الحالتين فإن التلميذ يجد نفسه ويستكشف حقيقة ذاته غالبا فى تقييم الآخرين له ، بما فى ذلك زملاؤه أيضا . وفى بعض الحالات النادرة – وهى حالات الموهوبين – لا يهتم التلميذ بتقييم الآخرين له ، اذ يكون قد أقام لنفسه معايير

تقيميية خاصة به هو وقد ضرب صفحا بأى من تلك المعايير التى وضعها له الآخرون . من هنا فإنك تجد أن عبقريا – إديسون مثلا – لم يُفَت فى عضده لأن مدرسيه قد حكموا عليه بأنه أبله ولا يصلح للتعلم وسلموه لأمه لتوجيهه وجهة أخرى غير المدرسة . ومع ذلك فان إديسون لم يتحول إلى التشاؤم قِبَل نفسه وقِبَل مواهبه بل كان أعرف بنفسه من مدرسيه ، وقد ساعدته أمه على تفتيق مواهبه المخبوءة والتى لم يستطيع المعلمون استكشاف كنوزها .

والواقع أن العلم بادئ ذى بدء كان ضربا من التسلية والهواية وكان قائما على حب الاستطلاع أو على حب التجسس على الطبيعة والوقوف على أسرارها التى تمعن فى إخفائها عن أنظار الإنسان . ولكن العلم صار اليوم بالمدارس يفرض قسرا على عقل التلميذ . وبعد أن كان العلم هو استكشاف المجهول ، صار حديثا بالمدارس حفظَ المعلوم . من هنا فان الكثير من التلاميذ يتساءلون بينهم وبين أنفسهم : لماذا يعلموننا ما هو موجود بالكتب ؟ ومن ثم فانهم ينتهزون أول فرصة لانهاء حياتهم الدراسية ويقاطعون الكلمة المطبوعة ويهرعون إلى وسائل أخرى تجذب انتباهم كالسينما والمسرح أو حتى المقهى والكازينو أو الرحلات والمصايف .

واذا أراد رجال التربية أو ينقذوا المدرسة مما أصيبت به من نظرة تشاؤمية من قِبَل من فيها من تلاميذ ومن خريجين ، ومما تسببه من تشاؤمية مرضية تصيب بها مرتاديها ومن لهم صلة بها وعلى رأسهم المعلمون أنفسهم ، فإن عليهم أن يعيدواالنظر فى مفهوم المدرسة نفسه وان يقدموا تعريفا لها ، ثم يضعوا الشروط الواجب توافرها فيها وفى ممارساتها وَفْق التعريف الموضوع ، ثم يعهدوا بما يتوصلون اليه من نتائج نظرية إلى رجال التطبيق التربوى سواء أكانوا معماريين أم إداريين أم رجال مناهج أم مطبقين لعلم النفس التربوى أم أولياء أمور . وبذا يتلاشى تأثير المدرسة التشاؤمى فى الناشئة ، وهو التأثير الذى يظل ملازما للمرء طوال حياته وتعمل ظروف الحياة السيئة على دعمه وتشديده

المجتمع الشعبى :

نقصد بالمجتمع الشعبى ذلك المجتمع العام الذى ينطلق إليه الإنسان خارج الأسرة والمدرسة بغير أن يكون خاضعا فى نطاقه لعلاقات مرسومة ومحددة ، بل يكون السلوك فيه وتكون العلاقات القائمة به متسمة بالتلقائية إلى حد بعيد. كالشارع ووسائل الانتقال ووسائل الاتصال ودور العبادة ونحوها من أماكن ، يجتمع الناس فيها أو يستعينون بها ويقيمون بينهم بفضلها علاقات مؤقته وإن كانت علاقات بلا قيود إجبارية . وبتعبير آخر فإننا نطلق لفظ « المجتمع الشعبى » على جميع المجتمعات التى يتسنى لأى شخص من أبناء الوطن الواحد أن ينخرط فيها أو ينتسب إليها أو يصير عضوا بها لقضاء أمر أو للإفادة من الخدمات التى توفرها أو للاحتماء من خطر وشيك أو للحصول على نوع من التسلية والترفيه أو نحو ذلك من غايات ورغبات .

ولعلنا نقول إن المجتمع الشعبى على الرغم من أنه يكون فى الغالب مجتمعا منسجما ومتآلفا ، فإنه يضم فى إطاره العديد من المجتمعات التى يمكن التمييز بينها فى ضوء ما يحمله أفراد كل مجتمع من تلك المجتمعات المندرجة من قيم متباينة أو حتى متضاربة . ولكن الذى لا يعمل على إظهار ذلك التباين أو ذلك التضارب هو توزع أفراد تلك المجتمعات الفردية فى طيات المجتمع الشعبى وعدم الانحصار فى نطاق أو مكان واحد . ففى الحافله (الأتوبيس) الواحد تجد أفرادا من بعض تلك المجتمعات الفردية . ولذا فإنك لا تجد الانسجام أو الامتزاج بين أفراد ذلك المجتمع الذى نسميه بمجتمع الحافلة . وعلى الرغم من عدم الامتزاج فثمة مع ذلك إطار يشمل جميع أفراد ذلك المجتمع ، أو أن ثمة هدفا مشتركا يجمع بين أفراده هو اعتمال الرغبة لديهم جميعا فى الوصول إلى غاية مكانية واحدة . فهم جميعا يشتركون فى تلك الرغبة . بيد أن ثمة رغبة أخرى ولكنها فى هذه المرة رغبة سلبية هى الرغبة فى تجنب المخاطر التى ربما تحيق بهم جميعاً فى أثناء الطريق أو مهاجمة اللصوص لهم فى أثناء الرحلة إذا كان ثمة قطَّاع طرق فى المنطقة التى يخترقونها فى أثناء رحلتهم ، أو تجنب الاصطدام بسيارة أخرى أو غير ذلك من رغبات سلبية تجمع بين وجداناتهم جميعا وتعمل على ربطهم بعضهم

إلى البعض الآخر فى وحدة شبه عضوية وان كانت وحدة عضوية ما تفتأ أن تتفكك بانتهاء الرحلة وانصراف كل واحد منهم إلى حال سبيله .

ولقد نزعم أن المجتمعات الشعبية تؤثر فى النغمة العامة لوجدان الشخص المنتمى اليها . خذ مثالا مرة أخرى بمجتمع الحافلة الذى ذكرناه . وافترض أن الاخطار التى تحيق بذلك المجتمع تتكرر من وقت لآخر وأن ثمة عصابة من قطاع الطريق تتربص بالحافلات التى تسلك الطرق القائمة بين المدن وتنهب ما فى جيوب الركاب وتعتدى عليهم بالضرب . ألا يكون ذلك الخطر المتربص بركاب الحافلات عاملا من عوامل صبغ وجدان الركاب بصفة عامة تشاؤمية ؟ ألا يحس كل راكب أيا كان وبغير تمييز أو تحديد لهويته بالتشاؤم ساعة يقدم على الانخراط فى مجتمع الحافلة قبل أن تقله إلى المدينة التى يرغب فى السفر اليها ؟

ونستطيع أن نزعم على نفس النحو أن المجتمعات المحلية الشعبية التى توفر للمنخرطين فيها الرفاهية أو الانشراح كمجتمع السينما أو مجتمع المسرح الكوميدى ، إنما تطبع المترددين عليها بطابع وجدانى إيجابى هو التفاؤل . ولعل كل واحد من أولئك الذين يشاهدون بعضهم بعضا على باب السينما أو باب المسرح يكاد يقول لجميع من سيدخلون معه ويتابعون أحداث الفيلم أو المسرحية الكوميدية « إنى أشاركك فيما تحس به من وجدان إيجابى مستبشر ومتفائل بأننا سوف نقضى ليلة مرحة يسودها السرور والضحك والابتهاج » . ولكن افترض أن المشاهدين قد انخرطوا بالفعل فى إطار السينما أو المسرح الكوميدى وقد بدأ عرض الفيلم أو عرض المسرحية ، ولكن ما أن أخذوا فى متابعة أحداث الفيلم أو المسرحية حتى انطلقت عدة صرخات من هنا وهناك فى أرجاء القاعة . فهل يظل الجو المرح سائدا على قلوب المشاهدين ؟ ألا ينتشر الفزع ويعم الهلع وينقلب ما كان يعم القلوب من تفاؤل إلى تشاؤم وتتأجج نذر الشر والأخطار الغامضة التى تحملها اللحظات القليلة التالية ؟

وعلى الرغم من أن كل مجتمع من تلك المجتمعات الفرعية التى تنخرط جميعا فى نطاق المجتمع الشعبى يحمل طابعا خاصا به إما أن يتسم بالتفاؤل أو بالتشاؤم ، فإننا نجد أن كل مجتمع شعبى يتسم بملامح وجدانية واجتماعية خاصة به يتميز بها سلوكه

العام وشخصيته الكلية . فالمجتمع الشعبى بمدينة القاهرة مثلا له سمات خاصة تميزه من مجتمع طنطا أو سوهاج مثلا ، كما أن المجتمع الشعبى الخاص بالحضر بصفه عامة يتباين فى ملامحه عن ملامح المجتمع الشعبى للريف بصفة عامة أيضا . وننصف إذ نقول إن المجتمع الشعبى يستمد سماته الشخصية من حيث التفاؤل ومن حيث التشاؤم من عدة مقوِّمات حاضرة وتاريخية . فالأحداث القائمة والظروف الاقتصادية والتكنولوجيا التى تستحدث والقيم التى تستجد وتلك التى تنهار ، وما يعتمل فى أوصال ذلك المجتمع من مقومات أصلية تراكبت وتراكمت وتفاعلت عبر الآف السنين ، إنما تتكاتف جميعا لتشكل الملامح الشخصية لذلك المجتمع الشعبى.

ولعلنا نقول إن الحضارة وبخاصة التكنولوجيا الحديثة التى تتسم بالحركة السريعة والتغيرات المفاجئة إنما تحمل معها قدرات هائلة على تغيير مزاج الشعب . ولنا أن نؤكد أن كل شئ جديد ينضاف إلى القديم يحدث صدى فى الحياة الوجدانية للشعب وفى مدى تغيير نظرته إلى الحياة . ولا شك أن الحضارة تفتح آفاقا واسعة أمام الانسان للتخلص من الركامات التشاؤمية التى تعتمل فى أوصاله . ومن تلك العوامل التى تضيفها الحضارة إلى المجتمع الشعبى هى تفكيك الأسر إلى أسر صغيرة ، ثم تفكيك الأسر الصغيرة إلى أفراد يبتعدون بعضهم عن بعض فى المكان وفى الثقافة وفى الحرف أو المهن بل وفى كثير جدا من الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية . وهكذا تجد أن المجتمع الشعبى يستولى على ما كانت تتمتع به الأسرة الضيقة النطاق .

ولعل من أخطر الوسائل التى تستعين بها الحضارة فى التأثير فى مزاج أفراد المجتمع الشعبى التليفزيون والإذاعة . ناهيك عن الصحافة التى تأتى فى المرتبة الثالثة بعد التليفزيون والإذاعة . وكلما استطاع الإعلام بوسائله الثلاث هذه أن يصل فى تأثيره إلى أفراد المجتمع الشعبى ، كانت اذن قبضته أشد عليهم واستطاع أن يشكل الوجدان وأن يؤثر فى النظرة إلى الحياة . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن بمستطاع رجال الإعلام أن يحولوا المتفائلين إلى متشائمين والمتشائمين إلى متفائلين اذا ما وضعوا أصابعهم على المفاتيح الصحيحة التى يمكن أن يعالجوا بها المزاج الشعبى .

بيد أن الإعلام لكى يقع على المفاتيح الصحيحة ، فإن عليه أن يقف على ما هو كائن قبل أن يصبو إلى ما ينبغى أن يكون . فليس المجتمع الشعبى بمثابة ورقة بيضاء يكتب عليها أى شئ يريده الكاتب ، بل هو جهاز يجب أن يفهم المشتغلون عليه كيفية تشغيله التشغيل الصحيح قبل الشروع فى تشغيله ، بل ويجب أيضا أن يتدربوا على طريقه التشغيل الصحيحة قبل الشروع فى التشغيل .

والواقع أن علم النفس الاجتماعى لم يأل جهدا عن محاولة الكشف عن القوانين التى تخضع لها الجماعات فى تطوير أمزجتها أو تعديلها . فليست المسأله خاضعة للمصادفة ، كما أنها ليست اعتباطية أو تعسفية ، بل هى خاضعة لقوانين اجتماعية لا تقل صلابة وتماسكا عن صلابة وتماسك القوانين الطبيعية . ولنا أن نقول إن علم النفس الاجتماعى ما يزال يتحسس طريقه نحو الكشف عن تلك القوانين بدقة . ناهيك عن أنه ما يزال فى المراحل الأولى من مراحل التطبيق والممارسة . وأكثر من هذا فان التقنيات الخاصة بالجماعات الشعبية دائبة التغير لسبب بسيط هو أن التكنولوجيا الحديثة تتغير بشكل مذهل ، الأمر الذى لا يسمح لعلماء النفس بملاحقة أثر تلك التغيرات التكنولوجية فى شخصية الفرد والجماعة على السواء . ولقد نقول إن علم النفس ما يزال فى مهده إذا ما قورن بالتاريخ الطويل والحافل للعلوم الطبيعية . فهو على كثرة ما كتب ونشر فيه من كتب وبحوث ما يزال يتحسس طريقه وما يزال يحبو وراء العلوم الطبيعية ، بل ووراء الآثار الهائلة التى تحدثها التكنولوجيا فى الحياة الانسانية . ويوم يتسنى لعلم النفس أن يلحق بأخواته العلوم الأخرى ، ويوم يتسنى له ملاحقة تأثير التكنولوجيا فى الفرد والجماعة ، فانه سوف يتمكن من التأثير بشكل فعَّال فى القوام الوجدانى للإنسان بالمجتمع الشعبى ، ويعدِّل من اتجاهاته التشاؤمية ويجعلها اتجاهات تفاؤلية .

وسائل الإعلام :

ألمعنا فى الموضوع السابق إلى ما لوسائل الاعلام : التليفزيون والإذاعة والصحافة – من تأثير بالغ فى تشكيل وجدانات الأفراد وصبغها بالتفاؤل أو بالتشاؤم

حسبما توجهه اليهم من أفكار ونغمات وجدانية . وعلينا فى هذا الموضوع أن نركز الذهن والكلام فى كيفية تأثير وسائل الاعلام فى الفكر والوجدان وبلورتهما حول موضوعات معينة لتتشكل أفكار وعواطف توصف بأنها متفائلة أو متشائمة .

ولعلنا نبدأ بالقول بأن وسائل الإعلام قد استحوذت على معظم الشروط التى تتمشى مع الطبيعة الإنسانية فى التأثر والتقبل والتفاعل والهضم . فثمة أولا – شرط تنوع المؤثرات وخصوبتها بحيث يجد كل شخص ما يصبو اليه وما يجد فيه نفسه وما يشبع ميوله واستعداداته . فثمة فى التليفزيون والإذاعة والصحافة القصة والمقالة والبحث العلمى والنبأ المثير والسياسة والتربية وما يخص الرجل والمرأةوالطفل . ثانيا – عدم التزام الناس بتقبل كل ما تقدمه وسائل الاعلام بل لهم الحق والحرية فى الاختيار أو الرفض . والواقع أن هذا الشرط يجعل من وسائل الاعلام أدوات أقوى فى التأثير حتى من المدرسة . فالفرد يتمتع هنا بالحرية فى تخير المؤثرات التى تروقه أو تناسبه وفى رفض المؤثرات التى لا تروقه أو لا تناسبه . ثالثا – استمرار عمل تلك الوسائل ودأبها بغير كلل أو ملل وبغير تقيد بمكان أو بافراد تقيد أسماؤهم بها أو ينتسبون إليها ، فهى مفتوحة على جميع الناس بغير استثناء وبغير استبعاد لأحد منهم . وكأن لسان حال وسائل الإعلام يقول «كل من يستطيع أن يتقبل فليتقبل ، ومن لا يستطيع أن يتقبل فليس عليه جُنَاح أو تثريب »

والمفروض فى وسيلة الإعلام أن تقدم للجميع كل ما يشتهون من مادة يتوقون إليها . وهى لا تبحث – أو يجب ألا تبحث – إلا عن شىء واحد هو الاستهواء والاستمالة . فهى كالمحل التجارى الذى يجارى أذواق الجماهير فيقدم الألوان التى يميل اليها كافة المترددين عليه ، ولا يفرض عليهم الألوان التى يحبها أو التى يفضلها صاحب المحل . وهنا يبدو الفارق بين الإعلام والتعليم . فالتعليم يقدم المناهج التى تم انتقاؤها بواسطة أخصائيين ولا يتجه إلى التلاميذ بأن يأخذ آراءهم فيما يدرسون – إلا فى النادر كما هو الحال فى بعض طرق التدريس التى لم تلق رواجا كطريقة المشروعات مثلا . أما الإعلام فإنه يكيِّف نفسه للمستهلكين لخدماته . إنه يطأطئ الرأس للزبائن الذين

يقبلون عليه عن رغبة معتملة فى أوصالهم لا عن قسر يفرض عليهم ويلزمهم بامتصاص واستيعاب ما يقدمه من مواد .

وأكثر من هذا فإن المواد الإعلامية يجب أن تعتبر هدفا فى ذاتها وليس وسائل لأهداف أبعد منها كما هو حال التعليم . ففى التعليم يحضر الطالب المحاضرات بالجامعة مثلا بغير أن يجعل من تلك المحاضرات التى يستمع إليها هدفا مطلقا ليس بعده أهداف أبعد . إنه يستمع إلى المحاضرات لهدف يأتى بعدها هو اجتياز الامتحان بعد استيعاب ما يسجله بكراسه . والواقع أن الإعلامى يقدم مادته لمن يرغب فى الحصول عليها والتفاعل معها بغير أن يحاسب المشاهدين أو المستمعين أو القراء على ما شاهدوه أو استمعوا إليه أو قرأوه . إنه يلقى بما لديه إليهم وتنتهى القصة عند هذا الحد . صحيح أن المسئولين عن التليفزيون والإذاعة والصحافة قد يقومون بعمليات مسح للرغبات ، وقد يقومون بأخذ آراء زبائنهم فيما قدم إليهم من مواد ، ولكن هذا لا للحكم على أولئك الزبائن بالنجاح أو بالفشل فى استيعاب ما قدم إليهم ، بل لتقرير مدى نجاحهم هم فى الوقوع على المواد المناسبة لأذواق المشاهدين أو المستمعين أو القراء .

فالمدخل إذن إلى قلوب المستهلكين للخدمات الإعلامية ليس الإقناع بل الاستمالة . والإقناع يقوم على المنطق ، أما الاستمالة فإنها تقوم على الإقناع المشوب بكثيرجدا من المقومات الوجدانية . وأكثر من هذا فإن الإعلامى ينقر على الخبرات الوجدانية السابقة التى يعلم بالحدس أو بالخبره أنها قد احتلت مكانها فى قلوب المشاهدين أو المستمعين أو القراء ، فيعمل بذلك على ربط الجديد الذى يحاول كسبه لزبائنه بالقديم الذى سبق أن استحوذ على قلوبهم وتسلط على عقولهم .

والواقع أن الهدف الرئيسى للإعلام هو التأثير فى صلب الشخصية والعمل على تغيير السلوك . على أنه يجب علينا أن نبدأ بتحديد مفهوم السلوك حتى نكون على بيِّنة من أمرنا . يفهم البعض السلوك باعتبار أنه التصرف الخارجى الذى يأتيه الفرد من الناس . والواقع أن السلوك أوسع نطاقا من مجرد التصرف الخارجى . ذلك أن ثمه سلوكا داخليا من جهة ، وثمه سلوكا خارجيا من جهة أخرى . والسلوك الداخلى

يتمثل فى الفكر والوجدان وجميع الأحاسيس الداخلية الأخرى والمناشط النفسية المتباينة كالحدس والأحلام وأحلام اليقظة والتخاطر والرؤية النفسية وقراءة الأفكار والإلهام وغير ذلك من ظواهر نفسية وروحانية مما تزخر به الشخصية الإنسانية والتى قد لا يقف عليها سوى الشخص نفسه الذى تمر به أو تعتمل بداخله .

ولقد انقسم علماء النفس والفلاسفة إلى ثلاث فئات فى تفسيرهم للسلوك الداخلى فى علاقته بالسلوك الخارجى . الفئة الأولى – تقول إن ثمة ما يشبه التوازى بين السلوك الداخلى والسلوك الخارجى مع تمايزهما وتباينهما بعضهما عن بعض . أما الفئة الثانية – فانها تقول بأن السلوك الداخلى إنما هو المحرك والمشكِّل للسلوك الخارجى والمعيِّن لملامحه وقسماته . والفئة الثالثة – تقول إن السلوك الداخلى لا يعدو أن يكون انعكاسا وصدى للسلوك الخارجى .

وما نعتقده هو أن الإعلاميين يأخذون بما تقول به الفئة الثانية ، ومن ثم فانهم يقرعون أبواب الأفكار والعواطف على أساس أن من يتسنى له التأثير فيهما فقد امتلك زمام الموقف ، واستطاع بالتالى أن يشكل القوام الخارجى للشخصية وأن يحدد معالم ما يبدر منها من تصرفات وأعمال بائنة للعيان . فالفكر والعاطفة هما مِقْودا الشخصية . فاذا ما تسنى لك الامساك بهما ، فانك تستطيع بالتالى أن تتجه بالشخصية إلى حيثما تشاء . ذلك أن جميع المعالم الخارجية للشخصية ما هى فى الواقع سوى صدى لما يعتمل بداخلها .

ومعنى هذا أنك تستطيع أن تجعل الناس سعداء مرحين فى حياتهم وتصرفاتهم وفى علاقاتهم بعضهم ببعض وأن تحملهم على الاستبشار والتفاؤل بحاضرهم ومستقبلهم وذلك اذا ما تسنى لك أن تؤثر إيجابيا فى أفكارهم وعواطفهم ووجداناتهم . وبتعبير آخر فانك تستطيع أن تجعل ظاهرية الناس متسمة بالسعادة اذا ما تسنى لك أن تجعل باطنيتهم سعيدة . عليك فقط – وفقا للإعلاميين – أن تجعل دخائل الناس نيِّرة سعيدة . وهذا لا يتأتى إلا بطريقين : الطريق الأول – أن تعمل على محو الظلام الداخلى الذى يكون قد عشش فى قلوب وعقول الناس ، وذلك بواسطة الايحاء لهم بأن المخاوف التى تسيطر عليهم أو الشكوك التى تعتورهم أو

الأوهام التى تفتك بآمالهم وتقضى على أحلامهم السعيدة ليست من الحقيقة فى شىء . أما الطريق الثانى - فهو شحن عقول وقلوب الناس بالناصع والجميل من الأفكار والعواطف النبيلة الخالية من الاعوجاج أو الكراهية . ولكأن على الاعلامى أن يخوض سبيلين : أولا - النزول فى حرب مع ما تسلط على عقول وقلوب الناس من أفكار وعواطف سوداء تشاؤمية ، والثانى - تعمير عقول وقلوب الناس بالأفكار والعواطف البيضاء التفاؤلية .

ولسنا نشك لحظة فى ضرورة تذرع الإعلاميين بعلم النفس بصفة رئيسية . صحيح أن من الممكن أن تجد إعلاما ناجحا بغير أن يستعين مباشرة بعلم النفس . ولكن مثل هذا النجاح يشبه نجاح العطار الذى ينجح فى علاج بعض الأمراض - أو كثير من الأمراض - بغير معرفة بالطب وبغير تمرس بأصوله . ومن غير شك فان من يتعلم الطب ويتمرس به إنما يوفر على نفسه الكثير من الجهد والوقت ويسلك أخصر الطرق وأضمنها فى علاج المرضى . وكذا يقال عن الإعلامى . إنه إذا ما تعلم علم النفس واستوعبه وتمرس بفنونه ، فإنه يستطيع بلا شك أن يضرب على الأوتار الصحيحة فى عقول وقلوب الناس ، بل ويستطيع أن يحرز من النتائج ما يعجز عنه الإعلاميون الذين لم تقيض لهم مثل تلك المعلومات والخبرات السيكلوجية . على أن من الضرورى أن يكون الإعلامى هو نفسه شخصية متفائلة لكى يتسنى له إشاعة التفاؤل لدى الآخرين . فهيهات أن يُشكِّل علم النفس أو التدرب على فنونه أداة لإشاعة التفاؤل بينما الإعلامى نفسه من المتشائمين .

الأحداث والتغيرات الاجتماعية :

يقع الإنسان فى إطار اجتماعى معين إما أنه يتسم بالاستقرار أو التغيرالبطىء واما أنه يتسم بالتغير المفاجئ أو عدم الاستقرار . والواقع أنه فى الحالات الطبيعية يكون الإطار الاجتماعى الذى يقع فيه الفرد متسما بالاستقرار أو بالتغير البطىء . أما فى الحالات الشاذة أو فى بعض الحالات الاجتماعية الخاصة كتلك التى تنشأ قبيل الحروب أو فى أثنائها أو بعدها ، أو فى بعض حالات التغير التى تقع فى النظام

الاقتصادى أو النظام السياسى ، فإن التطورات التى تقع للأُطُر الاجتماعية التى ينخرط فيها الأفراد ما تفتأ أن يعتورها التغير السريع والاضطراب وعدم الانتظام .

افترض أنك كنت محاميا تعتمد فى عملك فى المحاماه على الدفاع عن الشركات الخاصة ، وكان ذلك قبل حركة تأميم الشركات بعد ثورة ٢٣ يوليو . فما الذى يكون قد حدث لحالة مثل حالتك وللإطار الاجتماعى الذى كنت تنخرط فيه ، أعنى المحاماه عن الشركات ؟ لا شك أن حركة التأميم الواسعة النطاق قد زلزلت الوضع بالنسبة لتلك الشركات التى أممت ، أو بمعنى أصح فان تلك الشركات بذاتها قد اختفت من الوجود كشركات خاصة وصارت ضمن القطاع العام . وحتى اذا ظلت لها قضايا فانها لم تعد بحجم القضايا التى كانت لها أيام كانت واقعة فى نطاق ملكية شخص أو مجموعة من الأشخاص المستقلين عن الحكومة وعن الأموال العامة الحكومية . فبالنسبة لمثل هذه الحالة ولمثل هذا الإطار الاجتماعى فانه قد خضع للتغيرات الطارئة إلى أدنى . ومن ثم فان المنخرطين أو المشتغلين بالمحاماة خلال تلك الفتره بعد التأميم قد وجدوا أنفسهم مهددين بالتدهور النسبى فى عملهم الذى يرتزقون من ورائه ، وصار يكتب بالجرائد والمجلات عما أطلق عليه اسم أزمة المحاماه .

وعلى نفس النحو ولكن بشكل مضاد ما وقع للحرف اليدوية ولتجار أراضى البناء وللتجار بصفة عامة بعد الانفتاح الاقتصادى الذى بدأ فى السبعينيات بمصر . لقد صار بعض الحرفيين من المشتغلين بأعمال البناء يحصلون على ما يوازى دخول الوزراء أو يزيد . وصرنا نشاهد عامل البناء يصل إلى مقر عمله بالسيارة المرسيدس التى يمتلكها إلى جانب ما يمتلكه من عقار لحسابه الخاص . وبعد أن كان يحسب دخله الشهرى بالجنيهات ، صار يحسبه بعشرات الجنيهات أو صار له حساب ورصيد ومدخرات بالبنوك . وأكثر من هذا فانه فى كثير من الأحيان صار صاحب عمل وقد استحال من مجرد عامل إلى مقاول يتبعه أسطول من عربات النقل ولديه مجموعة كبيرة من العمال الذين يأتمرون بأمره ويعملون لديه بالقطعة أو بالمرتب الشهرى المغرى .

وكما أن هذا التغير الاقتصادى قد ارتفع بالحرفيين والتجار إلى أعلى ، فانه فى نفس الوقت وبطريق غير مباشرة قد أنزل العاملين والموظفين إلى مقام أدنى . ذلك أن الدخول لا تقاس فى حد ذاتها بل تقاس بالنسبه لغيرها . افترض أن دخل واحد من كبار الموظفين هو مائةوخمسين جنيها فى الشهر وهو الذى كان يشار اليه بالبنان وقد ارتفع إلى الدرجة السابقة مباشرة لدرجة وكيل الوزاره . فماذا تكون نتيجة المقارنة بين هذا الرجل وبين عامل البناء الذى كان ينظر إلى صاحبنا الموظف باحترام وتقدير ومهابة ثم انقلبت الآية ، إذ صار دخل نفس هذا العامل حوالى ثلاثمائة جنيه فى الشهر ؟ وماذا يكون الموقف النفسى لهذا الموظف الكبير عندما يعلم أن بعض المشتغلين تحت يد هذا الرجل الذى صار فجأة مقاول بناء يحصلون على مرتبات أكثر من مائة جنيه فى الشهر لكل واحد منهم ؟

واضح من هذا أن لمثل تلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المفاجئة نتائج ايجابية بالنسبة لبعض الناس ، بينما يكون لها نتائج سلبية بالنسبة لأناس آخرين . لاشك أن الحرفيين ينظرون إلى واقعهم الاجتماعى والاقتصادى بنظرة متفائلة ، بينما ينظر كثير من الموظفين إلى واقعهم بنظرة تشاؤمية . بيد أن الظروف الاجتماعية وان كانت تشمل فى نطاقها الظروف الاقتصادية ، فانها فى الواقع أوسع نطاقا من تلك الظروف الأخيرة . ولنضرب مثالا بالعلاقات الجنسية . ففى الظروف الراهنة تلاحظ أنه على الرغم من قيام حركة المعمار والتعمير على قدم وساق ، فثمة أزمة إسكان محتدمة وبخاصة بالنسبة لمحدودى الدخل ، أو بالنسبة لفئة العاملين جميعا بمن فيهم أصحاب الدرجات العليا . ذلك أنه وإن كان خُلو الرجل ممنوعاً قانونا ، فإنه القاعدة العامة التى تمارس بكافة الوسائل الملتوية . ناهيك عن الإيجارات الحديثة المرتفعة بسبب التكاليف الباهظة التى تنفق على إقامة العمائر وشراءِ الأرض التى ارتفع سعر المتر منها إلى أكثر من مائة جنيه للمتر المربع الواحد . فمن أين للموظف الحديث بخمسين جنيها كل شهر يدفعها إلى جيب صاحب العمارة ؟ وماذا يتبقى له – حتى ولو كانت زوجته موظفه أيضا – لتغطية مصاريف الشهر ؟

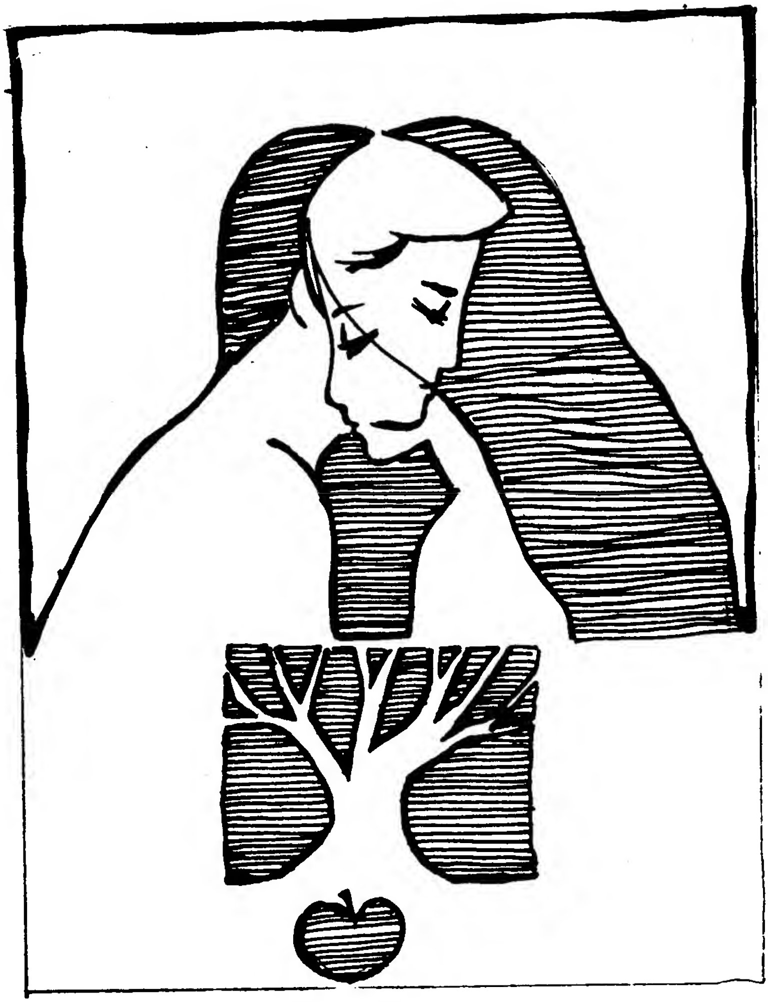
من هنا نشأت مشكلة أخرى اجتماعية صرفة تتعلق بالعلاقات بين الجنسين هى كيفية إنشاء أسر جديدة تعيش فى أى مستوى معقول وبأى معيار معقول . وطبيعى

أن ينجم عن عجز الشباب عن الإيفاء بمطالب أسر جديدة يُقْدمون على إنشائها أن يؤجل الزواج أو أن تلغى فكره الزواج نهائيا . ولكن إذا ما ألغيت فكرة الزواج ، فهل معنى هذا إلغاء الجنس والعلاقات الجنسية والقضاء على المشكلات الجنسية ؟ الواقع أن الجنس موجود بداخل الشباب وليس بخارجه . فقبل أن يتشوف الشاب أو أن تتشوف الشابة إلى أفراد الجنس الآخر ، فانهما يجدان بداخلهما دوافع بيولوجية نفسية ملحة تتطلع إلى الاشباع . ولعل الجنس كدافع غريزى لا يقل إلحاحا عن الدافع إلى الطعام . فماذا تكون النتائج والأبواب موصدة أمام الشباب للإشباع الجنسى الشرعى الحلال ؟ إننا فى غنى عن الاجابة عن هذا السؤال . فالاجابة سهلة ومعروفة . بيد أننا نحذر فقط من استلهام الاجابة من البادى من العلاقات ، لأن ما يختفى ويمارس فى الظلام أخطر من أن يسكت عليه ، ويستوجب الشعور بالقلق والخوف على مستقبل القيم التى دأبنا على الاعتزاز بها والاستمساك بتلابيبها .

وإذا نحن خرجنا من الاطار القومى المحلى ونظرنا بنظرة أعم ومن زواية أوسع ، اذن لوجدنا العالم يتنازعه اتجاهان أساسيان : أحدهما متفائل والآخر متشائم . والمتفائلون يعلِّقون الآمال على الضمير الانسانى وما يمكن أن يهدى اليه ذلك الضمير ويصل بالإنسان وبمستقبله إلى الخير والبركة والسلام والطمأنينة . أما المتشائمون فانهم يحذرون من أن الإنسانية مقبلة على كوارث لا من خارجها بل من داخلها . فثمة مثلاً الإرهاب الفردى والإرهاب الجماعى . من ذلك اختطاف الطائرات ونسف المبانى ومهاجمة الشخصيات السياسية المرموقة (كما حدث لرئيس وزراء إيطاليا الدومورو) وقتلهم أو تعذيبهم والاعتداء على النساء واغتصابهن والإبادة الجماعية لبعض الأجناس كما حدث ويحدث للهنود الحمر وكما يحدث لأجناس أخرى حيث ينظر إلى الملونين بنظرة احتقار ومهانة . ناهيك عن المجاعات التى تجتاح العالم فتزداد رقعة الجائعين يوما بعد يوم ، والتفجر السكانى وزيادة عدد المواليد غير الشرعيين وقهر الفردية وسيطرة الظروف غير المواتية بل والخطيرة على حياة الإنسان كالضوضاء وتلوث البيئة بل وحرمان الانسان الحديث من حرية العمل بمفرده والتفكير لذاته . لقد صار الإنسان الحديث ذرَّة فى مُركَّب يستحيل التخلص من شدة ضغطه ، بل

إن الفرد من الناس قد صار خُلْوا من أى قيمة كما صار غير متفرد بميزة خاصة تميزه من سواه .

ومهما يكن من شئ فان الحياة الحديثة تحمل وجهين متباينين بل ومتناقضين أشد التناقض : الوجه الأول مفعم بالتفاؤل والنصاعة والاستبشار ، والوجه الثانى مفعم بالغم والاكتئاب . فالأحداث من حولنا والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتباينة تبتسم لنا مرة وتكشر عن أنيابها مره أخرى . ولقد تجد منا من يغضُّون النظر عن تكشير الأنياب ولا يتذكرون أو يدركون سوى الابتسامة التى رسمتها لهم الحضارة على شفتيها ، وهؤلا هم المتفائلون ، بينما يظل الآخرون لا يتذكرون ولا يدركون الا ذلك التجهم الذى ارتسم على وجهها ، وهؤلاء هم المتشائمون . وإن دل هذا على شئ فانما يدل على أن الاستعدادات الشخصية لها أبعد الأثر فى تلوين حياة الناس ، وجعلهم ينخرطون فى أى من الفئتين الأساسيتين اللتين تنقسم اليهما البشرية جميعا ، أعنى فئة المتفائلين من جهة ، وفئة المتشائمين من جهة أخرى .



الفصل العاشر

التفسير بالمقومات البيولوجية والنفسية

الفصل العاشر

التفسير بالمقومات البيولوجية والنفسية

الجهاز العصبى :

سبق أن ألمعنا الى الصلة التى تقوم بين المخ وبين التلبس بالتفاؤل أو التلبس بالتشاؤم ، وقلنا إن المخ يخضع لعمليتين رئيسيتين : الأولى عملية الاستثارة ، والثانية عملية الكف أو الضبط . وقد فسرنا التفاؤل بأنه زيادة فى عملية الاستثارة ، كما فسرنا التشاؤم بأنه زيادة فى عملية الكف أو الضبط . وحيث أن هاتين العمليتين أساسيتين بالمخ وأنه لا محيص عن وجودهما ، فإننا نستطيع إذن أن نقرر أنه لا غناء عن التلبس بكل من التفاؤل والتشاؤم . ولكن حيث أن إحدى هاتين العمليتين تكون لدى كل إنسان أقوى من العملية الأخرى ، لذا فإنك تجد أن التفاؤل عند أحد الناس يكون أقوى من التشاؤم ، والعكس أيضا صحيح ، إذ يكون التشاؤم هو الأقوى عند شخص آخر .

على أن من الواجب أيضا أن نلقى ببعض الضوء على وظائف المخ حتى نستبين جلية الأمر ، وحتى نعقد صلة بين الاتجاهين التفاؤلى والتشاؤمى وبين الوظائف التى يضطلع بها المخ . ثمة أولا – الوظيفة الإدراكية للمخ . فكل حاسة من الحواس الخمس ترسل بالتيارات العصبية الموردة إلى المخ بعد أن يتم لها مصافحة الموضوعات المحسوسة الملائمة لعملها . فالمشمومات مثلا تصافح الأنف ، ومن ثم فإن الشعيرات العصبية الموجودة بالأنف تجمع تلك المؤثرات الحسية المشمومة وتبعث بها إلى مراكز المخ الإدراكية المتخصصة فى الشم . وهذه المراكز تقوم بدورها بترجمة ما يصل إليها ترجمة معرفية إدراكية ، فيدرك الشخص صاحب ذلك الجهاز العصبى أن ثمه موضوعا ما بالخارج له الرائحة المعينة التى وصلت إلى المخ . وهكذا ينسحب الحال نفسه بازاء جميع المحسوسات الأربعة الأخرى . فتجد أن الإنسان يذوق ويرى ويسمع ويلمس بنفس الطريقة ، أى بأن ترسل الحاسة المعينة برسائل حسية عن

طريق الشعيرات العصبية إلى المراكز الإدراكية الموجودة بالمخ والتى تخصص كل منها فى نوع معين من الاحساسات ودأبت على ترجمته ترجمة ذهنية إدراكية فتنبئ المرء بما هو قائم بالعالم الخارجى المحيط به .

بيد أن الذى تدركه ليس مجرد صورة مطابقة للواقع بغير تلوين أو اصطباغ بصيغة وجدانية معينة . صحيح أنك لا تستطيع أن ترى فى الماء أسداً ضارياً، أو أن ترى فى الأسد ملامح صديقك الحميم ، لأنك إذا فعلت هذا فإنك تكون قد خرجت عن إطار العقلاء واتهمك من حولك بإنك إما تحت تأثير مخدر معين ، أو أن ثمة خللا معينا قد أصاب جهاز إدراكك بالمخ . ولكن حتى أشد الناس عقلا واتزانا تجدهم يلونون مدركاتهم بلون معين حسبما تلقوا من خبرات وجدانية سابقة . فكل ما تترجمه فى مخك من محسوسات إلى مدركات حسية إما أن تحس قبالته بالارتياح أو الحب • وإما أن تحس قبالته بالانقباض والكره . ولقد سبق أن أشرنا إلى إن أشد الأشياء موضوعية ومنطقية لابد أن يكون مشوباً بصبغة وجدانية من الصبغتين الاساسيتين ، أعنى الحب والكراهية . فحتى الآن وأنا أقوم بكتابة هذا الكلام فإنى أحس بشئ من الحب تجاهه ، أو بشئ من الكراهية أو بمزيج من الحب والكراهية فى آن واحد .

على أن الحب والكراهية فى عملية الإدراك إما أن تكون مرتبطة ارتباطا مباشرا بذات الموضوع المدُرَك ، وإما تكون عاطفة الحب أو عاطفة الكره متعلقة بموضوع آخر راهن وقائم بالموقف أو غير راهن وغير قائم بالموقف ولكنه يقبع فى الذاكرة بحيث أستطيع أن أستعيده بالذاكرة أولا أستطيع ذلك ، ولكنه يعتمل لا شعوريا فى اللاشعور كما سبق أن اكتشف فرويد وجود أشياء ترسبت فى قسم معرفى بالمخ . ولكن المعرفة التى تكون مطمورة ومخبوءة عن التذكر المباشر ليست معرفة مَمْحوة كما دأب كثير من الناس على الاعتقاد . ومن أمثلة النوع الأول من ارتباط الحب والكراهية بالموضوع المدرك ارتباطا مباشرا إحساسُك وأنِت تشاهد إحدى السيارات وهى تدهم إنسانا . فما تحس به من وجدانات معينة ، سواء بالكراهية للسيارة وسائقها أم بالإشفاق على المصاب الذى أصابته السيارة بعجلاتها ، إنما يرتبط

بالموضوع المدرك مباشرة . ولقد اقوم بكتابة هذا الموضوع وهو بعيد كل البعد عن موضوع ادراكى لتلك السيارة التى دهمت شخصا ، ولكنى وأنا أقوم بالكتابة اتذكر الحادث ويأخذ بى كل مأخذ أو بعض المأخذ ، فأحس بالإنقباض على الرغم من أن الموضوع الذى أدركه أمامى وهو الأوراق والأقلام والكتب لا تتصل من قريب أو من بعيد بما يحملنى على الإنقباض . ولقد أجلس إلى أصدقائى وأنا مكتئب وقد نسيت موضوع السيارة والحادثة ، فيسألوننى عن السبب فأوكد لهم أنى لا أعرف سبباً لا نقباضى . والواقع هو أن ما سبق لى أن ما رأيته من دهم السيارة لذلك الرجل يعمل فى وجدانى ويؤثر بطريق غير مباشره فى الموقف الإدراكى الذى اقف عليه وهو أصدقائى وما يحيط بهم من أشياء .

وإذا كنا قد ركزنا فكرنا هنا على الإدراك وما قد يرتبط به من عاطفة حب أو عاطفة كره ، فإن هذا فى الواقع هو الحال بالنسبة لجميع العمليات الذهنية الأخرى كالذاكرة والتذكر والتخيل والتصور والعمليات المعرفية جميعا بصفة عامة .

وما يهمنا فى الواقع هو ضرورة التأكيد على أن ثمة قوامين أساسيين بالمخ ، أو ثمة نوعان أساسيان من النشاط الذهنى : النوع الأول – هو القوام أو النشاط المعرفى بأطيافه وأنواعه المتباينة . أما النوع الثانى – فهو القوام أو النشاط الوجدانى والإنفعالى بأطيافه وأنواعه المتبانية . وكما سبق أن تحدثنا عن أنواع متباينة من النشاط المعرفى ، فاننا نستطيع أيضا أن نتحدث عن أنواع متباينة من النشاط الوجدانى الإنفعالى .

هناك أولا النشاط الوجدانى الإنفعالى النابع من دخيله المرء مباشره . وقد سبق أن عرضنا لأنواع متباينة من ذلك النشاط كما هو الحال لدى تناول بعض المواد المنبهة أو المواد المخدرة أو لدى الإصابة ببعض الأمراض أو لدى الإحساس بالآم حسميه حاده أو لدى توافر الاتزان الغددى حيث يصير المرء فى حالة مزاجية جيدة . فالشروط الداخلية يمكن أن تتوافر لكى يكون الشخص مستعدا للإحساس بالسعادة أو بالحب ، كما أن تلك الشروط يمكن أن تتزلزل ويفتقد بعضها فيصير الشخص مفتقدا بالتالى إلى السعادة والحب .

وهناك من جهة ثانية النشاط الوجدانى الإنفعالى الناجم عن حالات وأوضاع خارجية كادراك حادث السيارة الذى ضربنا به مثلا . وكان يخسر التاجر مبلغا كبيرا من المال ، أوكان يوجه إليك أحدهم انتقادا لاذعا أو أن يوجه إليك اتهاما مشينا إلى آخر تلك الظروف والحالات الخارجية التى تحيط بك .

وثمة من جهة ثالثة ما يمكن أن نعتبره تجميعا بين الحالتين السابقتين أو بين النوعين السابقين من النشاط . هناك الحالات الموضوعية المرتكزة على مقومات وركائز ذاتية . فقد يوجه إليك صديقك ملاحظة بسيطة ، فتجد نفسك تقيم الدنيا وتقعدها وقد تشتم ذلك الصديق أو حتى لقد تضربه . وطبيعى أن يدهش المحيطون بك ، بل وقد تدهش أنت نفسك مما أصابك من وجدان ثائر ومن غضب فائر. والحقيقة انك قد جعلت من تلك الملاحظة البسيطة مفتاحا لاطلاق ما استجمع لديك من مقومات وجدانية مخزونة . لقد يكون صديقك ذاك قد أهانك قبل ذلك فى موقف معين ولم ترد عليه ، وقد تكون هناك مشكلات معينة تهدد كيانك النفسى ، فوجدت الفرصة لكى تفجر ما لديك من شحنات انفعالية مكبوتة .

والواقع أن الجهاز العصبى – وعلى رأسه المخ – هو المسئول عن إدارة عمليتى المعرفة والوجدان . ومن الخطأ أن يركز الانتباه على الوظائف المعرفية بالمخ دون الوظائف الوجدانية الخطيرة التى يقوم بها . ويقول لنا العلماء المتخصصون فى الجهاز العصبى إن قشرة المخ مسئولة عن الوظائف المعرفية ، كما أن دخيلة المخ هى المسئولة عن الوظائف الوجدانية الانفعالية . بيد أن من الخطأ أن ننظر إلى المخ بمثل هذه النظرة التخصصية الانعزالية ، بل يجب أن ننظر إليه بنظرة تكاملية . ذلك أن العلاقات الدقيقة والمعقدة التى تربط المخ كله بعضه ببعض تجعلنا لا نفصل فيه بين جزء وآخر .

الهورمونات والغدد الصم :

على الرغم من أن الجهاز العصبى المركزى والجهاز العصبى السمبتاوى يشرفان على جميع أنحاء الجسم ويعتمد مدى كفاءة أعضائه على مدى قدرة

هذين الجهازين على الإشراف والتوجيه ، فإن بعض تلك الأجهزة ذاتها مثل القلب والغدد الصم تؤثر بدورها فى قدرة ذلك الجهاز العصبى المركزى والجهاز العصبى السمبتاوى على العمل واستمرار بذل النشاط . فثمه تعاون متبادل إذن بين الغدد وما تفرزه من هورمونات وبين المخ وما يضطلع به من أعمال إشرافية وهيمنة على عمل تلك الغدد .

والواقع أن المخ يمكن أن يضبط عمل جميع تلك الغدد أو بعضها وذلك بما يفكر فيه من أفكار وما يحس به من وجدانات . ولكن من جهة أخرى فإن المخ لا يستطيع أن يفكر تفكيرا سليما ولا أن ينتحى إلى وجدانات متزنة إلا إذا كان هناك ما يسمى بالاتزان الغددى ، أعنى أن تكون كل غدة قد قامت بإفراز المطلوب منها إفرازه من هورمونات بنسب معقولة بلا زيادة ولا نقصان . فأنت عندما تدرك موقفا خطرا فإن مثل ذلك الادراك إنما يكون قد تم بواسطة مخك . ولكن ما أن يتم لك مثل ذلك الإدراك العقلى حتى يقوم جزء معين من مخك بإصدار أوامر معينة إلى بعض الغدد الصم وعلى رأسها الغدتان فوق الكليتين بأن تفرز كمية أكبر من هورمون الأدرنالين حتى يتلبس الكائن الحى كله بحالة انفعالية معينة هى الخوف والغضب فى نفس الوقت (وهنا ينبغى أن نلمح إلى التداخل الشديد بين انفعال الخوف وانفعال الغضب حتى لقد يتوقف حكم المشاهد على المنفعل بأنه ما إذا خائفاً أم غضبان) .

وهكذا تجد أن المخ قد أثر فى مجريات الأمور فى نطاق الغدد الصم وفى مناشطها . ولكن مثل ذلك الإفراز الذى يأمر به المخ ، ربما يؤثر فى عمليات الإدراك ذاتها . وأكثر من هذا فإن الاحكام التى يصدرها المخ بعد أن أمر الغدد بافراز الهورمونات بشدة ربما تنحرف عن الصواب ، كما أن النشاط الذهنى نفسه قد يضطرب وذلك بعد شدة الانفعال فيجرى المرء نحو حتفه بغير تمييز بين ما يرديه فى هوة الهلاك وبين ما ينقذه من الخطر .

على أن الهورمونات لا تقتصر فى عملها على إحداث انفعالات الخوف والغضب بل هى فى نفس الوقت تعمل فى بعض أنحائها على استحداث حالات

انسجامية متفائلة . فالهورمونات الجنسية مثلا هى التى تجعل المراهق يستشعر القوة والجبروت حتى لكأنه قد صار فى مقدوره أن يهز الدنيا كلها بيمينه أو أن يقهر البحر بيساره . والهورمونات الجنسية الأنثية عند البنت المراهقة هى التى تجعلها تحس بأن أفراد الجنس الخشن يتمنون رضاءها والتقرب منها وأنها قد منحت العذوبه فى تِمِّها والجاذبية فى أجمل أشكالها ، وأنها قد جمعت فى قَدِّها ومحياها جميع مقومات الفتنة والجاذبية .

ولعلنا نقول أكثر من هذا إن كل ما يمكن أن يستشعره الإنسان من سعادة أو رضا ذاتى ، إنما هو نابع من الإفرازات الهورمونية التى تؤثر فى المزاج العام للشخصية . وأكثر من هذا لعلنا نعزو ما يتسم به بعض الناس من حالات وجدانية شبه ثابتة – سواء منها الحالات الوجدانية المتفائلة أم الحالات الوجدانية المتشائمة – إلى كمية ونوعية الهورمونات التى تقوم الغدد الصم بإفرازها فى الدم مباشرة .

ولقد نقول إن انسان المستقبل سوف يتحكم فى إفرازات الغدد الصماء . أو بتعبير أدق سوف يتمكن من تحقيق وضمان استمرار التوازن الهورمونى لدى الفرد ، وأن يحقق المزاج المستقر والهادئ لبنى جنسه . ولكن المشكلة التى يمكن أن تُحَل من الناحية النفسية يمكن أن تفضى إلى نشوء مجموعة لا حصر لها من المشكلات الاجتماعية والإنسانية . أليست الشجاعة تنطوى على قدر معين من انفعال الغضب ؟ وأليست التضحية تحمل أيضا فى طياتها نوعا من الخروج عن الطور والمزاج المنحرف عن المألوف ؟ وأليست الحروب ذاتها ضرورية فى بعض الحالات ؟

ومن التساؤلات التى تستثار من وقت لآخر على الألسنه والأقلام بإزاء أمزجة الناس سواء كانت أمزجة متفائلة أم أمزجة متشائمة هى ما إذا كانت الظروف المحيطة بهم فى الحياه هى المسئولة عما يتبدى فى شخصياتهم من مزاج متفائل أو مزاج متشائم ، أم أن ما يعتمل بدخائلهم من إفرازات غددية هى لمسئول عن ذلك ؟ ومن الطبيعى أن ينقسم المجيبون عن مثل هذا التساؤل إلى

فئتين : فئة البيولوجيين ، وفئه الاجتماعيين . فالبيولوجيون يعتمدون فى تفسيرهم للأمزجة على ما يدور بداخل الجسم من مؤثرات ، بينما يعتمد الاجتماعيون فى ذلك على ما يقع للمرء من أحداث خارجية . وبناء على هذا فإنك تجد إجابة كل من البيولوجيين والاجتماعيين متباينة ، بل ومتناقضة . فالبيولوجى يقول لك : « فلنحدث تغيرات كيميائية عن طريق الهورمونات التى تفرزها الغدد الصم وذلك بأن ننشط بعض الغدد وبأن نطفئ نشاط بعضها الآخر » . أما الاجتماعى فإنه يقول لك فلنحسن أوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية ولنقم بتذليل الصعاب التى تعتور حياتهم ونخفف من غلواء المنغضات التى تؤرق نومهم وتضربهم بالضيق والتبرم فنحصل بذلك على الحل الناجع لما يعتور أمزجتهم من انحراف أو مرض .

وحتى بالنسبه للحالات المرضية النفسية والتى يحكم فيها بالجنون على الأفراد ، فإنك تجد أن المعالجين يتخذون طريقا من طريقين : الطريق البيولوجى من جهة ، والطريق الاجتماعى من جهة أخرى . فالمعالج البيولوجى يلجأ إلى التغيرات الهورمونية وغيرها من مؤثرات داخلية ، بينما يلجأ الاجتماعى إلى المؤثرات الخارجية وبضمنها الموسيقى ، وذلك بقصد إحداث تغيرات مزاجية تصل بالمجنون إلى شاطئ العقل والاتزان النفسى . وحتى بالنسبه للمعالحين الذين يستعينون بالطريقين معا ، أعنى الذين يأخذون بالتغيرات الهورمونية والتغيرات الاجتماعية فى نفس الوقت ، فإنك تجد الواحد منهم يرجح كفة أحد الطريقين على كفة الطرف الآخر . وبذا فإنه يكون فى نهاية المطاف متحيزا للبيولوجيا أو متحيزا للظروف الاجتماعية.

وحتى بالنسبة للمسائل الأخلاقية ، فإننا نجد أيضا فريقين من مصلحى الأخلاق : النوع الأول يقول إن الأخلاق الرديئة إنما هى صدى لما يتلبس به الشخص من تشاؤم ، ومن ثم فيجب أن نبدأ بالبحث فى كيفية إحداث التغيير المزاجى لدى المنحرف أخلاقيا . وهذا لا يتأتى إلا عن طريق إعطاء مثل ذلك الشخص الذى يعتبر مريضا بعض الحقن أو إستحداث بعض المؤثرات الغددية

لديه . أما المصلح الأخلاقى الآخر ، فإنه برغم اتفاقه مع زميله البيولوجى فى القول بأن المزاج التشاؤمى هو المسئول ، فإنه يرى أن المؤثرات الاجتماعية هى الكفيل الوحيد للتغيير . وهذا قد يتأتى بواسطة النقل إلى مكان آخر وتغيير الشخصيات التى تستثير المذنب أو تغيير الوظيفة أو الحرفة أو حتى تغيير النطاق الأسرى نفسه . ناهيك عما قد يستعان به من كلمات ومواعظ وإيحاءات تؤثر ولو ببطء فى إفراز الهورمونات وفى النشاط العقلى الذى يقوم به المخ .

وإذا أنت سألت مجموعة من الناس عن رأيهم فى هذين المنهجين : المنهج البيولوجى والمنهج الاجتماعى ، فإنك سوف تجد أن كثيرا من الأصوات سوف تناهض المنهج الأول باعتبار أنه منهج مضاد للحرية الإنسانية . والواقع أن الكثير من الناس يفضلون عدم التغيير إلى الأحسن طالما أنهم يتشككون فى الوسيلة التى تتبع لذلك . والأمر هنا شبيه بالموقف بتجاه أقراص منع الحمل . فثمة من يقولون إن تعاطى أقراص منع الحمل خطأ من الخطأ ، وذلك لأنه يعمل من الداخل ويخرج عن حدود الحرية والمسئولية . والتحديد المشروع يجب أن يكون بعدم ممارسة الجنس على الإطلاق أو ممارسته فى مواعيد يرجح ألا يحدث الحمل خلالها .

وما يقع بالنسبة لأقراص منع الحمل حاليا قد سبق ووقع لدى اختراع التخدير بواسطة البنج واستخدامه فى العمليات الجراحية لتخفيف الألم . فقيل وقتئذ إن استخدام الوسائل البيولوجية مضاد للقيم . ويمكن أن يقال نفس الشئ بإزاء التغيرات الهورمونية التى يمكن أن ترد مجنونا إلى عقله أو مجرما عن جرمه أو معوج الأخلاق عن اعوجاجه . ألا تجد من يعترض إذا ما استخدم العلاج الهورمونى فى معالجة بعض الانحرافات الجنسية ؟ وهل يوافق الجميع على استخدام العلاج بالهورمونات من أجل زيادة التفاؤل وخفض نسبة التشاؤم لدى الأشخاص العاديين ؟ إننا نشك فى ذلك ونعتقد أن أصواتا عالية واحتجاجات صاخبة سوف ترتفع أصداؤها حتى ولو كانت النتائج مضمونة تماما .

الطاقة الحيوية :

يختلف الكائن الحى عن الجوامد فى أنه بالإضافة إلى خضوعه للقوانين الفيزيائية التى تخضع لها الجوامد ، فإنه يختص بمجموعة من الميزات التى تشكل قوانين قائمة بذاتها لا تشاركه فيها الأجسام غير الحية . فالإنسان كسائر الكائنات حية يخضع لقانون الجاذبية مثلاً . فإذا ما انزلقت قدم أحد عمال البناء وهو يعمل فى عمارة شاهقة ، فإنه يهوى إلى الأرض بنفس الطريقة التى تسقط بها قطعة من الخشب أو قالب من الطوب من ذلك الإرتفاع إلى الأرض . بيد أن الإنسان وغيره من الكائنات الحية ينبعث فى نشاطه من دخيلته سعيا وراء أهداف تتعلق بالنمو أو بالتكاثر . فالنبات – وهو ضمن الكائنات الحية – ينمو إلى أعلا . وهو بهذا يناهض قانون الجاذبية . وأنت قد يروق لك أن تتسلق سفح أحد الجبال وبذا فإنك تقاوم الجاذبية التى تعمل بالطبع على جذبك إلى أسفل .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن ثمة قوة داخلية تعتمل فى أوصال الكائنات الحية . وتلك القوة الداخلية لا تسير فى تواز بالضرورة مع الخط الذى تسير وفقه قوى الطبيعة الجامدة وقوانينها الفيزيائية . على أنها قد تتساوق معها وتنهج نفس النهج الذى تنحو إليه ، كما هو الحال عندما تجرى أنت من أعلى الجبل بتجاه السهل فتضيف فى هذه الحالة قوتك الحيوية إلى قوة الجاذبية الأرضية . وبذا فإن قوتك الحيوية لا تتعارض مع قوة الجاذبية الأرضية بل تؤازرها وتنضاف إليها وتدعم كل منهما الأخرى .

من هنا فإننا نستطيع القول بأن ثمة قوة حيوية معتملة فى قوام الكائنات الحية . ولقد يذهب المفسرون لتلك القوة الحيوية تفسيرات متباينة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان . فثمة أولا من يقولون إن تلك القوة الحيوية إنما هى من طبيعة غريبة عن طبيعة الأرض ، أو أن ثمة مباينة جوهرية بينها وبين كل ما هو أرضى . وعلى هذا فإن المتحمسين لهذا الرأى يقولون إن الحياة على الأرض منقولة أو مستضافة من كوكب آخر . فربما خرجت بعض الكائنات الحية فى سفينة فضائية كسفينة نوح البحرية الشهيرة وقاموا بنقل قبس من الحياة التى تشيع بكوكبهم –

وهو كوكب كله حياة ، أو هو كوكب سبقنا فى سلسلة التطور وجمع بين أنحائه كل مقومات الحياة – وزرعوا الحياة على الأرض بصورها البسيطة وصورها المعقدة فى نفس الوقت . وثمة فى تاريخ الأديان من قالوا إن الحياة مزروعة على الأرض بواسطة إلـه أو آلهة متعددين ، وإن الأرض قديمة منذ الأزل . أما الحياة بمظاهرها المتباينة والمتدرجة فإنها متسحدثة بواسطة القوة الإلهية . والطاقة الحيوية الموجودة بالكائنات الحية هى ذلك القبس الإلـهى الذى أودعه الإلـه أو الآلهة فى المخلوقات الأرضية .

أما الرأى الثانى فهو يقول إن التفاعلات الكيميائية والصدفة المواتية هما المسئولتان عن انبثاق تلك الطاقة الحيوية . ولقد تكون تلك الطاقة الحيوية بمثابة غلطة وقعت فى سياق التفاعلات الكيميائية عبر ملايين السنين . وواضح أن مثل هذا التفسير يغض النظر عن القول بالغيبيات محاولاً البحث عن أسباب وعوامل ومقومات طبيعية أرضية يرتكز إليها ويعتمد عليها فى التفسير.

ومهما كان التفسير الذى ينحو إليه المرء ، فلا محيص من القول بأن ثمة طاقة حيوية مباينة للطاقة الطبيعية التى تشتمل عليها الكائنات الجامدة . وبالإضافة إلى هذا فإن ثمة تبايناً بين المناشط التى تقوم بها الكائنات الحائزة لتلك الطاقة الحيوية وبين الكائنات الجامدة التى لا تحوزها . ولعلنا نقول إن جميع الكائنات الحية ابتداءً من النباتات فى أبسط صورها حتى أعقد الكائنات الحية جميعا وهو الإنسان إنما تتضمن الإطار العام لتلك الطاقة أو القوام الجوهرى لها بحيث يمكن أن نعتبر جميع الكائنات الحية نباتية كانت أم حيوانية أم إنسانية فئه واحدة كبيرة .

على أن هذا لا يحول دون القول بأن تلك الطاقة الحيوية تخضع لعوامل التغير والتشكل بحيث تستحيل إلى صور متعددة وإلى كيفيات متباينة . فثمة مثلا لدى الإنسان نوعيات متباينة من الطاقة يمكن أن نذكر منها الطاقة الجسمية والطاقة الوجدانية والطاقة العقلية . ولقد يقول قائل إن ثمة طاقة واحدة هى الطاقة البيولوجية التى يستحيل قبس منها إلى نوع جديد من الطاقة هو الطاقة

الوجدانية . ثم يستحيل قبس من هذه الطاقة الأخيرة إلى نوع جديد ثالث هو الطاقة العقلية . ومن جهة أخرى قد يذهب البعض الآخر إلى القول بأن الطاقات الثلاث إنما هى نوع واحد بغير استحالة جوهرية وإنما يحدث فقط تنوع فى التعبير عنها . فالطاقة العقلية مثلا ليست فى حقيقة الأمر سوى شطر من الطاقة الحيوية الذى وجد له منفذا عقليا ذهنياً .

ولقد يتسنى لنا أن نستبين نوعين من الطاقة الحيوية : نوع إيجابى ونوع آخر سلبى . والطاقة الإيجابية هى طاقة الإقبال ، والطاقة السلبية هى طاقة الإدبار . فأنت إذا أحسست بالجوع فإنك تجد نفسك مقبلاً بنهم على الطعام ، وعلى العكس من ذلك فإنك إذا أحسست بخطر يقترب منك ويهدد حياتك أو يؤلمك فإنك تنفر منه وتبتعد عنه . فى الحالة الأولى وهى حالة الإقبال تكون مستخدما للطاقة الحيوية الإيجابية ، بينما تكون فى الحالة الثانية الإدبارية مستخدما للطاقة الحيوية السلبية .

ولعلنا نستبين حالة نفسية معينة قبل الإقبال على الطعام فى حالة الجوع أو على الماء فى حالة العطش . افترض إنك ضللت طريقك فى الصحراء ، ورأيت عن بعد ما يشبه الماء — سواء كان غديرا أم سرابا — فإنك عندئذ تحس — قبل أن تقبل على الماء ساعيا نحوه — بأن الفرج قد أتى وبأن الأزمة قد حُلّت . وهذا ما يسمى بالتفاؤل . ونفس الشئ يقال عن المرحلة أو الحالة التى تمر بها قبيل وقوع الكارثة أو الحادثة . فالشخص الذى يجد عربة على وشك أن تدهمه إنما يحس فى اللحظات التى تسبق الحادث — سواء وقع بالفعل أم كان على وشك الوقوع — بأن شيئا كريها ومخيفا سوف يقع .وهذا الإحساس هو ما يعرف بالتشاؤم .

والواقع أن الإحساس بالرضا والإرتياح والسرور لدى مشاهدة ما يشبه أن يكون ماء بالصحراء أو ما يتوقع من خطر داهم فى حالة إقبال السيارة فجأة بتجاه المرء ، إنما هو طاقة تستخدم مرة على نحو إيجابى فى الحالة الأولى ، ومرة أخرى على نحو سلبى فى الحالة الثانية . وبتعبير آخر نقول إن ثمة طاقة حيوية تفاؤلية من جهة ، وثمة طاقة حيوية تشاؤمية من جهة أخرى . ولقد نقول إن كلا

النوعين من الطاقة إنما هما فى الواقع طاقة حيوية واحدة تستخدم مرة بطريقة إيجابية ومرة أخرى بطريقة سلبية حسب متطلبات الموقف .

وثمة طريقان لتوجيه تلك الطاقة الحيوية : الطريق الأول هو الطريق الشعورى الواعى ، أما الطريق الثانى فهو الطريق اللاشعورى غير الواعى . فأنت عندما تدرك الطعام وأنت جائع. وعندما تترجم رائحة اللحم المشوى أو الطبيخ ذى النكهة المسيلة للعاب إلى معنى فى مركز الإدراك الخاصة بالرائحة والذوق فى مخك ، فإن أمراً يصدر من مخك إلى المركز غير المتعين لنا والمسيطر على مقاليد تلك الطاقة الحيوية يأمره بأن يطلق طاقة إيجابية للإقبال على مصدر الطعام . وعلى العكس من ذلك فى حالة مشاهدة النيران المستعرة تقترب منك تهددك بالموت ، فإن إدراك مخك للخطر يجعله يأمر مركز الطاقة بأن يطلق قدرا كبيراً من الطاقة السلبية التى تمكنك من الهرب والنجاة بنفسك من الهلاك . ولقد يحدث لك ذلك كله فى أثناء نومك فترى أحلاما مريحة تنطلق بسببها طاقة إيجابية أو أحلاما مزعجة تنطلق بسببها طاقة سلبية . وطبيعى أن يكون نشاطك فى أثناء منامك لاشعوريا .

ونحن فى الواقع نفهم اللاشعور بمعنيين : المعنى الأول – الحالة التى تسبق تكوين الشعور وبلورته ، والثانى الحالة التى تترسب فيها الخبرات إلى نطاق من الجهاز النفسى أطلق عليه فرويد اسم اللاشعور حيث تبيت تلك الخبرات غير المرغوبة لكى تظهر فى وقت أو آخر . والمعنى الأول للاشعور يتضح فى حالة الوليد الذى يبكى . إنه يبكى بغير رصيد خبْرى قائم لديه ، كما أنه قد يبتسم بعد فترة من ولادته بغير أن يكون لابتسامه معنى فى ذهنه . أما المعنى الثانى للاشعور فإنه يتضح فى حالة الوقوع تحت طائلة النوم أو تحت تأثير مخدر أو بعد الإصابة بالجنون . وهنا أيضا تتجه الطاقة التفاؤلية والطاقة التشاؤمية بغير وعى أو ضبط من جانب المرء .

القدرات الوظيفية :

نستطيع أن نستبين قوامين أساسيين بالنسبة للإنسان : القوام الداخلى الخاص به من حيث هو مجموعة من الإمكانيات الموروثة والمكتسبة . والقوام الخارجى حيث الواقع البيئى وما يشتمل عليه من أشياء ميسورة وأشياء صعبة وأشياء متعذرة . والسهل والصعب والمتعذر هى كذلك فى ضوء ما أفعم به المرء من إمكانيات وقدرات ومواهب . من هنا نستطيع أن نتحدث عن القدرات الوظيفية بالنسبة للإنسان ، أعنى علاقة قوامه الداخلى بالقوام الخارجى المحيط به والذى يجابهه ويتحداه .

وبهذه المناسبة يجب أن نميز بين نوعين من الاستحالة ، وهما النوعان اللذان يواجهان الإنسان : النوع الأول هو الاستحالة العملية . والنوع الثانى هو الاستحالة المنطقية . والاستحالة العملية يمكن أن تنهزم وأن تتحول إلى إمكانية . من ذلك مثلا طيران الإنسان فى الهواء أو خروجه من نطاق الجاذبية الأرضية والتغلب على الكثير من الأمراض . لقد كان الطيران والخروج من نطاق الجاذبية الأرضية والتغلب على الأمراض استحالات عملية . ولكن الإنسان استطاع بإعمال فكره من جهة وبالاسفادة من المحاولات العديدة الفاشلة السابقة فى هذه المضامير من جهة ثانية ، أن يتغلب على تلك الاستحالات العملية . ولسوف يتسنى للإنسان فى المدى البعيد أو فى المدى القريب أن يتغلب على كثير من الاستحالات العملية الكثيرة التى ما تزال تجابهه . من أمثلة تلك الاستحالات القدرة على التغلب على التفجر السكانى بالعالم أو توزيع السكان على سطح الكرة الأرضية توزيعاً عادلاً أو التغلب على مشكلة الجوع إلى غير ذلك من استحالات عملية .

أما بخصوص الإستحالات المنطقية فإن الإنسان سوف لا يتمكن فى الحاضر أو فى المستقبل مهما كان بعيدا أن يتغلب عليها ويقهرها . ومن أمثلة تلك الاستحالات إحالة العدم إلى وجود ، أو تحويل المستقبل إلى ماض مع وجود الحاضر بينهما ، أو جعل ١ + ١ = رقما آخر غير ٢ بإعتبار أن هذا قالب منطقى لا باعتباره أشياء محسوسة يمكن تجزئتها وجعل الواحد مكونا من أكثر من واحد كان تقطع الرغيف إلى نصفين

فيصير العدد واحد (أى الرغيف) اثنين أى جزأين . وهكذا نستطيع أن نقدم أنواعا كثيرة من الاستحالات ، وهى جميعا استحالات منطقية .

هذا بالنسبة للإنسان بصفة عامة . أما بالنسبة لأفراد الإنسان ، فإن الواحد منا يجد نفسه واقعا فى اطار إجتماعى معين ، وقد غرست فيه بالفطرة أو بالاكتساب مجموعة من الإمكانيات التى يمكن الإفادة منها فى الواقع العملى . بيد أن المرء لا يستطيع أن يضيف إلى قوامه الداخلى أشياء جديدة لم يفطر عليها . ومن ثم فإنه يحس بالعجز عن القيام بها أو إجادتها . خذ مثالا لذلك : افترض أنك وجدت نفسك مسوقا بحكم المجموع الذى حصلت عليه فى الثانوية العامة إلى إحدى الكليات التى يفرض على خريجيها بأن يصيروا معلمين ، وأنت غير مؤهل بالفطرة ولا بالاكتساب لأن تعلمِّ الناس . ذلك أن المعلم الجيد مطبوع وليس مصنوعا . ولكن الظروف حتمت عليك أن تكون معلما . وفى كل موقف تعليمى تجد نفسك خائبا وغير قادر على ضبط الفصل ولا على إيصال المعلومات إلى تلاميذك ، أو افترض أن بك عيبا فى النطق يجعل تلاميذك يتندرون عليك ويضحكون منك بصوت مرتفع ويستهزئون بك كلما نطقت بالكلمات بطريقة غير صحيحة وافترض أنك ظللت على هذه الحالة عدة سنوات . فماذا يكون شعورك نحو ماضيك الوظيفى ونحو حاضرك ونحو مستقبلك ؟ إخال أنه الشعور بالتشاؤم والانقباض . ولكن افترض أنك كنت موهوبا فى عملية التعليم وأنك قضيت السنوات العديدة بنجاح فى الفصول بين تلاميذك محفيا بك ، وقد اخذوا يستبشرون بملاقاتك والإستماع إليك والأخذ عنك والإفادة من علمك . فماذا يكون حالك إذن التفاؤل والاستبشار والرضا والابتهاج بما مضى وبما أنت فيه وبما تتوقع أن تلاقيه فى المستقبل . وليس لنا من تفسير لما قد تشعر به من تفاؤل أو تشاؤم إلا أنك قد نجحت أو فشلت فى مجابهة واقع الحياة ، وأنك تستوحى إحساسك بالنجاح أو بالفشل مما يتبدى أمامك من نتائج عملية فى حياتك ، سواء من حيث ما تجنيه من فوائد أم من حيث ما تنجح فيه من علاقات مع غيرك من الناس ، أم من حيث ما تحققه من توافق نفسى ووظيفى تحس به أنت فى قرارة نفسك وتقف عليه نتيجة تقويمك لمدى قدرتك ومهارتك فى معالجة المواقف التى تجابهك

ولعلنا نستعرض سويا الأجهزة المسئولة عن تحقيق النجاح فى المواقف الاجتماعية المتباينة والتى يتضح من خلالها مدى قدرة المرء على إثبات وجوده الوظيفى فى الحياة من حوله . ثمة أولا - الكفاءة الجسمية . والواقع أن تلك الكفاءة نسبية بمعنى الكلمة . فكفاءة الملاكم جسميا تختلف عن كفاءة الموسيقار ، فكفاءة الملاكم تتصل بعضلاته ، بينما تنصب كفاءة الموسيقار على الأعصاب المسيطرة على أصابعه . وكفاءة شرطى المرور الجسمية تتمثل فى قدرته على كثرة الوقوف وعدم الإحساس بالتعب نتيجة ذلك ، بينما تتمثل قدرة الكاتب الجسمية فى مدى تحمله للجلوس إلى المكتب مدة طويلةبغير أن يحس بالإرهاق . وواضح أن الكفاءة الجسمية بنوعياتها المتباينة إذا لم تتوافر للمرء للنهوض بالمطلوب منه ، فإنه يحس إذن بالتشاؤم . فإذا ما أحس شرطى المرور بأنه راغب فى الجلوس وعدم الوقوف أو إذا أحس الكاتب بأنه راغب فى الوقوف بدلا من الجلوش ، فإن كلا منهما يحس إذن بالنقص فى الكفاءة الجسمية ، وبالتالى فإنهما يحسان بالتشاؤم قبالة كيانهما الاجتماعى الذى يتمثل أكثر ما يتمثل فى القدرة الوظيفية .

ولقد يصاب المرء بعاهة جسمية ولكنها لا تشكل استحالة تحول بينه وبين النهوض بعمله أو بالنشاط الذى يستهويه . وقد سبق أن ألمعنا إلى حالة بيتهوفن ، كما نشيرإلى نيتشه الذى لم يقبل فى الجيش الألمانى لعدم كفاءة بنيته ، فأحل القلم محل السيف ، وأثبت أن لديه قوة لا تقل عن قوة السيف وإن كانت متلبسة بصيغة أخرى هى الكلمة المكتوبة . وطبيعى أنه إذا ما وقفت العاهة عائقا أمام المرء فى إنجاز المهام التى يرغب فيها أو فى تحقيق التوافق الاجتماعى سواء فى العمل أم فى البيت وبخاصة مع الزوجة أو الزوج جنسيا وأخلاقيا ،فإن التشاؤم يخيم إذن على الجو النفسى لصاحب تلك العاهة

أما الجهاز الثانى المسئول عن النجاح فى المواقف الاجتماعية المتباينة فهو الجهاز الوجدانى . فثمة مواقف اجتماعية ووظائف بحاجة إلى انضباط عصبى مكين . خذ أمثلة لذلك سائق السيارة والمعلم والمحامى . إنهم بحاجة إلى قدرة عصبية لتحمل المواقف الحرجة أو لمغالبة المشكلات المفاجئة أو حتى ما قد يبدر من الآخرين من

تصرفات فيها خدش للمشاعر أو احتكاك أو صدام . فكلما كان الواحد منهم متذرعا بالقوة العصبية – ولا نقول بالصبر الذى قد يكون متساوقاً مع الضعف العصبى – فإنه يستطيع إذن أن يتغلب على المواقف الصعبة والمفاجئة التى تتحداه .

أما الجهاز الثالث فهو الذكاء والقدرات الخاصة . وهنا ينبغى أن نقرر أن بعض المسئوليات الاجتماعية بحاجة إلى مستوى عالٍ من الذكاء . وأن بعض المسئوليات الأخرى لا تحتاج إلا إلى ذكاء متوسط . والذكاء ليس نوعا واحدا بل هو عدة أنواع . فذكاء المهندس يختلف عن ذكاء رجل السياسة . وذكاء قائد السيارة يختلف عن ذكاء النحات . وبتعبير آخر هناك ذكاء استاتيكى وهناك ذكاء ديناميكى . والذكاء الاستاتيكى يتعلق بالعلاقات القائمة بين الأشياء الساكنة . بينما يتعلق الذكاء الديناميكى بالأشياء المتحركة فى علاقاتها بعضها ببعض . وهناك ذكاء مكانى وذكاء زمانى . والذكاء المكانى يتعلق بالعلاقات بين الأشياء الراهنة . بينما يتعلق الذكاء الزمانى بالأحداث السابقة والراهنة والمقبلة فى تشابكها . فيرى صاحب هذا الذكاء ما يحتمل وقوعه ويعمل وفق ما يتوقعه . وهناك ذكاء لغوى وذكاء تصرفى . والذكاء اللغوى يتبدى فى العلاقات القائمة بين ما يقوله الشخص وبين ما يقوله الآخرون ، بينما يتبدى الذكاء التصرفى فيما يقوم من علاقات بين التصرفات المتباينة . وواضح أن الشخص الذى يعرف نفسه ويوجه نشاطه إلى ما يمكن أن يتميز به من ذكاء يكون متفائلا ، وعلى عكس ذلك فإذا ما وجه المرء نفسه إلى أعمال أو مسئوليات أو مواقف لا تناسبه عقليا فإنه يستشعر التشاؤم وقد خيم على حياته .

التوافق الجنسى :

عمد فرويد إلى تركيز النظر على الجنس كأساس لتفسير السلوك الإنسانى . ونحن هنا سوف نحاول إلقاء الضوء على الصلة الوثيقة بين التوافق الجنسى وبين النزوع إلى التفاؤل أو التشاؤم . ومن الواجب أولا أن نفهم الجنس بالمعنى العام لهذا اللفظ وهو نفس المعنى الذى استخدمه فرويد بإزائه . فهو الطاقة الشهوية العامة التى تعم الجسم كله ، أعنى السطح الخارجى كله ، ثم يأخذ التركيز مجراه فى مناطق معينة بالجسم مع

استمرار انتشار تلك الطاقة الشهوية العامة على سطح الجسم كله . ومن جهة أخرى فإن تلك الطاقة الشهوية تبدأ مع الميلاد نفسه بطريقة لاشعورية (بالمعنى العام) أولا ، ثم يبدأ الطفل يحس بها ويدركها . وفى المراهقة يستحيل جانب من تلك الطاقة الشهوية الجنسية العامة إلى طاقة شهوية تناسلية . ذلك أن الأعضاء التناسلية تبدأ فى النشاط والنضج وتصير مستعدة للنهوض بالوظائف التناسلية التى تستهدف الإنجاب.ومن جهة ثالثة فإن الجنس يبدأ خلوا من التلبس بالقيم والتقاليد والعادات الإجتماعية ، ثم ما يلبث أن يصطبغ بالصبغة الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الذى ينشأ فيه المرء.. وكما يقول فرويد فإن الطفل الذكر يعشق أمه ، بينما تعشق البنت أباها ، ولكن ما تفتأ التربية تكبت هذه الميول غير الموجهة إجتماعيا وتتكون عقدة أوديب عند الولد وعقدة الكترا عند البنت .

ولعل أول مستوى من التوافق الجنسى الذى يحرزه المرء هو التوافق الجنسى الذاتى . ولهذا المستوى التوافقى مجموعة من الشروط أهمها : تناسب الطاقة الشهوية العامة المكفولة للفرد منذ ميلاده إلى شيخوخته مع حاجاته النفسية . ذلك أن تلك الطاقة يمكن أن تكون كميتها أكثر من اللازم أو أقل من اللازم . وفى الحالتين ينحرف التوافق الجنسى عن مسيرته الطبيعية . ثانيا – توزيع تلك الطاقة الشهوية العامة وما يتفرع عنها من طاقة تناسلية وَفْق المراحل النمائية فى الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة . ثالثا – النجاح فى توجيه واستقبال الطاقة الشهوية العامة إلى الآخرين ومنهم . ذلك أن الطفل إذا ما أحس بأنه يوجه طاقته الشهوية إلى الآخرين بينما هم يصدُّون عنه ولا يرغبون فيه ولا يبادلونه حبا بحب ، فإنه ييتئس ويتشاءم . ذلك أنه فى مثل تلك الحالة يحس بأنه ينفق بغير أن يحصل على عائد بديل لما ينفقه .

وهذا يسوقنا فى الواقع إلى الحديث عن المستوى الثانى من التوافق الجنسى وهو التوافق الجنس الغيرى . وهنا لا نتحدث عن الصادر والوارد من الطاقة الشهوية إلى ذات الشخص ، بل نتحدث عن المواقف الاجتماعية والعملية . وثمة فى الواقع ناحيتان هامتان فى نجاح العلاقات الجنسية أولا – القبول فى أعين الجنس الآخر ،

ثانيا – النجاح فى استمرار إقامة علاقات جنسية ناجحة مع شخص بالذات من الجنس الآخر والاستمرار فى تلك العلاقة مع تجديدها وتنشيطها وتأصيلها .

وبالنسبة للقبول فى أعين الجنس الآخر فإننا نعنى موقفا عاما غير متخصص وغير دائم وغير متبلور ولا يقصد من ورائه إقامة علاقات تناسلية . والواقع أنه فى هذا العصر حيث يؤخذ بمبدأ الاختلاط بين الجنسين فى الحياة العامة ، وحيث سقط الحجاب الذى كان يفصل بين الجنسين ، فقد صار للقبول فى أعين الجنس الآخر أهميته فى نجاح المرء فى الحياة العملية . ونحن لا نقصد هنا بالقبول أن يكون أفراد الجنس الآخر راغبين فى إقامة علاقات خاصة مع الفرد ، بل يكونون فى حالة من الإرتياح والسعادة لدى التعامل معه . ولا شك أن مثل هذا الارتياح والقبول والسعادة يحدث صدى نفسيا لدى المرء فيقبل على المجالات المشتركة التى ينخرط فيها معهم بجد واجتهاد محاولاً إثبات تفوقه أو أنه جدير بالثقة التى أولاها له أفراد الجنس الآخر . ولا شك أن النجاح فى هذا الصـــدد يشكل شرطا للنجاح فى إقامة علاقة جنسية خاصة مع شخصية واحدة من أفراد الجنس الآخر . ويخطئ من يعتقد أن الانفتاح على الجنس الآخر يحول دون إمكان إقامة علاقة جنسية تناسلية خاصة مع زوج أو زوجة . المهم هو أن تكون العلاقات مع أفراد الجنس المقابل – وهى العلاقات السابقة على العلاقة بالزوج أو الزوجة – علاقات عامة ونفسية إجتماعية فحسب ولا تداخلها مناشط تناسلية

أما فى العلاقات الزوجية ، فثمة أولا النجاح فى إقناع الطرف الآخر قبل الخطوبة وفى أثنائها بأنه الشخصية الكفيلة بتوفير أسباب السعادة له طوال الحياة . وبعد إتمام الزواج تكون ثمة ناحية نفسية وأخرى تناسلية فى وقت واحد . ناهيك عن النواحى الاقتصادية والاجتماعية . وبالنسبة للناحية النفسية فلا بد للطرفين من العمل على تأكيد العلاقة بينهما وتجديد علاقات الحب بحيث لا يذبل بعد مضى فترة تقصر أو تطول على الزواج . والحب يتجدد كلما أحس كل من الطرفين أن الطرف الآخر يؤثره على نفسه ويفضل رغباته على رغباته الشخصية ، وأن ثمة تنازلات وتضحيات يقدمها فى سبيله ، وأنه يتذكره فى حضوره وفى غيابه . وأنه لا ينسى المناسبات

الخاصة به كعيد الميلاد وعيد الزواج ، وأنه كَلِف بالذرية التى أتت منه . ذلك أن حب الأطفال دليل على حب الطرف الآخر الذى شارك فى الإنجاب . بيد أن من الضرورى الحفاظ على عدم توجيه دفة الحب إلى الأطفال واهمال الأصل الذى شارك فى الإنجاب . ولا شك أن مشاركة الطرفين فى رتق الفتق فى العلاقة بينهما كلما هبت عواصف الخلاف إنما تدعم الحب وتحييه وتجدده .

وبالنسبة للعلاقات التناسلية ، فلا بد من الوصول إلى السياسة التى ترضى الطرفين . وعلى كل من الطرفين مراعاة ظروف الطرف الآخر ورغباته وامكانياته واستعداداته وألا يرغم أو يلح على الطرف الآخر لممارسة الجنس بينما هو ناب عنه وغير راغب فيه .

ولا شك أن النجاح فى الجنس بالمعنى العام ومنذ نعومة الأظفار حتى الشيوخة عن طريق توافر الشروط والظروف التى عرضنا لها ، ثم النجاح فى العلاقات التناسلية الخاصة بالزوج أو بالزوجة ، لما يعمل على جعل المرء متفائلا . وعلى العكس من ذلك إذا كان الشخص فاشلا ومنبوا عنه من الجنس الآخر وغير مقتنع بنفسه كموضوع جنسى يمكن الإقبال عليه ، وما يقع فى حياته الاجتماعية من مواقف تؤكد له صدق حدسه وتدعم إحساسه بالنقص الجنسى ، فإنه يضحى شخصية متشائمة .

ولعلنا فيما يلى نعرض لأهم الجوانب التى تساعد المرء على أن يستشعر الثقة فى نفسه جنسيا . أولا – المظهر العام من حيث القامة وتناسق الأعضاء وملامح الوجه والقدرة على التعبير بالوجه والذراعين وطريقة المشى والوقوف والجلوس وجمال الطلعة والصحة العامة التى تبدو فى قدِّه الممشوق وفى تجانس وانسجام حركاته وفى متانة بنيته ومدى سلامة أعضائه كالعينين والأذنين والأسنان وكفاءته فى مجابهة صعاب الحياة بنجاح وذلك بما كفل له من صحة وحيوية .

ثانياً – الاتزان الوجدانى وعدم الاندفاع أمام الموقف أو التخلف بعده . فالاتزان الوجدانى يقف المرء على التوقيت السليم للفظ يقال أو للغضب يثور أو للضحك ينفجر أو للإبتسامة ترسم على الشفتين أو للتمسك بالضبط والصمت والتغلب على الغاضب بالحلم ، أو للتغلب على المستهزئ بالغضب . وفى الجنس – وهو يرتبط

بالاتزان الوجدانى بالمعنى العام – ينحو المتزن وجدانيا إلى عدم الإندفاع فى الغرام الأجوف وفى نفس الوقت عدم التذرع بالبرود الجنسى مع شريك العمر أو الوقوف موقفا منفرا وصادا مع أفراد الجنس الآخر ، وهو ما يتذرع به أولئك الذين يحتقرون الجنس المقابل لجنسهم .

ثالثا – الكفاءة الجنسية التناسلية . ذلك أن القدرة على الممارسة بين الزوجين بنجاح واشباع الطرف الآخر شرط أساسى وجوهرى فى نجاح الزواج . وثمة فارق بين الاندفاع التناسلى وبين التوافق التناسلى . المهم هو النجاح فى سياسة الطرف الآخر والوصول به إلى قمة السعادة والإنتشاء .

ولا شك أن السعادة الزوجية تعتمد على مراعاة رغبات ومتطلبات وما جبل عليه الطرف الآخر . ولا نغالى إذا قلنا إن قسطا كبيرا من تفاؤل بعض الأزواج والزوجات إنما يرتد إلى نجاحهم فى علاقتهم تناسليا بعضهم مع بعض ، كما أن قسطا كبيرا من تشاؤم بعض الأزواج والزوجات إنما يرجع إلى فشلهم فى تلك العلاقة . ولا يعزب عن البال ما يحدث من تعميم فى النظرة من الجنس إلى جميع أنحاء الحياة فلا يقتصر الإحساس بالتفاؤل والتشاؤم على العلاقة بين الزوجين بل يشمل كل ما يتصل بهم من قريب أو بعيد .



الفصل الحادى عشر

التفسير بالخبرات السابقة

الفصل الحادى عشر

التفسير بالخبرات السابقة

صدمة الميلاد :

من المفاهيم الخاطئة والسائدة على عقول كثير من الناس الظن بأن الباب الوحيد الذى تدخل منه الخبرات إلى الشخصية هو باب الشعور . والواقع أن الخبرات – أعنى ما يؤثر فينا ككائنات حية متكاملة لا كعقول واعية مدركة ما حولها وما يعتمل بداخلها فحسب – لها طريقان تسلكهما : الطريق الأول هو الطريق اللاشعورى (بالمعنى العام للفظ) ، والطريق الثانى هو الطريق الواعى الذى يدركه المرء . وما نكتسبه بالطريق اللاشعورى لا يقل – إن لم يزد – عما نكتسبه بالطريق الشعورى . وطالما أننا قد اتسعنا بالطريق التى تسلكها الخبرات إلينا فجعلناها طريقين وليس طريقا واحدة ، فلابد لنا أيضا أن نتسع بمعنى الخبرة . فيمكن إذن أن نقول إن متعاطى المخدرات الذى لا يستطيع ممارسة عمله الا إذا كان قد حصل على جرعة من المخدر الذى دأب على تعاطيه قد اكتسب خبرة معينة . وتلك الخبرة المكتسبة ليست خبرة ذهنية فحسب ، بل هى خبرة بيولوجية أيضا تتعلق بنظام جسمه نفسه . ومعنى هذا إذن أن الجسم يتأثر فى نظامه بمؤثرات معينة تجعله يسير وفق نظام معين . وما يتأثر به الجسم ويتمرس به هو خبرة .

ونحن لا نفصل بين خبرة وأخرى لا من حيث النوع ولا من حيث الأهمية . ذلك أننا ننظر إلى الكائن الحى بنظرة تكاملية . فهو جهاز واحد ذو أجهزة جزئية تعمل جميعا فى إطار ذلك الجهاز الواحد الكبير ، ولا تقل الخبرات البيولوجية العامة أو الفسيولوجية الخاصة (كاعتياد أحد الأطفال على استخدام يده اليسرى بدلا من يده اليمنى فى الكتابة وفى تناول الأشياء) عن الخبرات الوجدانية أو الخبرات العقلية أو الخبرات الاجتماعية أهمية وشأنا وتأثيرا فى السياق النشاطى الذى ينهجه الكائن الحى .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر مع فرويد أن ثمة ما يسمى بصدمة الميلاد the trauma of birth . ذلك أن الجنين فى بطن أمه حتى قبيل ميلاده . إنما يكون محاطا بجو حشوى مستقر ، ويكون متقبلا للغذاء وحاصلا على ما يلزم جسمه من أوكسجين عن طريق الحبل السرى ، ويكون عائما فى ذلك الإناء الناعم ، ولا يكون عرضة لدرجات حرارة جوية متقلبة . ولا لأيدٍ خشنة تمسك به وتجذب أطرافه بشدة ، ولا لتلك القيود الجديدة التى تفرض عليه من حيث ما يشد على جلده الناعم من أقمطة وما يخضع له فى تناول رضعاته من قيود ومواعيد إلى غير ذلك مما يشكِّل جميعه ما أطلق عليه فرويد هذه التسمية . على أننا نعود فنؤكد أن فرويد لم يكن ليعنى أن الوليد يدرك أى شئ من تلك الصدمة بعقله الواعى . ذلك أن اللبنات الأولى – وهى المدركات الحسية – لا تكون قد أرسيت بعد فى بناء شخصيته الذهنية .

وما يمكن أن يعنيه فرويد ونعنيه نحن أيضا هو أن الطفل الوليد يتلقى صدمة عنيفة تؤثر فيه من حيث هو كائن حى بيولوجى لا من حيث هو كائن حى عقلانى . بيد أن ما يعانيه البيولوجى يظل معتملا فى أنحائه من جهة ، كما أنه يبدى ثماره الإحباطية فى ذهنه العقلانى من جهة أخرى . وبتعبير آخر فإن المعاناة البيولوجية التى يلقاها الوليد والتى يعبر عنها بالبكاء – وهو الذى ينفعه فى نفس الوقت لأنه يفتح رئتيه ويمرر فيهما الهواء – تظل معتملة فى أنحائه ومؤثرة فى وجدانه ، ولكنها تظل فى حالة كمون بتلافيف الشخصية . ويمكن تقريب هذا من أذهاننا بما يمكن أن نستشعره من ضيق نفسى بعد اسيقاظنا من حلم مزعج عانينا منه فى منامنا ولكن ذاكرتنا لا تعى منه شيئا بعد استيقاظنا . فعلى الرغم من عدم تذكرنا لشئ من ذلك الحلم المزعج . فإن آثاره المكدرة تظل معتملة بطريق خفية أو مستخفية فى عقلنا الواعى ونحس بشئ خفى يزلزل كياننا الداخلى كما تحس الكلاب بالزلزال قبل وقوعه .

ولقد يتسنى لنا أن نقول إن الوظائف الوجدانية والعقلية والاجتماعية التى تضطلع بها الشخصية إنما هى فى الواقع تفريعات من جذع واحد هو الجذع البيولوجى . فالأساس فى الشخصية هو الأساس البيولوجى . وهذا الأساس يظل هو الركيزة

الأولى طوال الحياة . وكل ما يتعلق بالبيولوجى يتبدى تأثيره فى الوجدانى والعقلى بدرجات متفاوته . ولقد يكون التأثير ضعيفا جدا بحيث لا يكاد يبدو للعيان . ولقد يستخفى التأثير حتى لقد تتعذر البرهنة على وجوده . من هنا فانك تجد الكثيرين يستنكرون القول بصدمة الميلاد ويتهكمون من القائلين بها وذلك لشدة استخفاء تأثير تلك الصدمة فى حياة المرء الشعورية .

ولعلنا نتساءل بعد هذا : ما علاقة صدمة الميلاد بكل من التفاؤل والتشاؤم ؟ إننا نعتقد أن تلك الصدمة موجودة لدى جميع الناس ولكن بدرجات متفاوتة وبمدى متفاوت من التأثير . ومثل هذا التفاوت فى التأثير يرجع إلى أسباب متعددة . فهناك أولا – الاستعداد الطبيعى لدى الوليد للتكيف للبيئة الطبيعية و لاجتماعية الجديدة التى تغلفه بعد الميلاد مباشرة . ولسنا نشك فى أن الناس متباينون فى تلك القدرة التكيفية . والواقع أننا نحن الكبار أيضا نتباين الواحد عن الآخر فى تلك القدرة التكيفية . فثمة واحد إذا ما نقلته من بيئته الطبيعية الحارة (مثلا) إلى بيئة باردة فإنه قد يموت أو قد يوشك على الموت ، بينما قد لا يحس قرين له انتقل من نفس البيئة إلى البيئة الجديدة بشىء من الصعوبة فى التكيف للمناخ الجديد . ثانيا – الرفق بالوليد والتدرج به بقدر الإمكان بحيث تصير الصدمة بالنسبة له خفيفة بقدر المستطاع . من ذلك مثلا مراعاة طقس الغرفة فتكون درجة حرارتها قريبة من درجة حرارة الأم أعنى ٣٧ درجة مئوية ، وأن يكون الفراش والأقمطة خفيفة وملساء وألا يحمله على ذراعيه الا من يعرف الأوضاع التى تريحه ولا تؤلمه ، إلى غير ذلك من احتياطات تجعله غير مجابه لبيئة مناقضة تماما للبيئة الحشوية التى كان بها . ثالثا – الرفق بالوليد من حيث الأصوات والأضواء والحركات التى تحيط به . فالصوت والضوء والحركة أشياء جديدة تماما تصافح الوليد لأول مرة ، الأمر الذى يجعلها شديدة التأثير فيه . من ثم فإن التخفيف منها جميعا هو بالتالى تخفيف من شدة صدمة الميلاد .

ونحن نعتقد أن المتفائلين هم أولئك الذين لم تؤثر فيهم صدمة الميلاد تأثيرا بالغا ، كما أن المتشائمين هم أولئك الذين تأثروا بصدمة الميلاد بشدة بحيث صارت ركيزة

أولى فى حياتهم أنبنت عليها سائر المقومات الوجدانية والذهنية غير المواتية التى تتجمع جميعا لكى تشكِّل القوام التشاؤمى للشخصية المتشائمة .

ولقد يتساءل البعض عن المناحى التى تتبدى فيها صدمة الميلاد لدى المتشائمين . الواقع أن المنحى الأول الذى تظهر فيه صدمة الميلاد فى حياة المتشائم هو الميل إلى الانتحار . والانتحار فى نظر البعض هو رغبة فى الفناء وهذا غير صحيح . والصحيح هو أن الانتحار هو ميل نكوصى يعود بمقتضاه المنتحر سيكلوجيا إلى البيئة الحشوية . بيد أن البيئة الحشوية التى يعود إليها المنتحر ليس بطن الأم الضيق أعنى أحشاءها ، بل هو بطن الأم الكبرى ، أعنى الأرض . أما المنحى الثانى الذى تتبدى فيه صدمة الميلاد لدى المتشائم فهى التقوقع حول الذات . ولسنا نعنى هنا معنى مجازيا فقط ، بل نعنى المعنى المجازى والمعنى الحرفى المباشر للفظ . فالمتشائم يتقوقع نفسيا واجتماعيا حول نفسه وهذا هو المعنى المجازى ، ثم هو يتقوقع جسميا أيضا حول ذاته وهذا هو المعنى الحقيقى والمباشر . ويتبدى هذا فى الطريقة التى ينام بها المتشائم . إنك تجده يتخذ وضعا شبيها بوضع الجنين ببطن أمه حيث تنسحب الأطراف الأربعة إلى مركز الجسم ويتكور وكأنه يريد أن يتركز جميع جسمه فى نقطة واحدة أو أن يأخذ أضيق حيز ممكن . وفى بعض حالات الجنون كالسوداوية melancholia فإن المريض يظل على هذا الوضع بصفة دائمة غير راغب فى التعامل مع الآخرين ، بل ويرفض تناول الطعام بطريق الفم مما يضطر معه المسئولون عن علاجه إلى استخدام الخرطوم لإيصال الغذاء السائل إلى معدته . وهذا وإن بدا منفرا لغير المريض ، فإنّه يرضيه نفسيا ، لأن الخرطوم الذى يصل إلى أمعائه مباشرة يرمز إلى الحبل السرى الذى حرم منه بعد الميلاد . وهذا مظهر أيضا من المظاهر النكوصية لدى المتشائم كنتيجة لصدمة الميلاد .

خبرات الطفولة الأولى :

كان لفرويد الفضل أيضا فى توجيه الانتباه إلى خطورة الطفولة الأولى وما يمكن أن يتلقاه الطفل خلال هذه المرحلة من خبرات تظل معتملة فى كيانه النفسى طوال عمره . وما كان يُعْتبر قبل فرويد نسيانا بمعنى الأمحاء ، صار على يد فرويد نسيانا

بمعنى الانطار والاختباء مع الاستمرار فى العمل والتأثير فى قوام الشخصية فى أية مرحلة من مراحل العمر . وبهذا فإن فرويد يكون قد تصور الشخصية بمثابة طوابق فى عمارة واحدة حيث يشكل كل طابق منها مرحلة نمائية معينة وحيث يعتمد كل طابق على جميع الطوابق التى تقع تحته . وبتعبير آخر فإن مرحلة كمرحلة المراهقة تستند على مرحلتى الطفولة السابقتين عليها ، أعنى مرحلة الطفولة الأولى ومرحلة الطفولة الثانية ، ثم هى تهيىء - أى مرحلة المراهقة - ومعها ما سبقها من مرحلتى الطفولة للمرحلة التالية أى مرحلة الشباب .

فالشخصية الانسانية فى بنائها تسير بطريقة تفاعلية تراكبية . والتفاعل معناه أن أى شيء بالشخصية يتفاعل مع كل شى بها . فالموروث يتفاعل مع المكتسب ، والحصيلة الناتجة عن هذا التفاعل - وهى مركب وليس مزيجاً - إنما تتفاعل بدورها مع المقومات الخبرية البيئية الجديدة . ولا شيء يفنى أو يستنفد من الشخصية ، بل كل شيء فيها يظل حيا وقادرا على التفاعل إما بالطريق المباشرة وإما بالطريق غير المباشرة .

والطفل فى مرحلة الطفولة الأولى يتلق نوعين أساسيين من الخبرات مما يحيط به من بيئة اجتماعية وطبيعية : خبرات إيجابية مرغوب فيها ، وخبرات سلبية منفِّرة ينبو عنها المرء ويتأذى من اصطدامها به . والنوع الأول من الخبرات يحقق اللذة أو السعادة أو النمو للطفل ، بينما تعمل الخبرات السلبية فى النوع الثانى على إصابة الطفل بالألم أو الشقاء أو الإعاقة عن النمو والتفتح . ولاشك أن النوع الايجابى من الخبرات هو الذى يشكِّل المقومات التفاؤلية بالشخصية ، كما أن النوع الثانى من الخبرات هو الذى يشكل المقومات التشاؤمية بها . وكما سبق أن قلنا فإنه كلما رجحت كفة الخبرات الايجابية كان المرء أميل إلى التفاؤل . وعلى العكس فإنه كلما رجحت كفة الخبرات السلبية كان المرء بالتالى أميل إلى التشاؤم بإزاء نفسه وبازاء العالم المحيط به .

ونذكِّر أيضا بما سبق أن قررناه ، وهو أن المؤثر الخبرى كلما كان أقرب من نقطة بداية التكوين الأولى ، أعنى لحظة تكوين الجنين ببطن الأم كان أشد فاعلية وتأثيرا . وعلى هذا الأساس فإن الخبرات التى يتلقاها الطفل خلال طفولته المبكرة تكون أشد

فاعلية وتأثيرا فى شخصيته من الخبرات التى ترد اليه خلال طفولته الثانية . وبالتالى فإن الخبرات التى يتلقاها الطفل خلال الطفولة الثانية تكون أشد فاعلية من الخبرات التى يتلقاها فى المراهقة . وهكذا دواليك بالنسبة لمراحل العمر التالية . بيد أنه يجب أن نلاحظ أن كل مرحلة من مراحل النمو تختص بمجموعة من الخبرات التى لا يمكن اكتسابها فى المراحل السابقة عليها . فتعلم القراءة مثلا لا يمكن كسبه للطفل خلال الطفولة الأولى ، بينما يتسنى ذلك خلال الطفولة الثانية . وطبيعى أن تجد الأطفال يتفاوتون من حيث الفوراق الفردية . فثمة أطفال سريعو النضج عن غيرهم ، بحيث قد يتعلم الواحد منهم القراءة مثلاً فى الشطر الأخير من الطفولة الأولى . وهناك من جهة أخرى أطفال متأخرو النمو ، فلا يتسنى للواحد منهم تعلم القراءة إلا فى الشطر الأخير من الطفولة الثانية .

ويحسن بنا أن نستعرض نوعيات الخبرات الإيجابية ثم نوعيات الخبرات السلبية التى تشارك فى تكوين الاتجاه التفاؤلى والاتجاه التشاؤمى على التوالى . ولنبدأ بالنوعيات الإيجابية التى تكون ذات فاعلية فى شخصية الطفل خلال طفولته الأولى . ثمة أولا – ما يتعلق بالحاجات والرغبات الجسمية . وهنا علينا أن نضع نصب أعيننا ذلك التمايز القاطع والمحدد بين الحاجة والرغبة . فبعض ما يكون الطفل بحاجة اليه يرغب فيه وبعضه الآخر ينبو عنه . فبينما يجد الطفل نفسه مقبلا بلذة على شرب اللبن الذى يعمل على نمو جسمه فى نفس الوقت ، فإنه قد يجد فى تناول أمه له بالاستحمام وهو يبكى ما يؤلمه ، مع أن جسمه بحاجة إلى النظافة ولكنه لا يرغب فى هذه العملية التى يكرهها .

وحاجات الطفل فى هذه المرحلة من الناحية الجسمية هى (١) الحاجة إلى التغذية الملائمة كمًّا وكيفا . (ب) الحاجة إلى الحرارة المناسبة والتعرض للطقس الطبيعى حتى يحصل جسمه على القدرة على التكيف لتقلباته ويصير متينا بازاء تلك التقلبات . (جـ) الحاجة إلى الهواء المتجدد . (د) الحاجة إلى النظافة (هـ) الحاجة إلى النشاط الجسمى لجميع عضلات جسمه بما يناسبه من نشاط أو تدريبات رياضية . (و) الحاجة إلى التحصين ضد الأمراض التى تصيب الطفولة فى تلك المرحلة ، ثم العلاج مما قد يصيب الطفل بالفعل من أمراض .

ثانيا – ما يتعلق بتوفير الطمأنية والاستقرار النفسى للطفل . وهذا يتم بالطرق والشروط الآتية : (أ) الحفاظ على العالم الخاص بالطفل وعدم اقتحام ذلك العالم كلما عَنَّ للكبار ذلك . (ب) توفير الحب والحدب على الطفل وعدم أخذه بالعنف أو باللامبالاة . (جـ) توثيق العلاقة بين الوالدين وباقى أفراد الأسرة بحيث يضمن الطفل استقرار العلاقات الأسرية ورسوخها وعدم تزلزلها . (د) توفير الهدوء بالبيت واجتناب الضوضاء والأصوات المفاجئة أو الحركات غير المتوقعة التى يمكن أن تشتت الطمأنينة لدى الطفل (هـ) عدم استعراض هموم الأسرة ومآزقها المالية أمام الطفل اذ أن ذلك مما يجعله كسير القلب محطم الأمل .

ثالثا – ما يتعلق بتوفير الخبرات والمهارات للطفل . والمثل الأعلى هنا هو توفير المتغيرات الكثيرة حول الطفل وترك الحرية له فى الاختيار . وشرط النمو الخِبْرى الصحيح هو أن يقع الطفل على أشياء وينبو عن أشياء أخرى . ويفسد الكبار فى كثير من الأحيان على الطفل حياته العقلية وذلك بأن يفرضوا عليه حتى قبل التحاقه بالمدرسة فى هذه المرحلة الخبرات أو المهارات التى عليه أن يتقبلها ويستوعبها ويتقنها صاغرا . والواجب أيضا أن تتاح للطفل فرصة التعبير عن نفسه بالطريقة التى يشاؤها بغير تدخل للتصحيح أو للتقويم وبغير إلحاف عليه بأن يتحدث بسرعة بطريقة معينة يحددها له الكبار .

رابعا – ما يتعلق بتوفير العلاقات الاجتماعية السليمة للطفل . وذلك بأن تتوفر للطفل المستويات الاجتماعية المتباينة وبخاصة عالم الطفولة من أقرانه . وهنا ننبه إلى عدم حرمان الطفل أيضا من عالم الكبار كما يفعل بعض الآباء والأمهات ، وذلك بأن يستبعدوا الطفل عن مجالس الكبار كلما عَنَّ له أن يجالسهم ويتحدث اليهم . ولكن يجب على الكبار أيضا أن ينتقوا الموضوعات التى يطرقونها فى حضرة الطفل فى هذه المرحلة المبكرة . وحذار أيضا من معاملته كدمية أو كشخص مضحك وأيضا من معاملته كشخص كبير مسئول .

وبينما تعمل هذه المقومات الإيجابية التى عرضنا لها على تكوين الاتجاه التفاؤلى لدى طفل فإن ما نعرضه فيما يلى من مقومات سلبية إنما يعمل على تكوين الشخصة

التشاؤمية لديه . هناك أولا – حرمان الطفل من الأشياء التى يحبها ويتمنى حصوله عليها وبخاصة الحلوى والأطعمة التى يسيل لها لعابه بصفة مستمرة بحيث يضحى الحرمان سمة نفسية مستمرة تتأصل بالشخصية حتى بعد توافر تلك الأشياء بين يديه فى مراحل العمر التالية . ثانيا – معاقبة الطفل بحرمانه من تناول الطعام أو بالوقوف لمدة طويلة أو بحرمانه من النوم أو بالضرب أو بأى من أنواع التعذيب الجسمية . **ثانيا** – إهمال الطفل اذا مرض من وسائل العلاج الناجعة أو من العطف عليه فى أثناء المرض . ذلك أن الطفل فى حالة المرض يكون شديد الحساسية ويكون جائعا إلى العطف والتدليل . **ثالثا** – إحراج الطفل وتسفيهه أمام الآخرين أو شتمه أو عزله عن الجلسة أو التحدث عن عيوبه وأخطائه مع الزائرين . رابعا – التربص بالطفل فيما يقول أو يقترح وبالتأكيد على أنه عاجز عن التفكير الصحيح أو عن إبداء الرأى عن أو المشاركة فى الكلام . ومن أخطر ما يفصح به الآباء والأمهات أمام أطفالهم فى هذه المرحلة هو خوفهم من أن يكون الطفل متخلفا عقليا أو التهامس مع الآخرين بخصوص مشكلاته ، الأمر الذى يضربه بالإحباط وفقدان الثقة بالنفس . **خامسا** – تهديد الأب للأم بالطلاق بين الحين والحين وانقلاب جو الأسرة ظهرا لبطن من وقت لآخر أو تهديد الطفل وأخوته بالطرد من البيت والتشرد بالشوارع ، أو الوقوع فى جو أسرى به زوج أم أو زوجة أب ، أو الشعور بأن الطفل لم يكن له أن يولد أصلا لأنه زائد عن حاجة الأسرة إلى الأطفال أو لأنه بنت والأسرة تكره البنات .

التقييم الجنسى :

سبق أن ألمعنا إلى ما للجنس من أهمية فى حياة الانسان منذ نعومة الأظفار ، وقلنا إن الجنس يبدأ عمله فى حياته منذ الميلاد . ولا شك أن فرويد كان محقا عند ما أناط بالجنس تلك الأهمية الكبرى فى حياة المرء وفى علاقاته بالآخرين وفى تكيفه لنفسه وتوافقه مع الآخرين بل وفى نجاحه فى الحياة بعامة وفى سعادته فى نهاية الأمر .

والواقع أن الشخص طوال حياته منذ الطفولة يأخذ فى تقييم نفسه جنسيا ، سواء أمام نفسه ، أم أمام الآخرين . فهو يحكم على نفسه بنفسه من جهة ، ثم هو

يأخذ أحكام الآخرين عليه فى اعتباره من جهة أخرى . فهو يتذوق نفسه فى سياق عملية الالتذاذ الذاتى " autoeroticism " . ذلك أن الطفل كما قلنا يشتمل على طاقة لذية شهوية تحيط بسطح جسمه كله بلا تحديد أو تركيز على عضو معين أو على قطاع جسمى بالذات ، وبغير تركيز أيضاً على موضوع خارجى بالذات . فثمة عمومية فى اللذة الجنسية فى المرحلة الأولى من الطفولة الأولى تتضمن فيما تتضمن أيضا تقييما جنسيا ذاتيا للشخص نفسه من قِبَل نفسه . وعندما تتكون لدى الفرد نزعة تخصيصية فى الاشتهاء الجنسى ، أى عندما تتجه الطاقة الشهوية الى موضوعات خارجية تتمثل فى الأشخاص الآخرين من الجنس المقابل ، فان ذلك يكون متواكبا فى نفس الوقت مع تقييم جنسى يحصل عليه الشخص من جانب أفراد الجنس الآخر الذين يتعامل معهم أو يلاقيهم فى دروب الحياة المتباينة .

والواقع أن تقييم الجنس الآخر له دلالات سيكلوجية واجتماعية عميقة وبعيدة الأغوار فى النفس . وهناك ما يمكن أن نسميه بالتأثير المتبادل بين التقدير الجنسى وبين النجاح والتوافق الاجتماعى . فالذى يحظى بالتقدير والإعجاب الجنسيين يعكس هذا الاعجاب وذلك التقدير على أعماله ومناشطه الاجتماعية . وكذا فان النجاح فى المناشط الاجتماعية كثيرا ما يلقى بالتالى تقديرا جنسيا من جانب الجنس الآخر . وشاهد ذلك ما يمكن أن تلاحظه من تفوق وحماس بالمدارس المشتركة التى تأخذ بنظام اختلاط الجنسين . فالأولاد ينبغون فى الدراسة وفى المناشط الرياضية والاجتماعية طمعا فى الحصول على تقدير البنات . وكذا فان البنات يجتهدن ويتفوقن حتى يحصلن على تقدير الأولاد . ولقد يتخذ هذا المطلب – أعنى الحصول على تقدير الجنس الآخر – شكلا معكوسا أو مقلوبا بقصد التمويه الشعورى المقصود أو اللاشعورى غير المقصود من كلا الجانبين . فتجد أن الأولاد والبنات وقد اشتعل أوار التنافس فيما بينهم . ولكأن الأولاد يريدون قهر البنات ، ولكأن البنات يردن إيقاع الهزيمة بالأولاد . والواقع النفسى هو أن كل مجموعة من المجموعتين تريد أن تحظى باعجاب وتقدير الفئة الأخرى .

أما عن التأثير الثانى العكسى ، أى تأثير المكانة الاجتماعية أو التفوق الاجتماعى فى التقدير الجنسى فإنه يتبدى فى التقدير الجنسى الذى يناله المتفوقون فى المجالات المتباينة . من ذلك مثلا ما يحظى به النجوم المشهورون من الفنانين والرياضيين ، والمبرِّزون من العلماء والفلاسفة والأدباء والناجحون فى الحياة الاقتصادية والسياسية ونحو ذلك .

ولاشك أن ثمة صلة قوية وراسخة ومستمرة بين التقدير الجنسى وبين كل من التفاؤل والتشاؤم . ولعل هذا يتضح أكثر ما يتضح اذا ما قمت بتحليل شخصيات المتفائلين وشخصيات المتشائمين . إنك تجد أن المتفائل من الجنسين يكون فى نفس الوقت قد لقى تقديرًا جنسيا عاليا من أفراد الجنس الآخر . وعلى العكس من ذلك فانك تجد أن المتشائم لا يكون قد حظى بالتقدير الجنسى السليم . بيد أن من الواجب أن نميز بين التقدير الجنسى وبين كمية النشاط التناسلى المبذول أو ما يتسنى للشخص الحصول عليه أو ممارسته من علاقات جنسية تناسلية . فلقد تجد شخصا لا يكاد يمارس نشاطا جنسيا تناسليا أو لا يمارس مثل ذلك النشاط على الاطلاق ومع ذلك فانه يحظى بتقدير جنسى عال من أفراد الجنس الآخر . وعلى العكس من ذلك فانك قد تجد شخصا غارقا فى ممارسة النشاط الجنسى التناسلى ولكنه لا يلقى أى تقدير جنسى من أفراد الجنس الآخر . ولعلنا نميز بين التقدير الجنسى وبين ممارسة النشاط الجنسى التناسلى بمقارنتها بالموضوع الخارجى نراه ، وبنفس الموضوع الخارجى ونحن فى بؤرته . فأنت لا تستطيع تقدير أى شىء مهما كان ، تقديرا جماليا الا اذا كانت بينك وبينه مسافة تسمح لك بمشاهدته من مسافة معقولة . أما اذا صرت أنت بذاتك ضمن ذلك الموضوع الجميل وفى إطاره ، فإنك لا تستطيع استبانة الملامح الجمالية التى يتسم بها والتى تجعل منه موضوعا جميلا .

ونفس الشىء يصح بالنسبة للتقدير الجنسى . فهو ممكن اذا تسنى مشاهدة الشخص كموضوع لا يُسْتغرق فيه الشخص . والواقع أن الرجل لا يقف على جمال المرأة بتأمل جسمها فى حد ذاته ، بل بتأمل الجسم فى نسب أعضائه وفى علاقاته بألوان الملابس وفى الحركات التى تأتيها المرأة وفيما توجهه من أصوات وهى تتحدث ،

وما تبديه من إشارات وحركات وايماءات وفيما تصوغه من أقوال وفيما توجهه إلى من تتحدث اليه من نظرات إلى غير ذلك من جوانب تكسبها جمالا وبالتالى تهبها تقديرا جنسيا من جانب أفراد الرجال .

وكذا يقال عن الرجل الذى يتمتع باقبال النساء عليه والذى يحظى بالتقدير الجنسى من جانبهن . إنه يحظى بمثل ذلك التقدير نتيجة أشياء كثيرة لا يحتل النشاط التناسلى مركز البؤرة فيها . فثمة المظهر العام والقدرة على الإبانة والمهارة فى التحدث إلى الجنس الناعم والجدية فى تحمل المسئوليات والقدرة على التواؤم مع الظروف المتغيرة ، والتفوق اللغوى والجدية فى تحمل الشدائد وإبداء القوة فى مقاومة الخصوم وضبط الأعصاب وعدم الانهيار أمام المشكلات والأخطار والقدرة على حماية المرأة والطفل والضعيف وإعلان الرأى بحصافة وحكمة إلى غير ذلك من خصائص .

ولا نخطىء إذا قلنا إنه كثيرا ما يحدث أن يتلاشى التقدير الجنسى بعد الحصول على الإشباع التناسلى . وعلى الرغم من أننا لا نعمم هنا فاننا نستطيع أن نقرر أنه فى كثير من الزيجات يفقد الطرفان الكثير مما كان يبهرهما جنسيا قبل الزواج . ولعل الأزواج الذين يحتفظون بالكثير من التقدير الجنسى فى نظر أزواجهن وزوجاتهم هم أولئك الذين لم ينغمسوا كلية فى المعاشرة التناسلية ، أو هم الذين أعطوا أنفسهم الفرصة لأن يظلوا فى كثير من الأوقات التى يقضونها بالبيت موضوعات مبهرة جنسياً واجتماعيا ونفسيا . ويكون موقف هؤلاء كموقف من يتأمل الموضوع الجميل من مسافة مناسبة وذلك بالبعد عنه والتخلص من الاستمرار فى بؤرته . ذلك أنك طالما توجد فى بؤرة الموضوع فإنك لا تستطيع استبانة الملامح الجمالية فيه .

وإذا كان لنا أن نفسر التفاؤل والتشاؤم فى ضوء التقدير الجنسى ، فإننا نستطيع من زاوية أخرى أن نقول إن التفاؤل يدعم التقدير الجنسى ، كما أن التشاؤم يقلل من مثل ذلك التقدير الجنسى . فالمتفائل يعزز التقدير الجنسى لدى أفراد الجنس الآخر . ذلك أن التفاؤل يعنى فى نفس الوقت الثقة بالنفس والثقة فى المستقبل والحاضر والرضا عن الماضى . ولعل المتفائل يوحى بغير قصد من جانبه لأفراد الجنس الآخر بأن يثقوا فيه ويعتمدوا عليه ، بل إنه يدعوهم إلى السعادة التى يحسها والرضى الذى

يستشعره والأمل الذى يعقده على الخطوات التالية فى حياته . وعلى العكس من ذلك فإن المتشائم ينفِّر أفراد الجنس الآخر منه وذلك بسبب الظلمة التى تخيم على حياته والتى تأخذ به كل مأخذ والتى تجعل جميع الطرق مسدودة أمامه .

وعلينا فى الواقع أن نميز بين التقدير الجنسى وبين الوقوع فى الغرام . صحيح أن الوقوع فى الغرام هو نوع من التقدير الجنسى الشديد الذى يأخذ بالألباب ويُنسى الشخص جميع الأشخاص الآخرين الذين يمكن أن يحظوا ببعض تقديره الجنسى . ولكن مع هذا فإن التقدير الجنسى ربما يكون خاليا تماما من الغرام والتعلق . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الكثير من حالات التقدير الجنسى لا يشعر أصحابها بأنها من الجنس فى شىء ، بل قد يعتبرون ما يبدونه من تقدير نوعا من التقدير الاجتماعى الخالى خلوا تاما من النوازع الجنسية . ولقد يكون سبب إنكارهم هذا هو فهمهم للجنس بمعنى التناسل بغير أن يأخذوا فى اعتبارهم الفارق بين الجنس وبين التناسل كما فعلنا نحن هنا .

التقييم الأقتصادى :

عرضنا فى الموضوع السابق للعلاقة بين الازدهار الاقتصادى الذى تحرزه الشخصية وبين التقييم الجنسى من جانب أفراد الجنس الآخر . وفى هذا الموضوع نقوم باستعراض ما يسفر عنه التقييم الاقتصادى للشخص فى المجتمع وتقييم مكانته بناء على مثل هذا التقييم . ذلك أن ثمة علاقة قائمة ومستمرة بين الوضع الأقتصادى الذى يحتله المرء وبين تقدير الناس المحطين به وتقييمهم لشخصه .

ويخطئ من يعتقد أن ذلك التقييم للشخصية المنبى على تقييم وضعها الاقتصادى ثابت غير متغير لا بتغير المجتمعات من واحد منها إلى الآخر ، ولا من حيث الزمان بالنسبة للمجتمع الواحد من عصر إلى عصر آخر . والحقيقة التى ينبغى ألا تعزب عن البال هى أن ذلك التقييم متغير سواء من مجتمع إلى مجتمع آخر ، أم بالنسبة للمجتمع الواحد من عصر إلى عصر آخر . ولعلنا نزعم بحق أن ثمة ما يمكن أن نسميه بمحور الاهتمام لدى المجتمع الواحد فى العصر الواحد . لقد يكون محور الاهتمام بأحد

المجتمعات فى عصر ما محورا دينيا . وقد يكون محورا إداريا رئاسيا . وقد يكون محورا عصبيا . وقد يكون محورا عضليا يتعلق بالقوة البدنية . كما قد يكون محورا عسكريا إلى آخر ذلك من محاور متعددة .

وطبيعى أن يقاس الأفراد فى المجتمع – أى مجتمع – فى ضوء المحور الذى يشكل المركز أو بؤرة اهتمام المجتمع . ففى المجتمع الذى يكون المحور فيه محورا دينيا ، فإنك تجد أن الشخص كلما كان أكثر تدينا وأكثر تمسكا بالتقاليد والعادات والمعتقدات والعواطف الدينية كان أكثر أهمية فى نظر المحيطين به والمتعاملين معه . والعكس صحيح بالطبع . فكلما كان الشخص غير متمسك بالدين والقيم الدينية وشعائره كان خليقا بأن يحتقر أو يضطهد أو يرذل ويستبعد من الأوساط الاجتماعية . وبالتالى فإنه لا يحظى بالتقدير الاجتماعى .

وما يقال عن المحور الدينى ينسحب بازاء جميع المحاور التى يمكن أن تحتل مراكز اهتمام المجتمعات على تباينها أو مركز اهتمام المجتمع الواحد فى العصور المتباينة . بيد أن هذا لا يعنى أن تلك الجوانب التى يمكن أن تتشكل منها محاور اهتمام المجتمع تختفى تماما إذا لم يصر الواحد منها محور الاهتمام بالمجتمع . فالواقع أن جميع تلك الجوانب تظل قائمة ومؤثرة على نحو أو آخر ، مع تباين قوتها وفاعليتها وسيطرتها . ومع تفوق واحد منها على جميع الجوانب الأخرى بحيث يصير محورا أساسيا يعبر عن الاهتمام الرئيسى للمجتمع .

ومعنى هذا فى الواقع أن التقييم الاقتصادى للمرء قائم فى جميع العصور وفى جميع المجتمعات . بيد أن الاهتمام بالمستوى الاقتصادى لا يشكل دائما محور الاهتمام الرئيسى بالمجتمع فى جميع العصور . وبالتالى فإذا كان محور الاهتمام بأحد المجتمعات هو الثقافة مثلا ، فإن ما يناط بالجانب الاقتصادى من أهمية – برغم وجوده واعتماله لا يشكل المحور الرئيسى فى تقييم الأفراد ، بل يكون للثقافة هذا النصيب الأكبر . ثم يأتى التقييم الاقتصادى فى مستوى تال للتقييم الثقافى مباشرة أو بعد أنواع أخرى من التقييم كالتقييم الدينى أو السياسى أو البدنى أو غير ذلك من ألوان التقييم المتباينة .

ونستطيع أن نعرض لأربعة محاور اهتمام أساسية توالت على عروش الاهتمام بالمجتمع المصرى منذ الثلاثينيات حتى اليوم برغم علاقتها جميعاً بالجانب الاقتصادى . فنجد أنه خلال الثلاثينيات كان محور الاهتمام منوطا بالوظيفة الحكومية . ذلك أن الاقتصاد المصرى كان متدهورا وكانت التجارة كاسدة والصناعة غير نابضة بالحياة . وكان موظف الحكومة هو أكثر الناس اطمئنانا لوضعه ومكانته بالمجتمع . وفى ذلك العهد أطلقت بعض الأمثال منها « أن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » وهى الأمثال التى تنم على عظمة الوظيفة الحكومية ومدى ماكان يحمله الناس من إعظام وتقدير وإجلال للموظف الحكومى .

ولكن ماكادت الحرب العالمية الثانية تشتعل حتى تدهورت حال الموظفين وانتقلت السيادة من الوظيفة بقدوم عام ١٩٤٠ لتستقر فى يد التجارة . وساعد على ذلك – أو كان المنفذ له – ما أطلق عليهم اسم أثرياء الحرب . وتلك الطبقة بدأت باحراز الثروة عن طريق التعامل مع قوات الاحتلال الانجليزى وبخاصة فيما يتعلق بقطاع التموين الغذائى والنقل ورصف الطرق والمبانى .

وظلت هذه الحال إلى حين قيام ثورة ١٩٥٢ عندما أعلنت التأميمات وظهر القطاع العام وأخذ ينافس القطاع الخاص منافسة شديدة . وقد أخذت الثورة بنظام تعيين الخريجين الجامعيين جميعا كالتزام من جانب الدولة . كما توافرت الحوافز المادية لمن يقوم بدراسات عليا يحصل بمقتضاها على الماجستير والدكتوراه كما فتحت الكثير من الجامعات الجديدة وحدد جدول مرتبات لكل مؤهل دراسى بحيث يظل صاحب المؤهل العالى فى رأس الهرم الوظيفى بصفة مستمرة .

ولكن ما أن دخلت مصر حديثا فى عصر الانفتاح الاقتصادى حتى دالت دولة المؤهلات الدراسية بل والوظائف الحكومية وغير الحكومية . كما ظهرت أوضاع جديدة فى الاقتصاد المصرى تتمثل فى ارتفاع مكانة الحرفة إلى أعلى عليين . والحرفة لا ترتبط بطبعها بالمؤهل الدراسى على الإطلاق بل ترتبط بالإنتاج الفعلى الذى يمارس مباشرة باليد ويعتمد عليها . ناهيك عن ظهور نوعيات جديدة من التجارة المربحة للغاية كتجارة أراضى البناء والتصدير والاستيراد وتجارة الكماليات التى ظل

الشعب متعطشا لها لحقبة طويلة من الزمن مثل الاتجار فى الثلاجات والغسالات والتليفزيونات والسيارات الفاخرة وغيرها .

وعلى الرغم من أن العامل المشترك فى جميع تلك التغيرات الاجتماعية المتتالية هو العامل الاقتصادى ، فإننا نلاحظ أن العامل أو العنصر الظاهر والبارز كان متغيرا بل وكان مباينا للناحية الاقتصادية . وقد كانت المحاور الاهتمامية على التوالى هى : الوظيفة الحكومية ثم التجارة ثم المؤهلات الدراسية (ولا نقول الثقافة) ثم أخيرا الحرفة اليدوية والتجارة فى نوعيات معينة .

وإذا تساءلت عن تأثير تلك المحاور فى تكوين اتجاهى التفاؤل والتشاؤم فى قلوب وعقول الناس ، فإننا نقول إن من الأمور الواضحة والتى لا تحتاج إلى برهان أن الفئة التى يقيض لها الازدهار تتسم قلبياً وعقلياً بالتفاؤل ، بينما يخيم التشاؤم على الفئة التى تبتلى بالبوار . وواضح أن الحرفى الذى صار دخله يناهز فى بعض الأحيان حوالى ثلاثمائة جنيه فى الشهر الواحد ، وبخاصة بالنسبة لمن يعملون فى المعمار ببعض الدول العربية ، فلابد أنه يرى الحياة من حوله مفروشة بالورود ، بل إنه ينسى ماضيه الوبىء ، ويأخذ فى الاستبشار بالمستقبل الباسم فى ضوء ما يشاهده فى الحاضر من ازدهار وفلاح . ولقد يعتقد الواحد من الحرفيين أن سبب الفلاح والازدهار هو سبب شخصى بحت يتعلق بعبقريته وذكائه ، كما أنه قد يتهم الموظف الذى انحطت مكانته وصار مرتبه لا يكفى لمكافحة الغلاء الناجم عن سوق العرض والطلب التى يكتسح الحرفيون والتجار المعروض فيها من سلع اكتساحا بما امتلأت به جيوبهم من أموال . . . يتهمه بالغباء والاستكانة والتخلف بل وبعدم البصر بالحياة والواقع وبعدم القدرة على سبر أغوار الدنيا من حوله . ولا يدرى الحرفى والتاجر أن موجة الازدهار هى التى ارتفعت بهما إلى أعلى عليين وهبطت بالموظف إلى أسفل سافلين .

وطبيعى أن تجد أصحاب الدخول الثابتة بصفة خاصة من بقايا الطبقات الأرسقراطية القديمة وقد كانت الحياة مبتسمة لهم ذات يوم ، وقد أخذوا يئنون وينظرون إلى الحياة بمنظار قاتم أشد القتامة . فصاحب العمارة القديمة التى كانت وما تزال تدر عليه ثلاثين جنيها فى الشهر منذ عشرين عاما صار يحس بأن القوة

الشرائية للثلاثين جنيها اليوم غيرها منذ عشرين عاما . بل وغيرها منذ ثلاث سنوات . فماذا يتوقع صاحبنا صاحب تلك العمارة بالنسبة للمستقبل ؟ إنه ينظر إلى الحاضر بمنظار قاتم . كما ينظر برعب إلى المستقبل حيث يتوقع أن يطَّرد الارتفاع فى الأسعار لا فى مصر وحدها بل وفى العالم بأسره .

وهكذا نجد أن تقييم المرء لقيمته ولقيمة الآخرين تتأثر بالمكانة الاقتصادية وما يتبع هذا من نظر بتفاؤل أو بتشاؤم إلى الحياة فى جوانبها المتباينة . فهل يستطيع اليوم أى شاب أو أية شابة نشآ فى نطاق أسرة متوسطة وقد تخرجا حديثا فى الجامعة أن يطمعا فى إنشاء أسرة جديدة وأن يقدرا على سد نفقاتها ؟ إن مجرد إحساسهما بالعجز عن تحقيق ذلك يضربهما بالتشاؤم .

التقييم الثقافى :

بينما كان من الميسور علينا أن نتحدث عن التقييم الاقتصادى ، فإن المسألة ليست كذلك إذا ما شرعنا فى التحدث عن التقييم الثقافى . ذلك أن مضمون الاقتصاد معروف ومتفق عليه كيفا وكما . فمن حيث الكيف . فإن الاقتصاد كله يستحيل فى نهاية المطاف إلى ما يسمى بالعملة التى وإن تباينت أسماؤها فإنها تسير جميعا فى تيار واحد ومن الممكن استحالة إحداها إلى سواها من العملات . فأنت تستطيع أن تغير ما تحمله من جنيهات مصرية إلى دولارات أو العكس ، ويمكنك إذا قمت برحلة إلى اليابان أن تحول نقودك المصرية إلى الين اليابانى ، كما يمكنك قبل مغادرة اليابان إلى أرض الوطن أن تحول ما بقى فى جيبك من عملة يابانية إلى عملة مصرية . أما من ناحية الكم ، فإن من الممكن أن تحدد ثروتك كلها بالأرقام بما فى ذلك العقارات والمنقولات وكل ما يمكن أن تتخيله من ممتلكات . فمن الميسور إذن أن نقف على القيمة الاقتصادية لا من ناحية الكيف فحسب بل من ناحية الكم أيضا .

بيد أن الحال ليس كذلك بازاء الثقافة . فبينما يكون من الحمق أن تسأل عن معنى المال أو عن معنى العملة فإنه من الحكمة والحصافة أن تسأل عن معنى الثقافة . فالوقوف على المعنى الذى تتضمنه الثقافة من ناحية الكيف هام قبل البدء فى الحديث

عنها . ولكن الحديث عن المعنى الكمى للثقافة مستحيل . صحيح أن من الممكن أن تحصر القاموس اللغوى الذى يحمله أحد الأدباء فى ذهنه ، ولكن يخطئ من يزعم أن ثقافة ذلك الأديب أو أدبه هى مفردات ذلك القاموس أو هى مجموع الكلمات التى يستخدمها فى كتابته أو فى كلامه . فعدد الكلمات – وهو مؤشر كمى – لا يفيد فى وضع مفهوم كمى للثقافة .

وعلى الرغم من أن ما يكتب عن الثقافة أكثر من أن يحصى ، وعلى الرغم من أن ثمة قواميس متخصصة فى الأدب والاجتماع قد عرضت لمعنى كلمة ثقافة ، فإن التباين شديد لدى استخدام هذا اللفظ من مؤلف إلى آخر . فثمة من يفهم الثقافة بمعنى المعلومات العامة . فمن يجمع شيئا من كل شئ يكون مثقفا ، ومن يستطيع أن يتحدث فى موضوعات متباينة أو من يكتب فى أشياء متنوعة وكثيرة يكون مثقفا . وثمة من جهة ثانية من يركز الثقافة فى التراث . فمن يقف على أخبار السابقين وما قاموا بكتابته أو قوله أو تركه من آثار يكون مثقفا . ومن يهمل التراث وما يتضمنه من كلام وأشياء وآثار لا يكون مثقفا . ومن جهة ثالثة هناك من يحصرون معنى الثقافة فى القدرة على التعامل مع الآخرين والتفاهم معهم بنجاح وحنكة . ومن هنا فإن من يجيد لغة الحديث والكتابة بلغته وببعض اللغات الأجنبية يكون مثقفا . وثمة من جهة رابعة من يحصرون الثقافة فى مجموعة من الأفكار أو فى مجموعة من المهارات يستطيع بواسطتها الوقوف على أرض صلبة فى الحياة والتكسب بوفرة ونجاح . وهناك من جهة خامسة من يحصرون معنى الثقافة فى كيفية استخدام الأشياء الهامة بالعصر وبالمكان . فركوب الخيل فى العصور الوسطى كان ثقافة ، وقد حل محله اليوم قيادة السيارات . وعلى هذا وبهذا المعنى فإننا نقول إن الثقافة تنحصر فى تعلم علوم الوسائل كالقراءة والكتابة والحساب والكتابة على الآلة الكاتبة وركوب الدراجة وقيادة السيارة بل وطريقة جمع المعلومات المطلوبة ، أو حتى طريقة السير فى الطريق أو شراء تذكرة للسفر بالقطار أو الطائرة أو القيام بأى شئ يمكن أن يكون إجابة عن كلمة كيف ؟ وبهذا المعنى تكون الثقافة محصورة فى الكيفيات لا فى الأشياء ذاتها . فليس من الثقافة مضمون ما تعرفه بل كيف تستطيع أن تعرف ما لا تعرفه .

ونحن فى الواقع نتحمس وننادى بهذا الرأى الأخير. فالثقافة ليست سوى القدرة على الإجابة عن متطلبات الحياة بنجاح . فالمثقف هو من يهتم بأن يبحث لكى يقدم إجابات ذهنية أو اجتماعية أو عملية بالممارسة عن الكيفات (جمع كيف) التى تتحداه فى الحياة . خذ مثالا بما يصادفنى الآن فى هذا الموقف . ففى أثناء الكتابة تساورنى بعض الشكوك بازاء استخدام بعض الكلمات . فأسال نفسى كيف تستخدم هذه الكلمة الاستخدام الصحيح ؟ وما أن يلح علىَّ الشك حتى أجد نفسى مسرعا أستجلى الغامض وأزيل الشك من الذهن . ومن الثقافة أن تعرف كيف تتخذ الموقف الصحيح بازاء مرض يلم بك أو بأحد ذويك . أو كيف تتخذ موقفا سليما من أحد أعدائك أو أحد المتربصين بك أو المهاجمين لك . وحتى بالنسبة للمجالات العلمية والأدبية فإن الثقافة تكون الإجابة بنجوع عن كلمة كيف . كيف تقف على المعلومات الصحيحة ؟ أو كيف تحصل على الخبرات السديدة ؟ أو كيف تتعلم كذا أو كيت من المهارات اليدوية ؟ . أو كيف تكتب مقالا ؟ أو كيف تتعامل مع أصدقائك وأعدائك ؟ إلى آخر الكيفات التى تتحداك فى معترك الحياة . وكلما قرعت الباب الصحيح بصدد «كيف» التى تتحداك فإنك إذن تكون أكثر ثقافة واستنارة .

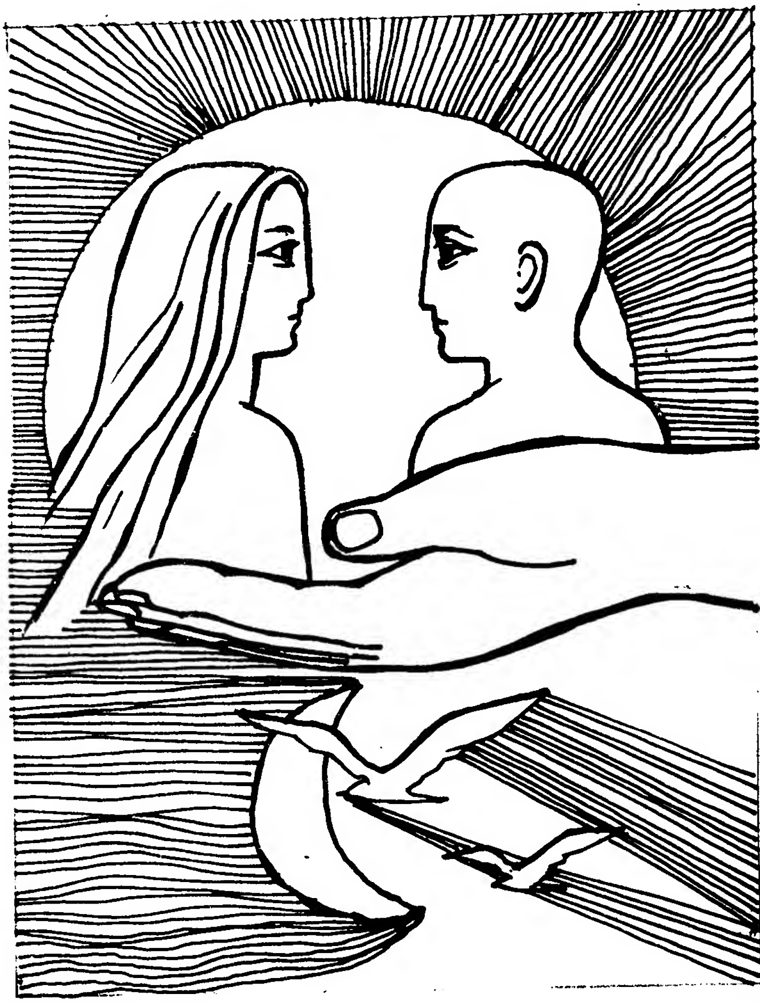
وطالما أن الأمر كذلك وقد اتفقنا على معنى الثقافة على هذا النحو . فإننا نستطيع القول بأن من يجد الإجابة الصحيحة عن التحديات التى تجابهه فى الحياة ، فإنه يكون متفائلا . وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذى يخيب بازاء تلك التحديات فإنه يتشاءم وييتئس سواء بالنسبة لحاضره أم بالنسبة لمستقبله . والواقع أن ثمة تقييمان ثقافيان : تقييم ثقافى يقوم به الناس قُبالة المرء . وتقييم ثقافى يضطلع به الشخص نفسه لنفسه . فلقد تجد المحيطين بأحد الأشخاص يقولون عنه إنه شخصية غير قادرة على التصرف ، بل إن ذلك الشخص نفسه قد يقول لك عن نفسه إنه لا يستطيع أن يعمل شيئا أو أن يتصرف فى أمر من أمور حياته . ومن ثم فإنه يلجأ إلى الآخرين لكى يقولوا له ما ينبغى أن يفعل . طبيعى أن مثل هذا الشخص لا يمكن اعتباره مثقفا بحسب المعيار الكيفى الذى وضعناه لمعنى الثقافة .

بيد أن مجرد أن تسأل بعض الناس عما ينبغى أن تفعل يكون أيضا ثقافة . فمن يتوجه إلى الطبيب إذا ما مرض بغير أن يعتمد على نفسه فى العلاج لأنه ليس بطبيب ، إنما يكون مثقفا . وذلك لأن الإجابة التى يقدمها أمام تساؤله عن كيفية التصرف بازاء المرض وقد وجد الإجابة فى عرض نفسه على الطبيب . إنما تكفى للحكم عليه بأنه مثقف . ولكن ربة البيت التى تطلب من جارتها كل يوم أن تحضر إلى مطبخها لكى تعد الطعام لزوجها وأطفالها لأنها لا تعرف كيف تطبخ . إنما تكون غير مثقفة حتى ولو كانت تلك الزوجة طبيبة أو محامية أو كانت تعمل فى غير ذلك من وظائف وأعمال خارجة عن إطار الوظيفة الرئسية للزوجة والأم . ولكن إذا سألت تلك السيدة جارتها عن طريقة الطهى لكى تتعلمها وتتقنها ومن ثم تعتمد على نفسها فى اعداد الطعام لزوجها وأبنائها ، فإنها تكون قد قرعت الباب الصحيح للثقافة ، وتكون مثقفة حسب التعريف الذى قدمناه للثقافة .

فالثقافة إذن هى طرائق الحياة وليست مضامين الحياة . ولعلك تحس بالتفاؤل إذا نجحت فى تقديم الإجابة بالإيجاب عن كيفية القيام بالأساسيات المطلوبة منك . وغنى عن القول إنك إذا كنت تشتغل بالمحاماة ولكنك لا تجيد الوقوف أمام القاضى ولا تحضرك الأجابات القانونية الصحيحة وتخسر معظم القضايا التى توكل اليك . ولكنك فى نفس الوقت تستطيع الإجابة عن كثير جدا من لكيف ـ لأخرى التى تتحداك ، فأنت إذن لست مثقفا . ذلك أن الأولوية المطلقة بالنسبة لك هى المحاماة وتأتى بعدها جميع تلك الأشياء الأخرى التى تحذق الإجابة عليها بالايجاب .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إنك تستطيع تفسير التفاؤل الذى يحس به المتفائلون والتشاؤم الذى يستشعره المتشائمون بالبحث عن الإجابات الناجحة والإجابات الخائبة التى يقدمها كل فريق من هذين الفريقين بازاء تحديات الحياة والمواقف الاجتماعية . ويجب أن نتذكر دائما أن التفاؤل والتشاؤم نسبيان . فالمتفائل ليس متفائلا على طول الخط ، كما أن المتشائم ليس متشائما على طول الخط . وإنما الحكم بالتفاؤل والتشاؤم على هذا أو ذاك من الناس ، يتم فى ضوء ما يصبغ الحياة من صبغة عامة . فإذا كنت حاذقا لكثير من الكيفيات الحياتية متدرجاً من الأساسيات

والمسئوليات المنوطة بك ونازلا إلى الفرعيات وما لست مسئولا عنه . كنت إذن من المتفائلين . وعلى العكس فإذا كنت غير حاذق فى تحدى الحياة والتغلب على مصاعبها والنهوض بالمسئوليات المنوطة بك . ولا تدرى كيف تقع على المفاتيح الصحيحة لفتح أبوابها . فإنك تحس إذن بالاحباط وبعدم النجاح فى التكيّف لواقعك . ومن ثم فإنك تتلبس بالتشاؤم لا قدر الله .



الفصل الثانى عشر

التفسير بالعادات والتقاليد الاجتماعية

الفصل الثانى عشر

التفسير بالعادات والتقاليد الاجتماعية

الحرية والمساواة :

الحرية مطلب انسانى حيث يرغب المرء فى التحرر من القيود . بيد أن الحرية المطلقة مطلب عسير ولا يمكن أن يبتغيه سوى شخص مجنون أو شديد الأنانية أو شخص لا يحسب لأى إنسان فى الوجود أى قيمة أو أى وجود . والحرية بمعناها الحقيقى هى القدرة على التمتع بالتحرك بلا قيود فى نطاق معين . والحرية نسبية بمعنى أن النطاق الذى يتسنى التحرك فيه بلا قيود يتباين اتساعا وضيقا من شخص لشخص آخر ومن مجتمع لمجتمع آخر ومن عصر لعصر آخر . ولكأن الحرية بمثابة ملكية جماعية يتقاسمها أفراد المجتمع فيما بينهم بحيث يحظى كل فرد بقسط منها .

وطالما أننا عرضنا لتقسيم الامكانيات المتعلقة بالحرية بين أفراد المجتمع الواحد ، فإننا نكون اذن قد دخلنا فى نطاق مسألة جديدة غير الحرية هى المساواة . والمساواة فى علاقتها بالحرية هى العدالة فى توزيع الحرية على أفراد المجتمع الواحد . وهذا يعنى من جهة أخرى أن الحرية التى نقوم بتقسيمها ليست صنفا واحدا ، بل هى صنوف متعددة ومتباينة . ومن الواجب علينا إذن أن نقوم باستعراض الحريات التى يمكن القيام بتقسيمها على أبناء المجتمع الواحد .

ثمة أولا — الحرية الاقتصادية . تخيل أن ثمة بحيرة هى المصدر الوحيد للغذاء والثروة لأحد المجتمعات . فماذا تعنى الحرية الاقتصادية بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع ؟ إنها تعنى تقسيم البحيرة على أفراده بحيث يتسنى لكل صاحب قسم أن يقوم بالصيد فى الجزء الخاص به ، ومن جهة أخرى فيكون من المحرم عليه أن يصيد بالأماكن التى تقع فى حوزة غيره من أفراد .

وثمة ثانيا – الحرية السياسية . ذلك أن أفراد ذلك المجتمع لدى قيامهم بوضع سياسة تقسيم البحيرة لا بد أن يأخذوا الآراء والمقترحات والأصوات . ولكن هل تتساوى قوة الأصوات بعضها مع بعض بغير تمييز بين قوى وضعيف أو بين ذكر وأنثى ؟ على أية حال فان الحرية هنا هى الحرية السياسية ، وهى الحرية التى تتعلق بالحكم بالداخل والعلاقات مع المجتمعات الأخرى الصديقة والمعادية بالخارج .

وثمة العديد من الحريات التى يمكن أن نعرض لها بنفس الطريقة حيث ترتبط كل منها بفكرة التوزيع بين أفراد المجتمع . بيد أن المساواة التى يمكن تصورها هى واحدة من اثنتين : إما مساواة حسابية ، واما مساواة هندسية – كما يقول أرسطو . والمساواة الحسابية كأن نقسم رغيفا على أربعة أشخاص بالتساوى بغير اعتبار لأى شىء آخر غير المساواة الكمية . أما المساواة الهندسية فإنها تتطلب أن نأخذ فى الاعتبار ظروف كل شخص ممن نقوم بالتقسيم عليهم . فالرجل لا يأخذ بقدر ما يأخذ الطفل ، والصحيح لا يأخذ كالمريض ، وعلى نفس النحو فإننا نقول إن حصول الوزير على سيارة تنقله من بيته إلى الوزارة وبالعكس مساو هندسيا لحصول ساعى البريد على دراجة بخارية لتوزيع الخطابات على أصحابها .

والحرية والمساواة يتقرران بناء على مجموعة من الاعتبارات هناك أولا – التراث وما يتقرر به من أحكام . فالمرأة ترث نصف ما يرثه الرجل . فالمساواة بالشبة للارث إنما هى مساواة هندسية وليست مساواة حسابية . الاعتبار الثانى – اعتبار حضارى . فباشتغال المرأة فإنها أخذت تتمتع بحرية اجتماعية وصارت تتقاضى أجرا مساويا للأجر الشهرى أو اليومى الذى يقتضاه الرجل . أضف الى هذا ما تتمتع به المرأة من إجازات خاصة بالحمل والولادة ، والاجازات المرضية التى يتمتع بها الموظف والموظفة متساوية . الاعتبار الثالث – انسانى وهذا يتبدى فى الحرية والمساواة اللذين يتمتع بهما صاحب العاهة أو المتخلف عقليا أو من لا يقدر على المشاركة بأى شكل أو بأى جهد فى اقتصاد البلاد أو فى مناشطها السياسية أو الاجتماعية . فالحرية التى يتمتع بها مثل هذا الشخص – حتى وان كان جنينا فى بطن أمه – إنما هى حرية انسانية بالدرجة الأولى .

والواقع أن عدم إحساس الشخص بالعبودية يرزح تحت نيرها أو بالتمييز والتفرقة بينه وبين الآخرين لا يجعله بالتالى يحس بالتشاؤم . وهذا ما يحدث بالنسبة لكثير من المستعبدين ، وهو أيضاً ما حدث بالنسبة لكثير من العبيد والاماء أيام كان الرق منتشرا ومأخوذا به كنظام اجتماعى . وقل نفس الشيء بالنسبة لعهود الاقطاع حيث لم يكن يقام أى وزن للفلاح ، وكذا لدى قيام الثورة الصناعية بانجلترا حيث لم يكن يعمل أى حساب للصانع الذى كان يستغل استغلالاً سيئا وكان يموت تحت وطأة الظلم وظروف العمل القاسية ، وحيث لم يكن يميز بين رجل وامرأة وطفل فى الارهاق بالعمل والموت أو التعرض للمرض أو الانهيار تحت وطأة الاجهاد .

ويمكن القول بأن الكثير من أولئك الذين افتقدوا الحرية والمساواة بغيرهم يظلون متفائلين لسبب بسيط هو عدم احساسهم بما حرموا منه . ولكن عندما يفيق المرء إلى واقعه بمقارنته بواقع الآخرين من المتمتعين بالحرية والمساواة ، فإنه ينقلب اذن نفسيا ظهرا لبطن ، ويستحيل تفاؤله الى تشاؤم مرير . ولقد يعمد الواحد من الذين أفاقوا على واقعهم المرير إلى إيقاظ ذويه الرازحين مثله تحت وطأة العبودية والاستغلال ونشر التشاؤم فى قلوبهم . ولقد نستطيع القول بأن قصة الثورات المتباينة – سواء كانت ثورات اجتماعية أم ثورات سياسية – قد بدأت بالاحساس بالظلم الفردى وبالوقوع تحت نير الاستغلال من جانب الآخرين ، ثم ما فتأ ذلك الشعور الفردى أن استحال إلى شعور جمعى .

بيد أن الشعور الجمعى وحده لا يكفى. فما لم يبزغ أشخاص متمتعون بالقدرة على التخطيط والتنفيذ والقيادة ، فإن المشاعر المشبعة بالتشاؤم لا تكفى وحدها للقيادة التحركية . فإحساس الرقيق بالغبن كان بالضرورة فرديا فى بادىء الأمر ، ثم وبعد أن صار شعوراً جمعياً أخذ أفراد من المتحمسين فى مناهضة الرق بالتخطيط والتنفيذ الفعليين على المستوى المحلى المحدود بمكان معين حتى شمل العالم بأسرة ثم ما فتأ أن امتد حتى منابع تجارة الرق ذاتها إلى أن قضى عليها تماما .

ويجدر بنا هنا أن نعرض لما يمكن أن نسميه بالعدوى الشعورية من صاحب الداء، إلى غيره من أفراد سرعان ما يحتدم الاحساس لديهم أكثر من احتدامه لدى

المصدر الأصلى للداء . ولنأخذ مثالا لذلك بالتلاميذ الذين يلاقون الأمرين من وسائل التعذيب بحجة التربية والتعليم من معلمين قساة هربت الرحمة وذَوَى الرفق من قلوبهم . إن الواحد من أولئك التلاميذ قد يحس بالتشاؤم بإزاء حياته المدرسية . ولقد ينتشر هذا الشعور المتشائم بين مجموعة كبيرة من التلاميذ . ولكن مثل أولئك التلاميذ لا يستطيعون التعبير عن ذواتهم التعبير الكافى والمؤثر ، كما أنهم فى نفس الوقت لا يستطيعون وضع خطة أو تقرير نظام تربوى يمنع استخدام العقوبات البدنية بازاء التلاميذ . ولكن العدوى الشعورية يمكن أن تنتقل من التلاميذ الى أحد الكتاب أو الأدباء أو المصلحين الاجتماعيين ، حيث يتسنى له استشفاف المعاناة والعذاب اللذين يتعرض لهما التلاميذ من المدرسين الذين يعذبونهم بالضرب وغيره من وسائل مجحفة بحقهم الانسانى فى الحرية والمساوة بالكبار . فيأخذ ذلك الأديب أو الكاتب أو القصاص أو الشاعر فى التعبير عما يساور الصغار من مشاعر . وقد تقوم بعد ذلك مجموعة من المربين المسئولين عن التربية بوضع التشريعات التى تحرم الضرب والتى تقضى باستبعاد المعلمين الذين لا يراعون ما يجب أن تتمتع به الطفولة من حرية ومساواة بالكبار .

ولقد تظل مشاعر التشاؤم معتملة فى قلب أحد التلاميذ حتى يكبر ويتاح له أن يعبر بقوة وتأثير عما عاناه ويعانيه التلاميذ بالمدارس من امتهان . ولقد يصير ذلك التلميذ بعد أن يكبر وزيرا للتعليم فيثير قضية طالما اعتملت فى قلبه وداعبت تفكيره فى أحلام يقظته وهو بعد طفل صغير . ولكنه وقد اعتلى كرسى المسئولية وصار فى يده أن يأمر فيطاع ، فانه يأخذ فى تحريك القضية القديمة التى هى فى حقيقتها قضيته هو ، ويجعل من تشاؤميته التربوية أداة لتطوير التعليم . وهذا لا يكفل بالطبع لشخص لم يعان فى طفولته شيئا من قسوة المعلمين ولا من إحساسه بالحرمان فى طفولته من الحرية والمساواة .

القسوة والعنف :

عرضنا للعنف الذى يمكن أن يلقاه بعض التلاميذ من زاوية معينة هى زاوية عدم المساواة بين الأطفال وبين الكبار . ذلك أن مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة تلقيان كثيرا من العسف من جانب كثير من المربين ، ثم ما تفتأ الحال تتغير ولا يكون ثمة سبب لرفع النير عن التلاميذ ومعاملتهم برفق الا سبب واحد هو القوة التى يستشعرها المعلمون فى تلاميذهم وقد كبروا وصاروا أقوياء جسميا ويكون بوسعهم الاحتجاج والمقاومة وإبداء السخط وعدم قبول الرضوخ للأذى يصيبهم مباشرة من أى مخلوق حتى ولو كان الشخص الذى يعلمهم العلم ويهيئ لهم طريق المستقبل الباهر .

ولقد سبق أيضا أن عرضنا لنقطة هامة وهى أن الشخص لا يحس بالعبودية أو بعدم المساواة أو بالظلم أو بالأذى لمجرد أن ذلك يصيبه من الآخرين ، وإنما يتم ذلك إذا هو أدركه وصار على وعى به . والوعى شىء غير الإحساس بالأذى أو بالقسوة والعنف . فلقد تجد بعض الأشخاص يلقون الأمرّين من غيرهم ولكنهم لا يستطيعون الوعى ذهنيا بمغزى ما يقع عليهم من عنت . وأكثر من هذا فلقد يقدم ذائقو القسوة والعنف من الآخرين الشكر الى من يقسون عليهم ويؤذونهم ويعنفون بهم . لقد يتسنى مثلا لبعض المعلمين أن يلقوا فى روع تلاميذهم أنهم إنما يضربونهم ويوقعون عليهم الألم ويستخدمون معهم ألوان العسف والعنت والتعذيب والامتهان حرصا من جانبهم على مستقبلهم ، وأنه بغير تلك الأساليب القاسية ، فإن أولئك التلاميذ سوف يفقدون مستقبلهم ويضيعون بالشوارع بغير ما هاد يهديهم أو مرشد يأخذ بيدهم .

ولقد يفعل الاقطاعى نفس الشىء مع الفلاحين ، والرأسمالى مع أتباعه ، بل لقد يفعل بعض الأزواج نفس الشىء مع زوجاتهم وقد أخذوا فى إقناعهن بأنه بغير استخدام العصا معهن فإن الطبيعة الشريرة للمرأة سوف تظهر فى سلوكهن .

ومعنى هذا فى الواقع أن المسألة ليست الجهل بالشىء أو العلم به ، أو بتعبير آخر ليست إدراكا وعدم ادراك ، بل إنها قد تكون ادراكا شائها لواقع معين . فالتلمذ أو

الزوجة أو غيرهما ممن يتقبلون الامتهان وكأنه خدمة يسديها الظالم اليهم . قد تلبسوا بأفكار خاطئة أو بتفسير منحرف لواقع يحدث لهم كان يجب أن يفسر على نحوه الصحيح بغير تحريف أو تبرير فى غير محله .

من هذا يتضح أن المحك الأساسى للتلبس بالصور الذهنية التفاؤلية والصور الذهنية التشاؤمية إنما هو العامل الذهنى وليس العامل الحسى . فالمرء ينظر بنظرة تشاؤمية الى بعض الملذات . بينما ينظر بنظرة تفاؤلية الى بعض الأشياء المؤلمة . فلقد يقوم البعض بالتشكيك فى التربية اللينة الرفيقة بحيث يقتنع أصحاب الشأن من التلاميذ أنفسهم بأن مثل تلك التربية اللينة الرفيقة ضارة بهم ، ومن ثم فإنهم ينظرون إلى اللين والرفق ومعاملتهم بالحسنى بنظرة تخوف وتشكك واتهام . ومن ثم فإن ما يماشى الحس بالايجاب ينال عدم الارتياح أو السخط والتضجر . بينما قد يقتنع أولئك التلاميذ أنفسهم بأن استخدام الضرب والايلام معهم هو الذى يحمل سر النجاح والتفوق وأن عليهم اذن أن يتقبلوا كل ما يؤلمهم به المعلمون والكبار بارتياح وتقبل .

والواقع أن الحضارة الإنسانية تأخذ بهذا فى كثير من الأحيان . أعنى النظر بالتشاؤم إلى الملذ . والنظر بالتفاؤل إلى المؤلم . ولقد دأب الناس على الاعتقاد بأن طريق اللذة مفض بلا محيص إلى الشر . وأن طريق الألم هو الطريق إلى الخير . فالتضحية ممدوحة والأثرة مرذولة . علما بأن فى التضحية ألما حسيا . وفى الأثرة لذة حسية . ولعلنا نلاحظ أن شطرا كبيرا من القيم التى نأخذ بها فى حياتنا وفى علاقاتنا الاجتماعية إنما يقوم على هذا الأساس وأننا لا نبدى احتراما وتقديرا لمن يؤثرون أنفسهم بالملذات . ولا لأولئك الذين يسيرون فى حياتهم وفق ما ترشدهم اليه حواسهم .

على أن ثمة خطأ خطيرا قد نجم عن الأخذ باستدلال خاطىء . فأصحاب ذلك الاستدلال الخاطىء يقولون « طالما أن اللذة تفضى إلى الشر وأن الألم يفضى إلى الخير . فلا بد أن يتم النجاح فى الحياة الدراسية بالضرب . وأن معاملة التلاميذ بالحسنى مؤد بالضرورة والحتم إلى الفشل والرسوب » . والخطأ يكمن هنا فى قياس

الحياة الدراسية بنفس المعيار الذى نقيس به المسائل الأخلاقية . وشتان ما بين هذا وذاك . فمن يفعل ذلك إنما يكون كمن يقول إنه طالما أن لون الملح أبيض ولون السكر أيضا ابيض ، فلا بد أن الملح مذاقه حلو أو أن السكر مذاقه مالح . وقد نسى صاحب هذا القياس الفاسد أن الجوهر ليس اللون بل أشياء أخرى تتعلق بالتكوين والجوهر . والجوهر فى الأخلاق وجدانى . والجوهر فى الدراسة هو العقلانية والخبرة . وما يمكن أن نخلص إليه هو أن التصورات الذهنية هى التى تفضى إلى الاحساس بالتفاؤل أو الاحساس بالتشاؤم .

لقد يشتعل ضمير أحد الأشخاص بالندم الشديد بعد اقترافه – أو اقترافها – للزنا . وواضح أن الموقف الذهنى لذلك الشخص انما هو موقف نفسى قبالة موقف حسى ملذ يتصل بالشهوة الجنسية . ولكن الجسمى شئ والنفسى شئ آخر . وعلى العكس من ذلك فان من يقوم بالتبرع لاحدى العائلات المنكوبة بمبلغ كبير من المال انما يستشعر السعادة مع أنه من الناحية الاقتصادية البحتة يكون قد خسر ذلك المبلغ الذى تبرع به . بيد أنه يجد فى الخسارة لذة . على عكس الزانى الذى يجد تحرقا نفسيا كلما تذكر اقترافه للاثم . لدرجة أنه قد يقدم على الإنتحار تخلصا من وخز ضميره المضطرم .

ولقد يقوم الشخص الخاطىء بالقسوة على نفسه وأخذها بالعنف اعتقادا منه أن مثل تلك القسوة وذلك العنف يخلصانه من التشاؤم الذى يحس به قبالة حياته . ولقد يستخدم الآباء والامهات ما يشبه القسوة والعنف ، أو ألوانا من القسوة والعنف الصرفين بالفعل مع أبنائهم فى تسيير دفة سلوكهم الأخلاقى اعتقادا منهم أن القسوة والعنف هما السبيلان الأمثلان للوصول بأولئك الأبناء الى الحياة الفاضلة والى التلحف بالأخلاق الفاضلة والاتشاح بالقيم المثلى .

والواقع أن نظام العقوبات الذى تتبعه معظم المجتمعات إنما ينبنى على أساس مفهوم خاص بالتطهير . فمن يلاقى العذاب بعد اقترافه لإحدى الجرائم إنما يتطهر بفضل ما يلقاه من مهانات وإذلال بالسجن . ولقد اتبعت نفس هذه الطريقة لحقبة من الزمن بازاء المجانين . فساد الاعتقاد بأن المجنون إذا ما لقى من التعذيب والإيلام

القدر المناسب ، فإنه يفيق الى نفسه وقد تخلص من الأرواح التى تسيطر عليه . فالسجين والمجنون إذن يخرجان بالتعذيب من حيز التشاؤم ويدخلان فى حيز التفاؤل . ذلك أنه بعد المعاناة فإنها يعودان إلى بر الأمان حيث التفاؤل بحياة جديدة خالية من القتامة التى رانت عليهما .

وإذا نظرنا بنظرة شاملة إلى تطور الحياة الانسانية على هذه البسيطة ، فإننا نجد أن القسوة والعنف كانا دائما الوسيلة للتخلص من التشاؤم واحراز التفاؤل . فلقد بدأ الإنسان البدائى ومن بعده الإنسان المتحضر بقتل الحيوانات المفترسة بقسوة للتخلص من التشاؤم الذى كان يخيم عليه بسبب تهديدها لحياته . بيدأن قسوة الإنسان وعنفه قد امتدا إلى كل شىء . . إلى الغابات يقطعها والى الأرض يجرحها ويقلبها ظهرا لبطن . ولسنا نشك فى أن سيطرة الإنسان على الأرض ومن بعدها الفضاء الخارجى إنما هى مظهر من مظاهر القسوة والعنف . وما لنا لا نقول إن القسوة والعنف على بعض الكائنات إنما هما من زاوية أخرى رحمة بالانسان . أليس القضاء على الفئران والصراصير وميكروبات الأمراض هو ضرب من القسوة والعنف بغية الحصول على التفاؤل وذلك بالتخلص مما يلوح للانسان من تشاؤم فى المستقبل اذا ما ظلت تلك الكائنات الحية جميعا حية ومزدهرة ومتكاثرة ؟ فالقسوة والعنف هنا السبيلان الوحيدان لتحقيق التفاؤل .

المحرمات :

عرضنا للذة والألم وقلنا إن ثمة تصورات ذهنية معينة تتحكم فى الموقف بحيث قد تفضى اللذة أو لا تفضى الى التفاؤل ، كما قد يفضى الألم أو لا يفضى الى التشاؤم . فالزوجة التى يرجع زوجها إليها ذات يوم وقد حمل إليها قدرا كبيرا من المال ، فإنها تستبشر وتمتلىء نفسها بالتفاؤل ، ولكن اذا علمت تلك الزوجة من زوجها أن ذلك المبلغ الكبير من المال هو مال مختلس أو مسروق - بفرض أن تلك الزوجة صاحبة ضمير يقظ - فإنها سوف تنقلب فى نظرتها إلى ذلك المال من فرح إلى غم ، وربما ترفض أن تتناول لقمة تتبلغ بها فى بيت ذلك الزوج غير الشريف . وهكذا يستحيل مصدر اللذة - وهو المال - الى مصدر شقاء ووخز بالضمير .

وعلى العكس من ذلك فإن الزوجة التى تعلم أن زوجها يؤثر الفقر والاستدانة على الارتشاء أو الوقوع فى الاختلاس أو الاتجار بالأشياء المحرمة أو التهريب ، فإنها – بفرض أنها يقظة الضمير – سوف تكبره وتشجعه على تحمل الفقر والاستدانة والتنزه عن الانحراف فى الطريق غير السليم . أضف إلى هذا ما يتحمله المخلصون من الموظفين فى العمل من تعب أو حتى من مشكلات لأنهم يلتزمون بما ينبغى إن يكون ولا يسايرون الأجواء والتيارات السائدة المشوبة بالانحراف والالتواء . فالتعب فى نظرهم هو السبيل الى الاستبشار والتفاؤل ، على عكس الراحة والإهمال والتواكل فى العمل ، فإنها فى نظرهم مدعاة للألم النفسى وللتلبس بالتشاؤم .

والواقع أن المحرمات التى يحذر الدين من إتيانها إنما هى فى مجموعها مناهضة للنوازع الطبيعية والرغبات والشهوات المفطورة بالنفس ، أو بتعبير آخر إنها مناهضة لردود الأفعال الغريزية المفطورة فى الانسان باعتباره كائنا حيوانيا . فالدين فى تحريماته إنما يعمل على الارتقاء بالانسان من مستوى ردود الفعل الطبيعية الى مستويات أعلى هى ردود الفعل الروحانية . ولكأن الدين يغرس فى الإنسان طبيعة جديدة أرقى وأسمى من الطبيعة الحيوانية التى يحملها فى جسده .

ولقد يقول قائل إن بعض الحيوانات يمكن أن تتدرب أيضا لمناهضة طبائعها الحيوانية وردود الفعل المباشرة . فالكلب ربما لا يأكل بالتدريب من الطعام الذى يحرمه سيده عليه ، وكذا يمكن تدريب القردة على كثير من ألوان السلوك الأخلاقية التى تناهض على نحو ما طبائعها المغروسة فيها والتى تحملها فى غرائزها . ولكن الواقع أن المدى الذى يمكن أن يرتقى اليه الحيوان – مهما كان راقيا – إنما هو مدى ضيق للغاية إذا ما قيس بالمدى الذى يستطيع الإنسان أن يرتقى اليه وتتسع له طبيعته الجديدة التى تخلق فيه بالتربية . أضف الى هذا أن الحيوان مهما كان راقيا – فإنه لا يستطيع أن يربى نفسه بنفسه ، ولا أن يسبر أغوار آفاق جديدة لم يسبقه أحد إليها فى مجال المحرمات . وبتعبير آخر فإن الإنسان يستطيع أن يقوم بعمل أقيسة ويسلك فى هداها . خذ مثالا لذلك وجود نصوص دينية تحرم السكر بواسطة معاقرة الخمر . إنك تستطيع أن تجد بعض الناس الراقين فى تفكيرهم وقد أخذوا يقيسون التدخين

بنفس المعيار الذى تحرم الخمر بواسطته . فيقول الواحد من أولئك المستنيرين إنه طالما أن الخمر محرمة لأنها ضارة ، فإن التدخين أيضا يعد محرما لأنه أيضا ضار .

بيد أن المحرمات لا ترتبط دائما بالضرر يصيب الإنسان ، فتصدر الوصايا الدينية بالتحريم . خذ مثالا لذلك تحريم أكل لحم الحيوان المخنوق أو حتى الحيوان المذبوح بطريقة أخرى غير الطريقة المقررة بالدين المعين سواء كان اليهودية أو المسيحية أو الإسلام . ولا سبيل بالطبع إلى مناقشة مثل هذا التحريم فى ضوء الفائدة أو الضرر . ونفس الشىء يقال عن تحريم أكل الخنزير أو تحريم صيد اليمامة أو قتل القطط (فى بعض المعتقدات الشعبية غير الدينية) .

وهذا يسوقنا الى التحدث عن المحرمات بصفة عامة ، فنقول إن هناك محرمات دينية من جهة ، ومحرمات سحرية من جهة أخرى . والواقع أن هذا النوع الأخير من المحرمات يعرف عادة باسم المحرمات الشعبية . من ذلك مثلا تحريم الدخول إلى المسكن الجديد بالقدم اليسرى ، أو ترك الحذاء مقلوبا أو كنس البيت فى أثناء الليل و غير دلك من محرمات هى فى الواقع محرمات سحرية .

وهناك نوع ثالث من المحرمات يمكن أن نسميه بالمحرمات النفسية ، وهى المحرمات التى يفرضها الشخص على نفسه حتى وان لم تكن هناك نصوص دينية تقرر التحريم ،أو معتقدات سحرية شعبية تحددها . من أمثلة ذلك ما قد يعمد إليه بعض المفكرين من ألوان التحريم التى يفرضونها على أنفسهم كالزيارات والجلوس بالمقاهى وارتياد دور اللهو . ولقد تجد بعض المحرمات النفسية ضارة بالمرء ، ومن ذلك ما يكون له خلفية نفسية لا شعورية ، كأن ينقطع الشخص عن تناول الكثير من ألوان الطعام المفيد أو الامتناع عن الأكل تماما مما قد يضطر المسئولين عنه الى إجباره على الأكل أو استخدام العقاقير حتى لا يتعرض للمرض أو الموت .

وإذا نحن تصفحنا حياة المتفائلين وحياة المتشائمين ، فإننا نجد أن الشخصية المتفائلة تتسم بالقليل من المحرمات النفسية . وأكثر من هنا فإن ما تفرضه تلك الشخصية من محرمات على نفسها يكون متسما بالمرونة الى حد بعيد . خذ مثالا لذلك ما يمكن أن تفرضه الشخصية المتفائلة من تحريم التزاور على نفسها منعا من إضاعة

الوقت . فاذا حدث أن قام أحد الأصدقاء أو الأقرباء بزيارة تلك الشخصية المتفائلة ، فإنه لا يستاء من الزيارة ولا يقلب الدنيا ويقعدها كما يفعل المتشائم الذى يفرض على نفسه نفس هذا النوع من التحريم . كل ما فى الأمر أن المتفائل يجعل من التحريم وظيفة إيجابية فى حياته ، أو بتعبير آخر يجعل التحريم وسيلة لغاية محددة واضحة أمام ذهنه . أما المتشائم فإنه يجعل من التحريم غاية فى حد ذاتها .

وحتى بالنسبة للمحرمات الدينية فإنك تجد ثمة فرقا بين موقف كل من المتفائل والمتشائم منها . فعلى الرغم من أنهما جميعا يمكن أن يلتزما فى سلوكهما بالتحريم ويمتنعا عن تحطيم قيوده ، فأن الموقف النفسى والعقلانى يتباين فى الحالتين . فالمتفائل قد يكسر قيد التحريم اذا ما ألحت عليه الضرورة ، أو اذا كان التحريم مما يعرضه للهلاك. أما المتشائم فإنه بازاء المحرمات الدينية جميعا لا يستطيع من الناحية النفسية أو العملية أن يحطم أيا منها مهما ألحت الضرورة ومهما قرر له رجال الدين أنفسهم إمكان فك قيد التحريم لأسباب مقررة بالدين نفسه . خذ مثالا لذلك ما يقرره الدين من تحريم الكذب . إن المتفائل يعمد الى التحلل من مثل هذا التحريم اذا كان الصدق مجلبة لأضرار خطيرة . نفترض أن ضابطا كبيرا فى الجيش وقع فى الأسر وطلب منه الأعداء أن يدلى بمعلومات معينة تتصل بالأسرار الحربية . فهل يقول الصدق أم الكذب ؟ هنا يختلف موقف كل من المتفائل والمتشائم . فالمتفائل يكذب والمتشائم يقرر الصدق حتى ولو أدى صدقه إلى إيقاع الضرر ببلاده .

وإن دل هذا الفارق بين المتفائل والمتشائم على شيء فإنما يدل على أن المتفائل يتطلع الى النتائج ويأخذها فى اعتباره ، بينما لا يعمد المتشائم إلى شيء من هذا . إنه بسبب خشيته من الواقع والنظر اليه بمنظار أسود ، فإنه ينسحب الى عالمه الداخلى الذهنى ويهمه تثبيت أركان ذلك العالم التصورى مهما كان فى مثل ذلك التثبيت والترسيخ ما يعمل على هدم وتشويه جمال الواقع الخارجي .

وإنك لتجد أن للتحريم لدى المتشائم مغزى نفسيا هاما هو ما يسميه علماء النفس بالماسوكية وهو الاحساس باللذة نتيجة تقبل الألم . وعلى الرغم من أن الماسوكية ذات مغزى جنسى فى أصلها ، فإنها تتسع اليوم لتعبر عن كل حالة نفسية

يلتذ فيها الشخص عندما يتقبل الألم . فالتحريم عند المتشائم لا يصدر عن أسباب نسكية كما قد يبدو ، بل لأسباب التذاذية بالتعذيب والقهر الذاتى . وهنا نجد أن التحريم إنما هو كفران بالعالم الخارجى كله . إنه إنكار لقيمة الحاضر والمستقبل ومن ثم العمل على تحطيم هذا الواقع وذلك المستقبل كل التحطيم . فالتحريم التشاؤمى خلافا للتحريم التفاؤلى هو تعذيب المرء لنفسه بقصد التعذيب ، بينما هو لدى المتفائل تقوية للروح وتنمية للمواهب الروحية وتهذيب للسلوك .

الرجعية والتقدمية :

الرجعية هى الحنين إلى الماضى واعتباره أفضل من الحاضر والمستقبل ، ومن ثم فإن أى تغيير ينشد يجب أن يكون محاكاة لأنماط الماضى والعمل على حذف وإبطال كل ما استجد فى الماضى القريب لكى يحل محله ما كان سائدا بالماضى السحيق . ولكأن منطق الرجعية هو أن الماضى كلما كان أكثر بعدا فى الزمان ، كان بالتالى أفضل وأنقى وأجدر بالتقدير والاستمساك . أما التقدمية فإنها على العكس من الرجعية تعتقد أن المستقبل أفضل من الماضى ، وأن الماضى القريب أفضل بالضرورة من الماضى السحيق فى الزمان . ومن جهة الإرادة فإن الرجعية تعتقد أن إرادة الإنسان يجب أن تعتبر أداة لتثبيت الجيد وحذف الردىء . والجيد والردىء لا يخضعان للزمان ، بل هما ثابتان عبر العصور المتعاقبة . فالخير والشر أبديان وأزليان . أى أنهما سيظلان كذلك الى الأبد وقد كانا كذلك منذ الأزل . أما التقدمية فإنها على العكس من ذلك تعتقد أن الارادة الانسانية ممسكة بمقاليد الأمور ، وأنه بمقدور الإنسان أن يغير ويعدّل ويطور . فالتقدمية لا تؤمن فقط بالتطور ، بل إنها تؤمن أيضا بالتطوير القائم على أساس من الإرادة الإنسانية الحرة وفق ما يمكن أن يرسمه المؤمنون بها من خطط ووفق ما يترسمونه من آمال يبغون تحقيقها فى المستقبل .

وبناء على هذا فإنك تجد أن المؤمنين بالرجعية لا يبدون ارتياحا للحاضر والمستقبل ، بل إنهم لا يبدون أيضا ارتياحا بازاء الماضى القريب . وطالما أن الأمر كذلك فإنهم اذن ينعون على الواقع من حولهم ولا يجدون فيه سوى الشر والتخبط

والتخلف والانحراف عن جادة الصواب . وأكثر من هذا فإن الرجعيين لا يؤمنون بالإرادة الإنسانية ولا ينوطونها بالثقة ولا يعتمدون عليها ، بل إنهم يشكون فيها ويعتقدون أن كل ما يمكن أن تتخذه الإرادة الإنسانية من خطوات وقرارات جديدة ، إنما هو زيغ من الزيغ وبعد عن الصواب . وكيف يحق للإرادة الإنسانية أن تتخذ قرارات جديدة وقد تحددت معالم الحقيقة بتفصيلاتها منذ الأزل وسوف تظل كذلك راسخة الأركان إلى الأبد ؟ من هنا فإننا نستطيع أن نقول إن الرجعية تماشي وتتلبس فى نفس الوقت بالتشاؤم بمعنى الكلمة . فالرجعى متشائم لأنه يتشكك فى كل ما سوف يقع من أحداث وفى كل ما يمكن أن تتمخض عنه إرادة الإنسان من قرارات ، وما يمكن أن يصدر عن البشرية من تصرفات سواء كانت تصرفات فردية أم تصرفات جماعية .

وإذا كان هذا هو حال الرجعية والحكم عليها بأنها والتشاؤمية صنوان لا يفترقان ، فإننا نجد أن التقدمية خلافا لذلك وعلى النقيض منه تتخذ موقفا مستبشرا بالحاضر والمستقبل ، بل إنها تنظر إلى تاريخ البشرية بارتياح لأنها تجد فى هذا التاريخ ما ينم على التقدم المستمر عبر العصور . فكلما ضربت البشرية فى التاريخ كانت بالتالى أكثر تقدما . فكل جيل تال أفضل فى جميع الجوانب عما سبقه من أجيال . وإذا ما تطلعت التقدمية إلى المستقبل ، فإنها تستبشر أيضا قياسا على ما حدث عبر الزمان . فكما أن الماضى القريب أفضل من الماضى البعيد ، فإن المستقبل القريب سوف يكون أفضل من الحاضر ، بل إن المستقبل البعيد سوف يكون أفضل من المستقبل القريب . واذا ما نظرنا إلى الإرادة الإنسانية ، فإننا نجد أن الإرادة فى نظر التقدمية قادرة على العمل الابتكارى التخليقى . فبمستطاع الإنسان أن يحقق الشىء الكثير سواء من حيث إصلاح المعوج أم فيما يتعلق بتصحيح المسار الخاطىء . من هنا فإنك تجد أن التقدمية هى صنو للتفاؤلية . ذلك أنها ترتاح الى الواقع من حولها من جهة . وتؤمن بمقدرة الإرادة البشرية من جهة أخرى .

وإذا أنت جالست أحد الرجعيين وحوله أولاده ، فإنك ستجد حديثه إليهم ينصب أساسا على الجنة المفقودة وعلى ما أصاب الإنسانية من انحطاط وما ألم بها من

اعوجاج ، بل إنه - قياسا على ما يعتمل فى نفسه وما يؤمن به - يعمد إلى الحديث عن طفولته وقد أخذ يعقد المقارنات بين تلك الطفولة التى عاشها ونعم بها وبين طفولة ابنائه التعسة الرديئة . فهو يجعل من طفولته شيئا عظيما ، بينما يجعل من الطفولة الحاضرة المتمثلة فى أبنائه وأبناء أقربائه وأصدقائه طفولة ضائعة رديئة شاردة ومنحرفة عن جادة الصواب . ولقد نجد الرجعى وقد أخذ يجعل من طفولته مفاخر وبطولات بينما أخذ يخسف بطفولة أبنائه ويجعل منها مخازى وألواناً من التخلف والغباء . وحتى بالنسبة لماضية وحاضره فإنه يجعل من الماضى الذى عاشه كل الخير والبركة والرخاء بينما ينعى على حاضره . ولعله ينتقى أمثلة صحيحة تنم على انخفاض الأسعار مثلا فى طفولته ومطلع شبابه ، ولكنه يغفل عن جوانب اقتصادية هامة كانت قائمة فى تلك الأيام وهى أن المال السائل بالأيدى والجيوب كان قليلا للغاية . ناهيك عن التخلف الحضارى الذى كان سائدا فى تلك الأيام . إنه ينسى مثلا أن طفولة اليوم تتمتع بمشاهدة التلفزيون وتستمتع بالاذاعة وبوسائل المواصلات السريعة وبجميع مظاهر الحضارة الراهنة المتعلقة بجميع ضروب الحياة وجوانبها ، بينما كانت طفولته رازحة تحت كثير من الانغلاق والجهل .

وعلى العكس من هذا فإن التقدمى يأخذ فى إبراز ما تتمتع به الطفولة الحاضرة من ميزات كثيرة حتى فيما يتعلق بالجوانب الثقافية والتعليمية . وطبيعى أن يعمد التقدمى إلى تناول الكثير من الجوانب الثقافية بغير أن يحصر نفسه وتفكيره فى القراءة والنحو وعلوم اللغة . فبينما كانت اللغة قديما غاية فى ذاتها ، فإنها صارت فى الوقت الحاضر مجرد وظيفة أو أداة يستعان بها لايصال المعانى من ذهن المتحدث أو الكاتب الى المستمع أو القارىء .

وبهذا الصدد فإننا نجد أن الرجعى يقدس اللغة ولا يؤمن بالتطور يصيب أنحاءها ، ولا يعتقد أن اللغة كالكائن الحى ينمو ويتطور ويسقط بعض الجوانب بينما يبنى جوانب جديدة . وبتعبير آخر فان ثمة عمليتى هدم وبناء فى اللغة كما هو الحال فيما يتعلق بالكائن الحى حيث لا ينمو فحسب بل يسير الهدم والبناء جنبا لجنب فى أنحائه مع تغلب البناء على الهدم . واللغة هى الأخرى تسقط منها ألفاظ وعبارات وتحل

محلها ألفاظ وعبارات أخرى . وطبيعى أن مثل هذا الكلام لا يعجب الرجعى لأنه يعتقد أن اللغة قديما كانت المثل الأعلى للكلام والإبانة ، ثم ما فتئت أن أخذ التدهور يلحق بها ويضرب بأطنابه فيها . ومن ثم فإن من شاء أن يصلح ما اعوج من كلامه أو كتابته ، فعليه بالإعراض عن الحديث والارتماء فى أحضان القديم . وكلما أوغل المرء فى القديم فإنه يكون بذلك قد اقترب من المنهل العذب الذى يجب أن ينهل منه ويروى من عذوبة مائه ظمأه .

أما التقدمى فإنه يتخذ موقفا مناهضا من اللغة . إنه يعتقد أن اللغة فى تطور مستمر ، وأن حاضر اللغة أفضل من ماضيها . ذلك أن اللغة لا تقاس فى نظره بالأساليب البلاغية التى يمكن أن تتضمنها ، بل تقاس بمدى قدرتها على الابانة واستيعاب الجديد من التطورات الحضارية . فاللغة العربية قد استوعبت الكثير من المخترعات والأدوات التى استحدثت ، بل إنها استوعبت أيضا المفاهيم الجديدة . فتجد باللغة العربية الحديثة كلمات استجدت وبرزت إلى السطح مثل السيارة والطائرة والقطار والصاروخ وأيضا الديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية ونحوها . ناهيك عن الاستخدامات الحديثة للأساليب اللغوية ، وتأثر العربية باللغات الاجنبية وتقبلها لمبدأ التعريب فصرنا نقرأ ألفاظاً معربة كالميكنة والتقنية والأوتوقراطية ونحوها .

من هنا فإنك تجد أن التقدمى ينظر بارتياح إلى ما يسطره المحدثون من كتابة ، بينما تجد الرجعى وقد أخذ فى التشكك فيما يقوم بقراءته من إنتاج حديث ، ومن ثم فإنه يسارع إلى كتب اللغة القديمة دون الكتب الحديثة ينهل منها ويغلف نفسه بإطارها . وواضح أن التقدمى لا يتنكر للتراث القديم ولكنه يفتح الطريق بين القديم والحديث ويجعل ثمة تفاعلا بينهما .

ونفس هذين الموقفين التفاؤلى والتشاؤمى يمكن مشاهدتهما فى الآراء التى تصدر عن كل من التقدمى والرجعى . خذ مثالا لذلك الموقف من المرأة والطفل . إن التقدمى يتقبل مبدأ المساواة بين الجنسين ويرتاح الى ما أحرزته المرأة من تقدم حضارى فى المجالات المتباينة . وهو يرتاح إلى الحرية المكفولة للطفولة فى المجالات والمؤسسات التربوية . أما الرجعى فانه ينعى على المرأة مروقها عن الإطار الذى ظلت

حبيسة به قرونا من الزمان ، ويتمنى لو رجعت المرأة من جديد الى عقر دارها . ناهيك عن نعيه على ما كفل للطفولة من تحرر وتدليل وعدم تعرضها للمهانة والقسوة .

الدكتاتورية والديمقراطية :

من الممكن أن ننظر الى كل من الديموقراطية والدكتاتورية من زاويتين أساسيتين : الزاوية الأولى هى الزاوية السياسية ، والزاوية الثانية هى الزاوية الأخلاقية . وما نذهب اليه هنا ليس فى الواقع بِدْعا . ذلك أن السياسة والأخلاق يرتبطان بعضهما ببعض منذ القديم فى أنظار الفلاسفة والمفكرين . ولعلنا نقول إن السياسة هى الأخلاق بالمعنى الواسع ، وأن الأخلاق هى نوع من السياسة أيضا تقوم بين الناس بعضهم وبعض فى علاقاتهم اليومية . فإذا قلنا إن الديمقراطية هى اعتراف صريح بأفراد الشعب من حيث اتخاذ القرارات بغير أن يستأثر حاكم واحد أو مجموعة من الحكام بالقرارات ، وأن الدكتاتورية هى تركيز الحكم واتخاذ القرارات فى يد حاكم واحد أو فى أيدى مجموعة قليلة من الحكام (وهو ما يسمى فى هذه الحالة أوتوقراطية) ، فإننا نقول إن العلاقات اليومية البسيطة بالمؤسسات الاجتماعية الصغيرة يمكن أن تتسم بالديمقراطية كما يمكن أن تتسم بالدكتاتورية . والحكم يتحدد فى ضوء ما يؤمن به الأفراد بصدد العلاقات وطريقة التفكير التى يتخذها الأفراد ويتلبسون بها فى حياتهم اليومية .

وإنك لتستطيع إن تقسم الناس جميعا من حولك ، سواء كانوا على علاقة طيبة بك أم كانوا مناهضين لك ومتخذين موقفا عدائيا قبالتك الى ديموقراطيين ودكتاتوريين . ولعلنا نتساءل عن الخصائص التى يتصف بها الديموقراطى وتلك التى يتصف بها الدكتاتورى . فنقول إن تلك الخصائص تتلخص فيما يلى : أولا – مدى اعتراف الشخص بأن بمستطاع الآخرين أن يفكروا بطريقة جيدة فى الأمور اليومية . فاذا كان الشخص مستعدا للاعتراف للآخرين بالقدرة على التفكير بطريقة صحيحة فى شئون حياتهم فإنه يكون ديموقراطياً . وعلى النقيض اذا كان ينكر على الاخرين ذلك . فالديموقراطى يعتقد أن التفكير منحة إلـهية عامة يتمتع بها جميع الناس بغير

استثناء وإن كان ممنوحاً بمقادير متباينة ويقدرات مختلفة . ولكن ذلك التباين فى حد التفكير وكميته ومستواه لا يحول دون القدرة على الوقوف على الصحيح والخاطىء من التفكير فى الحكم على شئون الحياة اليومية . تلك الشئون التى تتسم بالبساطة والخلو من التعقيد . ومن ثم فإن أى إنسان ليس بحاجة إلى وصى يفكر له (باستثناء الحالات النادرة التى يحكم فيها على الشخص بأنه مجنون بالفعل وبأن جهاز التفكير لديه فاسد لا يستطيع العمل بطريقة سديدة) .

ثانيا – ويترتب على هذا نشوء المعيار الثانى الذى نقيس الشخص فى ضوئه والحكم عليه بأنه ديموقراطى أو دكتاتورى . ذلك المعيار هو القدرة على اتخاذ القرارات . فالديمقراطى يعطى الناس حق إصدار القرارات فى شئونهم الخاصة بغير أن ينصِّب نفسه وصيا عليهم فى إصدار قراراتهم دونهم . أما الدكتاتورى فإنه بالإضافة إلى إنكاره على الآخرين قدرتهم على التفكير بالطريقة الصحيحة حتى فى أمورهم الخاصة ، فإنه يوحى اليهم بل ويؤكد لهم أنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار عملى فى جميع مناحى حياتهم وفى لب شئونهم الخاصة إلا إذا هم استهدوا به وسلموا له قيادهم .

ثالثا – فيما يتعلق بطريقة التفكير وطريقة العمل . الواقع أن الديمقراطى يعتقد أن ثمة العديد من طرق التفكير وطرق التنفيذ تصلح لمعالجة شئون الحياة ، حتى وإن كانت بعض تلك الطرق التى يتخذها المرء فى التفكير وفى التنفيذ أفضل من بعضها الآخر . فالطريقة الأحدية فى التفكير والانجاز لا تسيطر على ذهن الديموقراطى ، بل هى تسيطر على ذهن الدكتاتورى وحده . فبينما يقول لك الديمقراطى إن أمامك عدة طرق يمكن أن تتناول بها الموضوع الواحد أو المشكلة الواحدة ، وأن ثمة فى نفس الوقت عدة وسائل يمكن أن تتذرع بها فى معالجة الموضوع الواحد أو المشكلة الواحدة ، فإن الدكتاتورى يعتقد على نقيض ذلك أن ثمة طريقة واحدة للتفكير هى الصحيحة ومن ثم فإن الضلال عنها مفض بلا مناص الى الفشل فى تناول الموضوع أو المشكلة ، كما أن ثمة طريقة واحدة صحيحة يجب على المرء أن يتذرع بها فى المعالجة وإلا فإن عمله كله وجهده كله يذهبان سدى وبلا فائدة على الإطلاق .

رابعا – فيما يتعلق بالعمل المشترك ، نجد أن الديمقراطى بالنسبة للأعمال المشتركة لا يؤمن بالفكر الواحد والخطة الواحدة تصدر عن عقل واحد هو عقله . وعن إرادة واحدة هى إرادته ، بل يؤمن بالنسبة للعمل المشترك بتقسيم المشتركين فيه إلى مجموعات أصغر وبتوزيع مسئولية التفكير والتنفيذ على العديد من الأشخاص . بل على جميع الأشخاص بحيث يحظى كل شخص من المشتركين فى العمل المشترك بالنصيب المناسب له فى التخطيط وفى التنفيذ . فكل شخص من المجموعة يضطلع – سواء فى التفكير أم فى التنفيذ – بالقدر المناسب له حسب قدرته الشخصية وبحسب ما أُهِّل له بالفطرة أو بالاكتساب . وطبيعى أن يتخذ الدكتاتورى الموقف المضاد . ذلك أنه كما سبق أن ذكرنا لا يؤمن إلا بفكره هو وبإرادته هو . ومن ثم فإن العاملين معه فى المجموعة المشتركة لا يشكلون سوى دُمَى يحركها فتتحرك . ويفكر لها ويوجهها نحو تنفيذ ما يرتئيه صحيحا وجديرا بالتنفيذ . وهذا يصح بالنسبة لأى مجموعة تتسم بالمسئولية المشتركة بالمصنع والمدرسة بل وبالأسرة وغير ذلك من مؤسسات اجتماعية .

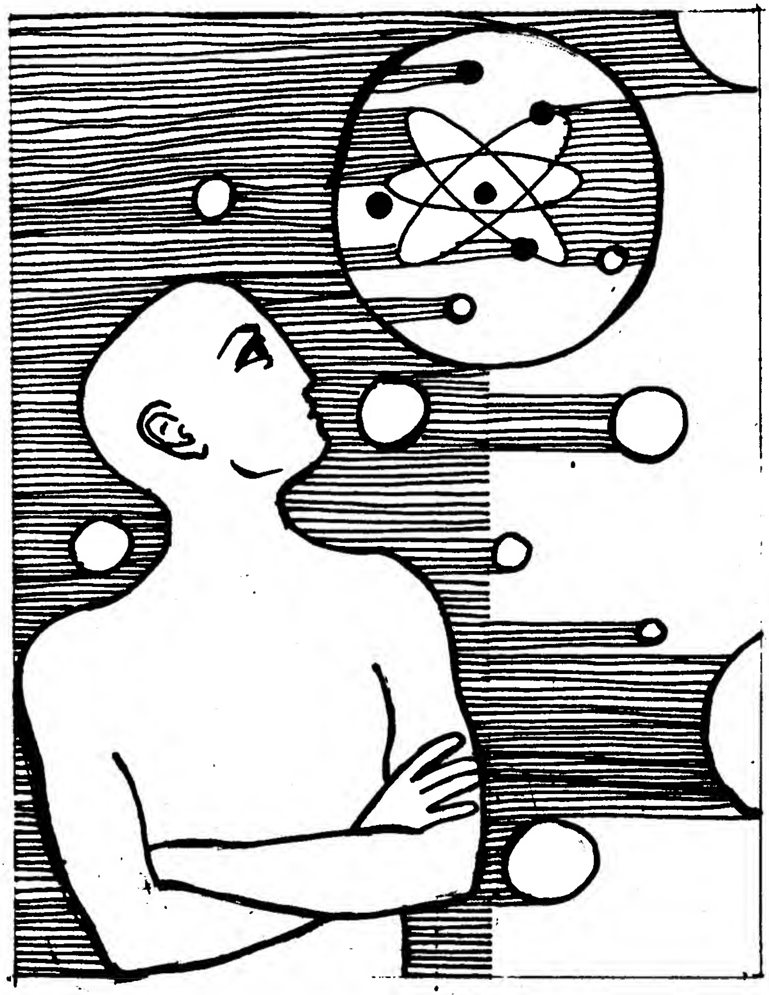
خامسا – لا يؤمن الديموقراطى باطلاقية النجاح والتقدم والتحسن . بل يؤمن بنسبيته . وعلى عكس هذا يفعل الدكتاتور . إنه يؤمن بإطلاقية النتائج . فالعمل إما ناجح وإما فاشل ، وليس هناك تدرج فى النجاح أو فى التقدم أو فى التحسن . والواقع أن هذا الموقف بالنسبة للديموقراطى ثم بالنسبة للدكتاتورى إنما ينبع من خصائص تفكيرهما وطريقة معالجتها للأمور . وعلى هذا فإنك تجد أن المدرس الديموقراطى مثلا يذكر لتلاميذه مدى ما توصلوا اليه من تقدم فى حياتهم الدراسية والاجتماعية والنشاطية ، بينما لا يعترف الدكتاتورى لتلاميذه بأى تقدم طالما هناك بعض الهنات التى تشوب أعمالهم ومناشطهم .

وبعد أن عرضنا لهذه السمات الأساسية التى يتسم بها الفكر والإرادة والعلاقات لدى كل من الشخص الديمقراطى والشخص الدكتاتورى . فانك تستطيع أن تستبين الصلة بين كل من الاتجاهين التفاؤلى والتشاؤمى وتلبس المرء بهما حسب انخراطه فى فئة من الفئتين الرئيسيتين : أعنى الديموقراطية والدكتاتورية . وواضح أن

الديموقراطى ينتحى إلى التفاؤل ، بينما ينتحى الدكتاتورى إلى التشاؤم . فالواقع أن الديمقراطى يتسم أول ما يتسم بالنظر بارتياح واستبشار الى تفكير وأعمال الآخرين . إنه ينظر إلى كل شخص فى إطار معين ، سواء كان إطار سنه أم إطار بيئته أم إطار ثقافته . فكل إطار من تلك الإطارات لها سماتها الخاصة بها التى ينبغى عدم الخروج عنها أو الخروج عليها أو النعى على أحد الواقعين فيها بأنه لا يتلبس بخصائص إطارات نمائية أو اجتماعية أو ثقافية أخرى غيرها .

وطبيعى أن يجد الدكتاتورى الطريق مسدودة أمامه فيما يتعلق بذلك . ذلك أنه يطالب بالمستحيل . إنه يريد لغير الموجود أن يكون موجودا ، وللموجود أن يكون غير موجود . وبتعبير آخر فإن الدكتاتور ينعى على الناس أنهم لا يفكرون بالطريقة التى يفكر بها ولا يعملون بالطريقة التى يتخذها ويتذرع بها . ومن ثم فإنه ينزع عنهم كل ثقة فى التفكير الصائب وفى العمل الناجح ، ويتولى هو نيابة عنهم مهمة التخطيط لما ينبغى أن يعملوه . وهو عندما يأمرهم بالعمل فإنما يجعل منهم مجرّد أدوات منفذة لا كائنات مفكرة ومريدة .

وحيث أننا حددنا معنى التفاؤل والتشاؤم بالقدرة على النظر بايجابية وارتياح إلى الماضى والحاضر والمستقبل ، فإننا نستطيع أن نقول إن الديمقراطى متفائل – على عكس الدكتاتورى المتشائم – لأنه ينظر إلى نفسه وإلى غيره فى ضوء تلك الأطُر النمائية التى يخضع لها الإنسان فى مراحل حياته المتباينة . إنه لاينظر إلى الطفولة مثلا باعتبار أنها مرحلة عجز واستكانة ، وإلى مرحلة الشباب باعتبار أنها مرحلة القوة والقدرة على التفكير والتنفيذ ، بل هو يعتقد أن لكل مرحلة نمائية – سواء بالنسبة له شخصيا أم بالنسبة للآخرين – حدودا معينة لا يمكن تخطيها ، وأن لكل مرحلة حظها الكيفى والكمى من التفكير والإرادة ، ومن ثم فلا يمكن الحكم بامتعاض أو باحتقار على مرحلة (أو على وضع اجتماعى أو ثقافى أو مهنى) وباكبار واحترام إلى مراحل أو أوضاع أخرى .



الفصل الثالث عشر

ملامح الفلسفة التفاؤلية

الفصل الثالث عشر

ملامح الفلسفة التفاؤلية

الإنسان سيد مصيره :

سبق أن قلنا إن المتفائل يؤمن بالقدرة على التغيير ، سواء كان ذلك التغيير متصلا بآثار الماضى أم كان متعلقا بالحاضر بحيث تظهر له ثمار مواتية فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . فالمتفائل لا يقف موقف المستسلم قبالة نفسه ولا قبالة الآخرين ولا قبالة العالم من حوله . إنه يؤمن بإرادته وبإرادة الآخرين ، وبأن ثمة سلسلة من الأسباب والمسببات . فالكون كله مترتب على علل تؤثر ومعلولات تتأتى عن التأثير الحادث . فإذا ما استطاع الإنسان أن يضع يده على العلل الجيدة ، فإنه يكون بالتالى قادرا على إحداث التغيرات المواتية والمؤكِّدة لوجوده والكفيلة بتوفير الحياة السعيدة له ولأبنائه وأحفاده من بعده .

وعلى هذا يكون الإنسان سيد مصيره بحق . إنه لا يكون قشة فى مهب الرياح ولا يكون خاضعا للظروف غير المواتية المحيطة به أو التى قد يظن البعض خطأ أنها مفروضة عليه فرضا . فبمقدور الإنسان إذن أن يتحكم فى شئونه الخاصة وفى البيئة التى تحيط به . ولعله عمد إلى ذلك منذ أن أحس بنفسه . فهو لم يخضع خضوعا أعمى أو خضوع اليائس للظروف والأحداث غير المواتية التى كانت تهدده بالفناء أو التخلف ، ومن ثم فانه دأب عبر العصور على التغيير . ولعلنا نقرر أن الذين أثروا فى مجريات حياة الإنسان والذين استطاعوا أن يتغلبوا على الكثير من الظروف غير المواتية المهدِّدة ، كانوا يشكلون فئة من المتفائلين الذين آمنوا بصدقٍ بامكانية التغيير ، والذين اعتقدوا اعتقادا راسخا فى قدرة الإنسان على التحكم فى ظروفه المتغيرة بل

والمتقلبة . فتلك النخبة التى قيِّضت للإنسانية فى كل عصر من عصور التاريخ وما قبل التاريخ ، هى التى وفرت لها بحق الحضارة وما تتضمنه من أدوات وعلوم وتقنيات للتغيير. ولعلك تلاحظ أن الإنسان قد بدأ بالصراع مع الطبيعة والحيوانات المفترسة ، ثم أخذ فى العصور الحديثة يصارع الأحياء الدقيقة المتمثلة فى الميكروبات التى تهدد وجوده وحياته بغير أن يدركها بعينيه أو بأى من حواسه المباشرة . ولعل المعركة التى تخوضها الإنسانية فى الوقت الحاضر والتى سوف تستعر أكثر فأكثر هى المعركة ضد الفقر وضد فوضى التناسل البشرى بغير ما ضابط ، وضد الفوضى فى ذبح الحيوانات أو الإجهاز عليها وإفنائها . فمشكلة الغذاء والمأوى والرخاء تعتبر المشكلة التى يجابهها إنسان العصر.

والواقع أن المؤمنين بالفلسفة التفاؤلية إنما يؤمنون فى نفس الوقت بقدرة الإنسان على تحقيق آماله والقضاء على مخاوفه والتغلب على مشكلاته المحتدمة مهما بدا احتدامها مخيفا وخطيرا . فمصير الإنسانية ليس خاضعا للمصادفة فى نظرهم ولا يقع تحت رحمة الظروف القاهرة ، بل هو معلق على مدى قدرة الإنسان على الوقوف على جلية أمره وعلى حقيقة الظروف التى تحيط به وعلى حجم المشكلات التى تجابهه وعلى تاريخ تلك المشكلات ، ووضع الأيدى على مفاتيحها وعللـــها ، والتذرع بالحكمة فى المعالجة والاستمرار بالعلاج بالطريقة السليمة وبالسرعة المطلوبة ، وعدم علاج أحد الجوانب على حساب باقى الجوانب الأخرى . وأخيرا التعاون مع الآخرين القادرين والمسئولين عن الحلول ، والعمل مهم فى فريق سواء فى التجريب أم فى التنفيذ ، الأمر الذى يتطلب إنكارا للذات ، والعمل فى صمت مع التطلع إلى النتائج المرجوة التى تتضمنها المثل العليا المطلوبة .

بيد أن ما يمكن أن يشكل مجموعة من العقبات أمام إرادة الإنسان وأمام سيادته وتحكمه فى مصيره هى تلك الركامات الثقافية العتيقة التى ربما لا تماشى أفكار ومبادئ التغيير. وعلى رأس تلك المعتقدات جميعا نبذ الفكرة التفاؤلية التى تقول إن الإنسان قادر على التغيير وأن بيده مقاليد مستقبله جميعا . فثمة أفكار أو معتقدات تشكك فى قدرة الإنسان على تسلم زمام أمره وتحضه على عدم التفكير فى المبادئ التفاؤلية ،

وتعلق مصيره ومصير الأجيال القادمة على ما سوف تجبر عليه الإنسانية مهما حاولت التنصل والتخلص مما كتب عليها من أقدار لا مفر منها . وكيف بالله تستطيع الإنسانية أن تضيف كلمة واحدة إلى تاريخها المقبل فى العصور القادمة وقد أُلِّف كتابها المستقبلى برمته حرفا حرفا بحيث لا يتسنى اضافة نأمة واحدة إلى سيمفونية مستقبلها .

والواقع أن ثمة قوتين جاذبتين للبشرية تتدافعان وتتعاركان : القوة الأولى تعمل على دفع الإنسانية إلى الأمام ، وهى القوة التقدمية التفاؤلية . أما القوة الثانية فانها تعمل على جذب الإنسانية إلى الخلف ، وهى القوة الرجعية التى يؤمن أصحابها بأن الماضى الموغل فى القدم أفضل من الماضى القريب ، وأن الماضى القريب أفضل من الحاضر ، وأن الحاضر أفضل بلا مناص من المستقبل ، بل إن المستقبل القريب سوف يكون أفضل من المستقبل البعيد . وانك لتجد أن أبناء المجتمع الواحد يتوزعون بين هذين التيارين المتباينين ، بل والمتعارضين أشد التعارض . وكل فريق منهم يحاول أن يضيف إلى صفِّه أنصاراً جددا يؤيدونه ويشدون من أزره . وهذا بلاشك يعمل بطريقة فعالة على إعاقة الحركة التقدمية فى أى مجتمع . ذلك أن الرجعيين يعملون جهد طاقتهم على إبطال قوة التغيير بالمجتمع . فإذا ما عمد التقدميون مثلا إلى التحكم فى عدد السكان بوسائل تحديد النسل ، فإن الرجعيين يسارعون إلى التشكيك فى صحة الوسائل المتبعة فى هذا الصدد . وإذا قال لهم أحد التقدميين « إنكم بذلك تساعدون على نشوء مجاعة وشيكة بالعالم » ، فانهم يردون على ذلك بقولهم « إذا كان قد كتب على العالم أن يعانى من مجاعة ، فليس بوسع أحد إذن أن يحول دون تنفيذ المكتوب » .

ولقد تجد نفس هذا المنطق لدى بعض الأفراد بازاء ما قد يصيبهم من مرض . إنهم لا يعرضون أنفسهم على الطبيب ، وذلك لأنهم يؤمنون بجبرية تنم على عجز الإنسان على التغيير . يقول الواحد منهم « إذا كان قد كتب عليَّ أن أموت ، فانى سأموت سواء عرضت نفسى على الطبيب أم لم أعرض نفسى عليه . ألا يقوم كثير من المرضى بعرض أنفسهم على الأطباء ومع ذلك يموتون ؟ وأليس هناك أشخاص فقراء

لا يكادون يمرضون حتى يحظوا بالشفاء بغير أن يستعينوا بوسائل الطب ومهاراته ؟ » .

ومعنى هذا فى الواقع أنه بالنسبة للحياة الإنسانية فإن إرادة التغيير حتى ولو وجدت وتبلورت وآمن بها نفر من الناس ، فثمة تيارات مضادة عنيفة تقوم فى مجابهتها وتعاكسها وتبطل الكثير من مصادر قوتها ومفعولها . وإنك قد تلمح أن هناك ما يشبه المد والجزر بالنسبة لإرادة التغيير من جهة ، ولإرادة التسليم بالمكتوب من جهة أخرى . ففى المجتمع الواحد تجد أن ثمة عصورا تمر عليه تتسم بسيادة إرادة التغيير ، بينما تجد عصورا أخرى يمر خلالها المجتمع تتسم بسيادة إرادة الاستسلام والخلود لما تدفع به أمواج التطور ، بل قل إن كل محاولة للتقدم إلى الأمام تجد ما يقف لها بالمرصاد ، بحيث يظل المجتمع مقيدا فى أصفاده بلاحراك وقد صار خلوا من الحرية ومفتقرا إلى الارادة .

وتتسم الفلسفة التفاؤلية التى تقول بأن الانسان سيد مصيره بعدة سمات أهمها : أولا – تناول الأمور الانسانية بنظرة موضوعية ومن زاوية شيئية . ذلك أن الإنسان طالما ينظر إلى نفسه كذات ، فانه لا يستطيع أن يحدث التغيير فى كيانه أو فى ظروفه . أما إذا هو استطاع أن يتناول نفسه كموضوع مطروح أمامه خارج كيانه الذاتى ، فإنه يستطيع إذن أن يحدث التغيير الذى ينشده . ثانيا – الإفادة من الخبرات الماضية والخبرات التى مرت بالمجتمعات أو الأفراد الآخرين وتوظيفها فى المواقف المشابهة أو فى مواقف جديدة . ذلك أن الانفتاح على خبرات الماضى من جهة ، وعلى خبرات الآخرين من جهة أخرى إنما يعمل بلا مناص على إمكان إحداث التغيير . وهذا لا يتأتى فى الواقع إلا إذا كان بمقدور الإنسان أن يتخلص من النزعة التقوقعية التى تتسم بها الذاتية والتى تجعل الاجترار الخِبْرى هو السمة المميزة بل السمة الرئيسية فى مجرى الحياة الإنسانية . ثالثا – العمل بغير وجل أو تشكك على توسيع آفاق التجريب على الإنسان بُغْية التوصل إلى حلول لمشكلاته . فطالما تسود النظرة التقديسية المتسامية إلى الإنسان ، وقَصْر التجريب على الكائنات الحية الأخرى غير البشرية ، فان النتائج المتوافرة سوف تظل قاصرة وغير ذات فاعلية وغير سريعة فى نفس الوقت .

العلم والتكنولوجيا والمستقبل السعيد :

يمتاز الانسان على سائر الحيوانات بما يعرف باختزان الخبرات . والاختزان الذى نقصده ليس اختزانا على المستوى الفردى فحسب ، بل هو أيضا – وفى نفس الوقت – اختزان على المستوى الجماعى المحلى والعالمى ، بل هو أيضا اختزان إنسانى متصل عبر الزمان . فالخبرة التى يحظى بها أحد المجتمعات سرعان ما تنتقل إلى مجتمع آخر بحيث نجد ما يمكن أن نسميه بالخبرة العالمية . وكذا فإن الخبرات التى تأتت لأحد المجتمعات فى عصر ما من العصور الماضية يمكن أن تستعاد وتستوعب وتصير من صلب الخبرة التى يتمتع بها فرد أو جماعة ما فى عصر آخر تال مهما كان بعيداً فى الزمان . ونستطيع أن نلاحظ ما يمكن أن نطلق عليه اسم التفاعل الخبرى التراكمى ، وذلك بأن تتلاحم الخبرات وتتفاعل فيما بينها لكى تكوِّن مركبات خِبْرية على أكبر جانب من التعقد بحيث يكون من الصعب القيام بتتبع احدى الثقافات إلى مصادرها المتباينة .

والواقع أن استخدامنا للفظ « خِبْرة » إنما يشير إلى ما يتسم بالعمومية فيما يكتسبه الإنسان فى نطاق مكان ما وزمان ما . ولعلنا بهذا اللفظ نكون قد أشرنا إلى الجوانب المتباينة لما يتسنى للإنسان اكتسابه ، سواء كان معرفة ذهنية أم معرفة لغوية أم علاقات اجتماعية أم عواطف أم ممارسات عملية ومهارات أدائية . أضف إلى هذا كل ما يتعلق بالدين والسحر والخرافات والاتجاهات الاجتماعية والعادات والتقاليد الاجتماعية والعرف والقانون والفلسفة والفن والأدب والعلم ، وكل ما يمكن أن يخطر بالبال من خبرات يمكن أن تنتقل من شخص إلى شخص آخر ، ومن مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى ، ومن عصر ما من العصور إلى عصر أو عصور تالية .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أهم الوسائل التى يستعين بها الانسان فى تطوير حياته العلم والتكنولوجيا . والعلم هو الوقوف على كنه الأشياء وعلى حقائق العلاقات ومعرفة أسرار الطبيعة وما يعتمل وراء الظواهر من قوانين سواء كانت الظواهر التى نعنيها هى ظواهر طبيعية أم كانت ظواهر إنسانية اجتماعية أو فردية . أما التكنولوجيا فهى مجموعة الخطوات العلمية فى الممارسة التطبيقية لما سبق أن توصل اليه العلم من

حقائق . ولنأخذ مثالا لذلك بالكهرباء والذرَّة . فالمعلومات التى تتعلق بالكهرباء والذرة هى من صميم العلم . أما ما يتعلق بفن التوصيلات الكهربية أو بفن الاتصال اللاسلكى أو فن الاتصال التليفزيونى فانه ينخرط فى التكنولوجيا . وكذا فإننا نجد أن صناعة القنبلة الذرية أو صناعة أحد المفاعلات الذرية هو تكنولوجيا .

ولقد نميز بين العلم والتكنولوجيا من زاوية أخرى هى زاوية المشاركة . فمن يشارك فى العلم لابد أن يكون واقفا على الأسس النظرية التى تؤدى به إلى التجريب الأولى المؤدى إلى إحالة الفكر إلى عمل والنظرية إلى تطبيق . بيد أن العالم لا قبل له بالاستحالة إلى الانتاج للاستخدام بالسوق أو على مسرح الحياة العملية لأن تلك الخطوة منوطة بالتكنولوجى . فمن يقومون اليوم بتصميم السيارات وصنعها ليسوا علماء بل تقنيون . فالتقنى يبدأ من حيث ينتهى العالم ويستمر ويتطور بما يبدأ فى تناوله من يد العالم . ولعل المشارك فى التكنولوجيا أشخاص لا قِبَل لهم بالضرورة بالمضمون النظرى الذى تقوم التكنولوجيا التى يستخدمونها على أساسه . إنك على سبيل المثال تدير مفتاح التليفزيون أو الراديو لتشاهد أو تستمع إلى أحد البرامج بغير أن تكون لديك بالضرورة معرفة علمية أو تقنية بما يحتويه جهاز التليفزيون أو الراديو . ان كل ما يهمك هو المشاهدة أو الاستماع . وكذا ربما تقوم بقيادة سيارتك بغير أن تكون مستوعبا بدقة النظريات التى قام على أساسها اختراع المحركات .

ويقوم العلم ، ومن بعده التكنولوجيا ، على ثلاثة مبادئ رئيسية على النحو التالى : أولا – إنك إذا أعددت الظروف المناسبة ثم وفرت أحد الأسباب . فإنك بلاشك تحصل على النتيجة التى تتأتى عادة كنتيجة لتوافر ذلك السبب . خذ مثالا لذلك غليان الماء عند درجة مائة مئوية فى ظل الضغط الجوى العادى ، إذا ما تعرض ذلك الماء للحرارة المناسبة . ثانيا – إنك إذا ما حذفت السبب المؤدى إلى ظهور نتيجة معينة ، فإن تلك النتيجة تختفى تماما . فى ظل الظروف السابقة التى بدأ الماء يغلى فيها ، إذا أنت أبعدت النار عن الماء . فإن ظاهرة غليان الماء تتوقف . ثالثا – إذا أنت غيرت من كمية المؤثر تغيرت بالتالى كمية النتيجة المتأتية . بيد أن التغير المترتب على الانقاص أو الزيادة فى كمية المؤثر لا تكون بالضرورة أقل فى حالة

التقليل من المؤثر أو أزيد فى حالة زيادة كمية المؤثر . من أمثلة ذلك ما يمكن أن تستجيب له احدى الحواس من استثارة بالزيادة أو بالنقصان فى حالة زيادة أو نقص المؤثر . فبالنسبة لحاسة السمع ، فإنك كلما زدت من ارتفاع الصوت فإن الاستجابة السمعية تتزايد . ولكن هذا لا يستمر على طول الخط . بل إن العكس يحدث عند درجة معينة من طبقة الصوت . فكلما زدت من ارتفاع الصوت بعد تلك الدرجة ، وهو ما يعرف بشدة ذبذبة الصوت ، فإن الاستجابة السمعية تقل إلى إن يتعذر استقبال الصوت بالإذن تماما .

ويتضح من هذا أن العلم ومن بعده ثمرته التكنولوجيا يقومان على أساس واحد هام هو الاعتقاد فى إمكان السيطرة على الوجود بغير ما نهاية . ولا يقف حائلا أمام العلم والتكنولوجيا الا ما يعرف بالاستحالة المنطقية . أعنى ما يتعارض مع المنطق الخالص كالوجود والعدم ، والصواب والخطأ . فالعلم لا يمكن أن يجعل من الوجود عدما أو من العدم وجودا . كما أنه لا يستطيع أن يحيل الصواب خطأ . أو الخطأ صوابا . بيد أن العلم ربما يكتشف أن ما كان يعتقد فيه السابقون أنه عدم إنما هو وجود دقيق كان مستخفيا عليهم . كما أن ما كان يعتبر خاطئا فى وقت ما ربما تتضح صحته فى وقت آخر . أما العدم بمعنى الكلمة والخطأ بمعنى الكلمة فانهما لا يمكن أن يستحيلا إلى وجود أو صواب . والعكس أيضا صحيح . فلا يمكن إحالة الوجود إلى عدم والصواب إلى الخطأ طالما أن الوجود هو وجود حقيقى . وطالما أن الصواب هو صواب حقيقى أيضا .

ولعل مما يشيع التفاؤل فى قلوب العلماء وأرباب التكنولوجيا تلك الاستمرارية التى يتطلعون بها إلى آفاق المستقبل . فكلما خطا العلماء خطوة . وكلما تقدم التكنولوجيون إلى الأمام فى مجال الإنتاج والانتشار التكنولوجى ، فإنهم يرون الفسحة أمامهم أرحب . إنهم لا يجدون المجال يضيق أمامهم فيصابون بالتشاؤم . بل يجدون أنهم لم يقطعوا سوى مرحلة صغيرة يمكن أن يقطعوا بعدها مراحل أبعد شأوا وأكثر إبهارا مما قطعوه أو قطعه السابقون عليهم .

والواقع أن التفاؤل الذى يتصف به التقدم العلمى والتكنولوجى إنما يتأتى أساسا عن تلك القوة الابداعية الهائلة التى تقع فى أيدى العلماء والتكنولوجيين . فهم يعتقدون أن بوسعهم التغلب على جميع المشكلات الحالية والمقبلة عبر التاريخ . وحتى تلك المشكلات الخطيرة التى تجابه البشرية يمكن أن يتم التغلب عليها بواسطة العلم والتكنولوجيا . فبالعلم والتكنولوجيا يتسنى إحالة الأراضى البور إلى أراضٍ زراعية والماء المالح بالبحار والبحيرات إلى ماء عذب صالح للشرب والرى . كما يمكن إحالة الصحراوات إلى أماكن عامرة بالصناعة والزراعة والتعدين . ويمكن أيضا التحكم فى الإنسان والحيوان والنبات . ويمكن تحسين نسل الإنسان والقضاء على ما يبدو لديه من اعوجاج أو نقص فى التركيب الجسمى أو فى القدرة العقلية أو فى الاستعدادات النفسية على تباينها . ولا نستطيع أن نتنبأ بما سوف يضطلع به العلماء بعد التخليق الذى قاموا به فى الأنابيب . فهل سيحاول الإنسان الإفادة من نتائج هذه التجارب وأمثالها فى تخليق كائنات حية معملية لا مثيل لها فى واقعنا الحى يمكن بواسطها التغلب على مشكلة اللحوم ونقص الأغذية فى العالم ؟ وهل سيحاول العلماء والتكنولوجيون فى المستقبل القريب غزو الفضاء للإقامة والامتداد بالعمران على الكرة الارضية إلى بعض الكواكب ؟ وهل سيأتى اليوم الذى يتم فيه تدريب الانسان على الحياة فى أعماق البحار بعد إحداث تغيرات فسيولوجية تتعلق بطريقة الحصول على الأوكسجين من الماء بدلا من الهواء ؟ إننا نعلم أن تجارب من هذا القبيل تجرى حاليا . وبذا يحق للعلم والتكنولوجيا أن يشيعا التفاؤل لدى الإنسان

التطور والتطوير سبيلا التقدم :

قلنا إن الفلسفة التفاؤلية تعتمد بصفة رئيسية على مفهوم القدرة على التحكم والسيطرة على مقومات الحاضر وصولا إلى تحقيق أهداف ترسم للمستقبل . ويتصل هذا الاتجاه التفاؤلى بكل من التطور والتطوير كمبدأين أساسيين فى الحياة وفى العلاقات وفى جميع أنحاء الوجود . والواقع أن التطور واقع قائم يحدث بغير تدخل من جانب الإنسان . أما التطوير فانه مجموعة العمليات التى تدفع بعجلة التطور إلى

الأمام مع اختصار الوقت من جهة . ومع التخلص من العمليات المصاحبة التى لا لزوم لها أو التى يكون لها نتائج ضارة أو غير مواتية من جهة أخرى .

والتطور فى حد ذاته – وهو ما يقع بغير تدخل من جانب الانسان – إنما يدفع بالمتفائلين إلى الاستبشار بالمستقبل ، وذلك لأنهم يعتقدون أن التطور فى مجموعه يدفع إلى التقدم . ونحن نتحرز ونقول « فى مجموعه » . لأن ثمة جوانب فى التطور لا تنم على التقدم ، بل قد تنم على التأخر أو التخلف . من ذلك مثلا تطور القوة البدنية لدى الانسان . فلاشك أن الانسان القديم كان أقوى من حيث العضلات عما يتمتع به الإنسان الحديث من قوة عضلية أقل ما توصف به أنها عضلات هزيلة ضامرة . ناهيك عن بعض القدرات النفسية التى كانت قوية لدى الانسان القديم وقد ذبلت أوكادت تختفى لدى الانسان الحديث . من ذلك مثلا الحدس . وهو الوقوف على حقائق الأشياء بغير استعانة بالشواهد المحسوسة والمقدمات المنطقية . وقد عمل نمو الذكاء واعتماد الإنسان الحديث على الشواهد الحسية على ذبول القدرة الحدسية لديه .

بيد أن التطور قد عمل بلاشك على التقدم بكثير من المناحى الإنسانية وبخاصة فيما يتعلق بحجم المخ مما سمح بارتفاع مستوى الذكاء والقدرات الخاصة . ناهيك عن أن الحضارة الانسانية ذاتها من حيث الأسس التى تقوم عليها بصفة رئيسية كانت ثمرة أصيلة من ثمار التطور . ولكن تلك الثمرة ما فتئت أن أخذت بزمام الموقف . وصار الإنسان يقود التطور ويأخذ بناصيته ويحدد معالم الأهداف المنشودة ، سواء كانت أهدافا بعيدة أم أهدافا قريبة . وهذا ما يعرف بالتطوير . فلم يعد التطور متروكا للفطرة والتلقائية ، بل صار شيئا مرغوبا فيه ومصبوا إليه ومرسوما ومخططا ومحددا .

ولعل أول عملية تطويرية اضطلع بها الإنسان هى عملية استحداث الاشتعال بيديه بغير انتظار لصاعقة تنزل من السماء فتحرق الأشجار ، أو بركان يفور فتتناثر الحمم من حول فوهته . لقد كانت النار قبل أن يطوِّر الإنسان هذه العملية مسألة تطورية بحتة . والتطور الطبيعى كان يحمل الخير والشر للإنسان على السواء . فالنار التى كانت تبزغ فجأة فى الغابة مثلا ، كانت تهيئ له الأمان إذا هى أحرقت الوحوش

المفترسة وأتت على الثعابين والحيات والعقارب والحشرات الضارة به التى كانت تهاجمه وتفتك بجسده وأجساد أبنائه . ولكنها من جهة أخرى كانت ضارة به إذا ما وصلت اليه واشتعلت فيه أو حرمته من مصادر غذائه . ولكن بالتطوير استطاع الانسان البدائى أن يلجم النار ويأسرها لخدمته . فهو يشعلها متى يشاء ويطفئها أيضا بالماء الذى اكتشف أنه قادر على إخمادها . وصار الإنسان يحدد حجم النار التى يريدها ومدى قوتها . ولقد استمر تطوير استخدام النار حتى الوقت الحاضر مستمراً حيث تحدد درجة الحرارة المطلوبة ، وحيث تتعدد أيضاً مصادر الحرارة سواء عن طريق الكهرباء أم عن طريق الطاقة الشمسية أم عن طريق الطاقة النووية . والواقع أن البترول فى مغزاه ما هو سوى طاقة حرارية مختزنة لاستخدامها بالطريقة التطويرية التى يريدها الانسان .

ولعل العملية التطويرية التالية – وهى من أخطر العمليات بعد تطوير الاشتعال – اكتشاف الانسان للزراعة . فبدل أن يعتمد الانسان على التطور الطبيعى للنباتات ، فانه استطاع بالفكر التطويرى البازغ لديه منذ بُدائيته أن يقوم بالتخطيط والقصد باستنبات الزرع والحصول على ما يشتهيه من ثمار أو ما يحتاج لتغذيته من طعام وتخزينه ليقتات به وقت الحاجة .

أما الخطوة التطويرية الثالثة الخطيرة فى تاريخ الإنسانية فهى استئناس الحيوانات ، أو قل استعباد الحيوانات . لقد اكتشف الإنسان أنه بحاجة إلى من يعاونه فى الزراعة ويحمل عنه بعض الأعباء فوجد مبتغاه فى البقرة والحمار والحصان والفيل . بيد أن الإنسان لم يكتف باستعباد تلك الحيوانات المستأنسة لتخفيف أعباء العمل التى كان يعانى منها فى زراعة الأرض ونقل الأشياء . بل إنه أخذ يفيد من لحومها فى طعامه . وبذا فانه استغلها فى العمل المضنى من جهة وفى توفير الطعام الشهى من جهة أخرى .

والواقع أن التطوير بالحضارة الانسانية – أو قل بالحضارات الانسانية الكثيرة والمتنوعة والمتعاقبة – لم يقتصر على جانب واحد أو على بضعة جوانب قليلة ، بل إنه أخذ يغطى جميع جوانب الحياه والاهتمامات . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن التطوير فى

جميع مجالاته إنما هو تطوير تراكبى تفاعلى . فكل مرحلة تطويرية تعد نقطة انطلاق لمرحلة تطويرية جديدة . فإذا قلنا إن امتطاء ظهر أول حمار أو صهوة أول حصان إنما هو فى الحقيقة تطوير فى عملية الانتقال مما يوفر للإنسان الراحة والسرعة . فإننا نقول إن اختراع المركبة التى يجرها إنسان من العبيد أو حيوان . إنما يعد تطويرا لاستخدام الحيوان فى الانتقال . ولقد كان ظهور المحرك واستخدامه فى السيارات بالبر وفى السفن البخارية بمثابة تطوير لتلك العربات التى تجرها الخيول من جهة وللسفن الشراعية من جهة أخرى .

وفى اعتقادنا أنه سوف يؤرخ لتطوير الإنسان بيولوجيا بعام ١٩٧٨ وهو العام الذى تم فيه أول تخليق لطفل إنسانى بداخل انبوبة اختبار . ذلك أن هذه التجربة تعنى أنه قد بدئ بالفعل فى التحكم فى العمليات التلاقحية التى كانت متروكة للظروف الطبيعية . أما وأن الإنسان قد بدأ فى التوجيه التناسلى . فإنه سيستمر إلى آخر الشوط حيث يتم التخطيط للوراثة أيضا . فسوف لا يكتفى الإنسان بتوفير ظروف التلاقح بين منى وبويضة . بل إنه سوف يتخير بالفحص والدراسة الحيوان المنوى الجيد والبويضة الجيدة الصالحة للتلاقح . وأكثر من هذا فانه سوف يعمد إلى التجريب على المنى والبويضة بقصد تخليصهما من الإرثات الرديئة وإضافة ارثات جيدة اليهما قبل الشروع فى عملية التلقيح معمليا بالأنابيب .

ولكن لعل الشبح الذى يخيف الكثيرين من هذه التجارب وأمثالها العمل على تحطيم بعض القيم التى طالما استمسك بها الانسان . من ذلك مثلا التدخل فى الإرثات التى يحملها منى الزوج وتزويده بإرثات جديدة جيدة مستفادة من منى رجل آخر . فهل يعتبر الطفل الذى يتم إنجابه بواسطة المنى المعدل والمنقح طفلا شرعيا أم ابن سفاح ؟ وهل إذا ثبت أن الزوج عقيم . فهل يجوز أخذ بويضة من زوجته وتلقيحها معمليا بمنى رجل خصيب لا صلة للزوجة به ولا تعرفه . ثم يولج الجنين المتكون بالأنبوبة فى بطنها ليكتمل نموه . وهل تعتبر تلك الزوجة زانية لأنها تحمل ابناً من غير زوجها ؟ .

المهم أن طفل الأنبوبة ليس مجرد تجربة معملية لحل مشكلة فردية محددة خاصة باحدى السيدات ، وانما هى بمثابة مرحلة تطويرية خطيرة فى الحياة الإنسانية . وسوف ينظر إليها المؤمنون بالتطور والتطوير باعتبار أنها مرحلة قمنة بالتفاؤل والاستبشار ، وذلك لأن سيطرة الانسان سوف تبدأ بيولوجيا على الأجيال القادمة بحيث لا يترك الإنجاب رهنا للظروف أيا كانت . فالتطوريون المتفائلون يقولون إن عصراً جديداً من السعادة سوف يفتح أمام البشرية . سوف تختفى جميع الأمراض والنقائص الوراثية ، وسوف ترتفع معدلات الذكاء وذلك بعد إحداث تغييرات بيولوجية خطيرة وجوهرية فى المخ البشرى . ذلك أن من يقع على مفاتيح الوراثة ، ثم يتوفر على ما تتضمنه من تطبيقات خطيرة ، سوف يتمكن بالتالى من تخليق السوبرمان الذى طالما تنبأ به الفلاسفة . ناهيك عن أن التكنولوجيا تتسابق هى الأخرى فى التطور بالإنسان الآلى الذى يخشى من أن ينزل فى معركة تنافسية مع الإنسان . فلقد بدأ العلماء فى محاولات جديدة لإضافة ما يعرف بالتذوق الجمالى والإرادة إلى الانسان الآلى . فإذا ما تم ذلك ، فمن المحتمل أن يكون الإنسان بذلك قد حقق قصة الجنى الذى أطلقه رجل فقير من برميل مغلق بإحكام كان قد سجن فيه . وقد أخذ ذلك الجنى فى تهديد الرجل الذى قام بتحريره من سجنه . ولكأن الإنسان يحقق قصصه الخيالية كما سبق له أن أحال بساط الريح إلى طائرة ، والمرآة السحرية إلى تليفزيون . وعلى أية حال فإن المتفائلين يقولون إنه لا خوف من التطوير وما قد يسفر عنه من ظهور كائنات قوية ، لأن الإنسان سيظل أقوى منها جميعا وسوف يظل ممسكا بأقدراها مهما عظم شأنها وتنوعت حيلها .

بالتربية والطب يعاد تشكيل الإنسان :

يعتقد المتفائلون أن تصحيح مسار السلوك الإنسانى شىء ممكن فى أية مرحلة نمائية ، بل وفى أى عمر من أعمار الإنسان . ويتأتى هذا عن طريق من طريقين : الطريق الأول – هو التربية بوسائلها المعروفة ، أعنى عن طريق التدريب وتصحيح المفاهيم وتكوين الاتجاهات الجديدة وإعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية التى تحيط

بالمرء ، وأخيرا عن طريق غربلة القيم وإضافة القيم الناقصة وتنشيط القيم الضعيفة التى لا تكاد تجد لها صدى فى سلوك الشخص . أما الطريق الثانية فهى الطب بوسائله العلاجية . والعلاج إما أن يكون إبلالا من مرض أصاب الشخص من الخارج كالاصابة بأحد الأمراض المعدية ، ويكون للمرض آثار يتركها فى السلوك ، أو يكون إصابة بعاهة فى أحد جوانب الجسم ، أو يكون نقصا فى التكوين الخارجى لأحد الأعضاء أو نقصا فى التكوين الداخلى كأن يكون ثمة شئ ناقص فى تركيب المخ ، أو كأن تكون إحدى الغدد الصماء ضعيفة الإفراز أو ضعيفة التكوين . ويتضمن العلاج أيضا ما يعرف بالأمراض السيكوسوماتية ، أعنى الأمراض النفسجسمية ، وهى الأمراض التى تعتمد على ركيزتين إحداهما جسمية والأخرى نفسية .

وحتى بالنسبة للوراثة الرديئة ، فإن التربية والطب يشكلان فى يد المتفائل المفتاحين السحريين اللذين يمكن بواسطتهما القضاء على المشكلات والعقبات التى تفرضها الوراثة على المرء . فالمتفائل يعتقد أن بمقدور الإنسان إذا ما وقع على التربية الصحيحة أو على الوسائل الطبية الجيدة أن يخفف إلى أكبر حد ممكن من العقبات التى تقف حائلا دون تقدم المصاب الحامل للمقومات الوراثية الرديئة . ذلك أن التربية الحقيقة بالاتباع هى تلك التربية التى لا تحمِّل الشخص أكثر مما يمكن أن يحتمل ولا تنوط به مهاماً لا قِبَل له بها ، ولا تهمل مواهب لديه مطمورة كان يجب العثور عليها واستثمارها . فمهمة التربوى المتفائل بإزاء صاحب المقومات الوراثية الرديئة تتلخص فى الفحص عن الجوانب القوية التى ورثها وطَرْق بابها دون المقومات الوراثية الرديئة التى لا فائدة من تناولها . ومن حسن الحظ أن الغالبية العظمى من الناس الذين يعتبرون من وجهة نظر الوراثة دوى مقومات وراثية رديئة ، يحملون فى نفس الوقت بعض المقومات الوراثية الجيدة أو حتى الممتازة . ولا ننسى أولئك الأشخاص الذين يطلق عليهم اسم البلهاء الحكماء idiots-savants وهم أولئك الذين على الرغم من انحطاط مستوى ذكائهم فإنهم يحملون ميزات وراثية عبقرية فيما يتعلق بالموسيقى أو الرسم أو المهارة الميكانيكية أو مهارة تشكيل الأشياء أو اصلاح بعض الالآت أو الأدوات التى أصابها العطب .

فالجدير بالتربية أن تبحث باجتهاد ومثابرة عن تلك الجوانب التى يمكن أن يتقنها صاحب الوراثة غير المواتية وأن تبدأ فى إخراجها من حالة الكمون إلى حالة النشاط والعمل . والواقع أن باب التصحيح التربوى مفتوح على مصراعيه يدعو المربين إلى القيام بالتصحيح فى أية مرحلة عمرية ينخرط بها الشخص الذى يراد إعادة توجيهه تربويا لتصحيح مسار سلوكه من جديد ، أو لكى يتسنى أن يُصْنع منه إنسان صالح للحياة وللمجتمع وقادر على الإنتاج والمساهمة فى الحياة الاجتماعية وقادر على إقامة علاقات سليمة مع بنى جنسه .

على أن التصحيح التربوى لمسار السلوك يتضمن جوانب متباينة ، بل يتضمن جميع جوانب الشخصية . فثمة أولا – التصحيح الحركى . وهذا يتضمن نوعين من الحركات : حركات عامة تتعلق بالمشى واستخدام اليدين فى الحديث وحركات الوجه وطريقة الوقوف وطريقة الجلوس بل وطريقة النوم ، ثم حركات خاصة تتعلق بالمهارات اليدوية أو حركات الرجلين فى أداء العمليات الدقيقة كقيادة الدراجة أو السيارة أو الطائرة أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو حتى الكتابة العادية على الورق . وهنا يكون المقصود من إعادة التربية أو تصحيحها شيئين أساسيين : أولا – تخليص الشخص من العادات الرديئة التى تتصل بالممارسة واستخدام الأطراف فى الأداء ، واضافة حركات جديده تحل محل الحركات الرديئة التى يراد التخلص منها لأنها زائده أو لأنها معوِّقة أو لأنها متداخلة بعضها مع بعض وتعطل أو تعوق بعضها بعضا .

وثمة ثانيا التصحيح اللغوى . ويتضمن هذا النوع من التصحيح جانبين أساسيين : أولا – تصحيح طريقة النطق وتدريب الشخص على الإبانة بغير تلعثم أو لَكْنة أو تداخل بين الكلام بعضه وبعض . ثانيا – تصحيح استخدام الكلمات أو العبارات التى دأب الشخص على استخدامها استخداما خاطئا أو ناقصا أو غامضاً أو متداخلا . أضف إلى هذا ما يعرف بطبقة الصوت التى يجب إناطتها بالعبارات المتباينة . فالنغمة الصوتية التى تستخدم فى الاستفهام تختلف عن النغمة التى تستخدم فى التعجب وغيرها بالنسبة للأمر أو التوكيد أو تقديم الأفكار وقص القصص وغير ذلك من نغمات يجب أن تصاحب الكلام بأنواعه المتباينة . وثمة أيضا الطبقة العامة

للكلام وطريقة التحكم فى استخدام الأوتار الصوتية فى الكلام . فمن الأخطاء التى يمكن ملاحظتها فى بعض المتحدثين الضغط على الأحبال الصوتية بحيث يأتى الكلام كله بطبقة عالية تضايق المستمعين .

وبالنسبة لهذا النوع من التصحيح الكلامى فمن الواجب على المربى أن يقف على الأسباب الحقيقية التى تعمل على فساد الكلام أو إصابته بالأخطاء فى الإبانة . لقد تكون الأسباب متعلقة بعيوب فى نفس أجهزة الكلام ، مما يجعل من المتعذر تقريبا تصحيح النطق . وقد ترتد عيوب النطق إلى عوامل انفعالية وجدانية . فلقد يكون الشخص مضطربا أو خائفاً أو على غير ثقة بنفسه أو على غير ثقة بمن يتحدث إليهم وقد ألفهم صادين له غير صابرين عليه حتى يبين عما يقصده من معان برفق واستئناء بل يعمدون إلى مطالبته بالسرعة فى الكلام وعدم الإطالة مما يحمله على التلبس بحالة انفعالية غير مواتية . ولا شك أن استبانة المربى الذى يقوم بالتصحيح التربوى للأسباب التى أدت إلى نشوء الأخطاء الكلامية ، لما يساعده على تقديم التوجيه التربوى الصحيح والناجع إذا كان ثمة سبيل لمثل هذا التصحيح التربوى .

وثمة ثالثاً التصحيح الانفعالى . ونعنى هنا الحالات التى يقدم فيها الشخص انفعالات غير وظيفية وغير مناسبة للمقام . ذلك أن الانفعال فى أصله يستهدف تحقيق هدف قريب ومباشر . أما إذا فقد الشخص البصر بالهدف الذى يصبو إليه ، فإنه يكون إذن قد جعل الانفعال غاية فى ذاته . وهذا يعد من الأخطاء السلوكية الخطيرة . وثمة خطأ آخر هو الفشل فى تحقيق الهدف المباشر الذى يبتغيه المنفعل على الرغم من بصره به ووقوفه عليه واستبانته له بوضوح وذلك كحال المدرس الذى ينفعل مطالبا تلاميذ فصله بالتزام الهدوء والسكينة وقد قصد من وراء انفعال الغضب الذى يبديه أن يرعوى تلاميذه ويأخذ بهم الخوف كل مأخذ ، ولكنه لا يلقى منهم إلا السخرية به والاستهانة بأوامره . ومن الأخطاء الانفعالية أيضا المبالغة فى التعبير الانفعالى عن موقف أو فكرة أو علاقة . وهذا لا يقتصر على انفعال الغضب بل ينسحب أيضا بازاء انفعال الود وإظهار الحب . فالأم التى تبالغ فى تقبيل أبنائها ، أو الصديق الذى يبالغ فى الإطراء على صديقه والارتفاع بمقامه إلى أعلى عليين كأن لم

يخلق شخص مثله قبله أو بعده . إنما يكون بحاجة إلى تصحيح انفعالى عن طريق إعاده تربيته تربية انفعالية .

وثمة رابعا التصحيح العقلى . وذلك بالقيام بإحلال الأفكار الصحيحة محل الأفكار الزائفة بل وتدريب الشخص على طرائق التفكير الصحيحة بدلا من طرائق التفكير الرديئة والخاطئة .

وثمة خامسا وأخيرا التصحيح الاجتماعى ، أعنى تصحيح العلاقات الاجتماعية سواء العلاقات بالكبار أم العلاقات بالأتراب . ونستطيع أن نشاهد فى إطار التصحيح الاجتماعى ما يمكن أن نسميه بتصحيح العلاقات الوظيفية المهنية . ذلك أن بعض المرءوسين إذا ما رقوا إلى الوظائف الرئاسية فإنهم يجدون أنفسهم غير قادرين على التكيف لنوعية العلاقات الوظيفية الجديدة بمرءوسيهم بل يظلون فى الإطار الاجتماعى الوظيفى الذى دأبوا على الانخراط فيه مما يجعلهم أو يعرضهم للفشل فى مواقفهم الرئاسية التى جدَّت عليهم فى حياتهم الوظيفية .

والخلاصة أن المتفائلين يعتقدون أن سلوك الشخص يمكن أن يصحح ويعاد تشكيله سواء بالتأثير فى شخصيته المعنوية بالتربية أم بالتأثير فى بنيته ووظائفها المتباينة بالطب . ولا يهم المتفائلين مدى ما يمكن التأثير به أو الحصول عليه . المهم فى نظرهم هو أن التأثير ممكن سواء بالتربية أم بالطب .

الأمم المتحدة ووحدة الأمم :

من أهم العوامل التى تربط فيما بين الأمم وسائلُ الاتصال المتباينة ، سواء كانت وسائل لنقل الكلام والأفكار ، أم كانت وسائل لنقل الأجساد والبضائع ، أم كانت وسائل لنقل الأزياء والعادات والتقاليد والمعتقدات . وعلى العكس من ذلك فإن ما يعمل على الانفصال والقطيعة بين الأمم عدم توافر الاتصال فيما بينها وتباعدها ماديا ومعنويا بعضها عن بعض . أضف إلى هذا ما يمكن أن ينشأ من عوامل العداء والتنافس على قطعة من الأرض أو على حقوق أو مصادر للثروة ، أو ما يقوم بينها وبين بعض من حروب لأسباب تتعلق بالضغائن القديمة التى نشأت عبر التاريخ

وحيث يعتقد أبناء أحد الشعوب أنه متفوق بطبيعته أو أن له السيادة على شعب أو شعوب أخرى بسبب ما جبل عليه من مقومات فطرية نادرة وميزات لدنِّيه لا تتأتى لغيره من شعوب . وهذا ما يعرف بالنزعة الى التفرقة العنصرية . وأخيرا فإن الثقافة نفسها يمكن أن تكون سببا للفرقة . فلقد يعتقد أحد الشعوب فى أن له الأولوية على جميع الشعوب الأخرى لما حظى به من ثقافة لا يدانيه اليها أحد . وأنه لذلك يستحق الإجلال والتقدم على جميع شعوب الأرض . والثقافة لا تتضمن المعرفة فحسب ، بل تضم فى نطاقها أيضا الاعتقاد والعادة واللغة وما ينحو اليه الشعب ويميل اليه أو ما يفضله من طعام أو كساء أو مسكن أو علاقات اجتماعية .

ومن المعتقدات الراسخة لدى الفلاسفة المتفائلين أن جميع عوامل التماسك والاتحاد بين الأمم متوافرة أو يمكن أن تتوافر للانسان فى الحاضر أو فى المستقبل . وما يحتاج اليه الانسان ليس العوامل الموضوعية التى تسمح باتحاد الشعوب أو تكاملها بعضها مع بعض ، بل العوامل الارادية التى تتعلق بالتقليل من الغرور الذاتى أو القضاء على الكراهية والمقت للشعوب الأخرى . ولكن حتى تلك العوامل الذاتية الوجدانية يمكن أن تخف وطأتها أو تتلاشى اذا ما تدعمت وسائل الاتصال بين الشعوب بعضها وبعض . وإذا ما توافر لكل شعب أن يقف على ما لدى الشعوب الأخرى من حكمة وبصيرة وتراث . ذلك أن من أهم العوامل التى تدعم الفُرْقة الوجدانية بين الناس تلك النظرة الإطلاقية الذاتية التى بمقتضاها يعتقد كل شعب أنه الحقيق وحده بالوجود دون غيره من شعوب . أو أن الثقافة الحقيقة بالبقاء والخلود انما هى ثقافته هو دون ثقافة الشعوب الأخرى .

والواقع أن الغرور الثقافى والعرقى يعتبر من أهم العقبات التى تقف حائلا دون تقارب الشعوب . وأكثر من هذا فإن الظن الخاطئ بأن التقارب الثقافى أو التفاعل الثقافى الذى يمكن أن يعمل على تخصيب ثقافة الشعب بالثقافات الأخرى المتعلقة بالشعوب الأخرى ، إنما يعمل فى المدى البعيد على تحطيم الوحدة الثقافية للشعب ، أو القضاء على لغته أو إضعافها أو العمل على تفكك أوصاله أو فقدان وحدة الشعب وضياع هويته . والصحيح هو أن ثمة فرقاً جوهرياً بين فقدان الهوية الثقافية للشعب

وبين نموه الثقافى . فالنمو الثقافى للشعب يتأتى عن طريق تفاعل ثقافته مع الثقافات الأخرى . أما ضياع الهوية الثقافية فإنه ينجم عن النقل الثقافى مع إهمال القوام الثقافى الأصلى الذى يشكل القوام أو ذاتية الشعب الثقافية .

ومالا يفهمه كثير من أبناء الشعوب على تباينها هو الجمع بين الهوية الثقافية للشعب أو للشخص وبين النمو الثقافى والإفادة من الآخرين والتفاعل مع ما لديهم من ثقافة بغير أن يحدث تنازل ثقافى من جانبهم . فالانفتاح الثقافى بغير الخضوع للغزو الثقافى ممكن . ذلك أن الانفتاح الثقافى يعنى الأخذ والانتقاء والتفاعل بحرية مع استمرار المحور الثقافى الأصلى قائما . أما الغزو الثقافى فمعناه العمل على نبذ الثقافة الأصلية لكى تحل محلها ثقافة دخيلة أو بديلة . ومن أمثلة الانفتاح الثقافى قيامنا بالاطلاع على ما يكتبه المفكرون فى الغرب والشرق ، أو على ما يكتب فى عصرنا هذا وعلى ما سبق أن كتب عبر العصور المتعاقبة ، لا بقصد أن نؤمن بما آمنوا به من معتقدات ، أو لكى ننقل فكرة من هنا وفكرة من هناك ثم نعزو ما ننقله إلى أنفسنا ، بل لكى نتفاعل على نحو أو آخر مع ما نقوم بقراءته . ولا يختلف فى هذا الصدد ما نقوم بقراءته والتأثر به ، وما يقع على حواسنا من وقائع نقوم باختزانها وتحويلها إلى لحم كياننا الفكرى والثقافى وإلى سدى من سداه . أما الذى يستعبد فكره لأعظم المفكرين وزنا أو لأروع الأدباء أدباً حتى ولو كان الأديب أو العالم من بنى جلدته ، فإنما يكون بذلك قد سمح لهذا الأديب أو لذلك العالم بغزوه ثقافيا ، وهو بذلك يكون قد صار عبدا فاقدا لهويته الثقافية . واذا كان هذا هو الحال على المستوى الفردى حتى بين فرد وفرد آخر بنفس الشعب الواحد ، فما بالك اذا كان هذا هو الواقع بين شعب وشعب آخر . وهذا هو ما وقع لكثير من الشعوب التى رزحت تحت نير الاستعمار الأجنبى . فالفرنسيون ظلوا لفترة طويلة وهم يعتقدون أن من الممكن إحالة الشعوب الملونة التى قاموا بغزوها الى شعوب فرنسية سوداء . فلقد عمدوا الى إحلال اللغة الفرنسية محل لغاتهم ولهجاتهم الأصلية . ولقد حدث شىء من هذا القبيل ببعض البلاد العربية كالجزائر ولبنان . ولكن ثمة اليوم مناهضة ثقافية واسعة النطاق لهذا الغزو أو الابتلاع الثقافى .

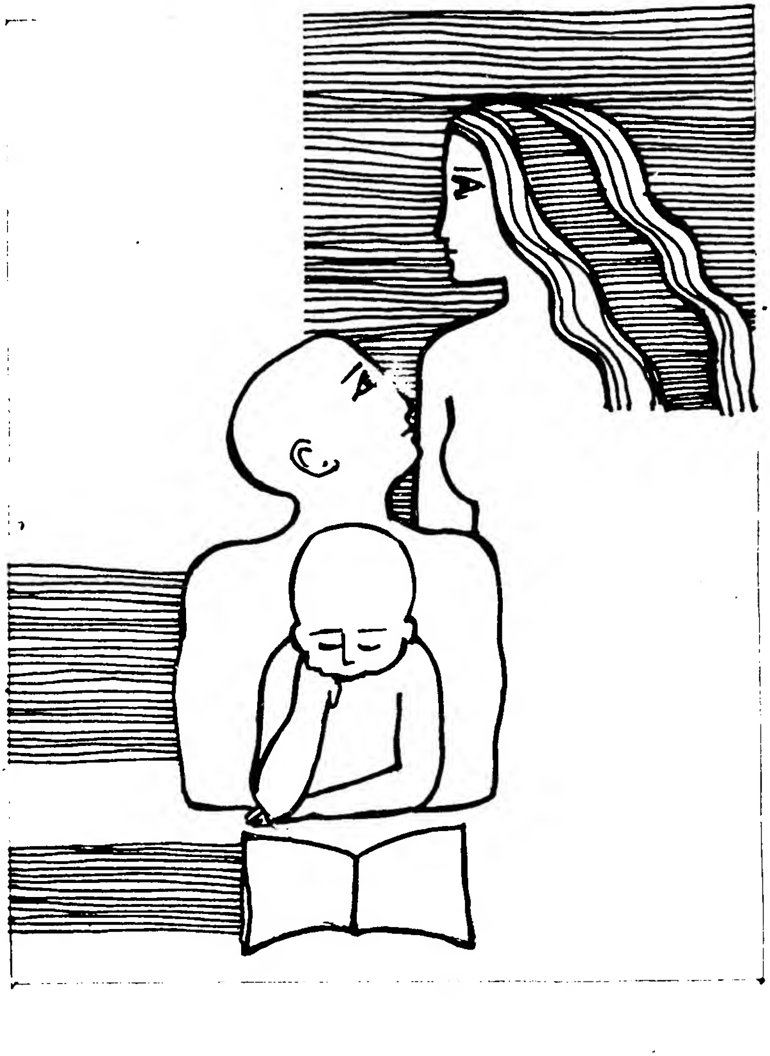
ولكن الخوف من الغزو أو الابتلاع الثقافى قد يدفع إلى الوقوع فى خطأ آخر على نفس الجانب من الخطورة هو التقوقع الثقافى . والشعب المتقوقع يعمد إلى الانغلاق على ما عنده من ثقافة مرتميا فى أحضان ما توافر له من ثقافة قديمة يجترها ويدور فى فلكها ويحرم على أبنائه التأثر من قريب أو بعيد بأى ثقافة جديدة محلية أو أجنبية خوف أن يفقد هويته الثقافية .

والواقع أن منظمة الأمم المتحدة تستهدف فيما تستهدفه التقريب بين الشعوب لا عن طريق الاندماج بعضها فى بعض . بل عن طريق التكامل والتنسيق فيما بينها . أو عن طريق تكامل المصالح والأهداف . بيد أن الشوط أمام الأمم المتحدة طويل لبلوغ مرامى الوحدة والتكامل بين الشعوب . ولا شك أن أهم أساس يجب تأكيده فى قلوب وعقول زعماء الشعوب هو إمكان تحقيق التكامل بين شعوب الأرض جميعا بغير ما تصادم أو تناحر . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الغالبية العظمى من الحروب كان يمكن أن تتجنبها الشعوب لو كان قد تسنى التقاء زعمائها وتم تبادل الرأى والتفاوض على ما يقوم بينهم من منازعات . وخير مثال يمكن أن نشاهده اليوم تلك المفاوضات الدائرة بين مصر واسرائيل والتى عملت على شجب الحرب كوسيلة فعالة فى كسب الحق أو إعادته واللجوء الى المنطق والتعقل والانتهاء إلى حلول مفيدة للطرفين على السواء .

ولسنا نشك أن وحدة الأمم سوف تتحقق – إذا كان لنا أن نتلبس بالفلسفة التفاؤلية . ذلك أن الوحدة التى نتصورها ليست تلك الوحدة الاندماجية التى قد تتبادر الى ذهن البعض . بل هى الوحدة التكاملية . ويخطئ من يعتقد فى الاستقلال الاقتصادى بمعنى الاستغناء الاقتصادى عن الشعوب الأخرى . والصحيح هو الأخذ بمبدأ التكامل الاقتصادى بين الشعوب المتباينة . فيمكن مثلا وضع خريطة اقتصادية زراعية وصناعية وتجارية عالمية باتفاق جميع ممثلى شعوب الأمم المتحدة بل وشعوب العالم بأسره بحيث لا يقع تداخل فى الانتاج وبحيث لا تحدث اختناقات اقتصادية أو تنافس يكون فيه ثمة رابح وخاسر ، بل يكون هناك توزيع تكاملى فى جميع المجالات الاقتصادية ومن ثم يتحقق التكامل وتبادل المنافع بين جميع الشعوب .

أضف الى هذا ما يمكن أن يتم فى المجال الثقافى من نظرات نسبية إلى ما تحمله الشعوب من عقائد وتذوقات . ذلك أن من أهم الركائز التى تنشأ عنها الكراهية والأحقاد بين الشعوب الاعتقاد فى أن ما يتذرع به الشعب أو يأخذ به هو وحده دون غيره الحقيق بالاعتراف والتأييد . وأن ما تأخذ به الشعوب الأخرى جدير بأن يحارب ويضرب فى الصميم . ولكن الاتجاه النسبى هو الذى يجعل القائلين به يحترمون ما لدى غيرهم من ثقافة – على الرغم من عدم تنازلهم عما لديهم -- وبغير أن يكون لاحترام ثقافة الآخرين أية غضاضة بالنسبة لما يعتقدون هم فيه أو بالنسبة لما يأخذون أنفسهم به .

على أن من الواجب أن يسير القانون وحماية حقوق الشعوب الضعيفة جنبا لجنب مع نمو التفاهم العالمى بين الشعوب جميعا . وهذا لا يتسنى الا اذا ازدادت قوة الأمم المتحدة بحيث تصير بمثابة حكومة مركزية للعالم بأسره وحيث تصير الدول بمثابة ولايات خاضعة لتنسيق تلك الحكومة المركزية . بغير أن تفقد هويتها وقوامها الذاتى واستقلالها .



الفصل الرابع عشر

ملامح الفلسفة التشاؤمية

الفصل الرابع عشر

ملامح الفلسفة التشاؤمية

الانسان يقضى على نفسه :

لعلنا فى هذا الفصل نقدم الصورة المضادة للصورة التى رسمناها فى الفصل السابق للفلسفة التفاؤلية التى تنظر باستبشار إلى المستقبل . فهنا نقدم الجانب القاتم من النظرة إلى الانسان والوجود . ولقد يكون فى تقديم الصورتين المتضادتين بغير أن نضم صوتنا لأى منهما ما يكفل للقارىء الفسحة للتفكير والمقارنة والاختيار الحر بغير أن نوعز اليه بالتلبس بفلسفة من هاتين الفلسفتين .

تقول الفلسفة التشاؤمية إن الإنسان يقضى على نفسه بنفسه . وليس هذا ابتداء من العصر الحديث كما قد يعتقد البعض . بل إن لقصة قضاء الإنسان على نفسه جذورا عميقة تضرب بأطنابها فى أغوار التاريخ حتى فيما قبل الحضارة الإنسانية بتاريخها المكتوب .

ولقد نقول بغير ما خطل إن قصة الأكل من شجرة الخير والشر التى اجترأ آدم وحواء على اقتحامها واقتطاف ثمارها . إنما تشير إلى اللحظة الأولى التى بدأ فيها الجنس البشرى فى العبث بنفسه وبما حوله من أشياء وأحياء . ذلك أن الإنسان كان وديعا فى الجنة قبل بزوغ الذكاء والارادة وإعمالهما ضد البيئة بشن حرب شعواء عليها . وقد كان قبل تناوله من ثمار تلك الشجرة مسالما حيث كان فى مأمن وفى ظل الرعاية الآلهية المباشرة . كما كانت الطبيعة بما تضمه من جوامد ونبات وحيوان فى مأمن هى أيضا من عبثه . ولكن الإنسان وقد تفتحت عيناه على ما حوله . فإنه أخذ يفكر فى مغالبة الوجود ليغلبه . فبدأ فى الفتك بالنبات والحيوان بل والفتك ببنى

جنسه أيضا والافساد على الأرض والبحر والجو . وانتهى المطاف به إلى افساد الفضاء الخارجي ومن بعد ذلك سيعمد إلى إفساد الكواكب التى سيقوم بغزوها واحداً بعد الآخر .

والحقيقة التى عزبت عن بال الإنسان عبر العصور المتعاقبة – حتى الوقت الحاضر فى الأغلب – هى أن كل هزيمة يوقعها الإنسان بالوجود من حوله ، إنما هى الواقع هزيمة له . وأكثر من هذا فإن كل شجرة يقطعها وكل جنس من أجناس الحيوانات يقوم بإبادته ظنا منه أنه بذلك قد أفسح الطريق لنفسه ليحيا سعيدا على هذه الأرض . إنما هو فى الواقع مسمار يدقه بيديه فى نعش وجوده على هذه البسيطة . وأكثر من هذا فإن المصانع التى أطلق الإنسان دخانها فى الفضاء والسيارات التى توزع عادمها هنا وهناك والبواخر التى تطلق أيضاً دخانها الكثيف إلى أعلى وتفسد ما تمر عليه من أنهار وبحار ومحيطات بما تتركه وتلقى به من بترول يقتل الأسماك ويفسد الماء ، إنما هو ترسيخ لقبر الانسانية الوشيك . ولعلنا لا نذهب شططا إذا قلنا إن الكثير من المشروعات العمرانية والزراعية والصناعية ليست خيرا كلها ، بل إن الغالبية منها يفسد ما يعرف بالاتزان البيئى . ولكم كتب عن الأضرار الجانبية لكثير من السدود والخزانات المائية ، بل هناك من يقولون إن ثمة علاقة بين ما يقوم به الانسان من تجارب نووية وبين الفيضانات التى تغمر الهند والزلازل التى تجتاح إيران وغيرهما من أقطار الأرض . ناهيك عن أن ثمة علاقات وطيدة بين بعض الأمراض كالسرطان وبين الاشعاعات النووية وما نعرفه وما لا نعرفه من عبث الانسان الذى يعتقد أنه الخير كله .

وكلما اشتدت الضغوط الحضارية على الإنسان ازدادت توتراته النفسية وكثرت مشكلاته الاجتماعية . ولكأن الانسان قد تاه فى هذا العالم فأخذ يجرى وراء سراب لا يريد أن يقتنع بأنه لا يحمل رِياً من ظمأ ولا نجاة من موت . فالحضارة التى نستظل بها قد جعلت من الانسان مخلوقا واهنا مهددا بالانهيار فى كل جانب من جوانب شخصيته . ولنبدأ بالجانب

الجسمى . فالى جانب إفساد البيئة وتلويثها - الأمر الذى يضر بالانسان بطريق مباشر - فهناك أضرار غير مباشرة تنجم عن هذا التلوث . فالنبات والأسماك والحيوانات التى يتناولها الإنسان فى غذائه ، إنما هى فى نفس الوقت كائنات حية تتأثر بما يتأثر به الإنسان من تلوث بيئى . وحتى ما يخدع الإنسان به نفسه من زيادات كمية فى حجم النبات أو الحيوان ، ليس فى الواقع إلا على حساب الكيف . فالأرض التى يرهقها الإنسان بالأسمدة حتى تقدم إليه محصولا أوفر ، لا تستطيع أن تقدم إليه نفس النوعيات التى يتطلبها الجسم البشرى . ولكأن هناك معادلة لا يمكن تخطيها بين الكم والكيف . فالكم الزائد يكون من جهة أخرى على حساب الكيف . والتربة فى هذا كالمدرسة . فعندما تزدحم حجرات الدراسة بالتلاميذ ، فإنه على الرغم من أن عدد الناجحين فى آخر العام يكون كبيرا نسبيا ، فإن الكثرة العددية تكون على حساب شىء آخر هو المستوى التحصيلى لأولئك التلاميذ .

ونفس الشىء يقال عن الحيوانات بما تقدمه إلى الانسان من بيض أو لبن أو لحم . ناهيك عما لم يكتشفه العلم بعد من تأثير الوسائل البشرية فى زيادة الانتاج من أضرار تحيق به فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد ، وما اذا كان ثمة تأثير ردىء لما يستخدمه الانسان فى تنشيط النبات والحيوان لتقديم محصول أغزر فى صحته العامة ، أو فيما يصيبه من أمراض .

والواقع أن الحضارة قد عزلت الإنسان عن البيئة الطبيعية عزلا تاما . فكل ما يتعامل معه الإنسان من نبات وحيوان وما يستخدمه فى الانتقال والاتصال ، إنما هو بعيد عن الطبيعة . وحتى اذا قيض لك أن تعيش فى حضن الريف ، فاعلم أن الريف نفسه بما يتضمنه من حقول ليس من الطبيعة فى شىء بل هو قطعة من الحضارة الإنسانية لأن الزراعة إن هى فى الواقع سوى صناعة من صناعات الإنسان .

ولسنا نشك فى أن إحساس الإنسان – سواء بطريقة شعورية أم بطريقة لا شعورية – بأنه قد عزل عن البيئة . انما يشعره أيضاً بالندم على خطيئته الأصلية التى جعلته يفتح عينيه على ما حوله وقد أخذت لعبة استخدام قوته تداعبه وتغريه حتى أباد الطبيعة وأحل محلها الحضارة . ومن ثم فإنه يحس أنه قد فقد ثدى أمه الحقيقية الحنونة . وأخذ يتناول ثدى جارية قاسية لا تكفل له الحماية والرعاية . بل تهدده بالرذل أو حتى بالقتل .

ومن الملاحظ أن الحضارة تتسم بالرمزية . الأمر الذى يهدد عقل الإنسان بالانهيار . ولعلنا نعتمد فى حياتنا اليومية على الرموز أكثر من اعتمادنا على الأشياء ذاتها . فالنقود رمز للملكية وبورقة صغيرة يعلو مقام المرء فيشغل أعلى المناصب . وبورقة صغيرة يفصل من عمله أو يلقى به فى السجن أو يعدم على حبل المشنقة . وبكلمة تهان كرامة المرء . وبنبأ بالتليفون يطير الإنسان فرحا أو يسقط فاقدا النطق . والإنسان فى السيارة أو الطائرة أو الباخرة أو حتى بالبيت يعيش فى حالة من الترقب . ربما يقول قائد الطائرة « أربطوا الأحزمة » فتمتقع الوجوه . وربما يصيح الشرطى بسكان إحدى العمارات أن اهرعوا إلى الشارع واتركوا كل شىء لأن العمارة ستنهار بعد دقائق . وربما يكون أيضا فى الأعمال الحضارية الثقافية كالتأليف ما يفتت مقومات المخ نفسه أو ما يبتلى الانسان ببعض الأمراض كتصلب الشرايين أو ضمور العضلات بسبب كثرة الجلوس أو كثرة التفكير أو المعاناة .

والهموم تلاحق الإنسان منذ طفولته حتى مماته . يحمَّل الانسان منذ نعومة أظفاره بالقيم فيقال له إفعل هذا واترك ذاك . وإذا اقترف ما يحرمه الكبار يعاقب أو يحرم من عطفهم . وتأتى المدرسة وبعد المدرسة العمل وبعد العمل الزواج وبعد الزواج تربية الاطفال . وحتى بعد أن ينخرط المرء فى الشيخوخة يظل مهتما بأبنائه وأحفاده . بل إن الحضارة تعلِّم الإنسان أن

يدأب على أن يصبو إلى تحقيق أهداف مستمرة . فتجد الشخص الهرم وقد أخذ يخطط للكسب أو للتغلب على خصم له فى قضية . وحذار من أن تنبهه إلى قرب الأجل لأنه بلغ من العمر أرذله . ولا تتعب نفسك فى اقناعه بالسلو عن هموم العالم . لأنه ابن الحضارة التى استعبدته منذ طفولته وهى الآن مصرة على استذلاله حتى مماته .

والسؤال الملح هنا : هل ركامات المتاعب الحضارية تتراكم لتثقل على الأجيال التالية ؟ إن المتشائم يؤكد ذلك . ويقول إن ما نحمله على عواتقنا من هموم وتوترات لا يفنى بفنائنا . ولا ينتهى أثره بموتنا . بل هو ينزل فى لاشعور أبنائنا وأحفادنا ويصبغ حياتهم بالقتامة والإرهاق . وإذا صح هذا فإن ما ينضاف فى كل جيل من هموم جديدة إلى الهموم الموروثة ، يجعل نهاية الإنسانية تكون وشيكة على هذه البسيطة . ويكون الإنسان كمن عبث بالنار فاشتعلت فيه فظل تحت رحمتها ولا حيلة له بازائها . فهى آتية عليه لا محالة .

العلم الشرير وتكنولوجيا الدمار :

قلنا إنه منذ أن فـــتح الإنسان عينيه على العالم من حوله ، فإنه صار يعبث بمقومات الوجود ، وقد أخذ يفسدها مع أنه كان يطير من الفرح ظنا منه أنه قد اكتشف طريق الخير والحق والجمال . ولقد استعان الانسان فى هذا التشويه والافساد بالعلم والتكنولوجيا . صحيح أنه بالعلم استطاع أن يتخلص من كثير من الأمراض وأن يحفظ على الناس الصحة والعافية الظاهرتين ، كما أنه استطاع فى نفس الوقت أن يقدم ألوانا كثيرة من الرفاهية إلى الناس . بيد أن ما يبدو مفيدا أو جميلا أو مبعدا الشر عن الحالات الفردية قد يكون من وجهة النظر العامة ضارا أشد الضرر ومضيعا لما تشتمل عليه الحياة من روعة وجمال . فمن حيث الطب مثلا والانتصارات الطبية ضد كثير من الأمراض ، فإننا نستطيع أن نقول إن حفاظ الطب على الضعاف من بنى الإنسان وحمايته للأعداد الكثيرة من الناس المرشحين للموت من الزوال .

ومن ثم فقد أعطيت له الفرصة لإنجاب ذرية واهنة مثله ، إن لم تكن أكثر وهنا وضمورا منه ، وقد أضاف الزوج الضعيف الفاسد فى مقوماته الوراثية وما ابتلى به من ضعف أو أمراض ظاهرة أو خفيفة إلى ما ابتليت به زوجته الضعيفة أو المريضة بحيث صار النسل الناجم عن زواجها وزواج أمثالها يجمع نقاط الضعف والتشويه والعجز والخمول التى ابتليت بها الاطراف التى أخذت تتلاقح فيما بينها .

وحتى بالنسبة لكثير جدا من ضروب الرفاهية والراحة التى وفرها العلم والتكنولوجيا فقد كان لها فى الواقع أضرار جانبية على أكبر جانب من الخطورة . وشاهد ذلك ما تلاحظه من تأثير ضار فى صحة الناس فى العصور الحديث بما وفر لهم العلم والتكنولوجيا من وسائل للترفيه . فإنك تجد الشباب وقد أخذوا ينتحون إلى الرياضات بكافة أنواعها ولكن لا للمشاركة فيها إيجابيا بأن يساهموا فى اللعب ، بل بأن يتخذوا موقف المتفرجين . فالسلبية لا الإيجابية هى السمة السائدة فى سلوك الشباب حتى بالنسبة للرياضة الجسمية التى يمكن أن تصلح بعض ما أفسدته الحضارة بالحفاظ على الضعفاء بغير أن يتواروا فى التراب . فحتى ما كان يمكن أن تقدمه تلك الوسائل الترقيعية – أعنى التربية الرياضية – إلى الشباب لكى تصلح بعض ما أفسده الدهر ، فإن العلم والتكنولوجيا قد بخلا على الإنسان به ، وأحلا محلها تلك المشاهدة السلبية عن طريق أخطر آلة صنعها الإنسان – أعنى التليفزيون – من حيث التأثير فى سلوكه ونشاطه .

وقل ما تشاء على هذه الوتيرة بإزاء ما يقدمه العلم والتكنولوجيا من معمار حديث ومن ناطحات سحاب تضم مئات الشقق التى لا تشغل كل شقة منها سوى حيز صغير للغاية يضم الزوج والزوجة وأبناءهما وربما بعض الأقرباء الآخرين كالجد أو الجدة أو العم أو العمة . ولسنا فى حاجة إلى البرهنة على أن تنشئة الأطفال فى تلك الشقق الضيقة التى لا تدخلها شمس ولا تحظى بالتهوية السليمة ولا يوجد بها فسحة يجرى فيها الأطفال ويمرحون انما تضربهم بكل أسباب التخلف الصحى والاعوجاج

النفسى . ناهيك عن أن المعمار المدرسى يعانى من الازدحام هو الآخر ، حيث يرص التلاميذ فيما يسمى بالفصول (حجرات الدراسة) كالسردين فى العلبة الواحدة ، وقد افتن علماء التربية فى التأثير فى العقول والوجدانات بشتى الوسائل العلمية والتكنولوجية عن طريق الضغوط التى إن افلحت فى حشد المعلومات وغرس المهارات وتكوين الاتجاهات ، فإنها تعمل من جهة أخرى على إصابة الناشئة بالتوترات النفسية الخطيرة التى تظل تعمل عملها طوال حياتهم ، وذلك بسبب المقاييس ووسائل التقييم وعلى رأسها الامتحانات التى تحدد مستقبل الطفل والمراهق والشاب ، وتحكم عليه بالذكاء أحيانا . وبالغباء فى أحيان أخرى ، وبالإهمال والتقصير فى أحيان ثالثة ، وبالفساد فى أحيان رابعة .

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للعلم والتكنولوجيا اللذين يبدوان من الناحية الظاهرية خيرا صرفا لا يشوبهما أى بصيص من الشر ، فما بالك بالعلم والتكنولوجيا اللذين يحكم عليهما جميع العقلاء بأنهما علم وتكنولوجيا رديئين ويوقعان الأذى بالإنسان فى حاضره ومستقبله . ومن الطبيعى أن نذكر أول ما نذكر أسلحة الدمار والفناء . والواقع أن ثمة أساليب الحرب الساخنة المتقدمة للغاية ، وثمة أيضاً أساليب الحرب الباردة التى تقدمت هى الأخرى بدرجة توازى تقدم أساليب الحروب الساخنة . والواقع أنه إذا كانت الحروب الساخنة مكلفة بابادة الأجساد والقضاء على الحياة وهدم المساكن وإزالة معالم الحضارة ، فإن الحرب النفسية مكلفة بالفت فى عضد العدو وقتل معنوياته وإشاعة الشكوك فى نيات قادته والعمل على تفكيك أوصال الوحدة فى شخصية الدولة ونشر الفرقة بين الشعب ، والتجسس على العدو بكافة الوسائل وتجهيز وسائل مضادة تبطل قوته وسداده .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن اهتمام البشرية قد تركز بالدرجة الأولى فى العلم الشرير وفى وتكنولوجيا الدمار ، لدرجة أن الكثير من العلم والتكنولوجيا المستخدمين فى الحياة المدنية والحياة اليومية قد بزغ بادئ ذى بدء فى أحضان الجيوش وفى أذهان علماء وتقنيى الحرب . فكثير من التقدم الذى أحرزه علم النفس وعلم التربية إنما يعزى إلى ما بذل من جهد ومحاولات لتجنيد القوى النفسية للجنود أو لغسل أمخاخ

الأسرى أو فى مجال التدريب على المعدات والأسلحة ، أو فى مجال التدريب النفسى على اليقظة والامتناع عن النوم لمدة طويلة أو على تحمل بعض المواقف غير الطبيعية ، أو فى مجال تطويع الجسم وكسبه لمجموعة من المهارات الدقيقة التى تلزم عند مجابهة العدو .

ولاشك فى أن الكثير من العلوم الإنسانية وبخاصة علم النفس قد استخدم على أيدى الاشرار من العلماء والتقنيين فى أغراض مناهضة للمجتمع أو لقضاء أوطارهم الخاصة .

ولعلنا نقدم أمثلة لهذا النوع من تطويع العلم والتكنولوجيا للأغراض الشخصية المصلحية غير القانونية أو غير الأخلاقية بما يقوم به بعض الأذكياء بل وبعض العباقرة من العلماء والتقنيين الذين ينقصهم التواؤم مع القيم الاجتماعية والأخلاقية لمجتمعهم . خذ مثالا لذلك استخدام التنويم والإيحاء بازاء بعض الأشخاص وسوقهم إلى حيث يريد العالم الشرير من أهداف شريرة كاقتراف جرائم القتل أو الزنا أو لسرد وقائع تلوث سمعة بعض الشخصيات أو الانتحار أو السرقة أو الاختلاس أو غير ذلك من تصرفات مضادة للقانون والأخلاق .

ولقد يستخدم العلم فى اقتراف جرائم يطلق عليها عادة اسم الجرائم الكاملة ، أعنى تلك الجرائم التى لا يتسنى للشرطة أو المحققين الوقوف على أول الخيط فيها أو على أى خيط بازائها يتسنى لهم عن طريقه التوصل إلى الشخص الذى اقترف الجريمة . والواقع أن العالم الذكى يستطيع بذكائه أن يضع خطة دقيقة ومعقدة بحيث يصعب الكشف عن خباياها إلا على أيدى من هم أكثر علماً وحنكة منه من رجال القانون . ولعل أخطر نوع من المجرمين هم أولئك الذين تخصصوا فى علم الجريمة والذين أريد لهم بداءة أن يتمرسوا بفنون وعلوم الجريمة لمكافحتها لا لاحترافها والتمكن من أصولها للقضاء على أمن الناس أو لاستغلالهم أو للانتقام من بعض الافراد أو الجماعات ، أو للثراء على حساب المواطنين .

والواقع أن من أخطر ما يستغل فيه العلم والتكنولوجيا ما يعرف بالتزييف ، بسواء كان تزييف النقد أو تزييف المستندات . وطبيعى أن يكون أخطر من يقوم بالتزييف

من أنشق من صفوف العاملين أصلا فى هذا المضمار . خذ مثالا لذلك الشخص الذى يعمل أصلا فى رسم أوراق العملة . إنه إذا قام بمساعدة غصابة ممولة بتقديم نسخة من عمله الأصلى والمشاركة فى إخراج أوراق مالية غير شرعية – إذا صح التعبير – لا تكاد تختلف عن الأوراق التى سبق أن قام هو نفسه برسمها أو صياغتها ، فإن جريمته إذن تكون معقدة بحيث لا يكون من الميسور الكشف عنها أو ضبطها اللهم إلا إذا قام بازاء المجرم من هو أكثر منه حنكة وقدرة على سبر الغور والكشف عن الخبايا والدقائق المستخفية أو الوقوف على الفروق البسيطة للغاية بين غير الزائف والزائف . والخلاصة أن المتشائمين يعتقدون أن العلم والتكنولوجيا لا يحملان الخير للانسان ، سواء كانا متصفين بالخير الظاهرى أم كانا واضحى الشر للإنسان . فالفسلفة التشاؤمية تعلن أن العلم شرير وأن التكنولوجيا أداة للدمار العاجل أو الآجل .

التطور والتطوير والتقدم الزائف :

بينما يقول أصحاب الفلسفة التفاؤلية إن التطور والتطوير هما سبيلا التقدم . فان أصحاب الفلسفة التشاؤمية يتخذون الموقف المضاد قائلين إن التطور والتطوير هما سبيلا التخلف أو التقدم الزائف . ولعل المتشائمين يبدأون بالبحث فى مفهوم التقدم نفسه حتى يبرهنوا على أن ما قد يبدو من تقدم على يد التطور أو التطوير . إنما هو تقدم وهمى لا يرتكز على رصيد من الواقع .

فالسؤال الأول اذن هو : ما معنى التقدم ؟ وهل هناك أنواع من التقدم أم أن التقدم شيء واحد لا ينشعب . وللإجابة عن هذين السؤالين فلا بد أن نحدد المعيار الذى نقيس التقدم فى ضوئه . لقد يكون المعيار الذى نقيس به التقدم معيارا بيولوجيا ، وقد يكون معيارا ذهنيا ، وقد يكون معيارا روحيا . وقد يكون معيارا اقتصاديا ، وقد يكون معيارا سيكلوجيا . وقد تكون هناك معايير أخرى غير هذه يمكن أن نقيس بها التقدم . والتقدم معناه الزيادة فى الكم أو التحسن فى الكيف ، أو بلوغ غاية أو تحقيق أمل أو زيادة فى التكيف . وقد يكون قياسنا للتقدم فى ضوء معيار خارجى ، كما أنه قد يكون فى ضوء معيار داخلى يتعلق بالشيء نفسه .

وبعد أن قمنا بالقاء الضوء على ما يمكن أن يحمله لفظ «التقدم» من معان وما قد يضمه فى أنحائه من نوعيات ، فإن علينا أن نتساءل بلسان المتشائمين عن علاقة كل من التطور والتطوير بمعانى التقدم وبأنواعه المتباينة . وعلينا أن نكون أمناء فى تقديم الحجج التى يمكن أن يتذرعوا بها لمساندة موقفهم بازاء هذا الموضوع الحساس والدقيق . فبالنسبة للكرة الأرضية ككل يتساءل المتشائمون : هل ما يزعم لها من تطور يقع على قشرتها ينتهى بها إلى التقدم أم إلى الذبول والتلاشى ؟ والإجابة التى يقدمها المتشائمون عن هذا السؤال هو أن الكرة الأرضية شأنها شأن أى كائن وجودى وشأنها شأن أية آلة كبيرة ومعقدة تنحو إلى الضعف والوهن والشيخوخة اذا صح التعبير . ناهيك عن أن الانسان الذى يعبث على قشرتها ومن فوقها وفى الفضاء بعيدا عنها يمكن أن يفسدها تماما كما يفعل الطفل الصغير بدميته التى يظل يفكك أوصالها الى أن يأتى عليها ويبعثر أجزاءها فتذهب أشتاتا متناثرة . ولقد يفلت الزمام من يد الإنسان فى أثناء ممارسته لإحدى التجارب النووية أو فى أثناء شنه لحرب نووية تطيش فيها يده عن الأهداف أو تشتد فيها وطأة الهجوم على الأعداء فيردى الأرض كلها الى التهلكة .

وحتى ما يزعم من تطور طبيعى خاص بالكائنات الحية ، فانه بالنسبة للوجود ككل لا يشكل سوى شظية تافهة وجانب ثانوى فى هذا الكون الهائل . بيد أن الإنسان بما يشتمل عليه من غرور واحساس زائد بالذات يعتقد أن المملكة الحيوانية التى يتربع على عرشها هى أبهى ما فى الوجود . ولو تسنى للشمس أو المريخ أن يفكرا وينطقا لكان التهكم إذن يملأ وجهيهما من ذلك الكائن التافه الذى امتلأ بالغرور وقد اعتقد أن ما يقع من تغيرات فى مملكة الكائنات الحية إنما هو تغير جوهرى مع أن الواقع انه تغير تافه بسيط اذا ما قيس بالأحداث الكونية وما يختبىء فى طيات الكون من أسرار .

وبالنسبة للتطور الطبيعى أيضا فإنه فى الواقع تطور تراكبى بمعنى أن بقاء أحد الأنواع وازدهاره إنما يتحققان على حساب بقاء وازدهار نوع آخر منها . وأكثر من هذا فإن بقاء الانسان نفسه وازدهار نوعه إنما هو على حساب بقاء وازدهار الكثير

جدا من أنواع مملكة الكائنات الحية النباتية الحيوانية . ومعنى هذا فى حقيقة الأمر أن التطور المزعوم والذى يعتقد أنه يحمل التقدم فى مناحيه . إنما فى هو فى الواقع أخْذ من هنا واضافة الى هناك . فما يستلب من النبات والحيوان يضاف إلى الانسان . فأين اذن التقدم ؟ ألم تندثر كثير من الأنواع النباتية والحيوانية ؟ فاذا كان التطور هو فى نفس الوقت تقدم ، أفلم يكن خليقا بتلك الكائنات الحية النباتية والحيوانية أن تزداد رسوخا وقوة ووفرة ؟

فالتطور القائم بالطبيعة إن هو فى واقع الأمر سوى تطور تراكبى . بمعنى أن ما ينقص فى شىء ينضاف الى شىء آخر ، وأن بقاء كائن هو فناء لكائن آخر . وحتى بالنسبة لبزوغ الذكاء لدى الإنسان فإننا نجد – بلسان الفلاسفة التشاؤميين – أن الحدس – وهو الوقوف على أحوال الكائنات الأخرى وفهمها واقامة علاقات معها بغير فكر أو لغة – لا يقل فاعلية عن الذكاء . ولعلنا نقول إن العلاقات التى تقوم بين النمل بغير ذكاء ولكن بواسطة الحدس الحيوانى – إذا صح التعبير – لهى أكثر نجوعا من العلاقات التى تقوم بين الانسان وبنى جلدته . أو بينه وبين الكون من حوله بواسطة الذكاء .

وإذا كان هذا هو حال التطور فإن الحال بالنسبة للتطوير أكثر اظلاما وقتامة . ولقد سبق أن عرضنا للجوانب التى عبثت يد الانسان فيها وأحالتها إلى الرداءة أو الخفوت والضعف والفساد . ويصح لنا هنا أن نتساءل : هل الحضارة التى اخترعها الانسان مواكبة للذكاء أم أنها مناهضة له وعامل من عوامل تدميره ؟ يجيب التشاؤميون بأن الحضارة تعمل فى كل منحى من مناحيها على هدم الذكاء لا على تنشيطه وتقويته . فإذا كان التطوير البشرى ينبنى أساسا على الحضارة . ويستند إليها ويستخدمها كأداة للتطوير ، فإننا بتصفح أثر الحضارة – أو بتعبير آخر – أثر التطوير فى الذكاء ، نجد أن أثرها ضار . والذكاء كما هو معروف هو الوقوف على ما بين الأشياء من علاقات . وأيضا العلاقات بين الماضى والحاضر والمستقبل. أعنى التغيرات التى تقع بالوجود فى نطاق هذه الأبعاد الزمانية الثلاثة ، وأيضا العلاقات التى تقوم بين العلاقات ذاتها . ناهيك عن العلاقات التى تقوم بين الأسباب ومسبباتها .

والعلاقات التى تقوم بين المجردات كالأرقام والرموز ، والعلاقات التى لها صبغة سيكلوجية لا صبغة منطقية . وذلك كأن تفهم ميول الشخص الذى تتعامل معه ، ثم تقدم إليه المعاملة التى تستهويه لا تلك التى تستهويك أنت .

فإذا تصفحت الحضارة وما تتضمنه من جوانب متباينة ، فإنك تجد أن ما تحتفظ به الحضارة فيما يعرف بالتراث ، إنما يعمل على تكبيل الذكاء الإنسانى تماما . خذ أمثلة لذلك . ولنبدأ بالقانون . ان القاضى لدى إصدار أحكامه فى القضايا المعروضة أمامه إنما يكون محكوماً بالنصوص القانونية التى تعد تراثا تشريعياً . فهل هذا الخضوع من جانب القاضى للنصوص القانونية يسمح له بالنمو فى الذكاء ؟ ونفس الشىء يصح بالنسبة للطبيب والصيدلى والمدرس بل وبالنسبة لجميع المهنيين والحرفيين . إن كل شىء مجعول أمامهم جاهزاً وما عليهم استيعابه كثير للغاية بحيث يقعد بهم عن محاولة إضافة جديد إلى القديم . فطالب الطب مثلا عليه أن يستوعب التراث الطبى – أو قل ان عليه أن يستوعب شظية صغيرة من ذلك التراث الضخم – وليس من شأنه أو ليس فى مقدوره أن يفكر أو أن يعمل ذكاءه بالدرجة الأولى . وحتى بالنسبة لاكتشاف العلاقات فقد سبق أن اكتشفت وحددت وسجلت بالكتب التى بين يديه . فما عليه اذن الا أن يستوعب . فموقف ابن الحضارة لا يعدو أن يكون موقف قطعة النشاف التى تمتص ما يحيط بها من سائل . وحتى اذا قيل إن التطوير الحضارى مستمر . فإن السؤال الذى ينشأ : هل يتوافر ذلك للكثرة أم للقلة القليلة من الناس ؟ فالحضارة اذن تعمل على سد الطريق أمام الذكاء الانسانى ولا تعتمد إلا على الذاكرة تحشد بها المعلومات . أو قل إنها لا تعمل على تطوير الداخل فى الانسان . بل على تطوير الخارج من الأشياء .

فالإنسان اذن فى ظل الحضارة ليس كائنا ذكيا . بل إنه بجانب خفوت ذكائه ، قد فقد تلك القدرة الذهنية الحدسية التى ما يزال النمل وكثير من الكائنات الحية تتمتع بها وتعتمد عليها فى تسيير دقة حياتها . ناهيك عن أن الحضارة قد طمست الكثير من الخصائص الروحانية التى كان يتمتع بها الإنسان القديم كالتخاطر والرؤية الروحية وقراءة الأفكار وغيرها .

أما عن التأثير العصبى والنفسى للحضارة فى حياة الانسان فإنه تأثير وخيم وخطير . وقد سبق أن عرضنا للتوتر العصبى الذى يترتب على الضغط الحضارى على الانسان . وفى رأينا أن من أخطر ما يهدد الانسان الحضارى فى جهازه النفسى الصوت المرتفع والحركة السريعة الخاطفة والضوء الشديد . فالحضارة بما تتضمنه من ضوضاء وما يمر أمام ناظرى المرء من مَرْكبات خاطفة سريعة وما يركبه من طائرات أو سيارات سريعة تخيفه وتهدده بالارتطام – سواء أدرك ذلك أم لم يدركه – وما يسلط على عينيه من أضواء باهرة بما فى ذلك الضوء المنبعث من شاشة التليفزيون أو السينما – إنما تنوخ بكلكلها على الجهاز النفسى للانسان الحديث . ولكأن ما قام به الإنسان من تطوير قد ضرب كيانه نفسه فى الصميم واقترب به من الهلاك الوشيك .

بالتربية والطب ينهار الإنسان :

بينما يعمد المتفائلون إلى إناطة الأمل بالتربية والطب فى إصلاح ما سبق أن اعوج فى حياة الإنسان فى جانب أو أكثر من جوانب شخصيته ، فإن المتشائمين من جهة أخرى يعمدون إلى التشكيك فى قيمة فاعلية كل من التربية والطب فى تعديل المناحى الرديئة من الشخصية الإنسانية ، بل إنهم أكثر من هذا يعمدون الى التأكيد على أن التربية والطب كثيرا ما يفسدان حيث يريدان الإصلاح والتحسين وتقويم ما اعوج فى شخصية الإنسان .

ولعلنا نستبين زاويتين أساسيتين يمكن أن ننظر منهما الى كل من التربية والطب : الزاوية الأولى هى الزاوية الفردية ، والزاوية الثانية هى الزاوية الجمعية . فمن حيث الزاوية الفردية ، فإن التشاؤميين يؤكدون أن التربية والطب لم يتمكنا حتى الآن من إحداث تعديلات جوهرية فى بنية الانسان وفى مقوماته الشخصية . وأقوى دليل على هذا هو أن كل وسائل تنقيح السلوك وتصحيح ما اعوج لدى الفرد من مقومات لم يتناول سوى القشرة الخارجية من الشخصية ، ولم يستطع أن يسبر الأغوار أو أن يغوص الى دخائل الانسان حيث المقومات الوراثية الدفينة . فكأن التربية والطب بمثابة طفلين يلعبان على شاطىء محيط واسع الأرجاء وبعيد الغور ، وقد ظنا أنهما يملكان نواصيه بعد أن تمكنا من العبث فى الماء الملاصق للشاطئ .

فمن الناحية الجسمية ، واضح أن الإنسان لم يتسن له بعد أن يمسك بمقاليد الوراثة وأن يتمكن من تطويعها لأهدافه . وحتى عندما يتسنى له ذلك ، فإن القيم والمعايير الاجتماعية والتقاليد والعادات والكبرياء البشرية سوف تقف جميعا موقفا مناهضا ومثبطا أمام جميع محاولات التطبيق الناجعة . وشاهد ذلك ما تراه من هجوم وصيحات تنديد بتجربة الأنابيب ، بل وضد استخدام وسائل منع الحمل وضد نقل الأعضاء أو تركيب الأعضاء الصناعية . ناهيك عن المذاهب الفلسفية والمعتقدات التى يعتنقها الإنسان ويتخذها نبراسا يستهديه فى تصرفاته ، بل ونبراسا له فيما يجب أن يصدق ولا يصدق. فثمة الجبرية التى يؤكد معتنقوها أن كل شىء مرسوم ومحدد مُسْبقا بحيث لا يتسنى التعديل أو التغيير فى المقَّدر على المرء أن يلاقيه فى حياته . ومعلوم أن الجبرية تقف على الطرف المناقض للطرف الذى تحتله القدرية التى يقول المؤمنون بها بأن الإنسان هو خالق أفعاله وأنه هو المسيطر على مستقبله .

ولسنا بحاجة الى البرهنة والاستشهاد بالكثرة الهائلة من الأمراض التى يقف الإنسان الحديث مكتوف اليدين بعجز حيالها . ولعل أخطر الأمراض جميعا التى تقف البشرية عاجزة أمامها على الرغم من المحاولات التى بذلت لوقف تياره أو إبطائه هو مرض الشيخوخة . وهنا يجب أن ننوه إلى أن الشيخوخة مرض يصيب الإنسان فى أى سن . ولكنه يشيع عادة بعد الستين . ومن الناحية النظرية نستطيع القول بأن من الممكن القضاء على عوامل الشيخوخة أو تعطيلها إذا ما تسنى الوقوف عليها ثم الوقوف على وسائل محاربتها . والواقع أننا إذا قمنا بوضع قائمتين إحداهما تضم الأمراض التى يتسنى علاجها بنجوع ، والقائمة الثانية تضم الأمراض التى يقف الانسان عاجزا أمامها ، إذن لوجدنا أن القائمة الثانية تربو عن محتويات القائمة الأولى . وبهذا الصدد يقول لنا علماء الطب إن أى مرض مهما كان بسيطا – حتى الأنفلونزا أو الزكام – وأمكن التغلب عليه بالوسائل الطبية ، فإن المريض بعد شفائه لا يعود كما كان تماما قبل إصابته بالمرض . والأمر هنا يذكرنا بأى آلة دقيقة جدا لا تعود الى حالتها الأولى اذا ما أصابها العطب ولعبت فيها يد المهندس المصلح . وحتى تشبيه جسم الانسان بالآلة الدقيقة جدا ليس بالتشبيه الدقيق . ذلك أن أى عقار

يتناوله المريض ، وأى مشرط يستخدم فى جسم الانسان ، إنما يترك وراءه نتائج جانبية غير مواتية .

ومن البديهيات أن التربية والطب لا يعملان فى فراغ ، بل يعملان على الموجود فحسب . فأنت لا تستطيع – اذا كنت أمهر معلم ظهر على سطح الأرض – أن تجعل المولود أعمى يدرك معنى الصور الذهنية البصرية . فالأمر هنا كمن يريد أن يعلم الناس إدراك أشياء حسية بوسائل أخرى خارجة عن نطاق الحواس الخمس . ومعنى هذا أن التربية والطب لا يستطيعان أن يفعلا شيئا بازاء العاهات لا من حيث تدريب صاحب العاهة على الافادة بما تبقى لديه من امكانيات جسمية ، بل بالتعويض عن نفس العاهة باضافة قطعة غيار جديدة فى نفس صلاحية الجهاز المفقود . الواقع أن المحاولات الطبية فى هذا الصدد ما تزال بدائية . وحتى فيما يتعلق بالأسنان الصناعية ذاتها ، فإن الغالبية العظمى من الناس يؤكدون أن الأسنان الصناعية لا يمكن أن ترقى الى مستوى الأسنان الطبيعية .

ونأسف إذ نقرر – وهذا هو لسان حال التشاؤميين – أن الوسائل الطبية والتربوية إن هى سوى وسائل ترقيعية . والثوب المرقع مهما بدا قريبا من الأصل فإن به وصمة لا تفارقه أبدا . وهكذا يمكن القول بأن الطب والتربية يخففان من الآثار الضارة ، ولا يضيفان أشياء جديدة . فهما يستخدمان المقومات الموجودة بالفعل ولا يضيفان مقومات جديدة . فالطب لا يحاول أن يغرس لدى الإنسان جهازا يقف بواسطته على العالم من حوله بحيث تصير للانسان ست حواس ، ولا يستطيع – أو لم يحاول – أن يغرس فى صدر الإنسان قلبا آخر احتياطيا يشتغل بمجرد توقف القلب الأصلى . ولم تحاول التربية خلق غرائز جديدة ، بل هى تضع تخطيطا وفق ما جعل فى جبلة الانسان النفسية .

وإذا كانت هذه هى الحدود التى تقف عندها التربية ولا يتجاوزها الطب ، فإننا من جهة أخرى نجد أن ثمة أضرارا بالغة يسببها كل من التربية والطب للإنسان الفرد . فنقول أولا إن التربية تركز أكثر ما تركز على الجانب الذهنى مهملة جسم الإنسان وحيويته . وأكثر من هذا – وهو ما سبق أن ذكرناه – فإن التربية فى معارج

الحضارة ومراحل تطورها قد انحازت صراحة الى الذاكرة على حساب الذكاء. ولعلك تلاحظ اليوم أن التربية سوف تقضى أيضا على الذاكرة بعد أن ظهرت الالآت الحاسبة الصغيرة التى يمكن حملها بالجيب، فيتبسنى لك أن تعطيها لابنك بالمدرسة ويكون شأنها شأن المسطرة والقلم. فلماذا يحفظ ابنك جدول الضرب والآلة الحاسبة لا تعصاه؟ ولماذا يحفظ ابنك قطعة النصوص أو حتى المعلومات وهى موجودة بالكتب؟. وهكذا تجد علماء التربية يندون اليوم بالحفظ، أو بتعبير آخر إنهم يشنون هجوما ضاريا ضد ذاكرة الإنسان. وهكذا سيقع فى حومة الوغى قتيل جديد هو الذاكرة بعد القتيل السابق، أعنى الذكاء. وهل ستقوم قائمة للذكاء بعد اليوم وقد اخترع الإنسان الآلى والعقول الإلكترونية التى توفر على المرء جهد التفكير والمعاناه الذهنية؟

أما الطب فإنه انتحى الى الدواء الجاهز وصار هو القاعدة العامة فى العلاج الذى يصفه الطبيب لمريضه. والواقع أن الدواء الواحد الجاهز قد يكون به عنصر فعال ضد المرض الظاهر الذى يقوم الطبيب بتشخيصة، بينما يكون به عنصر أو عناصر أخرى لا تناسب حالة المريض الصحية فى جانب أو أكثر من جوانبه الجسمية. ناهيك عن أن الطب ظل – وما يزال كذلك الى أبعد حد ممكن – يعالج الجسم مهملا العوامل النفسية التى تشكل فى غالبية الحالات المرضية حجر الزاوية والسبب الرئيسى فى المرض. وعلى الرغم من الدعوات والصيحات بأن تناولوا الإنسان ككل لا كجسم فحسب، فإن كليات الطب ما تزال تعصب اهتمامها وتركز نظرياتها على الجسم فحسب. ولعلك تدهش إذا علمت أن معظم أساتذة كليات الطب ينظرون بتهكم إلى علم النفس، ويعتقدون أنه نوع من الدجل أو على الأقل أنه علم كسيح لا يسير الا محمولا على كتفى الطب الجسمى. واذا عرض أحد الأطباء لعلم النفس فإنما يكون ذلك على سبيل تحاشى تهمة يمكن أن توجه اليه بأنه يغضى عن صيحة علمية جديدة يلوكها علماء الطب فى الأوساط الطبية.

وإذا كان هذا هو موقف التربية والطب من الإنسان الفرد. فإن حظهما – فى نظر التشاؤميين – ليس أسعد حالا بازاء المجموعات. فإنك تجد أن أهداف التربية لا

تخدم فى الغالب الا أهدافا ضيقة الأفق لخدمة بعض المصالح الفردية الخاصة بطبقة معينة ، أو بمناهضة فئة أو جنس كبث الاحتقار فى نفوس الذكور للإناث ، أو كراهية شعب أومجموعة تحمل معتقدات مباينة . أما الطب فإنه يصب اهتمامه على العلاج ولا يكاد يعير اهتماما بالمرض قبل وقوعه . فما يسمى بالطب الوقائى ما يزال يحبو وراء الطب العلاجى الذى يتصدر اهتمام الأطباء . ولسنا نبالغ اذا قلنا إن الطبيب العلاجى انما هوكرجل الاطفاء الذى يقلل من كمية الخسائر ولا يمنع نشوب الحريق ذاته الذى يسبب الخسائر ، وهو ما كان حريا به أن يفعله ، لو أنه أراد أن يكون ذا بال وذا فاعلية فى نفس الوقت .

الأمم الممزقة

اذا كان الفلاسفة التفائليون يؤكدون أن ثمة علاقات تزداد قوة وترسخا بين الأمم ، وأن ثمة وحدة ذات شكل أو آخر تلوح فى الأفق القريب ، فإن الفلاسفة التشاؤميين – على العكس من ذلك – يؤكدون أن الفرقة والانقسام وليس التقارب والانسجام هما القانون أو المبدآن اللذان تقوم على أساسها العلاقات بين الأمم بعضها وبعض فالتنافر وليس التجاذب هو الأساس فى العلاقات التى تقوم بين الأمم . ذلك أن الانقسام إلى أشتات متفرقة هو القاعدة والمسلك الذى تنتحى إليه الجماعات ، وليس ما يجمع بين الأمم فى هيئة منظمات دولية أو مؤتمرات سوى نوع من التغليف المصطنع أو نوع من التزييف لحقائق الأمور . والمظهر الكاذب كثيرا ما يخدع المشاهدين له بحيث يطمئنون الى صحة ذلك المظهر الغرار الذى يستهويهم ويخدعهم عن الوقوف على الحقيقة الكامنة فى الطيات والبعيدة عن السطح . ولعل ذلك المظهر الجماعى الغرار أشبه ما يكون بما قد يبدو بين الأعداء من تقارب أو تراض أو حتى ود فارغ ، بحيث ينخدع السذاج بأن الحب والوئام يسودان بينهم من علاقات ، وأن الشحناء والكراهية لا يعتملان فى قلوبهم . فالمؤتمرات الدولية والمنظمات القائمة ليست إلا من قبيل التمويه والتلون والاستخفاء ، بل لعلها ضمن الوسائل التى يتخذها العدو لجس النبض وتخدير العدو تمهيدا للهجوم عليه وسبيه أو القضاء على مصادر قوته .

ولعلك تنظر إلى المسألة من زاوية أخرى فتجد أن المنظمات الدولية كالأمم المتحدة إنما هى – فى رأى الفلاسفة التشاؤميين – لا تعدو أن تكون نوعا من إتاحة الفرصة للتفريغ النفسى الوجدانى للشعوب المظلومة والمستغلة . ولكأن الأمم القوية – متمثلة فى دولها – تجتمع مع ممثلى الدول المستغلة والمستضعفة لكى تقف على ما تحس به ، أو على ما وصلت إليه من إحساس بما يقع عليها من ظلم ، فتأخذ فى تطييب خاطرها وإبعاد الهواجس عنها وإسداء الوعود لها . ولعلها تعمد الى شراء ذمم مندوبى تلك الأمم المستضعفة فى الخفاء ومن وراء الستار ، بحيث يقومون بالتمثيليات الكلامية فى تلك المنظمات الدولية يعبرون خلالها عن استيائهم مرة وعن تراضيهم مرة أخرى . ولقد تأخذ الدول الكبيرة المتربصة بالدول الصغيرة أو التى دأبت على استذلالها حقبا طويلة فى إبداء الرغبة فى التساوى مع الدول الضعيفة والتنازل عن كبريائها والجلوس على مقاعد مساوية لمقاعد تلك الدول الصغيرة فى تلك المحافل الدولية ، ولا يكون ذلك سوى نوع من التمثيل والتصنع واتخاذ شكل سلوكى خارجى أجوف لا يحمل رصيدا من الواقع بل يخفى مغزى مباينا لما يبدو فيه من ديموقراطية أو اتضاع أو امتثال للحقوق المشروعة للشعوب المستضعفة.

وأكثر من هذا فإن الدول القوية تسارع إلى التسابق لكسب صداقة أكبر عدد من الدول المستضعفة ، ويكون ذلك بعقد عرى الصداقة معها تارة ، والدفاع عن حقوقها تارة أخرى . ولقد تتخذ صداقة الدول الكبيرة للدول الصغيرة الضعيفة أشكالا متباينة منها ما هو اقتصادى ومنها ما هو ثقافى . وهى تستعين لدعم تلك الصداقة بما تغدقه على الدول الصغيرة من تظاهر بمظهر الكرم والسماحة والعطاء دون الأخذ . والواقع أن ما يجتمع فى ضمير وعقل الدول الكبيرة القوية شبيه بما يجتمع فى ضمائر وعقول الأغنياء المستبدين بحقوق الفقراء . فلقد يعمد الغنى المستغل إلى إجزال العطاء لمن دأب على استغلالهم وامتصاص دمائهم فيقوم بغمرهم بالمال فجأة فى المناسبات الهامة كالأعياد بحيث يحس أبناء الشخص الفقير المستغل دائما والخاضع للاستعباد طوال العمر بأن الغنى المستغل إنما هو صاحب يد بيضاء عليهم وعلى أبيهم ، فيستمرون فى الرضوخ للاستغلال بغير أن يعلنوا عن سخطهم ، وبغير أن

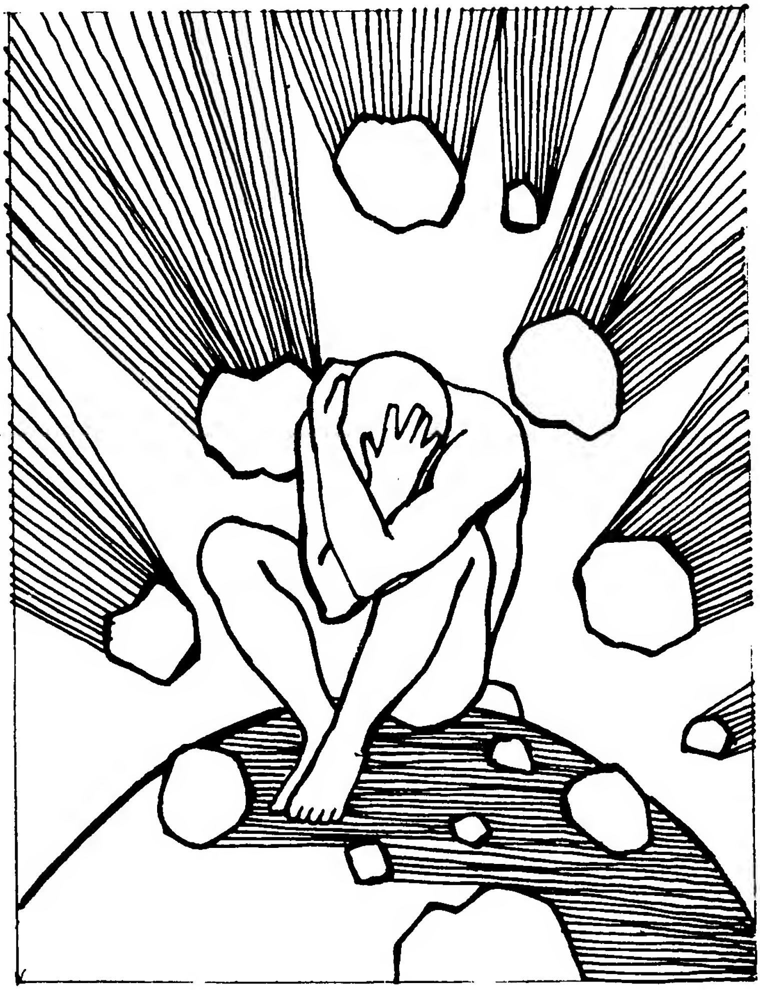
يخطر ببالهم التخطيط للتخلص من الشباك التى نصبها لهم ذلك الغنى المستغل وحاكها لهم فى محاولة لانقاذ أيهم من براثنه وتحريره من سطوته . فأبناء الشعوب المستضعفة كثيرا ما يتم شراء رضائهم عن استغلال الدول الكبيرة القوية لشعبهم بقشور من العطاء الذى لا يعدو أن يكون عطاء أجوف ، أو هو عطاء باليمين واستلاب بالشمال أو هو عطاء قليل تمهيدا لنهب الكثير.

والواقع أن الكثير من الدول الضعيفة أو المستضعفة قد صارت بفضل الدعايات والشكوك التى أخذت تساورها فى نيات الدول الكبيرة المستغلة تتخذ موقف الكافر بجميع ما يمكن أن يبدو من ايجابيات من الدول الكبرى . وهذا الكفران بكل ما يصدر من خير أو ود أو مساعدة من الدول الكبرى فى اعتماله فى صدور الدول الصغيرة أو الضعيفة ، انما يجعل القدرة على التقيم للمواقف متعذرا أو شبه متعذر . ولا شك أن ثمة موقفين خاطئين يمكن أن يتخذهما المرء ، كما يمكن أن تتخذهما الدولة : الموقف الأول – هو الاستسلام لمشيئة القوى ، أعنى من هو أقوى منه . أما الموقف الثانى الخاطىء أيضا – فهو نبذ كل تعامل مع القوى واعتبار أن كل ما يبدر منه إنما هو نوع من التخدير أو نوع من الاحتيال للحصول على وضع أفضل واستغلال كل قطرة من قطرات دمائه . فالموقف الرفضى كمبدأ فى الحياة يحرم المرء من الحصول على ميزات تسمح له بالنمو والبدء فى الطريق التى توصله الى القوة وقياد الذات بغير ضغوط خارجية . ولعل الموقف الصحيح ، هو الموقف الذى يقع بين الموقفين السابقين هو موقف الأخذ والعطاء بغير أن يكون للأخذ أو للعطاء آثار نفسية مدمرة . وهذا يتوافر اذا ما عمدت الدولة الى الوعى بواقعها ، واذا ما توافر لها قدر كبير من الوعى والثقة بالنفس والتطلع الى المستقبل ببصيرة واعية وتحسب للوقائع القادمة فى ضوء الأحداث الراهنة ، والاستعانة بالحركة الديناميكية والدفع بالواقع إلى أهداف مرسومة وعدم الاستسلام تيارات المغرضة . وباختصار فإن ما يجب أن يتم التذرع به هو ما يمكن أن نسميه بالتعامل المتحرر من غشاوة الانفعالات والوجدانات التى تلقى بظلها الكثيف على العقل وتحول دون البصر بالواقع .

وفى رأينا أن لجوء الأمم الصغيرة أو الضعيفة إلى الوحدة بمعنى الاندماج الكامل بعضها فى بعض والخضوع لسلطة حكومة واحدة مركزية وفقدان الإنية الذاتية ، إنما هو طريق وعر لا يفضى الى ما تبتغيه تلك الدول من قوة . والصحيح هو طريق التكامل وليس طريق الاندماج . والتكامل معناه أولا عدم تضارب المصالح بعضها مع بعض ، وذلك بواسطة التنسيق لتحقيق الانسجام وشجب ما قد ينشأ من تعارض أو تضارب فى المصالح الخاصة بكل دولة . وحتى بالنسبة للدولة الواحدة فالخليق بها أن تعطى السلطة الذاتية اللامركزية لمحافظاتها أو لمقاطعاتها أو لولاياتها مع استمرار التنسيق بينها حتى لا يحدث تضارب فيما بينها . والمهم هو أن تحتفظ كل دولة – مهما كانت صغيرة – بشخصيتها وقوامها وأن تتجنب الدمج فى غيرها ، لأن مثل ذلك الدمج يعمل على إزالتها من الوجود وتحقيق وجود للقوة الجديدة المتمثلة فى الدولة الكبرى الجديدة المختلقة اختلاقا والتى لا يكون لها وجود الا فى أذهان بعض المتهوسين بأفكار معينة تجعلهم يظنون أن فى دمج الدول الصغيرة أو الضعيفة فى هيئة دولة كبرى ما يجعل منها قوة هائلة . والواقع أن مجرد اضافة قوة الضعيف الى قوة ضعيف آخر لا ينتهى إلى نشوء قوة كبيرة كما قد يظن البعض ، بل إن الضعف اذا ما أضيف إلى ضعف آخر ، فإن رقعة الضعف تتزايد ، وبالتالى فإن ماكانت تستحوذ عليه كل دولة من قوة يتزايل بفقدان إنيتها وتبدد شخصيتها الذاتية .

بيد أن المتشائمين يشككون فى كل شىء حتى فيما سقناه من كلام حول التكامل بين الدول المستضعفة . ولعلك إذا تساءلت مع واحد منهم ، فإنه سوف يقبل ويؤكد كل شىء يستحيل تنفيذه عمليا ، بينما يرفض فى نفس الوقت كل ما يمكن اتخاذه من خطوات عملية . فالمتشائم – حتى فى المجال السياسى – يتخذ موقف الرافض لكل شىء إيجابى ، بينما يقبل كل شىء سلبى يستحيل على التنفيذ . وكلما بدا أى حل لأى من التناقضات التى تقوم بين الدول الصغيرة بعضها وبعض ، أو بينها وبين الدول الكبرى القوية ، فإن المتشائمين يسارعون إلى وضع العراقيل بازاء ذلك الحل متشبثين بالكلام الأجوف الذى إن نم على شىء فإنما ينم على عدم الواقعية وعلى

الاختفاء وراء الشعارات السلبية كالرفض لجميع الوسائل السلمية ولكل المنافذ التى يمكن أن توصل إلى التنسيق وإزالة المتناقضات . فالمتشائمون يتخذون من الرفض نفسه شعارا لهم يستهدون به فى فلسفتهم السياسية . وهو الشعار الناجم عن فقدان الثقة تماما فى الآخرين بل وايضاً فى المستقبل برمته .



الفصل الخامس عشر

أخلاقيات التفاؤل والتشاؤم

الفصل الخامس عشر

أخلاقيات التفاؤل والتشاؤم

الخير والشر :

إذا كنت ممن يقولون إن الأشرار قد كتب عليهم منذ أن حبل بهم أن يكونوا أشرارا . وأن الاخيار كتب لهم أن يكونوا أخيارا منذ البداية . فأنت إذن من المتشائمين . وعلى العكس من ذلك فإنك إذا كنت ممن يقولون إن الأشرار والأخيار ليسوا سوى نتيجة للمواقف التي يلاقونها في الحياة . وأن الشر والخير ليسا حُكْمين أزليين مفروضين علينا مُسْبقا . فإنك تكون إذن من المتفائلين . وبتعبير آخر فإن المتشائمين يقولون بالجَبرية . بينما يقول المتفائلون بالقدرية . فالفريقان على طرفي نقيض ولا سبيل لالتقائهما لا من حيث الخط المرسوم للسلوك . ولا من حيث إمكان التدخل في الجبلة الإنسانية وفي الشخصية لتحويلها عن طريق الشر ووضعها على طريق الخير .

وثمة موقف ذاتي يتعلق بتوقعات المرء بازاء المستقبل من جهة . ثم بازاء المنظار الذي يستقرئ به الحاضر من حوله من جهة أخرى . فأنت تستطيع أن تسأل نفسك : ما الذي تتوقعه لنفسك في المستقبل ؟ هل تتوقع حدوث مفاجآت سعيدة تشيع السرور والسعادة في قلبك . أم أنك تترقب وقوع أحداث سيئة أو مروعة تهز عرش سعادتك أو تهدد مستقبلك ؟ ثم هل أنت تنظر إلى الأشياء والأحياء والناس من حولك فترى كل ما يحيط بك جميلا ورائعا ومنظما . أم أنك على العكس من ذلك ترى الكون من حولك مضطربا وقد تواترت الأحداث والوقائع التي تبرهن لك على أن الدنيا شديدة الحلوكة وقمنة بأن تحتقر وتبغض ؟ إن الإجابة عن هذين السؤالين يحددان موقفك من التفاؤل والتشاؤم .

ولعلك تأخذ فى التأكيد لمن يحيطون بك أنك متفائل بينما تكون فى حقيقة أمرك من أكثر المتشائمين انخراطا فى التشاؤم . ولكن أصدقاءك يمكن أن يلاحظوا أحاديثك التى ترددها عليهم والقصص التى تميل إلى ذكرها والاستشهاد بها للبرهنة على ما ترغب فى البرهنة عليه . فإذا كنت تميل إلى ذكر الأخبار المزعجة أو وصف الحوادث التى شاهدتها فى الطريق باسهاب وتجد فى ذلك متعة فيما تشاهده من ألم يرتسم على وجوه المستمعين إليك . أو فى الانفعالات التى تخوض غمارها من جديد لدى قصك للقصة أو سردك للخبر . فاعلم أنك من المتشائمين . وعلى العكس من ذلك فإذا كنت ميالا إلى ذكر الأخبار السارة أو القصص التى تشيع الرضا والسرور والبهجة فى قلوب مستمعيك والتى تحس فى أثناء سردك لها بالانشراح والارتياح . فأنت إذن متفائل .

وثمة معيار آخر يمكن أن تعرف به نفسك هو أحلامك وأحلام يقظتك . لعلك تستطيع أن تقوم بتسجيل أحلامك وأحلام يقظتك بعد الإفاقة منها . فتعرف بعد أسبوع مثلا من تتبعك لتلك الأحلام بنوعيها ما إذا كنت متفائلا أم متشائما . فإذا كنت فى تلك الأحلام ترى القطط السوداء والوحوش ضارية والبيوت المنهارة والقبور المفتوحة العفنة والثعابين السامة فأنت إذن من المتشائمين . ولكن إذا كانت أحلامك تنصب على البساتين والزهور والرياحين وتلاقى فيها الأشخاص الطيبين وقد كنت فى تلك الأحلام محوطا بالأبهة والاحترام والإجلال وقد أخذ الناس الذين تقابلهم خلالها يبشون فى وجهك . فأنت إذنْ من المتفائلين . وإذا كنت فى أحلام يقظتك ترى المنافسين لك قتلى أو جرحى أو أصابتهم المكاره من كل جانب . فأنت إذن من المتشائمين . ولكن على العكس من ذلك فإنك إذا كنت فى أحلام يقظتك لا تصب اهتمامك على ايذاء الآخرين بل على انصاف المظلومين . لا بقتل ظالميهم بل برد الحقوق إليهم . وبمد يد المساعدة للمحتاجين إذا ما أصبت من المال قدرا كبيرا . وأن تحقق أهدافك الرائعة فى المستقبل الباسم لك ولأولادك وأصدقائك . فانك تكون إذن متفائلاً .

وحتى فى حياتك الروحية الدينية يمكن أن نستبين اتجاهك وأن نحكم عليك بأنك متفائل أو متشائم . صحيح أن معظم الناس يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى

سوف يثيب على الخير الذى نأتيه وأن يعاقب على ما يصدر عنا من شرور . بيد أن ثمة تباينا بعيد المدى من شخص لآخر من حيث التأكيد على الثواب أو العقاب الإلهيين . فإذا كان تأكيد الشخص على الثواب والعطف والحب فإنه يكون متفائلا . أما الشخص الذى يركز ذهنه على العقوبات التى تنتظره أو التى توقعها عليه العدالة الإلهية فى هذا العالم وهو بعد على قيد الحياة . أو على أحد ذويه أو فيما يتعلق بمصالحه أو مستقبله . فإنه يكون إذن شخصية متشائمة .

وإذا ما طرحت سؤالا على أصدقائك عن رأيهم فى طبيعة الناس . فإنك ستجدهم قد انقسموا إلى فرقين : فريق يقول لك إن الإنسان شرير بطبعه . وهو فى حياته يتربص بأخيه الإنسان متمنيا له الشر أو ناصبا له الشباك ليوقعه فيها عندما تحين الفرصة السانحة . أما الفريق الثانى فإنهم يقولون لك إن الإنسان طيب بطبيعته . وأن الخير هو الذى يطفو على سطح الحياة الإنسانية . أما الشر الذى يبدو فى العلاقات الاجتماعية فإنه ليس سوى ردود فعل لشر يوجه إلى المرء . وطبيعى أن نقرر أن أفراد الفريق الأول يشكلون فريق المتشائمين . بينما يعتبر أفراد الفريق الثانى متفائلين . ولعلنا نصوغ المسألة من جديد فنقول إن المتشائمين يقولون لك إنك كلما صممت على معاملة الناس بالحسنى . فإنك سوف لا تلقى منهم إلا الشر والجحود وإنكار الجميل . أما المتفائلون فإنهم يؤكدون أنك إذا ما قمت بمعاملة الناس بالحسنى . فإنك ستلقى منهم كل خير وكل اعتراف بالجميل وكل تقدير للخير الذى تقدمه إليهم . ومن ثم فإن الفلسفة الأخلاقية للمتشائمين تتلخص فى وجوب معاملة الناس بالقسوة والمهانة فيخشون بأسك ويجرون وراءك ويتزلفون إليك طالبين رضاك . أما إذا عاملتهم بالحسنى فإنك سوف لا تجد فيهم إلا الخيانة لما قدمته إليهم من معاملة كريمة . وعلى العكس من ذلك فإنك تجد أن فريق المتفائلين يقولون لك إنك إذا عاملت الناس بما يكفل لهم الكرامة . فإنك ستجد منهم كل الشمائل الجميلة وقد أخذت تتبدى فى معاملتهم لك . ومن يشذ عن هذه القاعدة فإنه يكون من المرضى النفسيين ومن الشذاذ الذين لا يندرجون تحت القاعدة العامة التى يحتذيها جميع الناس أو السواد الأعظم منهم على الأقل .

وفى العلاقات الأسرية فإنك تجد أن المتفائل يعتقد أن أبناءه هم امتداد طبيعى له . فكل زيادة تحدث لديهم . إنما هى فى نفس الوقت تعويض عما يحدث لديه من نقص . وهذا ينسحب بازاء جميع قطاعات الحياة . فالشيخوخة التى تدب فى أوصال الأب (أو الأم) يعوض عنها ما يشاهده من ترعرع ونمو فى أبنائه . وكذا فإن الموظف الذى يحال إلى المعاش وقد تلبس بالاتجاهات التفاولية إنما يرى فى نجاح أبنائه وبناته . وقد اكتمل نموهم وتسلحوا فى الحياة بالمهن أو الحرف التى تجعلهم يعتمدون اقتصاديا على جهودهم الذاتية . كل التعويض عما نقص لديه فى دخله بسبب إحالته إلى المعاش . وطبيعى أن ينظر المتفائل إلى أبنائه لا بنظرة الطامع فى دخولهم . بل بنظرة المطمئن إلى أن أبناءه صاروا فى غنى عنه . وهو يكون مستعدا لأن ينزل قليلا أو كثيرا عن مستواه الاقتصادى بعد انخفاض دخله بعد سن المعاش بغير أن يحس بأن فى ذلك ضياعا لمقامه . وذلك بفضل احساسه النفسى بأن المستقبل والخير والبركة قد كفلت لأبنائه . ويكفيه أن يحس باستمرار ترعرعهم اقتصاديا واستمرار تقدمهم فى ركب الحياة .

أما المتشائم فإنه يجد أن ما يحدث لديه من تدهور فى صحته أو فى دخله بعد سن التقاعد إنما هو خسارة لا يعدلها خسارة . وأن الأبناء والبنات لا يمكن أن يعوضوه عن ذلك بحال . ولذا فإنك تجده فى جلساته مع أصدقائه ينعى على الأيام الكريهة التى أوصلته إلى ما صار إليه . وقد أخذ يسب أبناءه وبناته حاقدا عليهم لأنهم صاروا قابضين على ناصية القوة . بينما صار هو إلى الضعف بعد القوة . ولعله يتهم أبناءه وبناته بالعقوق لأنهم لا يعوضونه عما أصابه من نقص فى الدخل ناقما عليهم لأنهم قد نسوا جميع التضحيات التى سبق أن قدمها إليهم . فهم لا يقدمون إليه من دخلهم الشهرى ما يسددون به ما عليهم من أموال أنفقها فى تربيتهم منذ الطفولة إلى أن احتلوا أماكنهم فى الحياة . فالمتشائم يعبر بذلك عما يحس به من مرارة ويأس وقد قصر تفكيره على نفسه متوجسا خيفة من مستقبل مستمر فى التدهور صحيا واقتصاديا واجتماعيا . غير ناظر إلى نفسه فى الإطار العام لأسرته .

أهمية التفاؤل فى حياتنا :

من المؤكد أن التفاؤل يلعب دورا بعيد المدى فى حياتنا النفسية وفى تصرفاتنا . وفى علاقاتنا بغيرنا وفيما نقوم بوضعه من خطط للاضطلاع بها فى المستقبل القريب والبعيد . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن جميع المناشط الإيجابية فى حياتنا سواء كانت فكرا أم عاطفة أم عملا إنما ترتبط على نحو أو آخر بما يعتمل فى جهازنا النفسى من تفاؤل . ولعلنا نضيف إلى هذا أيضا أن جميع ما يمكن أن يصيبه الفرد أو تصيبه الجماعات من نجاح أو ما يمكن أن تضطلع به من مهام . إنما يعتمد على مدى الإحساس بالتفاؤل .

فأنت عندما ترسم فى ذهنك شيئا لتضطلع به . فإنك تأخذ فى الموازنة بين احتمالات النجاح واحتمالات الفشل . وفى ضوء ترجيحك للنجاح على الفشل فإنك تقدم على الإنجاز والاضطلاع بالفعل . وعلى العكس من ذلك فإنك إذا وجدت أنك فاشل فيما تعتزم الإضطلاع به لا محالة . فإنك تقعد عن التصرف وتأخذ فى الانصراف عما كنت تنتوى القيام به . على أن احتمالات النجاح واحتمالات الفشل تعتمد جميعا على ركيزتين أساسيتين: الأولى – ركيزة موضوعية . والثانية – ركيزة نفسية . والركيزتان لا تنفصلان الواحدة منهما عن الأخرى تماما . بل تقوم بينهما وشائج متينة لا سبيل إلى الانفكاك منها . على أنه بالرغم من وجود تلك الوشائج التى تربط بين هذين النوعين من الركائز . فإن الترجيح لابد معقود لنوع من هذين النوعين . فنقول إن الركيزة التى تقوم عليها المقارنة والوقوف على الاحتمالات . إما أنها ركيزة موضوعية وإما أنها ركيزة ذاتية نفسية . وذلك فى ضوء الصبغة الشائعة فى كل ركيزة من هاتين الركيزتين .

فإذا كنت ترغب فى مشاهدة أحد الأفلام السينمائية وتوجهت إلى دار السينما التى تعرض الفيلم المرغوب لديك . ولكنك فوجئت بأن النقود التى تحملها فى جيبك لا تكفى لقضاء السهرة . فإنك فى تلك اللحظة التى تكتشف فيها أن نقودك لا تكفى لتحقيق هدفك . تجد أن احتمالات تحقيق الهدف منعدمة أو ضعيفة (إذا لمعت فى ذهنك وسيلة تستطيع أن تحصل بواسطتها على النقود المطلوبة) . فقد يكون بيتك

مجاورا للسينما بحيث تستطيع الحصول على المبلغ المطلوب وأن تتمكن من شراء التذكرة ومشاهدة الفيلم . المهم هنا فى هذا الموقف نجد أن حساب احتمالات النجاح أو الفشل ترتكز على أسس موضوعية . بيد أنك قد تجد أن للناحية النفسية بعض الدخل فى مثل هذا الموقف . لقد تقول لنفسك « لا داعى للقلق . سوف أعد نفسى من غد وأحضر نفس الفيلم غدا بدلا من اليوم » وهكذا تجد أن التفاؤل يتأتى لك نتيجة حالة وضعية معينة ، كما أنه فى نفس الوقت يشكل عاملا ديناميا فى الموقف بحيث تطمئن إلى إمكان تحقيق الهدف حتى وإن كان التحقيق فى اليوم التالى وليس فى نفس اليوم الذى توجهت فيه إلى السينما ووجدت نقودك قليلة لا تكفى لشراء التذكرة .

ولقد يجد الطالب الذى ظل راقدا فى سرير المرض شطرا كبيرا من العام الدراسى أن الموقف صار حرجا بالنسبة للنجاح والحصول على تقدير طيب فى الامتحان . إنه يجد نفسه بإزاء حالة فيها جانب موضوعى وجانب نفسى . فمن حيث الجانب الموضوعى فإنه يجد أن الباقى من الزمن لعقد امتحان آخر العام هو ثلاثة أشهر فقط ، ولكنه يأخذ فى توجيه التساؤلات إلى نفسه « أليس لدى من القدرة والذكاء والعزيمة الصلبة بحيث أعوض عن المدة الضائعة بسرير المرض وقد استرجعت صحتى وصرت قويا وقادرا على الاستذكار لمدة طويلة ؟» هنا تحتدم الموازنة كما تتداخل المقارنة الموضوعية بما يعتمل فى نفس ذلك الطالب من مشاعر ووجدانات وتقديرات عقلية وتصور للعلاقات الاجتماعية ولما سيقال عنه إذا هو رسب وما سيقال عنه إذا هو برز ونجح وتفوق . وهكذا نجد أن مثل هذا الطالب يستقبل إحساساً من الواقع الموضوعى ، كما أنه يضيف إلى ذلك الواقع لونا أو صبغة وجدانية يغلف بها ذلك الواقع .

ولا شك أن ما يدور بخلدنا من أفكار وما يشيع بقلوبنا من مشاعر لما يؤثر إلى أبعد حد فى إدراكنا للواقع الخارجى [illegible] يعمل شوقك الشديد للماء وقد استبد بك العطش بعد أن زاغت رجلاك عن الطريق السليم فتهت فى الصحراء ، إلى ترجمة كل ما تشاهده بأنه بحيرة ماء عذبة مع أن ما يقع عليه بصرك ليس من الماء فى

شيء بل هو سراب واختلاق اختلفته لنفسك بسبب تفاؤلك الوهمى الذى لا يرتكز على أى أساس من الواقع .

فليس من المحتم أن يُفْضى التفاؤل إلى نجاح أو إلى تحقيق الرغبة أو إلى سد الحاجة ، كما أن توافر الإمكانيات الموضوعية بغزارة وتنوع لا يكفى وحده لبلوغ الأهداف وتحقيق النجاح فى الحياة . وبتعبير آخر فإنه إذا لم يتوافر القدر المناسب من التفاؤل ، فإن الشخص لا يستطيع أن يخطو أية خطوة تقدمية فى حياته . ولنضرب مثالا لذلك بالتلميذ الذى توافر له كل شيء بما فى ذلك القدرات العقلية والإمكانيات الموضوعية . بيد أن همته الفاترة تقعد به عن مواصلة الدأب والاجتهاد فى الدراسة والمثابرة على التحصيل الدراسى . ومن ثم فإنه لا يستطيع استيعاب ما يلقى على سمعه من معلومات ، كما لا يستطيع انجاز ما يطلب إليه من واجبات ، أو الاضطلاع بما يراد له استيعابه من مهارات . وبالتالى فإنه يفشل فى حياته الدراسية

والواقع أن أية عملية كائنة ما كانت مما ترغب فى النهوض به وانجازه ، إنما تكون بحاجة إلى إعداد كمية مناسبة من الطاقة الحيوية المناسبة لإنجازها . على أن تلك الطاقة الحيوية – وهى خامة واحدة هى الخامة البيولوجية – تتلبس بصيغ متباينة بعضها جسمى وبعضها وجدانى وبعضها عقلى وبعضها كلامى وبعضها اجتماعى . ولعلك تدرك ذلك وتتأكد من حقيقة كلامنا هذا عندما تجد نفسك عاجزا عن حل أبسط المسائل الحسابية فى أحد المواقف أو عن مجرد الرد على سؤال عن شئ تعرفه جيدا ولكنك لا تجد لديك القدرة على الإبانة . ويحدث هذا فى حالات معينة كالحزن على فقد عزيز أو لدى الإصابة بمرض فى الإرادة أو فى حالات التعب الشديد أو الإجهاد الذهنى .

ومما يقعد بالمرء عن حشد الطاقة اللازمة للقيام بالأعمال وانجاز المهام البسيط منها والمعقد عدم توافر القدر الكافى من التفاؤل فى سبيل تحقيق الأهداف التى ينشد تحقيقها . فالطالب الذى يترسم الرسوب أمام ناظريه لا يستطيع أن يبذل جهدا عقليا فى الاستيعاب التحصيلى بل إنه لا يكاد يستطيع الجلوس إلى مكتبه للاستذكار .

ومهما حثه الوالدان والأصدقاء . ومهما أنزل عليه المعلمون من عقوبات فإنه لا يستطيع أن ينفض عن نفسه ذلك الخمول الذهنى . أو قل إنه لا يستطيع أن يعد الطاقة النفسية اللازمة لقيامه بالاستذكار ومجاراة زملائه المجتهدين .

فالمخ يصدر أوامره إلى الجهات المختصة بالجسم لتجهيز الطاقة المطلوبة واحالتها إلى الصيغ المطلوبة سواء كانت صيغا جسمية أم صيغا وجدانية أم عقلية أم كلامية أم اجتماعية . بيد أنه لكى يتسنى للمخ أن يصدر مثل تلك الأوامر باعداد الطاقة اللازمة للانجاز ، فإنه يكون بحاجة إلى دافعية وجدانية معينة . وتلك الدافعية الوجدانية هى ما نسميه بالتفاؤل . فلا بد أن يكون المرء مستبشرا بالنجاح مُسْبقا . ولكأن الإنسان حاصل على قدرة معينة يتمكن بواسطتها من إحالة المستقبل إلى حاضر . والمتفائل لدى استحضاره لذلك المستقبل ويجده مستقبلا جيدا ، فإنه يحس بالرضى ويوافق على مطالبة المخ بإصدار الأوامر باعداد الطاقة اللازمة لإحالة ذلك المستقبل المرتقب والمترسم بالذهن إلى واقع حاضر .

ولا تقتصر أهمية التفاؤل على ما يتسنى للمرء انجازه من أعمال . بل تمتد تلك الأهمية إلى ما يمكن أن ينشأ من علاقات بينه وبين الآخرين . أو ما يمكن أن يصدر من أحكام ، سواء أحكام الناس على المرء . أم الأحكام التى يصدرها المرء على نفسه . وما ينجم عن ذلك من شعور بالسعادة أو بالشقاء . ولا شك أن كل إنسان يصدر بدوره أحكاما على الآخرين كما يصدرون هم أحكاما عليه . والمتفائل يحظى بأحكام من غيره عليه تشجعه على دوام التعامل معهم بثقة وارتياح ، كما أنه يصدر أحكاما على الناس تكون غير مشوبة بالشكوك والهواجس . وهكذا تجد أن المتفائل يسعد بالآخرين ويسعدهم فى نفس الوقت ، بل إنه يسعد بنفسه وبالعالم المحيط به . إنه يسعد بالحاضر والمستقبل ، بل إنه يتمتع بنظرة مفعمة بالرضى إلى الماضى . وأكثر من هذا فإن المتفائل يتخذ من تفاؤليته نقط انطلاق إلى مستقبل أكثر نجاحا وإشراقا من الحاضر . ذلك أن النجاح يفضى إلى تفاؤل أكثر ، بل إن التفاؤل نفسه يتزايد ويتكثر فى وجدان وحياة الشخص المتفائل .

أهمية التشاؤم فى حياتنا :

على الرغم من أننا لا نود أن نتخذ من التشاؤم فلسفة لنا فى الحياة ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر الدور الذى يلعبه التشاؤم فى حياتنا ، سواء حياتنا النفسية أم حياتنا العقلية أم حياتنا الاجتماعية . ولقد سبق أن قررنا أن التفاؤل والتشاؤم مقومان أساسيان من مقومات حياتنا لا يمكن أن تخلو حياة أى امرئ من أى منهما ولكن بنسب متباينة . فإذا ما رجحت كفة التفاؤل على كفة التشاؤم كان المرء متفائلا . وعلى العكس فإذا ما رجحت كفة التشاؤم على كفة التفاؤل كان المرء متشائما . وعلى هذا فإنه مهما بالغنا فى رغبتنا فى أن نكون متفائلين . فلا بد أن يكون للتشاؤم دور ولو بسيط فى حياتنا . فمهما زعمت من تفاؤل تستهديه فى حياتك وفى علاقاتك بغيرك ، فأنت لابد متشائم على نحو أو آخر فى جانب ما من جوانب حياتك وفى بعض المواقف أيا كانت تلك المواقف .

وثمة فى الواقع فرق جوهرى بين ما تقتنع به من جهة . وبين ما تسوس به نفسك ويعتمل فى أعماق حياتك الوجدانية وفى أغوار نفسك من جهة أخرى . فالكثير مما نعلنه على الملأ بأنه ما نقتنع به ونؤمن به كذلك فى نفس الوقت ، ما هو فى الواقع سوى اقتناع ذهنى لا يرتبط بوشائج متينة وعميقة بما يشكل لحم كياننا الوجدانى . فلقد تعلن لأصدقائك أنك رجل متفائل وأنك تنبو عن التشاؤم كل النبو . ولكن المتفحص لحالتك والمتتبع لسلوكك والمحلل لما تقوله ولما يصدر عنك من حركات وتصرفات يتأكد جليا أنك من أكثر المشائمين تشاؤما . فليس كل ما يقال يكون حقيقيا ، بل وليس كل ما نقتنع به يكون واقعا فى نطاق إيماننا ومن صلب شخصياتنا . وقصة المفارقة بين مجال الإقتناع وبين مجال الإيمان قصة شهيرة . ولقد اعتقد سقراط خطأ أن ما يقتنع به المرء سرعان ما يستحيل جزءا مما يؤمن به . والواقع مخالف لذلك تماما . فلقد يقتنع السارق بأن الأمانة خير من مد اليد واقتراف السرقة . ولقد يقتنع الزانى بأن التعفف خير من الالتواء الجنسى ، وقد يقتنع كذلك المرء بأن التفاؤل خير من التشاؤم . ولكن فى جميع تلك الحالات وأمثالها ، فإن ما يحتل رقعة العقل ليس بالضرورة قَمِناً بأن يحتل رقعة القلب ، بل قد تكون المقومات

العقلية مباينة كثيرا أو قليلا للمقومات القلبية . وبذا فإنك فى دحضك ذهنيا للتشاؤم قد تكون مستمسكا أشد الاستمساك به ومستهديا بمقوماته فى سلوكك وعلاقاتك مع غيرك من أشخاص .

والواقع أن ثمة أفضالا كثيرة وهامة للتشاؤم علينا فى تكويننا الأخلاقى والدينى . ففى الطفولة عندما يقال للطفل إن الذى يكذب أو يسرق يلقى عذابا فى جهنم ، وأن جهنم شئ مروع حيث يلقى المرء العذاب الأليم . فإن هذا يعد من التشاؤم بالنسبة لما يمكن أن يحمله المستقبل من أحوال . وأكثر من هذا فإن الطفل (أو الراشد) إذا ما اقترف خطيئة ، فإنه قد يندم . ومعنى الندم فى الواقع هو أن ينظر المرء إلى الماضى الذى عاشه بنظرة تشاؤمية . ولقد سبق لنا أن استعنا بمفهوم التشاؤم من حيث الزمان ، فجعلنا لأبعاد الزمان الثلاثة ارتباطا بالتشاؤم والتفاؤل على السواء . وعلى هذا فإن احساسك بمستواك الروحى أو الأخلاقى وما أنت عليه أو ما تستحقة حاليا من احترام أو احتقار إنما هو احساس ذو علاقة وثيقة للغاية بكل من التفاؤل والتشاؤم . فالشخص الذى يرغب فى الانتحار بعد اقترافه لخطيئة أو بعد أن يحس بأنه قد صار فى وضع مهين لا يحتمل ، إنما هو فى الواقع شخص ينظر بنظرة تشاؤمية إلى واقعه الراهن .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن تجنب المرء للخطأ أو الخطيئة أو السلوك غير المستحب إنما هو فى الواقع نتيجة مترتبة على النظرة التشاؤمية إلى ما يمكن أن يقع لو أن المرء قد وقع فى الخطأ أو الخطيئة أو سلك السلوك غير المستحب . وبتعبير آخر فإننا نستطيع أن نقرر أن للتشاؤم دورا ذا بال فى حياة الإنسان . ولعلنا بهذا نكون قد ربطنا ربطا محكما بين القيم الأخلاقية والدينية وبين التشاؤم . ومعنى هذا أننا إذا قلنا إن التفاؤل كالنور يهدينا فى سلوكنا ، فإننا نقول من جهة آخرى إن التشاؤم كالظلام نحذره حتى لا تنزلق أرجلنا فى نطاقه فنضل وتتعثر أقدامنا فى غياهبه بغير أن نعرف لنا هاديا يهدينا أو حاميا يحمينا من مغبة ما تردينا فيه .

وبغض النظر عن الواجب اتباعه والواجب الحذر منه وتجنبه ، وما هو مستحسن وما هو غير مرغوب ، فإننا يجب أن نتناول التشاؤم من زاوية أخرى هى زاوية الواقع

كما هو بغير حكم عليه بالخير أو بالشر . فنقول إننا نتشاءم بدرجات متفاوتة من أشياء كثيرة ، بل إننا لا نستطيع أن نتخيل انتحاء إلى التفاؤل بغير انتحاء فى نفس الوقت إلى التشاؤم . ويكذب عليك من يقول إنه يتفاءل ببعض الأشياء ولكنه لا يتشاءم من أى شئ على الإطلاق . ذلك أن الواقع النفسى ذو بعدين أساسيين ولا يمكن أن يكون ذا بعد واحد هو التفاؤل وحده أو التشاؤم وحده . فكل متفائل من بعض الأشياء هو أيضا متشائم من بعض أشياء أخرى . وعلى العكس من ذلك أيضا فكل متشائم من بعض الأشياء هو أيضا متفائل من بعض الأشياء الأخرى . فمن يتفاءل من مشاهدة اليمامة أو الهدهد يمكن أن يتشاءم من مشاهدة الغراب أو البومة . ومن يستبشر لدى مشاهدته لبعض الشخصيات فَمِن أيضا بأن يتشاءم لدى مشاهدته لبعض الشخصيات الأخرى .

وللإحساس بالتشاؤم لدى بعض الناس فاعلية تنبؤية حقيقة بالدراسة وإن كانت تقع فى نطاق الغيبيات . والحرى بنا ألا نغض النظر عن كل ما هو غيبى خوف أن نتهم بأننا نؤمن بالخرافات . ذلك أن اقتصار الإيمان على نطاق المحسوسات فحسب إنما يجعل من الإنسان نصف إنسان وليس بإنسان كامل . فنحن لسنا مرتبطين بعالم المحسوسات فحسب ، بل تعتمل فى أنحائنا الداخلية مقومات روحانية ما تزال مستغلقة على فنون العلم الطبيعى . فلدينا قدرة تنبؤية تحتدم لدى البعض منا وتخبو لدى البعض الآخر . ومنا من يحس بالتشاؤم فيقول لك إن شيئا ما خطيرا أو كريها أو غير مستحب سيقع . وما أن يمر وقت يقصر أو يطول حتى تترجم المشاعر التشاؤمية لديه إلى واقع فعلى فى حياة ذلك الشخص . وقد يمكن تفسير بعض ما يحدث فى ضوء العوامل النفسية البحتة ، كما قد يعجز التفسير عن تقديم ما يثبت أن ثمة ارتباطا بين ما يحدث وبين ما سبق أن أحس به الشخص . من ذلك مثلا وقوع حادث تصادم لأحد من أقربائه يقع على إثره قتيلا . فى مثل هذه الحالة لا يمكن تفسير الحادث بأنه نتيجة للإيحاء الذاتى الذى أوحى به المتشائم لنفسه .

ويقول البعض إن القدرة التنبؤية فى بعض الحالات التشاؤمية تكون مصحوبة فى نفس الوقت بالقدرة على تجنب الخطر أو الشر أو الخطأ. ومن ثم فإن الإحساس

التشاؤمى التنبؤى يكون بمثابة تحذير للمرء حتى يتجنب بعض المخاطر أو بعض المواقف الحرجة . يقول أحد الذين نجوا من كارثة انهيار أحد المنازل على سكانها إنه وجد نفسه فجأة لا يطيق البقاء بشقته لحظة واحدة وكأن كابوسا يخيم على رأسه ، أو كأن جنيا يقوم بخنقه ، فقام منقبضا وارتدى ملابسه تاركا أهله بالمنزل بغير أن يعرف الوجهة التى يتجه إليها . كل ما كان يلح عليه وقتئذ هو ضرورة الخروج بسبب إحساسه المحتدم بالانقباض والإحساس الغامض بأن شيئا خطيراً سوف يقع . وبعد أن خرج من البيت وقد بعد عنه بضعة أمتار سمع صوتا هائلا ورأى بيته المكون من ستة طوابق ينهار على من فيه ويتبدد أشتاتا مستحيلا إلى كومة هائلة من التراب .

والواقع أن القصصيين المتشائمين على اختلاف جنسياتهم قد قاموا بتقديم روائع أدبية لا يمكن الإغضاء عنها أو التقليل من شأنها . ولعلنا نخطئ أشد الخطأ إذا تمنينا أن يكون جميع كتاب القصص ومصنفى الآداب من المتفائلين . وليس أحد يستطيع أن ينكر قيمة التشاؤم فى المجال الفلسفى . وليس أحد يجرؤ على الإنقاص من قدر نيتشة أو شوبنهور لأنهما فيلسوفان متشائمان . ولعل الكثير من المتفائلين يحبون مشاهدة بعض الروائع المسرحية التى تنم على التشاؤم ، وأن يقوموا بقراءة بعض الروائع الفلسفية التشاؤمية . ذلك أنهم بذلك يشبعون الجانب التشاؤمى فى شخصياتهم . ويخطئ من يعتقد أن المتفائلين ينبون بالضرورة عن الأعمال التشاؤمية أو أنهم لا يكونون بحاجة إلى الإطلاع عليها . ولسنا فى حاجة فى الواقع إلى التأكيد مرة أخرى على أن التفاؤل والتشاؤم صنوان لا يفترقان لدى كل أمرئ مع الفارق فى كمية كل منهما واشتداد فاعليته فى حياته وسيادته على أنحاء شخصيته .

موقفنا من المتفائلين

لا شك أننا جميعا نميل إلى مصاحبة المتفائلين ونأنس إليهم ونتعلق بهم ونحب معاشرتهم والتحدث إليهم والإستماع إلى كلامهم ومراقبة تصرفاتهم والإقتباس من سلوكهم وطريقة حياتهم وموقفهم بتجاه المشكلات والمواقف التى يجابهونها فى الحياة . ذلك أن المتفائلين يوحون إلينا بالطمأنينة والتخلص من القلق الذى قد يستبد بنا ، كما أنهم يخففون عنا الأعباء النفسية والهموم التى تكون قد تأتت علينا ورزحنا تحتها بسبب ما قابلناه من مشكلات وآلام ومواقف صعبة أو بسبب الفشل الذى نكون قد تردينا فيه فى مجرى ما من مجارى حياتنا .

والواقع أن المتفائلين يهونون مما نحس به ، ويعمدون إلى بث الأمل فى نفوسنا بعد أن نكون قد اقتربنا من حافة اليأس وقد فقدنا معظم الأمل فى الحاضر والمستقبل . فهم لا يزيدون قلقنا ولا يضخمون ما يعتمل فى قلوبنا من خوف أو اضطراب . فهم أولا لا يعملون على زيادة السلبيات المعتملة فى أنحائنا ، ثم إنهم من جهة أخرى يقومون بالتخفيف من حدة ما نحس به . ولعلهم يكشفون الغطاء عن أبصارنا بما يوضحونه لنا من أن الحقيقة الواقعة خارج نطاقنا تختلف اختلافا جذريا عن الحقيقة النفسية التى تسيطر على فكرنا ووجداننا . وبهذا فإننا نقف على حقيقة الوهم الذى ران علينا بغير أن يكون له رصيد من الواقع الخارجى .

وفى كثير من الأحيان لا يقف دور المتفائلين بإزائنا موقف المخفف بالكلام والنصائح من همومنا وأوهامنا ، بل يتعدى دورهم هذا إلى نطاق العمل والممارسة . فتجد أنهم يساهمون عمليا فى تذليل ما نجابهه من صعاب ، أو ما يعتمل فى حياتنا من مشكلات . إنهم يأخذون بأيدينا بالفعل ويحيلون حياتنا إلى قطعة من السعادة ، وذلك بما يساهمون به من مواقف وتصرفات . فإذا ما لجأ الواحد منا إلى أحد أولئك المتفائلين ، فإنه يسارع إلى مد يد العون إليه لا بالكلمة يسديها فحسب ، بل بالتصرف أيضا بما فى مقدوره من إمكانيات وسلطات . ومن هنا فإنك تجد أن الرئيس المتفائل هو أحسن الرؤساء ، وذلك لأنه ينظر

بالشكوى وتقع خائرا تحت وطأة الأنين . والواقع أن أفراد هذه الفئة من المتفائلين نادرون فى العصر الحالى الذى لا يكاد يلتفت فيه المرء إلى أخيه إلا إذا ألم به كل ما يعرقل حياته ويبعث اليأس فى نفسه ، بل إنك قد تجد الكثير جدا من الناس اليوم وقد أصابهم الصمم الوجدانى - إذا صح التعبير - بحيث لا يكادون يتمكنون من الإحساس بالآخرين فى يأسهم أو أملهم أو فى أنينهم أو ضحكهم . لقد ران الكسل الانفعالى على شخصيات كثيرة لأن هذا من سمات الحضارة والعلاقات الحضارية . بيد أن المتفائل فى أعلى مراتبه يعمد إلى الإحساس بغيره مثلما يحس بنفسه ، ويسارع إلى نجدة الآخرين قبل أن يستغيثوا به ، ويلبى نداء قلوبهم قبل أن يصل النداء إلى ألسنتهم .

على أن البعض منا مع حبه للمتفائل ، لا يقيم له الوزن النفسى اللائق به . ذلك أن بعض الناس يميلون إلى الماسوكية النفسية . والماسوكية فى أصلها تعنى الالتذاذ جنسيا بتقبل الألم الجسمى من الآخرين . ولكننا نستخدم هذا اللفظ هنا بالمعنى النفسى العام وليس بالمعنى الجنسى الخاص . والماسوكية كما ننحو إلى استخدمها هنا تعنى الالتذاذ بما يبثه فينا الآخرون من قلق أو خوف ، أو بما يضخمونه من أهوال أو مصائب وشيكة الوقوع . والماسوكيون - وهم ليسوا بالقليلين - يصغون بلذة إلى ما يبثه فيهم المتشائمون من خوف أو قلق أو اضطراب . وموقف الماسوكى بازاء ما يبثه المتشائمون فى قلبه أشبه ما يكون بموقف البعوضة التى تتجه إلى النار لتلقى حتفها فيها . بيد أننا يجب أن نؤكد أن الماسوكيين مرضى نفسيون . وهذا يجعلنا نعتبرهم شذاذا عن القاعدة العامة التى ينخرط الأسوياء فى نطاقها ويخضعون لما تقرره من أحكام . والأسوياء - وهم الذين ينخرطون فى نطاق القاعدة العامة - ينبون عن المتشائمين وينتحون إلى المتفائلين ويأنسون اليهم ويفيدون من مواقفهم التفاؤلية .

والحقيق بنا أن نحافظ على تفاؤلية المتفائلين وألا نعمل على الانقاص منها ، أو على البرهنة لهم بكلامنا وتصرفاتنا على أن التفاؤل طريق ردىء يجدر تحاشيه والذب عنه . ولا شك أن ما يلقاه المرء من خبرات فى حياته إنما يعمل على تلبسه

باتجاه أو آخر فى الحياة . ولقد سبق لنا أن عرضنا لتأثير البيئة فى الاتشاح بكل من التفاؤل والتشاؤم حسبما يلقاه المرء من خبرات وجدانية وعقلية فى تلك البيئة . ولعلنا نقرر أن تأثير الأسرة المتشائمة – وبخاصة الوالدين – بعيد الغور فى إطفاء روح التفاؤل لدى الأطفال . وطبيعى أن تأتى المدرسة بعد الأسرة فى هذا اللون من التأثير . فلكم عملت الأسرة والمدرسة على تغيير اتجاه الطفل المتفائل وصبغة بصبغة تشاؤمية قاتمة . ونعود فنؤكد ما سبق أن قررناه من أن من السهل تحويل المتفائل عن تفاؤليته لكى يتلبس بالتشاؤم . ولكن العكس ليس ميسوراً وإن كان غير مستحيل . ذلك أن من الصعوبة بمكان ثنْى المتشائم عن تشاؤميته وإحالته إلى شخصية متفائلة .

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا ما للصداقة من تأثير فى هذا الباب . فالصديق كلما كان أكثر قربا وتأثيرا فى صديقه ، كان من الأيسر نقل اتجاهاته اليه . وكقاعدة عامة فإننا نقول إن الأكثر قتامة ينتقل إلى الأكثر بياضا . والتشاؤم ينتقل بيسر وسهولة إلى قلب وشخصية المتفائل على عكس التفاؤل الذى يصعب – أو يتعذر – نقله من شخصية المتفائل إلى شخصية المتشائم . وحتى فى مجال الوارثة فإن الغلبة تكون للخصائص الرديئة على الخصائص الجيدة . من هنا فإن الصديق المتشائم إذا ما خالط صديقه المتفائل ، فإن تشاؤميته تتغلب على تفاؤلية الصديق الأول فيصيران بمرور الوقت متشائمين جميعا . وليس من الضرورى أن ينتقل التشاؤم إلى شخصية المتفائل عن طريق الإقناع وتقديم الحجج والبرهنة على أن الحياة قاتمة مظلمة ، بل إن التشاؤم ينتقل أكثر ما ينتقل عن طريق الايحاء والتقليد غير المقصود ، وهو ما يحدث بطريق شبه لا شعورى من شخص لآخر .

أضف إلى هذا أيضا أن هناك ما يمكن أن نسميه بتكدس التشاؤم . فالمتشائم عندما ينقل تشاؤميته إلى الآخرين من حوله ، فإنه يكون كالأجرب الذى ينقل الجرب إلى الأصحاء . وبذا فإن التشاؤم يتكدس لكى يشكل بؤرة تشاؤمية قوية . وهذا وإن صح بازاء التفاؤل ايضاً ، فإنه لا يصح تماما . ذلك أن البؤرة التفاؤلية – أو التكدس التفاؤلى إن صح التعبير – ينهزم بسهولة أمام التكدس

التشاؤمى إذا ما جابهه وهجم عليه . وهذا يتبدى فى حالة وجود فئة متفائلة وفئة أخرى متشائمة . فإذا ما استمر اتصال الفئتين وتلاحمها بعضها مع بعض ، فإن فئة المتشائمين تتغلب بسهولة على فئة المتفائلين وتحيلهم بعد فترة تقصر أو تطول إلى فئة متشائمة مثلهم .

والواجب علينا أن نشجع التفاؤل وأن نحارب التشاؤم . وهذا يتأتى إذا ما عمدنا إلى إبراز الجوانب الناصعة فى الحياة أكثر من اهتمامنا بابراز الجوانب المظلمة . وبهذه المناسبة فإننا ندعو المسئولين عن الصحافة والنشر بعامة إلى الحيلولة دون تقديم الصور والأحداث القاتمة بمجتمعنا . من ذلك مثلا ما تعمد اليه بعض الصحف من تخصيص حيز يومى من صفحاتها للجرائم ، بل إن بعض المطابع الرخيصة (بالمعنى الأخلاقى) تسارع إلى القيام بطبع ونشر بعض الحوادث المثيرة كحوادث القتل وهتك العرض أو حوادث العصابات فى منشورات مستقلة خاصة بذلك . ناهيك عن أن الكثير من المسلسلات التلفزيونية والإذاعية تنتحى إلى اللون التشاؤمى لأنه يجد أصداء واسعة لدى المشاهدين والمستمعين ويعمل على القضاء على التفاؤل وقتله فى قلوب المتفائلين . وحرى بوسائل الإعلام أن تلعب دورا تربويا ، وألا تكون مجرد مترجم عن رغبات وميول الجماهير . ذلك أن الجرى وراء الميول والغرائز والعمل على أن يتطابق ما يقدم من مواد مع الواقع لا يكفى ، بل لابد أيضا من استهداء مثل عليا ننشدها ونود أن نطبع المستهلكين للخدمات الإعلامية بها حتى لا يظل الاعلام مجرد أداة للترفية ، وحتى يحتل التلفزيون والراديو المكان التربوى اللائق بهما فى نطاق الأسر العديدة التى تستهلك خدماتهما بتلهف وإقبال منقطعى النظير .

موقفا من المتشائمين :

ليس من المستغرب أن نجد معظم الناس يتحاشون المتشائمين ويتجنبون مجالستهم والخوض فى أحاديث معهم أو أخذ مشورتهم . بيد أن بعض الناس كما قلنا مصابون بالماسوكية التى تجعلهم يفضلون معاشرة المتشائمين وذلك حتى يثخنوهم بالجراح فيلتذون ويتمتعون .

ولكننا لسنا مخيرين فى انتقاء من نريد معاشرتهم ومن يتسنى لنا نبذهم أو مجانبتهم . فلقد يكون المتشائم شخصا من لُحْمتنا بحيث لا نستطيع قطع وشائج القرابة به أو البعد عنه فى المكان أو الإشاحة عنه بالوجدان . لقد يكون المتشائم أبا أو أما أو أخا أو أختا أو زوْجاً أو زوجة . وفى مثل هذه الحالات لا يكون السؤال متعلقا بابقاء العلاقة أو فصمها ، بل يكون متعلقا بما ينبغى ممارسته من سياسة بإزاء المتشائم وطريقة معاملته وما يتخذ منه من مواقف متباينة .

ولعل أو شىء يجب اتخاذه بإزاء المتشائمين الذين كتب علينا أن نتصل بهم والإبقاء على علاقاتنا بهم هو عدم إشعال جذوة التشاؤم لديهم وذلك بأن نحجب عنهم قدر الإمكان الأنباء المكدرة أو المشكلات الصعبة ، ثم إبلاغهم بالأنباء السارة وتبسيط ما يجابهم ويجابهنا من مشكلات . وبتعبير آخر فإن علينا أن نجعل باب الرجاء مفتوحا أمامهم وألا نغلقه وألا نبشر باغلاقه وألا نحملهم على ذلك .

والشىء الثانى الذى ينبغى علينا اتخاذه بإزاء هذه الفئة من الناس المتشائمين الذين لا نستطيع قطع الوشائج معهم هو محاولة البرهنة لهم على أن حالهم أفضل بكثير من أحوال غيرهم ، وأن ما أصابهم من شر أو سوء حظ لا يقدر بشىء إذا ما قورن بما أصاب الآخرين من أوصاب أو مصائب . ومثل هذا التخفيف يسير على ناحيتين : ناحية عقلية اقناعية ، وناحية ايحائية وجدانية . وليس هناك انفصال فى الواقع بين الناحيتين أو بين طريقتى التخفيف من شدة إحساس المتشائم بتشاؤميته .

والشىء الثالث هو الحيلولة بين رغبة المتشائم فى نشر تشاؤميته وبيننا . ذلك أن المتشائم يجد لديه بالطبع رغبة محتدمة لجعل الناس يحسون بما يحس به وأن ينهجوا نفس النهج الذى يتخذه فى الحياة . فإذا لم نحقق له ذلك وفوتنا عليه فرصة إشاعة التشاؤم فيمن يحيطون به ، فإننا نكون بذلك قد أصبنا اتجاهه النفسى فى الصميم . والمسألة هنا شبيهة بانتشار المرض من شخص مريض إلى غيره من أشخاص يحيطون به من الأسوياء . فأول ما يجب اتخاذه بإزاء المريض هو إقامة عازل بينه وبين الأسوياء أو تحصين الأسوياء بوسائل التحصين المتباينة ضد ذلك المرض . فكما أن ثمه ميلا فى حالة الأمراض المعدية إلى الانتشار من شخص لآخر ، كذا الحال بالنسبة

للتشاؤم فهو ينحو إلى الانتشار . فإذا ما عمدنا إلى تحصين أنفسنا ضد التشاؤم ، فإننا نكون بذلك قد نجحنا فى إقامة عازل بين النطاق المرضى وبين الرقعة التى يمكن أن ينتشر بها .

والشئ الرابع الذى يجب أن نتخذه قبالة المتشائمين الذين يرتبطون بنا برباط القربى أو برباط العمل هو محاولة حملهم على توجيه ميولهم التشاؤمية إلى واقع إيجابى يعبرون عنه ، وبذا تخف حدة ما يعتمل فى قلوبهم من تشاؤم . ولعل تلك الإيجابيات تتمثل أكثر ما تتمثل فى التعبير الأدبى والفنى . فالواقع أن الأديب أو الفنان المتشائم ، يجد فيما يدونه من أدب أو فيما يقوم بانتاجه من فن تنفيسا عما يضغط عليه نفسيا من تشاؤم . فإذا وجدت أحد أبنائك مثلا متشائما ، فعليك بحثّه على الاتجاه إلى الأدب أو الفن ينفس من خلالهما عما يحسه من ضغوط وجدانية انفعالية . فلا شك أن إخراج الانفعالات على الورق أو بالكلمة تقال أو النغمة تلحن أو تغنى أو الخامة تشكل لما يعمل على التخفيف من حدة التشاؤم .

والشيء الخامس الذى ينبغى أن نتخذه قبالة المتشائمين الذين تربطنا بهم علاقات لا يمكن الإنفكاك منها الحرص على عدم الاصطدام بين وجداننا ووجدانهم . فمثلا إذا كان المتشائم ينبو عن المرح ، فإن علينا ألا نقلب الجلسة التى يوجد بها إلى جلسة فكاهية ، خشيةوقوع التصادم بين وجدانه ووجداننا ، لأن ذلك التصادم يعمل بلاشك على زيادة احتدام احساسه بالتشاؤم ، بل إنه يعود علينا أيضا بالإنقباض وعدم الإرتياح .

وفى الحالات التى لا تكون ثمة رابطة إلزامية فيها مع المتشائمين ، فيكون علينا إذن أن نأخذ حذرنا منهم وألا نقع فريسة لتشاؤميتهم . فأنت كلما عرضت فكرة على أحد المتشائمين فإنه يعمد إلى البرهنة لك على أنها فكرة سخيفة أو غير مجدية أو ضارة بك وبغيرك مع أنها قد تكون فى الواقع فكرة جيدة ومفيدة ، بل لعلها تكون فكرة محورية فى حياتك ونقطة تحول فى مستقبلك . والواقع أن الأفكار التى ترد على أذهاننا ربما تكون أفكارا إلهامية بعيدة الأثر فى حياتنا إذا ما قمنا باحالتها إلى واقع . بيد أن المتشائم إذا ما قمت بعرض الأفكار الإلهامية التى ترد إلى خاطرك عليه ، فإنه

يسارع إلى الحط من قدرها وإلى اجهاضها والبرهنة لك بكل ماوسعه من جهد وبكل ما أوتى من طاقة على أنها أفكار عقيمة ليس من ورائها جدوى .

ومن وسائل التخفيف من حدة التشاؤم لدى المتشائمين اللامبالاة بإزاء ما يبدونه من آراء وما يفصحون عنه من اتجاهات . فعندما يجد المتشائم أن الآخرين لا يعيرون اهتماما بما يقوله وبما يرغب فى إشاعته فيهم من اتجاهات ، فإن نغمته التشاؤمية تأخذ فى الخفوت والاضمحلال .

وبالنسبة للعلاقات العامة كالمجالات الإعلامية ، فإنك تجد أن المتشائمين يعمدون إلى إطفاء كل أمل فى المستقبل ، بينما تجد المتفائلين يعمدون إلى إضفاء الأمل ما على ما سوف يحمله المستقبل من نجاح . والواجب على المسئولين عن الصحف والإذاعة والتلفزيون أن يحققوا نوعا من التوازن بين الإتجاهات التشاؤمية التى يشيعها المتشائمون بأقلامهم وكلامهم وبين الإتجاهات التفاؤلية ، وذلك بدعم الاتجاهات التفاؤلية بغير ما إسراف . ذلك أن التفاؤل على طول الخط ربما يعزف بنا عن الوقوف على الواقع والانخراط فى خيال أجوف ينتهى بنا إلى أكبر قدر من التشاؤم كرد فعل مضاد للمبالغة فى التفاؤل .

ومن الواجب علينا أن نميز بين الشخص المتشائم وبين الشخص الواقعى . ذلك أن الشخص الواقعى كثيرا ما تكون توقعاته غير مواتية لرغبات ومطامح الناس من حوله . فتجد أن الناس المحيطين به يستاءون من توقعاته القاتمة التى لا يضفى عليها بريقا ولمعانا وتفاؤلية مصطنعة . ولنأخذ مثالا لذلك بالعلماء الذين يقدمون إلينا احصاءات مستقبلية تنبؤية عن السكان أو عن الثروة النباتية والحيوانية وعما يمكن أن يقع من مجاعات بسبب التفجر السكانى المتزايد . لقد يختلط الأمر بأذهان الناس فيحكم بعضهم على مثل تلك التوقعات بأنها توقعات تنم على وجدان متشائم ، بينما يعمد البعض الآخر منهم إلى الحكم على تلك التوقعات بأنها توقعات علمية واقعية لا تعدو أن تكون استقراء للواقع المستقبلى القريب أو البعيد . فعلينا إذن أن نحكم على تلك التوقعات بحصافة فنفرق بين ما يصدر عن الوجدان وبين ما يصدر عن الفكر العلمى .

وعلينا أخيرا أن نعمد إلى تحسين حال المتشائمين اجتماعيا وماديا حتى يتسنى لنا أن نغير لون حياتهم وما تصطبغ به من صبغة تشاؤمية . فالفقير المتشائم إذا ما وجد الكفاف فإنه سوف يتحول إلى التفاؤل . وكذا الحال بالنسبة للمريض وصاحب المشكلات الاجتماعية المتباينة . ولعل للأوضاع العامة بالبلد الذى يقيم به المرء أكبر دخل فى الصبغة الوجدانية والعقلية التى تصطبغ بها حياته . فالمواصلات والتليفونات والتعليم والتموين وسائر المرافق العامة إذا ما تيسرت وصلح حالها ، فإن ذلك يكون أدعى إلى إيقاع الهزيمة بالتشاؤم والعمل على إشاعة التفاؤل ودعمه فى قلوب الناس ، بل إن عدد المتفائلين سوف يزداد كنتيجة لتحسن الأوضاع ، ومن ثم فإنهم يشكلون قوة تفاؤلية مناهضة للروح التشاومية التى تصطبغ بها حياة القلة من المتشائمين . ناهيك عما يأخذ به المجتمع نفسه من اتجاهات ديمواقراطية وما يستمسك به من مساواة بين المواطنين والأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص بينهم . فذلك كله يعمل على قهر التشاؤم ودعم التفاؤل فى قلوب واتجاهات المواطنين .

كتب للمؤلف

دار نهضة مصر بالفجالة :

١ – أسس الصحة الجنسية .
٢ – الثقة بالنفس .
٣ – الاسترخاء النفسى والعصبى .
٤ – المرأة والحرية .
٥ – مقدمة فى الأنثروبولوجيا .
٦ – لقد آن الأوان .
٧ – التفاؤل والتشاؤم .
٨ – التربية لمجتمع متحرر .
٩ – المشكلات النفسية .
١٠ – أعداؤك : كيف تنتصر عليهم ؟
١١ – رعاية الطفولة .
١٢ – فن الحياة .
١٣ – السحر والتنجيم .
١٤ – إرادة القوة .
١٥ – سيكلوجية الانتقام .

دار النهضة العربية :

١٦ – التربية المقارنة .
١٧ – الحرية والفكر .
١٨ – النوم الهادى .
١٩ – ذاكرتك : كيف تحافظ عليها ؟
٢٠ – كيف تذاكر دروسك ؟
٢١ – الطفولة المبكرة .
٢٢ – الخوف : كيف تتخلص منه ؟
٢٣ – تربية الذوق الفنى .
٢٤ – معتقدات وخرافات .

مكتبة غريب بالفجالة :

٢٥ – الشخصية القوية .
٢٦ – الشخصية المحبوبة .
٢٧ – الشباب والتوتر النفسى .
٢٨ – رعاية المراهقين .
٢٩ – العبقرية والجنون .
٣٠ – قوة الإرادة .
٣١ – رعاية الشيخوخة .
٣٢ – الحب والكراهية .
٣٣ – سيكلوجية الشك .
٣٤ – سيكلوجية الالهام .

دار المعرفة :

٣٥ – معنى الانسانيات .
٣٦ – إنه عالم واحد .

الهيئة العامة للكتاب :

٣٧ – تطوير الإنسان العربى .
٣٨ – المدرسة والتوجيه السياسى .
٣٩ – ميادين الحرية .
٤٠ – أجناس البشرية .
٤١ – الثقافة ومستقبل الشباب .

مكتبة الأنجلو المصرية .

٤٢ – الطفل الطبيعى .
٤٣ – المراهقة .
٤٤ – تربية الموهوب والمتخلف .
٤٥ – كيف تتعامل مع غيرك ؟
٤٦ – تخلص من التوتر النفسى .
٤٧ – اللذة والألم فى حياتنا .

٤٨ – السلوك وانحرافات الشخصية .
٤٩ – الإنسان التكنولوجى .
٥٠ – القوى الروحية فى المجتمع .

عالم الكتب :

٥١ – المدرسة الشاملة .
٥٢ – المدرسة اليابانية .
٥٣ – الأصول الثقافية للتربية .
٥٤ – فى فلسفة التربية .

مكتبة النهضة المصرية :

٥٥ – المجتمع .

الدار المصرية للطباعة والنشر :

٥٦ – الجنس والأسرة .
٥٧ – أزمة الذكور .
٥٨ – جنون الجنس .
٥٩ – المرأة والحياة التناسلية .

فى الطريق إليك :

٦٠ – عبقرية الفنان والأديب .
٦١ – الشخصية الناجحة .

فهرس

الصفحــة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مطبعة نهضة مصر